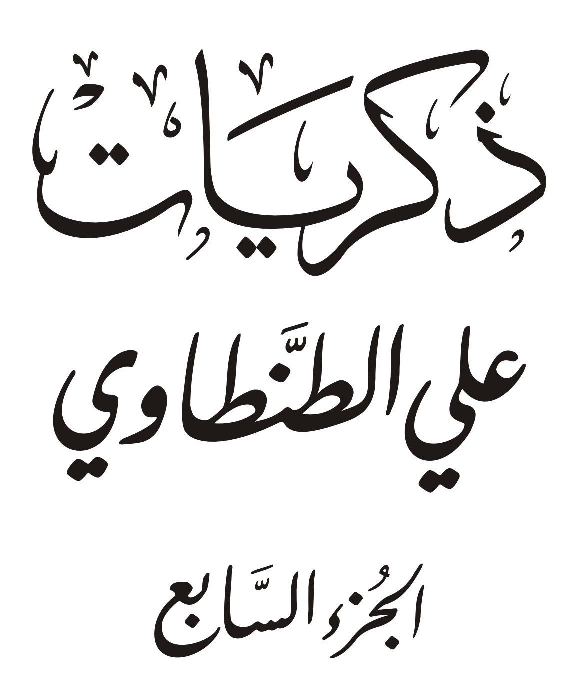
ذكريات

علي الطنطاوي

الجزء السابع





طبعة جديدة

راجعها وصححها وعلق عليها حفيد المؤلف

مجاهد مأمون ديرانية



الطبعة الخامسة
٢٠٠٦



ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨ المستودع ٦٦٧٥٨٦٤

-١٨٤-

افتتاح أسبوع التسلّح في دمشق
يوم ٢/٤/ ١٣٧٥هـ

مرّ على هذا اليوم ثلاثمئة وخمسة وسبعون شهراً، ولكنه ماثل أمام ناظري أراه الآن كما رأيته يوم كان؛ لا لأن لي ذاكرة قوية لا تنسى، بل لأنه كان يوماً عظيماً لا يُنسى. والذي ميّزه أمران: الأول أنه واحد من الأيام التي ظهر فيها الجوهر الثمين المكنون في صدور هذه الأمّة، أمّة محمد ﷺ. والثاني: أنه كان في عهد (قصير) من العهود القليلة التي كان فيها الشعب والحكومة يمشيان في طريق واحد إلى غاية واحدة، أو كانا -كما يقولون في هذه الأيام- في خندق واحد.

وبيان ذلك أنني (وقد أكملتُ من أيام التاسعة والسبعين من عمري)[١] لم أكَد أجد في بلدي إلاّ حكومات لا يراها أهل البلد منه، بل يعدّونها بعيدة عنه عدوّة له، متربّصة به تكيد له، من عهد الاتحاديّين الأتراك: جمال وأنور وطلعت ووزير المالية اليهودي دافيد الذي سمّى نفسه جاويد، وأصولهم من الدونمة من اليهود

(١) كتبت هذه الحلقة سنة ١٤٠٦هـ.

الذين أظهروا الإسلام. ثم جاء غورو وخلفاؤه من المفوّضين الفرنسيين الذين حكموا بلادنا وهم غرباء عنا، لا دينهم من ديننا ولا لسانهم من لساننا ولا نحن منهم ولا هم منا. ثم جاءت عهود بكينا في أكثرها منها، ثم بكينا بعدها عليها لمّا ابتُلينا بما هو أشدّ منها.

لم أشعر بأن الحكومة حكومتنا إلاّ في أيام معدودات، منها أيام الشريف فيصل بن الحسين في الشام (وإن كان لي وكان للإسلام في ثورة أبيه الحسين كلام)، ومنها هذا العهد مِن حُكم شكري بك القوتلي، العهد الذي كان فيه أسبوع التسلّح. وأنا هنا أمثّل ولا أستقصي.

والثانية: أني كتبت من قديم أقول (ولست أحفظ الألفاظ ولكن أسوق المعاني): إن لكل أمة يوماً تنشط فيه روحها وتظهر فيه شمائلها وتبدو عظمتها، ولكن هذا اليوم يستفرغ طاقتها ويستنفد ذخيرتها، فلا ترى بعده مثله: مقدونيا لمّا قادها الإسكندر المقدوني، القائد العظيم الذي يُخطئ ناسٌ فيحسبونه ذا القرنين الذي شرّفه فذكره القرآن. الإسكندر الذي مشى بجيشه إلى أقصى الشرق فاتحاً، وامتدّ ظلّ رايته على هذا الركن من الدنيا قروناً، ثم لم يُذكَر اسم مقدونيا في تاريخ المعالي والأمجاد بعده كما لم يُذكَر قبله.

وكذلك اليونان، ملكت يوماً زمام الفكر البشري ثم فقدته ولم تمسكه مرة أخرى. حتى روما التي أقامت مُلكاً قلّ ما يسامقه من الممالك، لم يعُد لها مثل ذلك الملك ولم يعُد يظهر فيها أولئك القُوّاد العظام: يوليوس وأوغسطوس. وعدوّة روما التي

نازلتها وكانت يوماً قريعتها وأوشكت أن تظفر بها، وما هي إلاّ مستعمَرة فينيقية صغيرة قادها القائد البطل «هاني بعل» فجعلها تنازل روما، هي قرطاجة التي تقع اليوم في أرض تونس، برق لها بارق مجد ثم اختفى. ونابليون وهتلر، ومن قبلهما شارلمان وشارلكان، ومن بعدهما الإمبراطورية النمساوية، وبريطانيا العظمى التي لم تعُد عظمى والتي غابت عنها الشمس وما كانت تغيب من قبلُ عن أملاكها، وما ترون الآن من سلطان الروس والأمريكان...

لكلّ أمّة يوم تنهض فيه، تكون قبله نائمة وترجع بعده إلى المنام، إلاّ أمّة محمد ﷺ؛ فإن البطولة سجيّة فيها، تجري في عروقها، تخالط روحها، فكلما أدركها ليلٌ وظنّ الناس أنها قد انتهت أرجعها صفاءُ الليل إلى نفسها فحاسبَتها، وسدّت الثلمات في قلعتها، وجدّدَت من عتادها، وأصلحت ما بينها وبين ربها، فطلع عليها بعد الليل فجرُ نهار جديد.

وهذا الذي ورد من أن الله يبعث لهذه الأمة كلما طال عليها الأمد وقسَت منها القلوب مَن يجدّد لها دينها، لا يأتيها بدين جديد فإن محمداً ﷺ خاتم الرسل ودينه آخر الأديان، ولكن يُزيل عنه ما علق به من البدع والأدران، فيعود جديداً كما يعود الثوب الوسخ إن مسّته يد الغسّال ومشت عليه كف الكوّاء.

* * *

أعود الآن لأصل ما قطعتُ في الحلقة الماضية، ولن أروي لكم خطبتي كلها بل أنقل فقرات أخرى منها. حدّثتكم حديث

الطفل الذي هَدَته فطرته إلى التفكير في توفير الفلوس القليلة التي تقع في يده ليشتري بها سكّيناً ينتقم به لأبيه[1]. فهل هدتنا عقولنا إلى شراء السلاح لنثأر به للوطن المسلوب، والعرض المستباح، والدم المُهراق؟

لقد كنت أرانا نتلقّى بوجوهنا ضربات اليهود فلا نملك إلاّ أن نذهب إلى مجلس الأمن، كما يذهب الولد المدلَّل الناعم إلى المعلّم يقول: أستاذ هذا ضربني! ويكون المعلم مشغولاً عنه فيصرفه بحركة من يده ويقول له: اذهب أنا سأؤدبّه، وهوى المعلم مع الضارب لا مع المضروب.

نحن العرب، نحن المسلمين، نحن أبناءَ مَن فتح الدنيا، نحن سلائل الأبطال الأماجيد، يكون أقصى جهدنا أن نشكو إلى مجلس الأمن: يا مجلس الأمن أدركنا، إن اليهود اعتدوا علينا؟! ويبحث مجلس الأمن ويناقش، ثم إذا أدرنا ظهورنا وانصرفنا مدّوا ألسنتهم لنا ساخرين بنا.

كنت أحني رأسي حياء وأفتّش عن قبر أواري فيه وجهي، ثم أرتدّ حياء من رُفات الجدود أن تطّلع عليّ من جوانب القبر. وكنت أتحرّق وأقول: متى نذكر رجولتنا؟ متى نستعدّ للمعركة الحمراء بالحديد والنار؟ متى نُثبِت للدنيا أننا لا نزال أبناء المعامع وفرسان الحروب؟ متى نقف على أرجلنا ونعتمد بعد الله على أنفسنا، ونعلم أنه لا ينفعنا إلا السلاح؟

---

(١) السكّين لفظة تؤنَّث وتُذكَّر.

لقد كنت أخاف أن أموت قبل أن أرى ذلك اليوم، فالحمد لله لقد رأيته. هذا اليوم السعيد، هذا العيد المجيد، عيد يقظة العرب.

اليوم استيقظ العرب حقاً وفارقت عيونَهم آخرُ بقية للنعاس، وإذا استيقظ العرب فقط استيقظ المسلمون. اليوم كتبنا السطر الأول من تاريخ أمجادنا الحديث. اليوم استبشر الكبير والصغير، والغني والفقير، والمالك والأجير، وأجمعت الأمة كلها برجالها ونسائها على تأييد أسبوع التسلّح.

إن في المصائب ما هو أكبر من مصيبتنا في فلسطين، وإن كان حديث مصيبتنا في فلسطين أشدّ صحائف تاريخ العدوان البشري سواداً. هل تعرفون ما هو؟ هو أن تجهلوا أقداركم وتحقروا نفوسكم، وألاّ تعرفوا تحت الشمس مكانكم.

* * *

والخطبة طويلة لا أريد أن أُعيد الآن روايتها، لكن أريد أن أذكر لكم شيئاً من أثرها. لقد كتبتُ عنه مقالة هي الآن أمامي قلت فيها[1]:

أما والله لولا أنني أصف مشاهد لم يمرّ عليها أسبوع، ولا تزال في عيون الناس وأسماعهم، ولا يزال حديثها على ألسنتهم، ولا تزال روعتها في قلوبهم، لحسبوا أني أتخيّل ولقال القائلون

(١) وهي مقالة «شعب لن يموت» المنشورة في كتاب «هتاف المجد» (مجاهد).

منهم: نحن نستحبّ صور الخيال ولكن إن بلغَت في الغلو هذا المبلغ صارت من المُحال. ولو رُويَت لي ولم أكن رأيتها بعينَي رأسي لم أصدقها ولو كان راويها أصدق الناس!

لقد كنا في حفلة الافتتاح كالمساجين، لا نملك خروجاً من المدرَّج لأن الأبواب كلها قد سدّتها أجساد الناس، والطرق المُفضية إليها قد سدّتها أجساد الناس، كنا محبوسين من رئيس الجمهورية والعلماء والرؤساء والوزراء إلى آخر من كان حاضراً معنا فيها، وامتدّت الحفلة خمس ساعات متتاليات والناس يقاتلون ليدخلوا إليها.

كنت أعلم وأنا أخطب في بداية الحفلة أن هذا الشعب سيستجيب وأنه سيلبّي وأنه سيُقبِل على البذل والعطاء، ولكني كنت أقلّب النظر في وجوه الحاضرين فلا أرى من أهل المال إلاّ عشرين أو ثلاثين، فكان أقصى أملي أن يُعطي هؤلاء وحدهم ثم ينتهي الفصل ويُرخى الستار. فلم تكَد تنتهي الخطب ويبدأ العشرة الكبار من رجال المال بالتبرّع، وتُذكر عشرات الآلاف، بل تُذكر مئة الألف أحياناً، ويترقّب الناس أمثال هذه الأرقام الكبار، حتى كانت مفاجأة ما كان يتوقّعها أحد وما استطاع أن ينجو من دهشتها أحد: رجل عامّي يبدو عليه الفقر، يقوم من غمار الناس ليصل إلى لجنة الجمع، فيمنعه الشرطة فلا يمتنع، بل يغامر ويتقدم حتى رآه الرئيس فأشار إليهم أن يتركوه، فتركوه فوصل، فإذا هو يُقسِم أن بنته مريضة في الدار وأنه لا يملك إلا الليرات الخمس التي استقرضها ليشتري بها لبنته الدواء، فلما رأى الاجتماع دخل ومدّ يده به ليتبرّع بها ليوم التسلّح.

ففتح بذلك الباب لهذه المكرمات التي زادت هذا الوطن شرفاً إلى شرفه، ورفعته في عيون أهله وعيون الناس فوق رفعته. وجاء جندي من جنود الدرك (الشرطة) مرتَّبه مئة وخمسون ليرة في الشهر كله، فوقف أمام الرئيس وضرب قدماً بقدم، وسلّم السلام العسكري، ثم قدم مئة ليرة. ويأتي طفل صغير بمطمورته التي يجمع فيها قروشه فيقدّمها كلها متبرّعاً بها! وأنا قاعد على المنصّة أرى هذا كله بعيني، ويتزاحم الناس على منصّة اللجنة ويتدافعون، والرابح من استطاع أن يصل إليها وأن يُعطي ما بيده، كأنه يحمل جمرة يريد أن يُسرِع بالتخلّص منها. وتتوالى مشاهد لم يرَ الناس ولم يسمعوا، ولم يقرؤوا في كتب التاريخ ما يماثلها أو يدانيها.

ولا أسجّل هذه المشاهد كلها. وأنّى؟ وليست عشراً ولا عشرين ولكنها بلغت المئات.

صدّقوني فإنني أكتب لكم بقلم المُخبِر الصادق لا بقلم الشاعر المبالغ. إنها مشاهد هؤلاء الذين لم يمنعهم المطر المنهمر في تلك الليلة كأفواه القِرَب، ولم تمنعهم الريح الباردة التي كانت تلسع الوجوه بأمثال السياط، من أن يزدحموا على الباب يبتغون الوصول. وقد حسبهم الشرطة قد جاؤوا للتفرّج فجعلوا يدفعونهم، لم يدروا (ولم يكن أحد ليدري) أنهم ما خرجوا من بيوتهم في هذا الليل البارد ولا وقفوا على الباب تحت المطر المنهمر ولا زاحموا إلاّ ليعطوا ويبذلوا.

لقد كان هذا الأسبوع امتحاناً لهذا الشعب وسلائقه واستعداده

للتضحية والجهاد، فنجح كما ينجح -لو كان في مكانه- كل شعب عربي مسلم. نجح فقراؤه وأوساطه نجاحاً مُفرَداً ليس له نظير. لقد ضربوا -كما يقول الرياضيون- كل رقم قياسي وسبقوا كل سابق، حتى كان منهم من فعل مثل فعل الصحابة الأوّلين. نجح فقراؤه وأوساطه، أما الأغنياء فقد سقط أكثرهم في هذا الامتحان.

وهل يتصوّر إنسان أن يكون في روائع البذل والكرم أعجب مِن صُنع هذا الحمّال العجوز، الذي كدح حياته كلها يحمل الأثقال على ظهره والهموم في قلبه حتى جمع عشرة آلاف ليرة، جمعها في ستّين سنة فجاء يبذلها كلها للتسلّح.

صدقوني فإنني أدوّن وقائع لا أضرب في متاهات الخيال. لقد بذل راضياً في لحظة واحدة ثمرة تعب ستّين سنة.

وهاتان العجوزان اللتان لا تملكان من الدنيا إلاّ الدار التي تسكنان فيها، فلما سمعتا بالدعوة إلى البذل للتسلّح جاءتا بسند التمليك. بسند التمليك يا ناس! تبرّعتا بالدار التي لا تملكان غيرها.

أرجو أن تقفوا قليلاً لتتصوّروا مبلغ هذه التضحية. إنكم تعرفون أن النساء في العادة أكثر إمساكاً وأقبض يداً من الرجال، فإن كُنّ عجائز (والعفو من سيداتي القارئات العجائز) ازداد إمساكهن وحرصهن. وجرّب -إن شئتَ الدليل- أن تُقنع عجوزاً غنية أن تنزل لك عن مئة ليرة. إنك تجد صعوبة في إقناعها وربما عجزت عنه، فكيف جادت هاتان المرأتان بكل شيء؟ أيّ حماسة بالغة دفعَتهما إليه؟ إنه الإيمان يا سادة. إنهما ما بذلتا الدار،

ولا بذل الحمّال ثمرة جهد العمر، ولا أعطى كل من أعطى إلاّ ابتغاء ثواب الله. إنها لغة الدين، فإن خاطبتم المسلمين بغيرها لم يفهموا عنكم ولم تصلوا إلى ما تريدون منهم.

والعشرات من الفتيات. العشرات؟ بل المئات والله، اللواتي نزعن أساورهن من أيديهن وأقراطَهنّ من آذانهن وجُدْنَ بها.

ولقد رأيت بعيني ورأى أعضاء اللجنة بعض هذه المشاهد من الحاضرات في المدرَّج. وأنتم تعلمون أن المرأة قد تقطع الخبز عن فمها لتجعل الذهب في يدها، فكيف جادت به وبذلت راضية؟ إنها جادت به لتأخذه أضعافاً مضاعفة: سبعمئة ضعف، وربما زاد ما أخذت عن السبعمئة: ﴿كَمَثَلِ حَبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابلَ، في كلِّ سُنْبُلةٍ مئةُ حبّةٍ، واللهُ يُضاعفُ لِمَنْ يشاءُ﴾. وهذه الفلسطينية التي جاءت يومئذ لاجئة لم تجد ما تجود به، فحملت قِدرها التي تطبخ بها وثلاثة أثواب لها وثلاثين ليرة لا تملك غيرها، ووضعت ذلك بين أيدي لجنة التبرّع.

وليست في ذلك وحدها؛ لقد أعطى كثيرون كل ما يملكون. هذا بائع النفط مرّ «الكشّافون» الذين يجمعون التبرّعات على عربته التي تجرّها دابّته، يبيع منها ليعشّي أهله وأولاده، فسألوه التبرّع، فأخرج درجه وفيه حصيلة يومه كله وصبّه بين أيديهم. لا تحسبوها خيالات شاعر ولا صناعة روائي أديب، إنها والله حقائق رأيت شيئاً منها ورأى المئاتُ سائرَها. أعطاهم كل ما كان في الدرج، كل ما كان يملك في الدنيا من مال. وهل لهذا البيّاع من مال إلاّ ما يجمع في يومه؟

والموسيقيّ الفقير الذي لم يكن يملك من دنياه إلا قيثارته، يناجيها ويسارّها ويُلقي بصدره على صدرها يبثّها شكوى نفسه ويُفرِغ فيها أحزان فؤاده. جاء بها فوضعها على المنصّة (وأنا أرى) ومشى. وأحسستُ -من غير أن أكلّمه- أنه مشى كما يمشي المُحبّ الذي ينصرف من جنازة حبيبته بعدما واراها التراب! وبطل الدرّاجات الذي جاء بدرّاجته وهي له كالآلة للموسيقيّ، هي خليلته ونجيّته وشقيقة روحه، فتنازل عنها لأسبوع التسلّح.

وهذا المثل الرائع -في إنكار النفس والإخلاص لله وابتغاء ثوابه وحده- مَثَل ضربه تاجرٌ من دمشق، تبرّع بخمسين ألف ليرة وحلّف اللجنة الأَيْمان الغِلاظ ألاّ تبوح باسمه (فما باحت باسمه، وإن كنتُ عرفته من ذلك اليوم وامتثلت لرغبته فلم أذكره لأحد، أمّا الآن وقد مضى على الحادثة ثلاثون سنة يجوز فيها إعلان الأسرار وكشف المخبّآت -كما تصنع الآن بريطانيا بوثائقها- الآن أستطيع أن أبوح باسمه رحمة الله عليه؛ إنه الحاجّ مسلم دياب). تصوّروا هذا الرجل يسمع الثناء على هذا المتبرّع المجهول فيملك نفسه، لا تحرّكه الأثرة حتى يقول: أنا ذلك المجهول. ويجد آخرين ينتحلون هذه المزيّة لأنفسهم أو لأصحابهم فيُعلنون أن هذا المجهول هو فلان أو فلان، لناس ما دفعوا شيئاً، وهو الذي دفع خمسين ألفاً (كانت في تلك الأيام أكثر من خمسة ملايين في أيامنا)، كان يسمع ويسكت ولا يقول شيئاً، ويلقى من يلومه على أنه لم يُعطِ عطاء الكرام فلا يقول لهم: لقد أعطيت وأنا صاحب تلكم الخمسين.

(رحمة الله عليك يا أيها الحاجّ مسلم دياب، وما أكثر في

عامّة هذه الأمة من لا يعرفه أحد من أمثالك وأشباهك).

ماذا أصف وماذا أعدّد، وهذه المواقف قد جلّت عن الحصر؟

هذا مشهد ما أظنّ أن في المشاهد ما هو أروع منه: رجل ضرير شحّاد جاء هو وابنه الطفل المشلول يتلمّس طريقه، يُرشِده هذا الولد المسكين الذي كان يجمع نفسه ثم يقفز على ساقَين نحيلتين مقوَّستين تحسبهما عَصَوَين (مثنّى عصا)، حتى إذا بلغ المنصّة وضع عليها سبع ليرات.

سبع ليرات فقط، ولكنها أعظم بسبع مرات، بسبعين مرة، من كل ما دفع الأغنياء وما أعطت المصارف والشركات. سبع ليرات هي طعامه ولباسه ودواؤه، هي حياته وحياة ولده جاد بها. لقد كانت جماهير الناس كلما شاهدت واحدة من هذه الروائع صفّقَت وهتفت حتى تحمرّ الأكُفّ من التصفيق وتُبَحّ الأصوات من الهتاف، ولكنها صمتت حيال هذا المشهد. صمتت حتى ليُسمَع في المكان الرحيب وَجيبُ القلوب، صمتت لأن الصمت هنا أدلّ على الإعجاب من كل هتاف.

وهذه أرملة لم يبقَ لها من زوجها الضابط في الجيش العثماني إلاّ سيفه العسكريّ، فلما كان أسبوع التسلّح جاءت به، فقطعت آخر ذكرى تربطها بمواضي أيامها، بعهد العزّ والغنى إذ الشمل مجتمع والدهر بسّام والعيش رغيد، وولّت مُدبرة تستقبل وحدها ليالي الفقر السوداء.

وهؤلاء المرضى الذين جاؤوا من أسرّتهم في مستشفى

الجامعة إلى القاعة القريبة التي فيها الاجتماع وفيها منصة التبرّع، يحملون ما وصلت إليه أيديهم من مال أو متاع، لم تشغلهم أوجاعهم عن تلبية داعي الله لمّا دعاهم إلى الجهاد بالمال.

ومرضى مستشفى ابن النفيس (مستشفى السلّ) الذين تبرّعوا بثمن البيض مدة أسبوع التسلّح، ولم يستطع الطبيب أن يُقنِعهم بالاكتفاء بيوم واحد إلاّ بجفاف الريق وشقّ النفس. وأنتم تعرفون أن البيض هو حياة أولئك المسلولين شفاهم الله، هو حياتهم وقد جادوا بها. لا، لا أستطيع أن أعلّق على هذا الخبر. إني قد عجزت، وأنا مُقِرّ بعجزي، ولن أدّعي بعد اليوم أنني من فرسان الكلام وأنني من أرباب الأقلام.

لقد تكوّمَت على المنصة أكوام من ساعات اليد ومن الأقلام ومن الأساور، ولقد قُدّمت مئات من آلات التصوير والرّوَادّ (جمع رادّ أي راديو) والدرّاجات والمسدسات والأحذية وأنواع الثياب وكل ما في البيوت من غالٍ ورخيص حتى ملأت كل فراغ على المنصّة وحولها. لقد خلع كثيرون من الشباب أرديتهم لأنهم لم يجدوا ما يُعطونه غيرها وخرجوا يستقبلون برد الليل. وكان شيء لا يوصف، وإن وُصف لا يكاد يُصدَّق.

ومن أعجب ما رأينا في هذا الأسبوع (وكل ما رأينا عجب) ما صنع السجناء. نزلاء السجون لم تحُلْ الأسوار ولا الأبواب بينهم وبين المشاركة في هذا الواجب، ولم تدفعهم كراهة الجند الذين يسدّون عليهم منافذ الحرية من أن يُعطوا ما عندهم لمساعدة الجند على التسلّح. وماذا ترونهم أعطوا؟ أعطوا -والله- لُحُفهَم

وأرديتهم لأنهم لا يملكون غيرها وناموا على أرض السجن بلا غطاء. اللهمّ إن هذا شيء يكبر عن التعليق. وما هم وحدهم، لقد قُدّمت مئات من الفُرُش واللحُف ومن ثياب العرس ومن خواتم الزواج.

وطالت حفلة الافتتاح ساعات، وكان المذياع يحمل إلى البيوت كل ما كان فيها من أصوات، وسرَت الحماسة من هذا البهو إلى أطراف دمشق كلها، فجفا الرجالُ والنساء والأطفال بيوتَهم في هذه الليلة الشاتية العاصفة وتسابقوا إلى منصة التبرّع، وسرت إلى البلاد البعيدة، فتعاقبَت الهواتف من مَرْجِعْيون ومن حلب تُؤذِن بتبرّع مَن فيها.

وأنا أحلف أن لو كان يُوزَّع عند هذه المنصّة المال يُعطى جزافاً لما كان الناسُ أسرعَ إليها وأزحمَ عليها ممّا كان في تلك الليلة. وكان يُسمع من المذياع صوت أعضاء اللجنة يرجون الناس أن ينتظروا دورهم ولا يتزاحموا فلا يستجيب أحد ولا ينتظر، فلما طالت صاح عريف الحفلة يرجو راحة خمس دقائق، خمس دقائق فقط ليستريح فيها أعضاء اللجنة من تعب الأخذ، لا ليستريح الناس من تعب البذل فما تعب من البذل أحد. ورُفض الرجاء وتتابعت التبرّعات، فهل سمع أحد بمثل هذا؟

أنا أعرَف الناس بطيب عنصر هذا الشعب، وأنا الذي يكتب من أكثر من ربع قرن (المقالة مكتوبة سنة ١٩٥٥) أمجّد سلائقه ومزاياه، وأنا الذي جعل هذا موضوع خطبته في حفلة افتتاح الأسبوع، ومع ذلك دُهشتُ. دُهشت واللهِ ممّا رأيت. فكيف كان

هذا كله؟ كيف اندفع الناس إليه وما كانت الدعاية لهذا الأسبوع كافية؟ لا والله ولا كان ترهيب ولا إكراه، ولو كان إكراه لكان على الأغنياء الذين قصّروا، وقصّروا، وقصّروا... أعيدها ثلاثاً للتوكيد.

ما كان هذا بفعل بشر ولكنه بدافع إلهيّ.

وأعجب الحوادث كلها (وما أدري أيها أعجب) أن غنياً معروفاً ضنّ إلاّ بالقليل، فقدم ثلاثة آلاف وهو يقدر أن يدفع ثلاثة ملايين، فقام موظف صغير من بين الناس فذهب إلى اللجنة وقال: إن مرتّبي في الشهر مئتان وخمسون ليرة فقط، وهاكم تنازلاً عنه لمدّة سنة، أتنازل عن ثلاثة آلاف هي موردي في العام كله أصبر عنها أنا وأهلي ولو عشنا على الخبز القفار، بشرط أن تردّوا على هذا الغني آلافه الثلاثة وأن ترموا بها في وجهه!

❊ ❊ ❊

بيدي الآن قطعة من جريدة قد اصفرّت من القِدَم، أحسبها جريدة «الأيام»، على وجهها قطعة من خطبتي وعلى قفاها بيان من لجنة الأسبوع (وأظن أنه كان من أعضائها الصديق الأستاذ نصوح بابيل) فيه أن حصيلة حفلة الافتتاح مليون وسبعمئة ألف وستمئة وثلاثون ليرة، عدا الحليّ والساعات وأسناد التمليك ومختلف المتاع.

يا سقى الله الشام وتلك الأيام!

❊ ❊ ❊

-١٨٥-

من أخبار العلم والعلماء في دمشق قبل نصف قرن

أنا أغبط (ولا أحسد، فما الحسد من شأني)، أغبط الذين يرجعون في ذكرياتهم إلى مذكّرات مكتوبة (كما يفعل الأستاذ أكرم زعيتر، ويشير إلى ذلك في بعض مقالاته) أو إلى صحف مطبوعة (كما يفعل الأستاذ نصوح بابيل، إذ يرجع إلى جريدته ومجموعتها تحت يده)، وأتمنى لو كنت مثلهم ولم أُضطرّ إلى الاعتماد على الذاكرة وحدها. ولو رجعتُ إليها أيام قوّتها وحِدّتها لأسعفتني وما خذلتني، ولكن جئتها بعدما شابت وشاخت وكلّت وعجزت، كما كَلّ صاحبُها وعجز:

جاءَ الزّمانَ بنوهُ في شَبيبتِهِ   فَسَرَّهُمْ وأتيناهُ على الكِبَرِ

من أجل هذا أفرح إن وجدت بطاقة أو كتاباً رسمياً أو قيداً لحادثة يفتح عليّ باباً للذكريات التي أُغلقت في وجهي أبوابُها وانقطعت في يدي أسبابها، وليس حولي مَن يُعينني عليها ويذكّرني بها. وقد وجدت اليوم كتابين كنت ربطتهما معاً، أنقلهما بما فيهما من عبارات، لا تؤاخذوني إن كان فيها ما يُشبِه المدح لي.

الأول: "دار العلوم في بغداد رقم ٤٨٨، حضرة الأستاذ علي الطنطاوي مدرس تاريخ الأدب في دار العلوم. يُرجى تشريفكم دار العلوم مساء الأحد ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣٧ (٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٥٥هـ) في الساعة الرابعة والنصف زوالي، لحضور مجلس المدرسين الذي سينعقد للنظر في لائحة النظام. الإمضاء: فهمي المدرس، مدير دار العلوم". والكتاب مكتوب بخطّ الأستاذ الكبير فهمي المدرس رحمه الله، وهو خطّ رقعيّ جميل. وكان يكتب رسائله كلها بخطه لا يُحيلها على الطابعة لتطبعها.

والكتاب الثاني: "الكلية الشرعية الإسلامية بدمشق، رقم ٨/٣٧، لفضيلة الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي. قرّرَت عمدة الكلية الشرعية إسناد درس الثقافة للصفّين الخامس والسادس لعهدتكم، فأرجو تشريفكم للكلية الشرعية يوم السبت الآتي الواقع ١ ربيع الثاني سنة ١٣٦٣هـ (٢٥ آذار سنة ١٩٤٤م) للمذاكرة مع حضرتكم لتعيين الوقت، ودمتم باحترام. الإمضاء: مدير الكلية الشرعية محمد حسن الشطي".

ولست أتكلم عن الكتاب الأول فقد سبق ذكره عندما سردتُ ذكرياتي في بغداد، لكنني أقف عند الكتاب الثاني الذي أجعله مدخلاً إلى حلقة اليوم. لقد فتح عليّ باباً لا أستطيع أن أدخله حتى أجوز دهليزاً طويلاً جداً، فسيروا معي فيه، ولا تقولوا خرجتَ عن الموضوع فكلها ذكريات، وفي كل ذكرى صورة من الماضي، وفي بعضها صفحة لم تُكتَب من التاريخ.

* * *

كنا وأنا صغير نسكن في دار ما فيها إلاّ غرفتان علويتان تحتهما مجلس، وساحة صغيرة ليست كصحون الدور الكبيرة التي يغطّي أرضَها المرمرُ ويزيّن جدرانَها الرخامُ تعرش عليه الدوالي وأغصان الياسمين في وسطه البِركة يفور ماؤها... لم يكن في دارنا شيء من ذلك، بل كانت داراً صغيرة من دور الفقراء هي من أوقاف جامع التوبة. سكنّاها ثلاثين سنة، وسكنها بعدنا لمّا انتقلنا منها الشيخ الكافي التونسي ثلاثين أخرى. كنت كلما نزلت صباحاً من الغرفة وجدت في مجلس أبي جماعة من المشايخ يحفّون به في أيديهم الكتب؛ يشرح هو ويستمعون هم. أذكر منهم الشيخ الفقيه الحنفي والقارئ المجوّد الشيخ عبد الوهاب الملقّب «دبس وزيت»، والشيخ الفقيه عبد الرزاق الحَفّار، وأخاه الأكبر الشيخ محمود الحفار، والشيخ محمود العَقّاد، والشيخ الداعية هاشم الخطيب، وأخاه الشيخ عبد الرحمن خطيب جامع بني أميّة، وإخواناً لهم ذهبوا كلهم إلى رحمة الله ولم يبقَ منهم إلاّ رجل في المدينة المنورة هتف بي من قريب ولم يُكتب لي لقاؤه، هو الشيخ عبد الحكيم عثمان، وأحسب أنه صاحب فندق في المدينة المنورة.

أقول إنني كلما صحوت وجدتهم، فأبكّر فأجدهم مهما بكرتُ حاضرين، لا أدري متى يجتمعون. فكنت أقول لنفسي: لعلّهم ينامون عندنا، يأتون بعد أن آوي إلى الفراش ويُمضون الليل كله، فإذا صحوت وجدتهم مجتمعين.

كانوا يقرؤون عليه هذا الدرس في الصباح، ثم يذهب طائفة منهم معه إلى جامع التوبة ويأتي آخرون ينضمّون إليهم، فيكون لهم درس آخر. ولست أحقّق الآن موضوع ذلك الدرس

لأنني كنت أذهب إلى مدرستي فلا أحضره. وكان له درس آخر في جامع التوبة بين العشاءين يبدأ بعد صلاة المغرب وينتهي قبل صلاة العشاء.

ولم يكن ذلك شأن أبي وحده، فلقد عرفتُ -بعدُ- أن جملة من العلماء كانت لهم في منازلهم وفي مساجدهم مثل هذه الدروس. كانت مدارس، لكن ليس لمدرسيها رواتب يقبضونها ولا على طلابها أجور يدفعونها. منهم جارنا الشيخ أبو الخير الميداني، وهو شيخي ورفيق أبي في الطلب وزميله في القراءة على الشيخ سليم المسوتي (الألباني). وعندي للشيخ أبي الخير الميداني ولبعض مَن سأذكر في هذه الحلقة ذكريات تملأ حلقة أو حلقتين عن كل واحد منهم، ومنهم مَن أستطيع أن أُملي في سيرته وفي أخباره مما هو عالق بذهني ومرويّ عن الثقات الصادقين ما يملأ أربع صفحات إلى أربعين، ولعلّي -إن قدّر الله- أعود إليها فأكتبها أو أكتب بعضها.

ولمّا مات أبي ونزلنا من الصالحية على سفح قاسيون وعدنا إلى حارتنا هذه الأولى، قرأت على الشيخ الميداني الكتب التي كانوا يقرؤونها في النحو، وهي شرح الشيخ خالد الأزهري، والقَطْر، والشُّذور، وشرح ابن عقيل. أمضينا فيها سنوات طوالاً، وكانت للشيخ أبي الخير الميداني طريقة في تدريس النحو يُفهم بها الغبي ويُنطق العيِيّ، أحسب أني أشرتُ إليها.

ومن عيوبي في هذه الذكريات أنني أكتب الحلقة وليس أمامي صورة مما كتبت قبلها، لأن أوراقي مشوّشة مختلطة، فإن قمت أفتّش فيها حتى أصل سلسلة الكلام انقطعَت -كما يقولون-

سلسلة الأفكار ونضب مني مَعين القول، ونسيت ما أعددت في ذهني. حتى إن القلم لينكسر في يدي (وأنا في العادة أكتب بقلم الرصاص) فإذا ذهبت أبريه أو أطلب قلماً غيره طار ما كان في رأسي!

وممن كانت لهم دروس من جيراننا (وما كان أكثر العلماء والمدرسين في حارتنا!) الشيخ محمود ياسين رحمه الله ورحمهم جميعاً، وفي الطبعة التي ستصدرها قريباً دار المنارة في جدة من كتابي «رجال من التاريخ» كلام عنه. ومنهم شيخنا مفتي الشام وأستاذنا في كلية الحقوق، الطبيب المتخرج في كلية الطبّ، حمل شهادتها وتعلّم الفرنسية من أجلها على كبر، وهو شيخنا الشيخ أبو اليسر عابدين، الذي كان أبوه من قبله الشيخ أبو الخير عابدين مفتي الشام، وكان أبي أمينَ الفتوى (أو من أمناء الفتوى) عنده، وهو الذي أشرف على طبع «رسائل ابن عابدين»، وأحسب أنه كان عمَّ أبيه.

ولقد ظهر في هذه القرون الثلاثة علماء لا يُحصيهم العدّ، ألّفوا مؤلّفات لا يُحيط بها الحصر، ولم يكن في هؤلاء جميعاً -على أغلب الظنّ- من هو أوثق في الفقه وأنفذ فيه فكراً من ابن عابدين، الذي كتب الله لمؤلّفاته أن تكون أكثر الكتب ذيوعاً وأعمّها نفعاً، وأن تكون حاشيته المشهورة عمدةَ المُفتين في المذهب الحنفي من أكثر من مئة سنة، لا يضارعها في تحقيق مسائلها وفي إقبال الناس عليها كتابٌ من كتب الفقهاء المتأخرين في المذهب الحنفي، على بعض العُجمة في أسلوبها وبُعده عن الأسلوب العربي النيّر الذي تجدون مثاله في كتاب «المبسوط»

للسَّرَخْسِيّ الحنفي أو في كتاب «الأم» للإمام الشافعي.

كان الشيخ أبو اليسر فقيهاً حنفياً متمكناً وكان نموذجاً كاملاً لعلماء القرن الماضي. وإن قلت «علماء القرن الماضي» عنيت أنهم في الغالب علماء رواية، يعرفون ما في الكتب فإن سألْتَهم عن مسألة فيها دلّوك عليها لأنهم قتلوها بحثاً، وقد سمعتُ منه أنه قرأ الحاشية وأقرأها أكثر من ثلاثين مرة. والحاشية في خمس مجلّدات كبيرة (جمع مجلّدة). ووجدت مصداق ذلك لمّا كنت مستشاراً في محكمة النقض في سوريا ثم محكمة القاهرة أيام الوحدة؛ كنا في الجلسات التي تعقدها المحكمة في دمشق تعرض لنا مسألة فقهية، فأستأذن الرئيس بأن أهتف بالشيخ أبي اليسر، وكان مفتي الشام، فإذا سألته عنها أجابني فوراً ودلّني على المرجع، أو استمهل مدة لم تكن تزيد أبداً عن ربع ساعة ودلّنا على الكتاب الذي نجدها فيه. فكان الرئيس والمستشارون يُدهَشون من ذلك ويُكبِرونه.

وكان للشيخ أبي اليسر مكتبة من نوادر المكتبات الخاصّة في الشام، فيها نُسَخ مُفرَدة لا ثاني لها من المخطوطات، منها ما استخرجه صديقنا بل أستاذنا الأستاذ عزّ الدين التنوخي من كتب في اللغة لأبي الطيّب اللغوي، نشرها -على ما أظن- المجمع العلمي في دمشق.

وكانت للشيخ أبي اليسر دروس لا تقلّ عن الأربعة أو الخمسة كل يوم: دروس في الصباح قبل الشمس في جامع الورد في سوق صاروجا، ودروس بين العشاءين، ودروس في الليل.

وكان كثير التأليف؛ طبع له ولده (وهو عالِم فاضل، وهو الآن مدير دائرة الإفتاء في الشام) كتاباً واحداً منها هو «أغاليط المؤرّخين».

وعلى رأس من يُلقي هذه الدروس، ومن كان مجلسه مدرسة دائمة، شيخ دار الحديث وشيخ علماء الشام الشيخ بدر الدين الحسني. وعلى هذه الطريقة شيخُنا الشيخ محمد بهجة البيطار، الذي لم يكن يردّ سائلاً إذا سأله من ماله أو سأله من علمه. وكان يُلقي كل يوم دروساً في جامع الدقّاق، وهو المسجد الجامع لحيّ المَيدان، أحد الأحياء الكبيرة في الشام، وفي المسجد الصغير الذي يواجه داره. وقد سار في ذلك على طريقة شيخه عالِم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي. ومن فقهاء الحنفية الذين كانوا يُلقون أمثال هذه الدروس الشيخ نجيب كيوان، وكثيرون لست أستطيع الآن أن أجمع ذهني لإحصائهم.

ومن فقهاء الشافعية الذين كانوا يُقرئون التلاميذ ويُلقون الدروس الشيخ الجوبري، الذي كان يُعَدّ في عصره أفقه شافعي في الشام. ثم الشيخ العالِم العامل الواعي الشيخ صالح العقّاد، وهو عارف بأحوال الناس مطّلع على المعاملات المالية الجديدة كاطّلاع الشيخ عارف الجويجاتي، لأنه كان من التجار، وكان من الذين استغنوا عن رواتب الدولة.

وأعرف من هؤلاء جماعة أمثّل لهم بالشيخ عبد الحميد القنواتي قبل أن يترك التجارة ويتفرّغ للتدريس بالكلية الشرعية، والشيخ موسى الطويل، والشيخ أحمد القَشْلان، والشيخ شريف النّص، الذي كانت له مكتبة خاصّة تُعَدّ من أكبر المكتبات في

دمشق أودت بها نيران الفرنسيين لمّا ضربوا الشام أيام الثورة السورية. وقد سمعت أنه جدّد -رحمه الله- أكثرها. وولده شاعر سطع نجمه حيناً ثم انقطع عني خبره، وولده الأكبر من صدور التجار ومن طلبة العلم.

ومن فقهاء الشافعية الذين كانت لهم دروس منظَّمة ثم تحوّلت إلى مدرسة أنشأها هو، الشيخ حسن حَبَنّكة. وكان له تلاميذ عُني بأوائلهم أكثر العناية وعكف معهم على الجِدّ الذي ما بعده في العلم جدّ، فنبغ منهم جماعة أمثّل لهم ولا أعدّهم، منهم ولده الشيخ عبد الرحمن، والشيخ الدكتور مصطفى الخن، والشيخ القارئ الجامع حسين خطاب، ومن أنبغ مَن قرأ عليه الدكتور سعيد رمضان البوطي.

وممن كان لهم في الصحوة الإسلامية وفي النشاط العلمي في الشام أعظم الأثر الشيخ عبد الكريم الرّفاعي. وهو رجل مخلص متواضع منكر لذاته عامل لله، وهو الذي بدأ بما دُعي اليوم «إحياء رسالة المسجد». وأظنّ أني قد عرضتُ لخبره في بعض أحاديثي في الإذاعة أو في الرائي؛ ذلك أنه رأى يوماً واحداً من طلاّبه يُعين اثنين من تلامذة المدارس على استذكار دروسهما، فسُرّ به وأعجبه صنيعه وسأله: هل ترضى أن تُلقي مثل هذا الدرس على عدد أكبر من التلاميذ ابتغاء ثواب الله، بلا أجرة تأخذها مني ولا منهم؟ قال: نعم. قال له: فاجتهد أن تجعل موعد الصلاة منتصف الدرس، حتى إذا أذّن المؤذّن قمت أنت إلى الصلاة، فمَن كان منهم مواظباً عليها استعدّ لها وقام معك إليها، ومَن لم يقُم فلا تقُل له شيئاً، ولا تُجبِره على الصلاة إجباراً ربما فتح

للشيطان سبيلاً إليه فنفّره منها. فإذا قمتم أنتم وبقي قاعداً ورأى الناس ينظرون إليه استحيا منهم ومن الله فصلّى.

وسأل طلاّبه (وكان كثير منهم من المدرّسين في المدارس المتوسطة والثانوية) هل يقبلون أن يُلقوا دروساً خاصّة مجّانية، والطلاب دائماً يرغبون فيها ومنهم من يعجز عن دفع أجرتها، فقالوا: نعم. فصار في المسجد مدرسة تُلقى فيه العلوم التي تُدرَّس في المتوسطات والثانويات، من بعد صلاة العصر إلى المغرب. وكان من ذلك أن أقبلوا كلهم على صلاة الجماعة، وأطالوا البقاء في المسجد فحضروا بعض الحلقات التي تُقام فيه، فتعلّموا علوم الدنيا وعلوم الدين ونشؤوا جميعاً من الصالحين المصلحين.

وممن كان له عمل في تعليم الدين ثم أنشأ مدرسة لها منهج وفيها طلاّب الشيخُ صالح فَرْفور، وقد مرّ ذكره لمّا وكّلتُه عني وأنا معلم في مدرسة سَقْبا الأولية في الغوطة وذهبتُ لأداء امتحان كلية الحقوق، ولمّا مرضت وأنا مدرس في الكلية الشرعية في بيروت فناب عني فيها.

وهو رجل عصامي كان على طريقة علماء السلف، يعمل بالنجارة ويتكسّب منها ولا يمدّ يده إلى رواتب الدولة ولا عينه إلى أموال الأغنياء. ولو راجعتم كتاب «صناعات الأشراف» لوجدتم له أمثالاً كُثراً كانوا مصابيح هداية لسالكي هذا الطريق الذي أتمنى أن يكثر سالكوه، فيستغنوا بكسب أيديهم من صناعاتهم أو تجاراتهم عن خزانة الدولة وعن أموال الأغنياء. ولولا حاجة العلماء لهذه الأموال ما زال ناس منهم عن أماكنهم ولا نزلوا عن منازلهم.

وقد نبغ من تلاميذه جماعة منهم الشيخ عبد الرزاق الحلبي، والشيخ رمزي البزم الذي كان عندنا في المدرسة الأمينية الابتدائية تلميذاً ما كنا نرجو منه خيراً فكتب الله له الخير، وأرجو أن يكتبه الله لولده عبد اللطيف فيمشي على هذا الطريق السويّ، فيعتني بالجوهر قبل المظهر ولا يتسرّع بنيل المشيخة قبل أوانها.

والشيخ عبد الكريم الرفاعي والشيخ حسن حبنكة وغيرهم كلّهم مِن غَرْس يد الشيخ علي الدقر، وكلهم من تلاميذه. ومنهم الفقيه الشافعي الشيخ البصروي والمؤرّخ الشيخ نايف. والشيخ علي من تلاميذ الشيخ بدر الدين شيخ علماء الشام رحمهم الله جميعاً.

أمّا فقه الحنابلة فمن تبع سِيَر علمائه وجد أن أربعة أخماسهم من ديار الشام، هم الذين نشروا المذهب وهم الذين وطّدوا أركانه وهم الذين ألّفوا كتبه، وعلى رأسهم آل قُدامة، ومنهم الشيخ الموفَّق صاحب «المغني».

انتهى فقه الحنابلة على أيامي إلى المشايخ من آل الشَّطّي، فكان أجلّهم الشيخ حسن الشطي، وهو الذي فتحتُ هذه الحلقة بكتابه إليّ لمّا كان مدير الكلية الشرعية في دمشق. وكان قبل ذلك قاضياً في النّبْك، ثم صار قاضياً لدوما، ثم صار قاضي الشام. وقد قلت لكم من قبل أن الله شرّفني بأن جعلني خلفاً له في هذه المحاكم الثلاث. ومنهم مفتي الحنابلة العالِم المخلص الجريء الأديب الشيخ جميل الشطي.

أما المذهب المالكي فكان فقهاؤه في الشام قلّة، وكان أوثقهم وأكثرهم عليه اطّلاعاً هو الشيخ الكافي التونسي، وإن

كان يستعمل ذاكرته في نقل النص ولا يعمل عقله في الاستنباط منه، رحمه الله.

والأستاذ عبد الغني الباجِقْني، وكان مدير مدرسة ابتدائية ولكنه عالِم أديب لم أعرف إلاّ قلة من الناس -على كثرة مَن عرفت في البلدان التي مشيت إليها- يقاربونه في بيانه وفي فصاحة لسانه وفي سعة اطّلاعه وفي سرعة استحضاره. وهو ثاني إخوة سبعة كلهم كان معلّماً عاملاً، أبوهم من طرابلس الغرب، ليبيا (أو هي كما كانوا يدعونها «لوبيا»)، وكانت له حلقة درس في جامع الشيخ مُحيي الدين، كنت أحضرها أحياناً فأجد فيها فائدة ولكن لا أجد شيئاً جديداً.

وكان من العلماء من انقطع للقرآن قراءة وإقراء وكان مجلسه مدرسة للقرآن، على رأسهم الشيخ محمد الحلواني شيخ القرّاء. ولقد سمعت في الشام وفي مصر وفي الحجاز وفي البلاد التي مشيت إليها قرّاء للقرآن لا يُحصَون، فلم أكَد أجد فيهم من هو أصحّ مخارج للحروف وأضبط أداء وأعرَفَ بالأحكام من الشيخ الحلواني هذا. وكان له أولاد كلهم نشأ قارئاً مجوّداً، حتى إن منهم طبيباً كانت له عيادة ناجحة وكان يقرأ القرآن ويُقرئه. وما أجمل أن يجمع العالِم بين الطب والقراءة أو بين المنصب وبين التجويد. وقد عرفتُ هنا الشيخ حسن الشاعر، شيخ القرّاء في الحجاز، الذي أخذ عنه واقتبس منه أكثر مَن يقرؤون، وقد بلغني (ولست أدري ما مدى صحّة الخبر) أن ولده، وزير الإعلام، قارئ مجوّد تلقّى القراءة عن أبيه فأحسن التلقّي، وهذا مما يفتخر به ويحمد الله عليه.

والشيخ الحلواني جمع القراءات على طريقة الشاطبية. كما جمعها الشيخ عبد الله المنجّد (والد صديقنا الأديب المؤلّف الدكتور صلاح الدين) على طريقة الطيّبة، وخلفه فيها تلميذه الشيخ عبده العربيلي.

* * *

هذا والله العمل، وهذا هو أساس بناء الأمة المسلمة؛ إنه البذرة التي تُلقى في الأرض الخصبة. والبذرةُ لا يبدو غصنها ولا يظهر ولا تُخرِج ورقها ولا تؤتي ثمرها من أول يوم، ولكن لا بد منها. فإذا أردتم أن تروا أمة مسلمة تنحو منحى الأجداد وتسلك سبيل المسلمين الأولين الأمجاد فعليكم بالصغار. لقّنوهم من صغرهم الإسلام، بلا ضجّة ولا إعلان ولا طبل ولا زمر. اهدوا الواحد والاثنين بلا خطب ولا دعاية، فلأَنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من كل ما في الدنيا. الواحد يجرّ الواحد فيصيران اثنين، والاثنان يأتيان باثنين. أليس هذا هو الطريق الذي سلكه رسول الله عليه الصلاة والسلام لنشر الإسلام؟ فقد دعا إلى ما يشبه المحاضرة مرة واحدة يوم جمعهم عند الصفا، فردّ عليه أبو لهب بتلك الكلمة الفاجرة، فقمعه الله بسورة لا نزال نتلوها في صلاتنا ندعو بها عليه إلى يوم القيامة: ﴿تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتَبَّ﴾.

من الواحد والاثنين ينتشر الدين ويسود الخير. إن الذين يدعون إلى الله بلا ضجّة ولا إعلان هم المجاهدون، هم الجنود المجهولون، هم الذين بنوا هذا الصرح العلمي الذي ردّ عنا

أمداً طويلاً هجمة الإلحاد والفساد. لقد كانوا يعملون وحدهم لا يريدون أن يراهم الناس ليهتفوا لهم، بل أن يراهم الله فيثيبهم ويُدخلهم الجنّة عرّفها لهم. إنهم لم يكونوا يعرفون الأساليب التي جدّت في الدراسة ليتبعوها ولا الغزوات الفكرية الأجنبية ليردّوها، ولكنهم عملوا كل ما قدروا عليه.

إن العلوم التي أخذناها منهم كانت عدّة لنا، لنا نحن الذين عرفوا هذه الأساليب فطبقناها عليها وهذه الغزوات فاستعملناها في ردّها. كانوا يعملون لله، فجزاهم الله في الدنيا رفعة ومجداً وجعل الناس يُقبِلون عليهم ويرجعون في أمورهم إليهم.

إن الأمة الخاملة صفّ من الأصفار. ما قيمة صفّ من الأصفار؟ ولكن إنْ بعث الله لها «واحداً» مؤمناً صادق الإيمان داعياً إلى الله خبيراً بأساليب هذه الدعوة، صار صفّ الأصفار مع الواحد مئة مليون، والتاريخ مليء بالشواهد على ما أقول.

لقد كان العاملون بالعلم من العلماء كثيرين، ولكنهم كانوا مختلفين لا يكادون يتّحدون. وحين عاد الشيخ كامل القصاب من منفاه سنة ١٩٣٧ (لمّا صدر العفو العامّ عنه وعن إخوانه) جمع العلماء ودعاهم إلى نبذ الاختلاف، فمشت معه الجمعيات الإسلامية والدعاة والمشايخ، ولكن شذّت عنه «الجمعية الغرّاء» وكان بينهم الخلاف.

هل تعرفون ما سبب هذا الخلاف؟ الشجرة يظهر ساقها وتبدو فروعها، ولكنها تُخفي في الأرض مثلَها جذوراً ممتدّة لولاها لما قام الساق ولا امتدّت الفروع. كذلك نجد للأحداث

أسباباً بادية لعلّها تكون أحياناً تافهة، وأسباباً حقيقية خفية لولاها لما كان هذا الحدث. السبب الظاهر في الخلاف قضية تافهة لا تقدّم ولا تؤخر، تلك قضية الإطعامية في التكيّة السُّليمانية. والتكية السليمانية (التي تُعَدّ اليوم من أجمل الآثار في دمشق) بناها السلطان سليمان القانوني على أنقاض القصر الأبلق الذي كان للملك الظاهر بيبرس، أما التكية الصغرى المجاورة لها فقد بناها أبوه السلطان سليم، الذي دخل الشام ونقل الخلافة إلى الترك في إسطنبول.

وقف السلطان سليمان على التكية أوقافاً جليلة كان موردها أيام الرخص أكثر من ألف ليرة عثمانية من الذهب. أكتب هذا من حفظي، ولا تثقوا به كثيراً ولعلّ المبلغ كان أكثر من ذلك. والوقفية مصدَّقة أيام الفرنسيين من أعلى مرجع قضائي هو محكمة التمييز، ومن جملة هذا الوقف طعام (حساء) يُوزَّع على طلبة العلم، لا يسيغونه ولا يألفونه ويتعبون في الحصول عليه، ففكّر[1] في توزيع ثمنه بدلاً منه، فيأكل الطلاّب ما يشتهون يحصلون عليه بلا تعب ويوفّر على الدولة أجور إعداد الطعام ومتاعب توزيعه، وأبت الجمعية الغرّاء إلاّ التمسّك بحرفية الوقفية وتوزيع الطعام مطبوخاً.

هذا هو السبب الظاهر للخلاف، أما السبب الخفي الحقيقي ففي الحلقة الآتية إن شاء الله.

* * *

(١) أي الشيخ كامل القصاب (مجاهد).

-١٨٦-

فتنة التجانية في الشام

السبب الحقيقي هو قضية التّجانية[١]. بل إن هذه القضية ثمرةٌ لاختلاف العقليات كما يقولون في التعبير الحديث، عقلية الشيخ كامل القصاب وعقلية الشيخ علي الدقر.

الشيخ كامل سياسي، مارس السياسة وعرف ظواهرها وبواطنها، وخبر الحياة حلوها ومرّها، وعاش في مصر وفي فلسطين وفي الحجاز وخالط الناس، ثم إنه سلفي العقيدة واقعي التفكير، يقرأ كل كتاب ويطّلع على كل جريدة أو مجلة تصل إليه، وله مشاركة في الأدب ويحفظ كثيراً من الشعر.

والشيخ علي الدقر صوفي مثالي، لا يُكثِر مخالطة الناس ولا يكاد يعرف واقع حياتهم، يعيش في دائرة ضيّقة لا تجاوز

---

(١) ظهر اسم «التِّجانيّة» في طبعات الذكريات السابقة بياء بعد التاء في أولها (التيجانية)، والصواب هو ما أثبتُّه هنا، وهو ما صحّحه جدي بخطه في النسخة المنشورة في الجريدة. وقد نشر أصلاً مقالة عنوانها «فتنة التجانية بالشام» في مجلة «الفتح» في رمضان سنة ١٣٥٣، وهي في تلك المقالة كما هي هنا (التِّجانية، بالكسر لا بالياء) (مجاهد).

بيته ومسجده وكتبه التي قرأها وأقرأَها لا ينظر ولا يحبّذ النظر في غيرها، بين أصحابه وتلاميذه الذين يستمعون منه ما يلقيه عليهم ولا يحدّثونه في غيره، إلاّ أن يسألهم فيجيبوه جواب التلميذ المؤدَّب الذي لا يُفيض في الحديث إلاّ فيما يُعجِب الشيخ. لا يهتمّ بالأدب ولا يُقِرّ تلاميذه على الاهتمام به خشية أن يصرفهم عن الكتب العلمية التي يراها أنفع لهم، حتى إن ولده الأديب اللغوي الشيخ عبد الغني الدقر قرأ المعلَّقات وشرحها و«كامل» المبرّد كله على الأستاذ عزّ الدين التنوخي في سنين متعاقبة خفية عنه. ولمّا خبره ولده الأكبر الشيخ أحمد أن أخاه عبد الغني قد اشترى «النظرات» للمنفلوطي غضب عليه وعدّ ذلك انحرافاً منه عن الطريق السويّ! كان يخشى على تلاميذه كل جديد ويخاف عليهم المزالق ويودّ لو حصرهم معه في دائرته.

وكلا الشيخين: الشيخ علي الدقر والشيخ كامل القصاب، من العلماء الدعاة إلى الله ومن أركان التعليم والإرشاد في الشام رحمهما الله.

أما الطريقة التّجانية فقد عرفنا -بعد أن أطّلعنا على كتبها واستقرينا (ولا تقُل استقرأنا) أخبارها- أن موقعها من الفرنسيين في الشمال الإفريقي مثل موقع القاديانية في الهند من البريطانيين. كانوا أعواناً للاستعمار، والعهدة على الراوي. أما قصة التّجانية في الشام فأنا أروي منها ما رأيت وما سمعت.

الطلاب اليوم يفتتحون نهارهم في كثير من البلاد بتحية العلَم أو بنشيد الوطن، ولم يكن معروفاً في تلك الأيام أو كان معروفاً

ولكنه لم يبلغ أن يكون عرفاً عاماً، لذلك كانت كل مدرسة تلقّن طلابها ما تختاره لهم ليجهروا به جماعة قبل الدخول إلى الصفوف (الفصول)، أو لا تلقّنهم شيئاً وتدعهم يدخلون غرف دروسهم صامتين.

وكان للجمعية الغرّاء مدارس يفتتح طلابها يومَهم بتلاوة وذكر ودعاء يحفظونه ويجهرون به جماعة، وكان من ذلك صلاة الفاتح، وهي «اللهم صلِّ على سيدنا محمد الفاتح لِما أُغلِق، والخاتم لِما سبق، ناصر الحقّ بالحقّ والهادي إلى صراطك المستقيم». والذي أعرفه أنهم لم يكونوا يرون فيها إلاّ صيغة من صيغ الصلاة على الرسول، وكل هذه الصيغ جائزة ما لم يبلغ حدّ الإطراء المنهيّ عنه وما لم يكن فيه مخالفة لشرع الله، وإنْ كان أفضل هذه الصيغ بلا خلاف هي صيغة الصلاة الإبراهيمية، لأنها هي التي علّمها رسول الله ﷺ أصحابَه لمّا سألوه: كيف نصلّي عليك؟ وغيرُها من الصيغ ممّا علمه المشايخ تلاميذَهم، ولا يعدل مسلم بالمأثور عن رسول الله ما أُثر عن غيره من الناس.

وكان أول من نبّه إلى ما يحفّ بهذه الصيغة (أعني صلاة الفاتح) وبيّن مصدرها وكشف خفاياها هو الشيخ محمد الخضر الشنقيطي، الذي كان من قبلُ مفتي المدينة المنورة ثم نزل الأردن. وشنقيط التي خرّجت طائفة من العلماء وعُرف أهلها بالحفظ حتى نُقلت عنهم فيه وقائع تحسب من العجائب، شنقيط هذه هي التي يدعونها اليوم موريتانيا. وممن عرفنا من علمائها صاحب «أضواء البيان» رحمه الله، ومنهم الصديق الذي كان سفير الملكة الأردنية، ومنهم رجل سمعت عنه ولم أدركه وهو التركزي الشنقيطي الذي

كان نادرة في حفظ الشعر، حتى لقد طُبعت دواوين كاملة مقابَلةً على ما تحويه ذاكرته العجيبة.

* * *

والرسائل التي كتبها الشنقيطي من الأردن يبيّن فيها حقيقة هذه الطريقة كان يطبعها ويوزّعها في الشام السيد كامل البني، وكان شاباً عالي الهمّة جمّ النشاط سريع الحركة، يدور بها على العلماء والمفتين ويحمل إليهم نسخاً من كتب الطريقة التجانية، ويستفتيهم فيها، وينشر فتاواهم في رسائل متتابعة كانت تُوزَّع مجّاناً في المدارس والمساجد ومجامع الناس وتُرسَل في البريد.

وليست هذه الرسائل تحت يدي الآن بل بقيَت في مكتبتي في الشام، ليس أمامي وأنا أكتب هذه الحلقة إلاّ الرسالة الخامسة منها. وقد كانت تُصدرها وتتولى الإنفاق عليها جماعة من الغُيُر (جمع غَيور) على الإسلام سمّوا أنفسهم «الهيئة الإدارية لنصرة الشريعة المحمدية».

وهذه الرسالة الخامسة مؤرَّخة في ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٥٣هـ، فيها إشارات إلى الفتاوى التي اشتملت عليها الرسائل الأربع التي قبلها، ومنها فتوى مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي، وقاضي شنقيط (أي موريتانيا)، والخطبة التي ألقاها شيخنا الشيخ بهجة البيطار والتي لخّصتها وعلّقَت عليها الصحف والمجلات الإسلامية، كـ«الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب و«المنار» للسيد رشيد رضا و«الجامعة الإسلامية» و«التقوى»، وروت أخبارها جريدة «النهار» ومجلة «كل شيء»

التي كانت تُصدِرها دار الهلال. وفيها ذكر أن هذه الرسائل توقّفت شهراً ونصف الشهر أملاً في أن تعود «الجمعية الغرّاء» عن التّجانية بعدما نشرَت فتاوى المفتين في المحافظات السورية، ولكن الجمعية الغرّاء أصرّت عليها ولم ترجع عنها.

وجمع الأمير خالد الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، أقوالاً نقلها من الكتب المعتمَدة عند أصحاب هذه الطريقة، وسأل مفتي الجمهورية السورية (وكان شيخَنا الشيخ عطا الكسم رحمه الله) عن الحكم الشرعي فيها وفيمن يعتقدها.

وقبل أن أنقل لكم طرفاً من هذه الأقوال أروي لكم كلمة قيلت من قديم في كتب الجاحظ، وأحسب أن قائلها ابن العميد، هي "أن كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً". وأنا أستعير اليوم هذه الكلمة لأقول إن هذه الأقوال وأمثالها التي تفيض بها الكتب المنسوبة إلى الصوفية (كـ«الطبقات الكبرى» للشعراني و«السلسل المعين في الطرائق الأربعين» للشيخ السنوسي الكبير و«الفتوحات المكّية» و«الفصوص» لابن عربي)، هذه الكتب تورث الجنون أولاً والكفر ثانياً.

من هذه الأقوال المنقولة من الكتب المعتمَدة عند التجانية والمعدودة من أُسُس طريقتهم كـ«جواهر المعاني» و«بغية المستفيد» و«الإفادة الأحمدية» (وهذه الكتب الثلاثة تُعتبر من المراجع الموثوق بها عند أصحاب هذه الطريقة). ففي «الجواهر» (صفحة ١٠٣) أن المرة الواحدة من صلاة الفاتح تعادل ستة آلاف مرة من كل ذكر وتسبيح وتهليل، ومن كل دعاء كبير أو صغير (كذا!) وقع في هذا الكون!

والقرآن ذِكر، فإذا عدلَت المرة الواحدة من صلاة الفاتح ستّة آلاف ختمة كانت أفضل من خمسة آلاف وتسعمئة وتسع وتسعين! ويزعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام خبّره بذلك، كما ورد في صفحة ٤ أنه أخذ الطريقة منه ﷺ من غير واسطة يَقَظة لا مناماً.

ألا يُذهِب هذا الكلام العقلَ والدين؟ كيف أخذه منه وقد مات النبي ﷺ؟ أم يدّعي بأنه لا يزال حياً كما يقول بعض الجهلة في خطب الجمعة، يزعمون أنه حيّ في قبره مثل حياته في هذه الدنيا وحياتنا نحن فيها، أي أنه يأكل ويشرب ويتنفس؟! أفلا يذهب هذا الكلام بالعقل والدين؟ وهل يحتاج إثبات وفاته عليه الصلاة والسلام إلى دليل؟

وكيفَ يصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتـاجَ النهارُ إلى دليلِ؟

وإذا لم يمُت فكيف غسّلوه وصلّوا عليه ودفنوه ونصبوا أبا بكر خليفة له؟ هل يحتاج هذا إلى إثبات إلاّ عند المجانين؟

لقد كان بعض الصوفية يكذبون على رسول الله عليه الصلاة والسلام بحجّة أنهم رووا عن الخضر (صاحب موسى) والخضر روى عنه، فجاء هذا التجاني فجاوز المدى وسبق هؤلاء الكذابين على رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ ذلك أن دعوى حياة الخضر التي يعتمدون عليها كاذبة، والمحقَّق أن الخضر مات، والله يقول: ﴿وما جَعَلْنا لبشرٍ مِن قَبْلِكَ الخُلدَ﴾. أفلم يكن الخضر بشراً؟ ولا تقولوا عيسى، فعيسى له شأن آخر. وفي الحديث الصحيح أنه

لا يبقى على رأس مئة سنة ممن كان حياً يومئذ أحد، فكيف بقي الخضر؟

والرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الإنس والجنّ، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ اتباعه، فلماذا لم يتبعه الخضر إن كان حياً؟ ولماذا لم يشهد معه المشاهد ولم ينصره على عدوه؟ كلاّ؛ إن الخضر قد مات كما يموت كل حيّ، ومن ادّعى أنه رآه وسمع منه وروى عنه فهو كاذب.

وفي «الإفادة» (صفحة ٨٠) أن صلاة الفاتح من كلام الله. فخبِّروني: أيقول هذا مسلم؟ وإن كانت من كلام الله فكيف وصلت إلى التجاني هذا؟ أوَحيٌ بعد رسول الله أم افتراء على الله؟

وفي «الإفادة» (صفحة ٦٣) هذه الكلمة الوقحة الآثمة، وهي قوله: قدماي هاتان على رقبة كل وليّ لله، من يوم أنشأ العالَم إلى يوم النفخ في الصور.

وأولياء الله هم بنصّ القرآن ﴿الذينَ آمنوا وكانوا يتّقونَ﴾، وفي أوائل صفوف الأولياء الرسل والأنبياء، فما حُكم من يقول هذه المقالة؟ ما مبلغه من الدين، ومن الأدب، ومن حسن الخلق، ومن الحياء من الله ومن الناس؟ وأشياء أخر من أمثال هذه جمعها الأمير خالد ورفعها إلى المفتي الشيخ عطا الكسم، فأجاب بأن كل ما في هذه الكتب وأي كتاب من هذا النوع باطل ومخالف للشرع، ولا تجوز قراءتها ولا تداولها.

* * *

وهبّ العلماء والمفتون في محافظات سوريا كلها للردّ على هذه الأقوال التي لا شكّ أنها مخالفة للإسلام وأن معتقدها كافر. وجمع السيد كامل البنّي هذه الفتاوى ونشرها في الرسائل التي أشرتُ إليها، والتي كان يطبعها له أهل الخير ويوزّعها في الناس، حتى صارت هذه المسألة شاغلة للناس جميعاً وموضوع أحاديثهم في مجالسهم ولم يبقَ أحد لم يسمع بها، ولكن «الجمعية الغرّاء» بقيَت على حسن رأيها في الطريقة وصاحبها.

لمّا كثرَت الردود والمقالات نشرت الجمعية الغرّاء بياناً قالت فيه إن هذه الأقوال مدسوسة على الشيخ التجاني، قولاً بلا دليل، ولم يقُل مثله أحد من أتباع هذه الطريقة من لدن أولها إلى يوم صدور هذا البيان. وهذا يُشبِه ما ادّعى قوم من أن ما جاء في كتب ابن عربي مدسوس عليه، مع أن الجملة أو الفقرة المدسوسة كالرقعة في الثوب، تُعرف باختلاف قماشها ومنظرها وملمسها. ثم إن أقصى ما يمكن أن يُدَسّ في الكلام جملة أو جمل معدودة أو صفحة، أما أن يكون الكلام كله مؤتلفاً متشابه الأسلوب متماسك الأفكار متّحد الوجهة، ثم يُدّعى أنه دُسّ فيه وأُدخِلَ عليه ما ليس منه، فدعوى يصعب إثباتها.

لمّا قرأتُ هذه الأقوال ووثقت أنها من صلب الطريقة التجانية تمثّلت بالكلمة التي تُنسَب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ:

لمّا رأيتُ الأمرَ أمراً مُنكَراً   أجّجتُ ناري ودعوتُ قَمْبَرا

ولم يكن عندي نار أؤجّجها ولا غلام مثل قَمبَر، مولى

عليّ، أدعوه. ما عندي إلاّ هذه الأداة التي لا تُسيل دماً ولا تقتل عدواً ولا تحرق داراً، ولكنها تستطيع أن تصنع ما هو أكبر من ذلك وأعظم خطراً وأكبر نفعاً أو ضرراً، هذا القلم. فجرّدت القلم ودخلت المعركة بكلمة حامية تشتعل حروفها ناراً، فاطّلع عليها بعض إخواننا الناصحين، فرأوا بأنه أنفعُ للناس وأوصلُ إلى الغاية أن أكتبها بغير هذا القلم، فنبذتها وأعدت كتابتها بقلم ليّن سهل، وبعثتها إلى السيد كامل البني فنشرها في هذه الرسالة الخامسة، وجعل لها عنواناً من عنده هو: «الكلمة الحاسمة في الموضوع». قلت فيها:

لم تشغل مسألةٌ من المسائل الجمهورَ في دمشق -على اختلاف طبقاته وأفكاره- كما شغلَته مسألة التجانية هذه، ولم يُجمِع الرأي العامّ الإسلامي على مسألة من المسائل كما أجمع على البراءة من هذه الطريقة، وعلى تكفير مَن يعتقد هذه الأقوال المنسوبة إليها، وعلى لوم طائفة من خيار المسلمين في دمشق أحسنوا الظنّ بأصحابها واقتبسوا بعضاً من أذكارها. والمسلم لا يكلَّف (ولا يجوز أن يكلّف نفسه) إلاّ بما صحّ عن النبي ﷺ أنه أمر به أو فعله أو أقرّه. وليس في الإسلام شارع بعد رسول الله لأن الدين قد كمل، وما بعد الكمال إلاّ النقص، وكل بدعة في الدين مردودة على من جاء بها.

لم أقُل في هذه المسألة كلمة واحدة على رغم هذه الضجّة التي قامت لها، ولا يزال دويّها يملأ المجالس والمجامع والأسواق وصداها يتردّد في القرى وفي المدن، لأني لم أتثبّت من صحّة نسبة هذه الأقوال إلى شيخ الطريقة المدعوّ أحمد

التجاني، ولأن العلماء الكرام الذين وقّعوا المنشور الأخير قالوا إنها مدسوسة على الشيخ، أي أنها ليست في كتبه ولا في كتب طريقته المعتمَدة، حتى تفضّل الشيخ الشنقيطي فبعث إليّ كتب الطريقة التي يعتمدونها ويستندون إليها، فإذا كل هذا الكلام موجود فيها، وإذا هو من أُسُس طريقتهم. ولم يرتفع صوت واحد بإنكار نسبته إلى شيخهم وادّعاء براءته منه، بل هم معترفون به مُقرّون بما فيه، ولم ينكره ويرتفع بالشيخ عن أن يُنسَب إليه ويدّعِ أنه مدسوس عليه إلاّ هؤلاء العلماء الأجلاّء.

فعمدتُ بعد أن تثبّتُّ منها ووثقت بصحّة نسبتها إلى هذا التجاني، الذي لقّبه الأستاذ الشنقيطي بالتجاني الجاني، ووُفِّق في هذا اللقب لأن من أكبر الجنايات في الإسلام الكذب على رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولأن أصحّ حديث على الإطلاق هو حديث «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار». هذا فيمن كذب مرة، فما بالكم فيمن كذب عليه عشرين مرة وطبع هذا الكذب ونشره في الناس، ولقّنه تلاميذه حتى اعتقدوه وصدّقوه؟

على أن العجيب ليس هذا التجاني ولا هذه الأقوال السخيفة التي صدرت عنه، ففي الدنيا كثير من السخفاء ومن ذوي الأغراض ومن الأعداء في ثياب الأصدقاء، وفيها كثير من الكفار ومن الزنادقة ومن الذين آثروا اتباع الشيطان على اتباع سبيل الرحمن، ولكن العجيب فيمن يصدّقه ويعظّمه ويحسبه من أئمة الدين ومن علماء المسلمين.

الدين الإسلامي -يا إخوان- هو دين العقل والمنطق

والمناظرة والدليل في ضوء كتاب الله وسنّة رسول الله، فإذا أخطأ واحد مهما جلّ قدره أو علت منزلته (كالشيخ علي الدقر أو الشيخ بدر الدين أو شيخ الأزهر) وكان يعرف الصوابَ واحدٌ مثلي أو أصغر مني، أو يعرفه طفل أو تعرفه امرأة، فإن على مَن عرف الصواب أن يبيّنه وأن يدلّ عليه، وعلى من أخطأ أن يعود إلى الحقّ. ولا شكّ أن عمر أفضل وأعلم بالدين من الشيخ علي الدقر وشيخ الأزهر والشيخ بدر الدين.

وهذا المبدأ الصوفي الذي يمنح الشيخ ما يُشبِه العصمة، ويمنع تلميذه أن يردّ عليه مهما سمع منه ومهما رأى من أعماله المخالفة للدين، هذا المبدأ يخالف الإسلام ويجانب ما كان عليه السلف الصالح والصحابة الكرام. والحُجّة في الإسلام لا تكون إلاّ في واحد من أربعة: الكتاب، والسنة الثابتة الصحيحة، والإجماع، والقياس. فإن كان لدى التجانيين ومن يتبعهم حجّة من هذه الحجج فليأتوا بها. فهل صحّ عن الرسول عليه الصلاة والسلام ما يزعمونه؟ هل نزل به قرآن أو ورد به حديث صحيح، أو هو من الابتداع؟ والابتداع في الدين مردود كله. وهل في الدنيا مسلم واحد يزعم أن صلاة الفاتح تعدل القرآن؟ وهل في الدنيا مسلم واحد يصدّق أن وِرْد التجانية يُدخل قائلَه ووالديه وأزواجه وذريته الجنّة بلا حساب، كما جاء في بعض كتبهم؟

(إلى أن قلت في آخر المقالة):

أما بعد، فإما أن تقرعوا الحجّة بالحجّة وتردوا الدليل بالدليل، وإما أن تتوبوا إلى الله وترجعوا إليه، وإما أن تسكتوا

وتُقِرّوا بالضعف والعجز. وأنا على قلة علمي أدعو التجانيين كلهم، من أكبر واحد فيهم إلى أصغر مَن ينتسب إليهم، أدعوهم إلى مناظرة عامة على ملأ من الناس، ليظهر هل الحقّ معهم أو مع جمهور المسلمين.

وبعد، فالكلمة الأخيرة في هذه التجانية أنها كُفرٌ وضلال، فاختاروا لأنفسكم: إما المناظرة المُعلَنة أو السكوت المخزي. واختاروا لأنفسكم: إما أن تكونوا تجانيين وإما أن تكونوا مسلمين!

* * *

والشيخ علي الدقر أحد المشايخ الكبار في الشام الذين كان لهم أكبر الأثر في نشر العلم، وكان أجلّ الشيخين اللذين قاما بما دُعي بنهضة العلماء سنة ١٣٤٣هـ، ولم ينسَ الناس ما صنع في حوران والبلقاء (شرقي الأردن) حين ردّهما الله به إلى الدين والعلم بعدما أوشكت أن تغرقَهما جاهليةٌ كالجاهلية الأولى. ولم ينسوا مَن تخرّج عنده من علماء ومدرسين وخطباء وما فتح من مدراس، وما كانت تصنع دروسه التي كان الناس يزدحمون عليها ويتسابقون إليها، فتخشع منها القلوب وتفيض العيون. فهل كان الشيخ علي -على علمه وتقواه وصلاحه- يعتقد هذه الأقوال التي لا يشكّ عالِم ولا طالب علم ولا عامّي من غمار الناس بأن اعتقادها كفر وضلال؟

إني لأفكر الآن في هذا فلا أستطيع أن أتصوّر أن الشيخ علي الدقر رحمه الله كان يعتقدها. ولمّا أصدر البيان الذي أشرت إليه

لم يدافع عنها، وإنما ادّعى (دعوى بلا دليل) إنها مدسوسة على الشيخ التجاني. فهو إذن لا يقول بها ولا يدافع عنها، وإنما ينازع في نسبتها إلى التجاني.

والله لا يسألنا عن التجاني ولا عن الشيخ ابن عربي ولا عن غيره؛ إنما يسألنا عمّا نقول وما نفعل. والذي نقوله أن هذه الأقوال كفر لا شكّ فيه، والله أعلم بحال من نُسبت إليه. فلماذا إذن أصرّ على موقفه ولم يتزحزح عنه؟ إنه «لغز» أعلن أنني عاجز عن حلّه. وأنا إنما أدون حادثاً مرّ عليه الآن أربع وخمسون سنة، والدول تنشر المطويّ من وثائقها وتُبدي المكنون من أسرارها بعد ثلاثين سنة فقط، كما تفعل بريطانيا الآن.

ثم إنه موقف واحد للشيخ علي رحمه الله، أنا أوقن أنه رجع عنه، ودليل ذلك أنه لمّا انطفأت هذه الفتنة لم نعُد نسمع منه ما يدلّ على انتسابه إلى التجانية أو دفاعه عنها، بل هو لم يعُد يذكرها.

* * *

إنما هي صفحات من التاريخ يُراد بها ذكر الماضي لا وصله بالحاضر. ولعلّنا نعتبر بها وبأمثالها فنعمل دائماً على جمع الشمل ونبذ الخلاف، وألاّ نجعل اختلافنا في الفروع مفرّقاً لنا بعد اتفاقنا على الأصول.

إن الشعوب الإسلامية لا تنقاد للزعيم السياسي مثلما تنقاد للعالِم الديّن، ولو أن العلماء جميعاً راقبوا الله وأخلصوا النية

له وعملوا له وحده لما استطاع أحد أن ينازعهم القيادة أو أن يزاحمهم على الصدارة، ولبقي الأمر في أيديهم، ولما وثقت الشعوب إلاّ بهم وما سمعت إلاّ منهم، ولغدوا هم المرجع لهم، لا رأيَ لأحد مع رأيهم ولا منزلةَ لأحد فوق منزلتهم.

ولوْ أنّ أهلَ العلمِ صانُوهُ صانَهم
ولوْ عظّموهُ في النفوسِ لعُظّما
ولكنْ أهانُوهُ فهانَ، ودنّسُوا
مُحيّاهُ بالأطماعِ حتّى تَجَهّما

* * *

-١٨٧-

في الكلية الشرعية في دمشق

الآن وصلتُ إلى الباب الذي أدخله إلى الكلام عن الكلية الشرعية، التي افتتحتُ الفصل بكتاب مديرها الشيخ حسن الشطي رحمه الله. وقد اجتزت إليه هذا الدهليز الطويل لأبيّن لكم أن إنشاء هذه الكلية لم يكن بداية العناية بالعلوم الشرعية، وأنه كان قبلها علماء، دارُ كل واحد منهم ومسجدُه مدرسةٌ مفتّحةُ الأبواب حافلة بالطلاّب، يُقبِلون عليها لا يرجون منها شهادة ولا يطلبون بعد الشهادة وظيفة، بل يطلبون العلم لله، والمشايخ يعلّمونهم لله، يبتغون في ذلك سنّة السلف من هذه الأمة.

بل سنّة متأخّري السلف، حين صارت الحركة العلمية مثل النوافير الصناعية، تعلو كعمود من النور، يتدفّق ماؤها ظاهراً كأنه نوافير دمشق القديمة، وكأنه النافورة الأثرية المشهورة عند باب الأموي الشرقي التي سُمّي الحيّ باسمها، يجري ماؤها أبداً، لا يجري منها في الحقيقة ماء ولا يتبدّل، إنما هو محرّك وسطل ماء يدفعه المحرّك فيعلو ثم يدعه فيعود إلى مستقَرّه، يتردّد ولا يتجدّد. وكذلك كانت الحركة العلمية: وقَفَ الابتكار وكلّت الأذهان وضَعُفَ البيان، وعُدنا نجترّ ما غذّانا به الأولون

مثل اجترار الإبل، نقرأ ولا يكاد أكثرنا يجاوز القراءة والفهم، ومنا من يقرأ ولا يحاول أن يفهم. حتى إن أحد قدماء طلبة العلم في دمشق -وقد ذُكر الشيخ بدر الدين الحسني- فقال لي: ولكن عنده رحمه الله غرائب. فسألته: ما غرائبه؟ فقال: قرأنا عليه كتاباً، فلما أكملناه قال لنا: يابا (وكانت تلك كلمته يخاطب بها الكبير والصغير)، شو فهمتهم؟ (أي ماذا فهمتم؟) فلما لم نُجِبه كما يريد قال: "يابا، باسم الله"، واستأنف قراءة الكتاب. هذا هو الشيء الذي رآه غريباً، استغرب أن يهتمّ الشيخ بما فهم الطلاّب، والعهد بأكثر العلماء أنهم يكتفون بالقراءة.

وكان أقصى ما يتبعه الدارسون أن يفهموا قول المصنّف رحمه الله. ولقد خبّرني الشيخ عبد المحسن الأسطواني، الشيخ العالِم المعمَّر الذي سبق الحديث عنه، وكان من تلاميذ جدّنا الشيخ محمد الذي قدم الشام من طنطا سنة ١٢٥٥هـ، أنهم كانوا يقرؤون على أحد المشايخ كتاباً في نسخة مخطوطة، فاستعجمَت عليهم عبارة فلم يفهموها، فذهبوا إليه، فتبسّم وأخذ القلم فصحّح العبارة. فعجبوا من ذلك، أي من جرأته على الكتاب يصحّحه من عند نفسه. ثم وجدوا نسخة أخرى مخطوطة صحيحة، فلما رجعوا إليها وجدوا العبارة كما صحّحها.

جملة فيها تحريف ظاهر من ناسخ من النسّاخ، ربما عرف صوابَه تلميذ صغير، ولكن لم يكونوا يجرؤون على مثل ما فعل الشيخ؛ ذلك لأننا كنا نقدّر السلف، وربما زدنا في تقديرهم عن الحدّ. ولا أزال أحفظ كلمة تلقّيناها من مشايخنا:

وكلُّ خيرٍ في اتّباعِ مَن سَلَفْ   وكلُّ شرٍّ في ابتداعِ مَن خَلَفْ

الاتباع وترك الابتداع في العقائد وفي أصول الدين لا في أمور الدنيا؛ فأمور الدنيا لنا، نأخذ منها كل حقّ وندع كل باطل ونتمسّك بكل نافع وننبذ كل ضارّ، جديداً أم قديماً، فما العبرة بالجِدّة ولا بالقِدَم. شرقياً كان أم غربياً، فالحقّ يُعرَف بأنه حقّ لا بالجهة التي جاء منها.

ولقد كان عندنا في الشام قديماً مدارس للقرآن وللحديث ولفقه كل إمام من الأئمة الأربعة، ومدارس جامعة كالمدرسة العمرية التي أنشأها الشيخ أبو عمر ابن قُدامة، أخو صاحب «المغني». وآل قدامة هم الذين أقاموا حيّ الصالحية، وكان أول حي يُقام على سفح قاسيون. وفي كتابي «دمشق» المطبوع مراراً فصل عن إنشاء حي الصالحية. وقد أُولِعتُ مرة بتتبّع أخبار هذه الأسرة فوجدت من نسائها العالِمات بضعاً وعشرين، كلهن كانت تُعَدّ إذا عُدّ مشايخ البلد. ثم فترت هِمّتي ووقفت عن العمل، وضاعت الأصول، وذهب الكتاب الذي كنت أنوي إصداره عن آل قدامة.

ومن عيوبي التي أعترف بها هنا (ولولا أن انتظار الأجل يسدّ عليّ طريق الأمل لطلبت دعوة منكم لخلاصي منها) من عيوبي أنني أمشي دائماً مشي الأرنب في قصّة لافونتين لا مشي السلحفاة. فأنا أجمع قوّتي وأثب وثبة واحدة، فإما أن أصل وإما أن أقعد فلا أحاول بعدها؛ أي أنني على مذهب أبي فراس في بيته المشهور: «لنا الصدرُ دونَ العالَمين أو القبرُ». ورُبّ بيت أضلّ وما هدى وأفسد وما أصلح، كقوله: «إذا مِتُّ ظمآناً فلا نزَلَ القَطْرُ»، وبيت المتنبي: «والظلمُ مِن شِيَم النفوسِ»، وما صدق المتنبّي ولا برّ، فما الظلم من شيم النفوس ولكن العدل، لأن الله فطر النفوس

على الخير لا على الشرّ، وعلى العدل لا على الظلم، وعلى الإيمان لا على الكفر.

عفوكم يا أيها القراء. أرأيتم ماذا يصنع بي الاستطراد وكيف أتنكّب الطريق؟ كالراعي يرى بقعة فيها كلأ كثير فيسوق قطيعه إليها، فيحيد عن وجهته ويبتعد عن غايته. إنها علّتي وعلّة كل من نشأ على كتب الأدب العربي القديم.

* * *

قلت إن المدارس كانت تملأ حارات الشام (كما كانت تملأ المدارس حارات مصر ومسالكها)، وفي كثير من بلاد الإسلام مثلها. ومن قرأ «الدارس في المدارس»[1] أو «منادمة الأطلال» للشيخ عبد القادر بدران (وهو مقتبَس من «الدارس») ومَن مشى في طرق دمشق القديمة رأى العشرات من المدارس (وقد صار كثير منها بيوتاً مملوكة بأسناد رسمية!) وعلى بابها الحجرُ المنقوشُ عليه أنه وقَفَ هذه المدرسةَ فلانٌ الفلاني، ووقف عليها كذا وكذا من البساتين ومن المباني.

ومَن مشى مِن حيث يمشي نهر يزيد (وهو أحد أبناء بردى) على سفح الجبل من تحت قبّة السَّيّار إلى آخر حيّ ركن الدين، رأى أنقاض المدارس قائمة يأخذ بعضها بأيدي بعض كأنها صفّ النوادب في المآتم يبكين ما مضى. والعجب العجيب أن أكثر هذه

---

(١) اسمه الكامل «الدارس في تاريخ المدارس»، تأليف عبد القادر النّعيمي (مجاهد).

المدارس أنشئ في عهد المماليك في مصر وفي الشام، بل وفي دهلي في الهند.

ولقد أقيمت من نحو ستين سنة مدرسة دينية حديثة افتتحَتها إدارة الأوقاف في المدرسة السميساطية الأثرية القائمة عند باب الأموي الشمالي، والتي كانت يوماً دار عمر بن عبد العزيز، وجعلوا مديرها العالِم الوجيه الشيخ توفيق الأيوبي، رحمه الله ورحم كل من ذكرت وأذكر من الصالحين. كما كانت دار هشام بن عبد الملك عند المدرسة النورية التي دُفن فيها الملك البطل المجاهد نور الدين زنكي، أما المقرّ الرسمي للخلفاء من بني أمية ففي الدار الخضراء، دار معاوية، وراء جدار القبلة في الجامع الأموي، ولا يزال الباب الذي كان يدخل منه إلى المقصورة ظاهراً أعلاه تسدّه الدكاكين التي أنشئت هناك.

وقد سمعت الآن أنهم أزالوا ما حول الأموي وكشفوه كما كُشف الحرم المكّي والمسجد النبوي، وتلك أمنية كنا نتمناها، وقد سُررت بهذا الخبر إن صحّ.

* * *

أعود إلى حديثي عن الكلية الشرعية، وأقول قبل أن أدخل فيه أن لاسم «الكلية» اليوم معنى محدداً يقابل كلمة «فاكولته» بالفرنسية. ففي كل جامعة كليات، أي مدارس عالية تتبع الجامعة، وفي فرنسا مدارس عالية لا تتبعها، كالمدرسة المركزية للهندسة (إيكول سنترال) ومدرسة بولي تكنيك والمدرسة العسكرية. هذا الاصطلاح لم يكن عاماً في الأيام التي أتحدّث عنها، فلقد كان

في دمشق الكلية العلمية الوطنية التي انتهى أمرها إلى الدكتور منيف العائدي فكان صاحبها ومديرها، وكان في بيروت الكلية الإسلامية قديماً، والكلية الشرعية التي أنشأها مفتي لبنان الشيخ توفيق خالد وكنت أدرّس فيها.

بل لقد مرّ في هذه الذكريات اسم «الجامعة العربية» التي افتتحها سليمان سعد. وهذه الجامعة وتلك الكليات لم تكن إلاّ مدارس ثانوية. والعجيب أن الكليتين اللتين كانتا في الجامعة السورية كانت كل منهما تُسمّى معهداً: المعهد الطبي، ومعهد الحقوق الذي تخرّجت فيه سنة ١٩٣٣.

فالكلمات يتبدّل مدلولها ثم يستقرّ الاصطلاح على واحد منها. حتى كلمة «الدكتوراة» يختلف مدلولها باختلاف الجهة التي تمنحها، فلها في فرنسا نوعان: دكتوراة الدولة والدكتوراة التي تعطيها الجامعة، والأولى هي التي تنفرد بالتقدير. والدكتوراة في ألمانيا لا تكاد ترتفع إلاّ قليلاً عن الإجازة (الليسانس أو البكالوريس)، وأعلى منها عندهم لقب «دكتور هابيل» أي الدكتور الماهر. والدكتوراة المجلوبة من أمريكا ألوان وأصناف، تختلف أقدارها باختلاف الجامعة التي نالها حاملها منها، وما كل جامعة في أمريكا هارفارد.

* * *

كانت الكلية الشرعية هي الثمرة الباقية لمؤتمر العلماء، والفضل فيها بعد الله الذي منه كل فضل للشيخ كامل القصاب. والشيخ كامل من أعظم رجال التعليم في الشام، وكانت مدرسته

«الكاملية» تُدعى أيام العثمانيين بالمدرسة العثمانية، وقد بنى لها بناء حديثاً من ثلاث طبقات في البزوريّة قرب الجامع الأموي، بين دار أسعد باشا العظم (التي تُعَدّ من أكبر الدور الشامية، والتي ملكَتها الحكومة وأقامت فيها متحف الفنون الشعبية، والدارُ نفسها من الفنون الشعبية) وبين الخان العظيم الذي بناه ولا يزال يُنسب إليه، فيقال خان أسعد باشا، وهو أجمل الآثار العثمانية الباقية في دمشق وأعظم الخانات التي كانت منتشرة في بلاد الإسلام، تقوم مقام الفنادق ومقام الأسواق المركزية.

افتتح فيها الشيخ كامل مدرسته الشرعية سنة ١٩٣٧. وقد كنت أعمل يومئذ مدرّساً في العراق كما عرفتم، ثم انتقلتُ إلى بيروت، فلما رجعت إلى الشام درّست عند الشيخ كامل في الكلية التي أنشأها مدّة يسيرة بين العراق وبيروت.

وقد نسيت بعض خبرها، فرجعت إلى أخي الأستاذ الدكتور عبد الحميد الهاشمي (وقد كان من تلاميذها الصغار وهو اليوم من أساتذة الجامعة الكبار) ليُعينني على تذكّر أخبارها، كما رجعت إلى أخي الآخر الشيخ محمد القاسمي الذي كان زميله فيها، لكن بعد أن صارت رسمية تابعة لمديرية الأوقاف العامّة وانتقلت إلى زقاق النقيب، إلى الدار التي كان يُقيم فيها الأمير عبد القادر الجزائري والتي آلت إلى السيد مكي الكتاني، رحمة الله عليهم جميعاً.

والذين كانوا طلاّباً في الكلية الشرعية وكنت أدرّس لهم كبروا وصاروا زملاء لي في التدريس، ثم جازني كثير منهم وفاقني

علماً وفضلاً وسبقني في كثرة المؤلَّفات وطيبها، كالأخوين اللذين ذكرت الهاشمي والقاسمي، والدكتور أديب صالح، والأستاذ أحمد الأحمد، والدكتور وهبة الزحيلي، الذي لا أذكره تماماً لأنه لم يكن في صف من سمّيت ولكن كان -كما أظنّ- بين من هو أصغر منهم من الطلاّب، ثم صار من كبار المؤلّفين في الفقه والباحثين فيه.

لمّا افتتح هذه الكلية دعا جماعة من أجلّ علماء الشام ليدرّسوا فيها، كان منهم الشيخ عبد القادر الإسكندراني، وهو مصري نزل دمشق وأقام فيها، وصار من أهلها ولم يدع لهجته المصرية، وكان جميل الصورة مَهيب الطلعة، بليغ اللسان نيّر الذهن، له مؤلَّفات صغيرة في البلاغة لا تدلّ على فضله.

ومنهم الشيخ محمود العطار، وهو نموذج لعلماء تلك الأيام، وقد كانت قراءته على الشيخ بدر الدين. وهو متمكن من العلوم الإسلامية مطّلع على كتبها عارف بما حوت هذه الكتب، ولكنه لم يكن يجاوزها ولم يكن يبحث في غير ما جاء فيها، ولم يؤتِه الله مع هذا العلم الكثير لساناً بليغاً فلم يكن خطيباً ولا محدّثاً. وكان منهم رجل على الضدّ منه: خطيب طَلق اللسان قوي البيان، يخطب في كل مناسبة خطباً فنّية يشدّ فيها الحروف ويحسن إيقاع الجمل، وليس وراء ذلك علم كثير ولا اطّلاع واسع.

ومنهم الشيخ محمود ياسين، وقد مرّت الإشارة إليه. والشيخ محمود من العلماء المتمكنين الذين يدأبون على العمل. ومنهم أستاذ لا يزال حياً، وقد قارب المئة مدّ الله في عمره، هو الأستاذ

درويش القصّاص، أقدم مدرّس للرياضيات (الحساب والهندسة) في دمشق، وكانت له براعة عجيبة في الإفهام، فهو يُدخِل العلم في الأدمغة التي يُظَنّ أنها أُغلقَت أبوابها وسُدّت مسالكها دون العلم فلا يدخلها. وقد خبّرني الدكتور عبد الحميد الهاشمي أنه هو الذي دفعه إلى الإعداد لشهادة الكفاية (الكفاءة) ثم الشهادة الثانوية، ثم وفّقه الله حتى أكمل الدراسة العالية ونال الدكتوراة. فهو، أي الهاشمي، من الذين جمعوا بين الدراسة الشرعية والدراسة الحديثة.

وكان المراقب الذي يُشرف على الطلاب، على إدخالهم وإخراجهم وصفّهم ويتولّى شؤونهم هو الشيخ رضا الحلو. وهو رجل له في تاريخ الرياضة في الشام ذِكر، ذلك أنه كان من تلاميذ البطل القديم صائب بك العظم (الذي مرّ ذكره)، وكان يوماً بطل العالَم في المصارعة الحرّة، وخبّرني أخي ورفيقي محمود البحرة رحمه الله أن الشيخ رضا كان يمتلك جسماً يُعَدّ في مقاييس كمال الأجسام نادراً. بلغ الثمانين وهو مستمرّ على التدرُّب وعلى التمرين، لم يُثِنه الكبر عنها ولم يَقِفْه دونها.

ثم انتقلَت الكلية إلى الإدارة العامة للأوقاف، ولم تكن قد صارت وزارة، فغدت كلية رسمية فيها خمسة صفوف، كما كانت أختها في حلب (المدرسة الخسروية)، وأنشأت الأوقاف في كل من حمص وحماة مدرسة شرعية فيها ثلاثة صفوف (أي أنها من ثلاث سنوات). ولا بد لي إن شاء الله من عودة للكلام عن الكلية وأهلها.

وربما جاء الخير مما يبدو لك أنه شر. فهذا الخلاف الذي

كان بين الشيخ كامل القصاب والشيخ علي الدقر، لمّا حَسُنت النيات وصفت القلوب، آلَ إلى تنافس شريف؛ فأنشأ الشيخ علي مدرسة مثل الكلية الشرعية، افتتحها في جامع تنكز (وتنكز كان نائب الشام على عهد المماليك) بعد أن جمع له أهل الخير ما جدد به بناءه. وكانت لجامع تنكز واجهتان على أكبر شارعين في دمشق، الواجهة الأصلية على شارع النصر الذي افتتحه جمال باشا سنة ١٩١٦ كما أذكر، وكان يُدعى باسمه، وعلى ساحة المرجة التي كانت لبّ دمشق.

* * *

قرأتم في كتاب الشيخ حسن الشطي الذي افتتحتُ به الكلام على الكلية الشرعية أنهم كلفوني بأن أدرّس فيها الثقافة الإسلامية. وكان درساً جديداً، وليس في العلوم المقرَّرة المعروفة ما يُدعى «الثقافة الإسلامية»، ولم يكن في مثله بُدّ من شيء من الفوضى والبعد عن التبويب أحياناً واختلاط مسائله بمسائل غيره من العلوم، لذلك يبقى أمداً تعتوِره الزيادة والنقصان والتعديل والتبديل، حتى يستقرّ وتَضِح (أي تتّضح) معالمه ويصبح علماً من العلوم.

والذين اخترعوا هذه العلوم الجديدة أرادوا أن يخرجوا بها عن الأسلوب النمطي وعن اجترار ما كتب الأولون، يُبدئون فيه ويُعيدون ولا يأتون فيه بجديد. وقد أرادوا الخير كل الخير من اختراعها، ولكن لم يوضّحوا سبيلها ولم يحدّدوا غايتها، لأنه لم يكن في أذهانهم -كما أظنّ- صورة واضحة لها؛ لذلك كان

المنهج الذي رسموه لها متداخل الحدود خفيّ المعالم.

وكان أول من كُلِّف بتدريس هذه المادة الجديدة الأستاذ الشيخ دهمان، درّسها مدّة قصيرة جداً، ثم كُلّفت أنا بها أدرّسها في دمشق، ويدرّسها في الكلية الخسروية في حلب العالِم المؤلف الشيخ راغب الطبّاخ. فاختلف طريقانا في الفروع، وإن كنا اتفقنا على الأصول وأخذنا من مراجع واحدة. ولكن الشيخ الطبّاخ أُعطيَ -على كبَر سنّه- هِمّة لم أُعطَ أنا مثلها، ويسّر الله له أسباباً لم يتيسّر لي ما يشبهها، فكان على علمه وفضله يعمل على طبع الكتب ونشرها، وأظنّ أنه كان يملك مطبعة. وكان أمثاله من الناشرين العلماء كثيرين، منهم السيد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، وخير الدين الزركلي حيناً، والأستاذ أحمد عبيد، والشيخ منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي. فطبع الشيخ الطبّاخ ما أعدّه في كتاب بقي في الأرض ينفع الناس، وذهب ما أعددتُ أنا جفاء، وأسأل الله أن يجعله زبدة لا زَبَداً. كما أنني ألقيت في أحاديثي في الإذاعة وفي الرائي من سنين طويلة مسائل في أصول الشريعة وفي نظام الحكم والنظام المالي والاجتماعي في الإسلام كانت أكثر مما أعدّ الأستاذ المبارك رحمه الله، ولكنه أسرع فجمع ما هيّأه في كتاب فبقي، وما أعددته أنا ضاع ولم يبقَ عندي إلاّ مذكّرات لا تُغني ولا تُفيد. ولعلّ الله يرزقني الإخلاص فيه فلا يضيع عند الله ثوابه.

بدأت أنا دروسي بتعريف الثقافة وبيان أصل الكلمة. ولقد كتب في ذلك جملة من العلماء والأدباء، ولكنهم أخذوا غصن الشجرة ولم يمسكوا بساقها، فجعلوا أصلها «ثَقِفَ يَثْقَف»،

وكذلك صنعت المعاجم من القاموس المحيط إلى المعجم الوسيط الذي وضعه مجمع اللغة العربية في مصر، وبينهما المعاجم كلها، حتى المعجم الذي لم يؤلَّف مثله وهو «مقاييس اللغة» للإمام أحمد بن فارس.

وهذا من عيوب معاجمنا (أي قواميسنا)، فإنها لا تراعي التسلسل التاريخي لمعاني الكلمات. بل ينسى الأساتذة العصريّون ممن كتب في موضوع الثقافة إن الاسم يوضع قبل الفعل، فهو الأصل والفعل مشتَقّ منه ومتفرّع عنه. ولي تعليقات كثيرة على المعاجم، منها بحث في المعنى الأصلي من معاني الكلمة التي توردها، ولكنني -على عادتي في إضاعة ما أكتب وما أُعِدّ- لم أجمعها، وإنما تركتها في ذهني تأتي بها المناسبة ويذهب بها النسيان.

ومما لاحظته على المعاجم أنها أساءت في شيء كانت تستطيع الإحسان فيه؛ وهو أنها تسرد المعاني المتعددة للكلمة الواحدة، أو اختلاف وزنها الصرفي، تحشدها كلها حشداً. ولو أنها بيّنَت أن كل واحدة منها لغةُ قبيلة من قبائل العرب، فنسبَتها إليها وعَزَتها إلى مصدرها، لأفاد الناس من ذلك أكبر الفائدة. ذلك أن قبائل العرب لم تكن في منزلة واحدة من الفصاحة، وأن المعاني المختلفة أو الأوزان المتعددة بعضُها مثل الحديث الصحيح، وبعضها مثل الحديث الحسن، وبعضها مثل الحديث الضعيف. فلو أن علماء اللغة الذين دوّنوها وألّفوا معاجمها ميّزوا بينها وفعلوا فعل المحدّثين لكان من ذلك نفعٌ كبير.

فأصل مادّة الثقافة من «الثِّقاف»، وهو اسم لخشبة مثقوبة،

فإذا أرادوا أن يقوّموا قناة الرمح قطعوا الغصن الذي يصلح لذلك ثم أحموه على النار ثم أدخلوه في هذا الثقب المثقوب في الخشبة وقوّموه وأزالوا اعوجاجه. هذا هو الأصل في مادّة الثقافة، ثم اشتقّوا من هذا الاسم فعلاً فقالوا: رمحٌ مُثقَّف، أي مقوَّم. ولمّا كانت الألفاظ توضَع للموجودات المدرَكة بالحسّ ثم تنتقل إلى ما وراء الحسّ من الصور المعنوية والمعاني المجردة، فقد نقلوا معنى «المثقَّف» من القناة التي قوّمنا عِوَجها بالثّقاف إلى الإنسان الذي قوّمنا طباعه وفكره بالثقافة.

وكذلك نجد معناها في الفرنسية، فهو فيها معنى مجرّد لا حقيقي، فهم يدعونها «كولتور»، وهي كلمة تدلّ في حقيقتها على الحرث والزرع. ويقولون للرجل «كولتيفه»، أي محروث أو مزروع.

ولا يقتصر معنى الثقافة على تلقّي العلوم، بل تشمل سلوك الإنسان في كلامه وفي طعامه وفي يقظته ومنامه.

* * *

-١٨٨-

حلقة خاصّة في تصنيف العلوم

أنبّه قراء هذه الحلقة إلى أمور. الأول: أن فيها بحثاً علمياً جافاً ليس فيها طرفة نادرة ولا حادثة مشوّقة. فهل رأيتم أحداً يبدأ كلامه بالتنفير من كلامه؟

والثاني: أنها كالصلة لِما قبلها، لا تُفهَم إلاّ معها مقرونة بها، فأرجو أن تضعوا سابقتها أمامكم أو أن تُحضروها أذهانكم.

والثالث: أنكم ستقرؤون هنا كلاماً كالذي تجدونه في مدخل كتابي «تعريف عامّ بدين الإسلام» (الذي طُبع بإذني وبلا إذني أكثر من عشرين طبعة)، فالذي تقرؤونه هنا هو ما ألقيته على الطلاب في دمشق سنة ١٣٦٣هـ، وسبق أن ألقيتُ مثله على طلاب العراق سنة ١٣٥٦، أي قبل ذلك بسبع سنين، ونشرتُ طرفاً منه في «الرسالة» في عدد ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦، ثم ألقيته على طلاب كلية التربية في مكة سنة ١٣٨٤ وما بعدها، وطبعوه وكانوا يتداولونه.

كرّرته وأعدته، لكنني كنت أبدّل فيه وأُعدّل حتى نضج في ذهني واختمر، وجاء في كتاب «التعريف» خميراً ناضجاً.

* * *

أنا أقدَم (أو مِن أقدم) مَن درّس هذه المادة المحدَثة: مادة الثقافة الإسلامية، في دمشق أولاً ثم في مكة. ولم أكن مقيَّداً بمنهج محدَّد لأنه لم يكن أمامي مثل ذلك المنهج، فكنت أبدّل موضوعاتها تبعاً لما أجد من حال الطلاب وحاجتهم إلى ما يُلقى عليهم.

والغريب أني وجدت في عدد «المسلمون» الصادر يوم ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٦، أي بعد ثلاث وأربعين سنة من شروعي في تدريسها، خبراً بأن اللجنة العليا للدعوة الإسلامية في الأزهر انتهت من إعداد منهج متكامل (يقصدون أنه كامل) للثقافة الإسلامية التي تَقرّر تدريسها في الجامعات المصرية اعتباراً من العام الجامعي المقبل.

وشيء آخر أنبّه إليه، هو أنه ليس من عادتي في هذه الذكريات أن أفيض في الكلام على المسائل العلمية ولا أن أضمّنها مباحث أو خلاصة عن هذه المباحث، ولكني خالفت عادتي هذه المرة فتكلمت عن تصنيف العلوم عند علمائنا، لأنني لم أجده مجموعاً في كتاب، بل نقّبت عنه حتى وفّق الله فجمعتُه[1]، فهو جزء من عملي لذلك ساغ أن أضمّه إلى ذكرياتي، ثم إنه يُفيد قارئ الجريدة كما يُفيد طالب الجامعة.

قلت إن الثقافة تشمل عادات المرء كلها: في شرابه وطعامه، وفي مشيه وقيامه، وفي صوته وكلامه، وفي لبسه وهندامه[2]. ومن

(١) سنة ١٣٦٣، أي قبل ستّ وأربعين سنة.

(٢) الهندام كلمة فصيحة.

الثقافة نظافة الثياب وأناقتها ولو رخص ثمنها، وأن يشرب الماء مصّاً بلا صوت لا يَشرقه شَرقاً، وألاّ يفتح فمه والطعام في فيه، وألاّ يمضغه مضغ الجمل عند الاجترار، وأن يلبس ما يلبس الناس ما لم يكن مخالفاً للشرع لئلاّ يكون موضع سخريتهم أو ازدرائهم، والمسلم يترفّع عن أن يضع نفسه موضع السخرية والازدراء.

ولو قرأتم وصف الحياة الاجتماعية أيام العباسيين في الكتب القليلة التي عرضَت لها، ككتب القاضي التنوخي (مثل «الفرج بعد الشدة») وبعض ما كتب الجاحظ، وهو قليل جداً، لرأيتم أن للمائدة عندهم آداباً متّبَعة وأساليب مقرَّرة كالذي عند الإفرنج اليوم، ومنها أن الطعام إما أن يُقدَّم جملة واحدة فيختار الضيف ما يعجبه، أو أن يُقدَّم صنفاً بعد صنف. وكان لكل طعام أسلوب في تناوله، وفي «البخلاء» للجاحظ نقد لمن يأكل أكلة على غير أسلوبها.

ووجدتُ أرجوزة في بيان آداب المائدة. ولا تعجبوا منها، فإن أول مَن وضع آداب المائدة هو المعلم الأعظم ﷺ، حين أمر بغسل اليد قبل الطعام، وقال: «كل بيمينك وكل مما يليك»، وأمر بتصغير اللقم، وألاّ نستعمل أكثر من ثلاثة أصابع، وبيّن ما يؤخذ منه واحدة واحدة وما يؤخذ اثنتان، ووضع لتقديم الشراب قواعد، أولاً لكبير القوم ثم مَن على يمينه، واستعمل السكّين في قطع اللحم، وأحسب أنه لو كانت الملعقة والشوكة في أيامه لغلب على الظنّ أنه يستعملها، لأن الإسلام لا يعارض الأوضاع المدنية ولا ينافي الأعراف الاجتماعية التي ليس فيها مخالفة ظاهرة لشرع الله.

ولكن الثقافة المقصودة ليست في شيء من هذا وإن كان هذا كله معدوداً منها. وهي لا تقتصر على أسلوب المرء في التفكير ولا على مبلغه في العلم، وإن كان ذلك أكبر مظاهرها وأكثر ما يدلّ عليها، لذلك اقتصرتُ هنا عليه، فبدأت دروسي في الكلية الشرعية التي أحدّثكم عنها بالكلام على مصادر الثقافة.

مصادر الثقافة: للثقافة أو العلوم مصدران: كسبي وتوقيفي. وعند الكلام على العلم المكتسَب لا بدّ من تصوّر العالِم الذي هو الإنسان، والمعلوم الذي هو الكون، وطريق العلم.

ومصادر العلم المكتسَب وطرقه هي الحواسّ والخيال والعقل. فالحواسّ هي منافذ النفس التي تطلّ منها على العالَم الخارجي، والحسّ يُفيد العلم حتماً، فإذا مارى الإنسان فيما يسمع خبره فلا يستطيع أن يماري فيما يراه أو يلمسه. غير أن الحواسّ لا تُطلِعنا على كل شيء في الوجود؛ أنا لا أدرك ببصري نملة تمشي على بعد أميال ولا أسمع لها صوتاً، مع أن لها وجوداً وصوتاً. والحواسّ ربما تُخطئ، كأن ترى بعينك القلم المستقيم الموضوع في الماء منكسراً أو ترى السراب ماء. والحواسّ ليست كاملة، بدليل أنهم اكتشفوا حواسّ غير الخمس المعروفة، كحاسّة البرودة والحرارة، وحسّ التوازن، والحسّ الداخلي.

فالحواسّ إذن تُفيد العلم ولكنها لا تُطلعنا على كل الموجودات، فلا يحقّ لنا أن نُنكِر أشياء (كالجنّ أو الملائكة مثلاً) لمجرَّد أننا لا نراها ولا نحسّ بها.

ثم يأتي بعد الحواسّ الخيال. والخيال هو القوة التي

تستحضر بها النفس المُحَسّات (أي المحسوسات) عند غيابها، فأنا أستطيع أن أتخيّل داري في دمشق وأنا في مكة، أي أنني أرى بعين الخيال كل ما كنت أراه فيها بعين الحقيقة. والخيال أحد طرق العلم، وإن لم يكن يُفيد العلم وحده، فالرياضي يتخيّل نتيجة المعادلة قبل حلّها، والشاعر يتخيّل القصيدة قبل أن يُتمّ نَظْمها، والعالِم يتخيّل ثمرة البحث قبل أن يكمله.

غير أن الخيال له حدود، فنحن لا نستطيع أن نتخيّل إلاّ ما أدركناه أو أدركنا أجزاءه من طريق الحواسّ. وإن أبعد الخيال (كتخيّل رائحة حمراء مثلاً، أو ما يقوله المذيع كل يوم: تسمعون تلاوة عطرة من سورة كذا...) هذا كله مأخوذ من الواقع، ولكننا وضعنا الرائحة حيث يجب وضع اللون والصوت. لذلك يستحيل أن نتخيّل شيئاً من أمور الآخرة على حقيقته، وهذا مصداق قول ابن عباس: «ما في الدنيا ممّا في الآخرة إلاّ الأسماء».

ثم يأتي العقل. والعقل هو القوة المميّزة في الإنسان وهو طريق العلم الصحيح، غير أن العقل لا يستقلّ بإدراك الموجودات كلها لأنه مقيَّد بالزمان والمكان فلا يدرك ما وراء المادّة، ولأن عمله لا يزيد على ترتيب وتحقيق المعلومات التي جاءته من طريق الحواسّ، ولأنه محدود لا يتصوّر غيرَ المحدود (أي اللانهاية)؛ ولذلك يبقى الإنسان على جهل بما وراء المادة حتى يمنحه الله طريقاً آخر للعلم هو «المصدر التوقيفي»، أي طريق الوحي. لا الوحي الذي يفهمه الكتّاب والشعراء ويعنون به الإلهام النفسي، بل الوحي الذي هو نزول الملَك بمعلومات ليست من عند العقل.

هذا المصدر هو المصدر الأهمّ، لا في رأي علمائنا فقط بل في رأي أعلام الفلاسفة الغربيين كديكارت ولايبنتز ودوركايم. وتفصيل هذا كله في كتابي «تعريف عامّ بدين الإسلام» الذي أُلِّف وطبع بعد إلقاء هذه الدروس بسنين طويلة[1].

* * *

ثم بحثت في دروسي التي ألقيتها في مادة «الثقافة الإسلامية» في العلم: ما هو وما حقيقته؟ ثم تذكّرت ما درَسناه في شعبة الفلسفة (وقد نلتُ شهادتها سنة ١٩٢٩) من تصنيفات العلوم لبعض فلاسفة اليونان وبعض أعلام الغرب، فحاولت أن أجد مثلها لعلمائنا. وعكفت على الكتب وحبست نفسي في المكتبة أياماً، فوجدت الكثير، فوضعته إلى جنب ما كنا درسناه في علم المنطق التجريبي وجعلت منه فصلاً طويلاً يصلح أن يُطبع في رسالة أو كُتيّب، ولكني فقدته فضاع.

والمنطق التجريبي، أو المنطق العلمي، هو غير المنطق الصوري، منطق أرسطو الذي عُني به علماؤنا وأولَوه ما لا يستحقّ من هذه العناية، وأدخلوه في البلاغة وفي النحو، بل وفي العقائد (أي في علم الكلام) فأفسد كل علم دخل فيه.

لمّا بحثت عن أوراقي فلم أجدها سألت عنها من هو في المملكة ممن كان يومئذ من الطلاب، وكلهم الآن من الأساتذة الكبار، فما وجدتها عند أحد منهم. ولو أني تعودت أن أكتب كل

---

(١) انظر فصل «قواعد العقائد» في كتاب «تعريف عام بدين الإسلام»، ومقالة «العقيدة بين العقل والعاطفة» في كتاب «فِكَر ومباحث» (مجاهد).

ما أُعِدّه من محاضرات ومن أحاديث ومن دروس، ونشرتها يومئذ في مجلة أو طبعتها في رسالة، لانتفعت بها وانتفع بها الناس. ولكن «لو» تفتح عمل الشيطان.

ما وجدت إلا مسوَّدات فيها رؤوس المسائل التي ألقيتها، بل فيها إشارات إلى رؤوس المسائل مكتوبة على عجل، قرأت بعضها ولم أستطع -لسوء الخط- قراءة بعضها وأنا كاتبها! وكثيراً ما يقع لي مثل هذا: أُعِدّ محاضرة أو مقالة علمية، فأكبّ على المراجع وأغرق في صفحات المجلَّدات وبيدي قلم وورق أدوّن ما أجده نافعاً لي في مقالتي أو محاضرتي، أشير إليه ولا أدلّ عليه، أُجمِل ولا أفصّل وألمّح ولا أصرّح، وفي ظني حينئذ أن الإشارة والإجمال والتلميح بلا تصريح يكفي. فإذا مر الزمان وعُدت إليها -كما أعود الآن- لم أستطع أن أحلّ رموزها ولا أن أدرك المُراد منها، فضلاً عن أن أكتفي بها. ولقد أضعت على نفسي وعلى الناس بهذه الخطة الحمقاء مقالات وفصولاً ومباحث لو أنها كُتبت في حينها لكان منها الكثير الطيب.

وجدت مسوَّدات أرجو أن تأذنوا لي أن أُثبِتها هنا كما وجدتها.

تكلمت أولاً عن العلم: ما هو العلم؟ فوجدت أن العلم بالمعنى اللغوي هو ما يقابل الجهل، وأن العلم بالمعنى الأصولي المنطقي هو الذي يقابل الظنّ، أي أن مراتب الوجود الذهني عند علمائنا ثلاث: «الشكّ»، وهو تَساوي جانبَي الإثبات والنفي. فإن سُئلتَ وأنت في المدينة: هل في القرية مطر؟ قلتَ: لا أدري. لأن احتمال نزول المطر كاحتمال عدمه، وليس لديك دليل لنفيه ولا

لإثباته. فإن لمحت في الأفق من جهة القرية سحاباً رجح عندك جانب الإثبات رجحاناً قليلاً، ٥٥ بالمئة مثلاً، فقلت: «أظنّ» أن فيها مطراً. فإن تراكب السحاب وتراكم واسودّ ولمعت خلاله البروق صار عندك «غلبة الظنّ». فإن ذهبت إلى القرية فرأيت المطر، أو تواتر به إليك الخبر، فهذا هو «العلم».

فالعلم هنا بمعنى اليقين، ولذلك قال جمهور العلماء إن حديث الآحاد لا يُفيد العلم ولو صحّ، وإنما يُعمَل به بغلبة الظنّ. وقال أهل الحديث وكثير من فقهاء الحنابلة إنه إن صحّ أفاده. فمن أنكر -على رأي الجمهور- عقيدةً جاءت في حديث آحاد لم نحكم بكفره، لأننا لا نستطيع أن نجزم بأن الرسول ﷺ قاله كما نجزم بأن القرآن هو كلام الله، وإن كان المحدّثون بذلوا من الجهد في تحقيق الأسانيد غاية ما في طاقة البشر.

أقسام العلم

والعلم بمعنى اليقين قسّمه علماؤنا إلى «علم ضروري»، وهو اليقين الذي يجيء من طريق الحسّ، و«علم نظري»، وهو ما يحتاج إلى دليل.

ثم إن عندنا «العلم» الذي يقابل «الفنّ»، ومن هنا قلنا «علم الكيمياء» و«علم النحو»، وقلنا «فنّ التصوير» و«فنّ الإنشاء».

والعلم يمتاز من الفنّ بالغاية وبالوسيلة وبالأداة. فالعلم غايته الحقيقة والفنُّ غايته الجمال، والعلم وسيلته المحاكمة والفنّ وسيلته الشعور، والعلم أداته العقل والفنّ أداته العاطفة أو القلب كما يقولون. ومما يلاحَظ أن الأمم كلها قديمها وحديثها تخصّ القلبَ

بالعاطفة والعقلَ بالفكر، ولعلّ منشأ ذلك أن الإنسان الأول كان يجد أنه إذا فكّر أصابه الصداع وإذا رأى الجمال أو هاج به الغرام أحسّ الخفقان، فظنّ أن هذا من ذاك وأن الفكرَ بالعقل والعاطفةَ بالقلب. على أنه إذا أُطلق القلب في القرآن أريدَ به مُطلَق اللبّ، لا هذا القلب المادي الذي يضخّ الدم، فكأن المُراد بالقلب في القرآن الفكر والشعور ولو خصّه بأنه الذي في الصدور، والله أعلم.

ومن العلماء المحدَثين مَن يضيّق دائرة العلم حتى لا تتّسع إلاّ للعلوم التجريبية، وليس ذلك بمسلَّم لهم.

وكان علماؤنا يفرّقون بين العلم والأدب، فالعلم تخصُّصٌ وتعمُّق في علم واحد، والأدب أخذٌ من كل شيء بطرف؛ فكان معنى كلمة «الأديب» قديماً كمعنى كلمة «المثقَّف فكرياً» الآن.

وقد جعل الصوفية العلم عِلمَين: علم الظاهر وعلم الباطن، فجاؤوا فيما سمّوه بعلم الباطن بطامّات وبلايا يُنكِرها العقل ويردّها النقل.

تصنيف العلوم

أمّا تصنيفات العلوم فهي كثيرة متعددة بتعدّد الأسس التي يمكن بناؤها عليها، فمن العلماء مَن صنّفها تبعاً لحكمها في الشرع كالغزالي تارة، وتبعاً لغير ذلك تارات أخرى. ومنهم من صنّفها باعتبار أصلها كابن خلدون والحفيد[١]، ومنهم من صنّفها

---

(١) لعله ابن رشد الحفيد، صاحب «بداية المجتهد» في الفقه و«تهافت التهافت» في الفلسفة (الذي ردّ فيه على الغزالي في «تهافت=

بحسب طبيعة موضوعها كطاشْكُبْري زاده، ومن صنّفها بغايتها كأرسطو، أو بالملَكة البشرية المتعلقة بها مثل بيكون ودروكايم، أو بموضوعها مثل مُلاّ كاتب جَلَبي[1] وأوغست كونت. والتصنيف يختلف باختلاف الأزمنة، إذ قد تظهر علوم جديدة ويتبدّل محتوى بعض العلوم بازدياد موضوعاتها أو نقصها، أو اندماجها في علوم أخرى.

وقد وجدتُ خلال مطالعاتي تصنيفات أخرى كثيرة اخترت منها كالمثال عليها بعض هذه التصنيفات.

<u>**تصنيف الغزالي**</u>: صنّفها الغزالي باعتبار حكمها في الشرع إلى مُهمّة وغير مُهمّة. وقسّم المُهمّة إلى ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، أي أنه فرض على المجموع لا على كل فرد منه فإذا قام به بعض سقط الإثم عن الباقين. وقسّم غير المُهمّة إلى ما هو مُباح وما هو مذموم. وشرح اختلاف العلماء في العلم الذي هو فرض عين في حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وذهب فيه مذهباً وسطاً، وقال بأن العلم المفروض يختلف باختلاف الأشخاص واختلاف الأزمنة والأحوال، فمَن أسلم ضُحى من نهار وجب عليه أن يعرف ما يصحّ به إيمانه، فإذا كان

= الفلاسفة»)، وهو ليس من المشهورين بالكتابة في هذا الموضوع (أي تصنيف العلوم). ولعل في كتابه «فصل المقال» شيئاً من ذلك، أقوله ظانّاً غير واثق، والله أعلم (مجاهد).

(١) هو المعروف باسم «حاجي خليفة»، وكتابه الذي صنّف فيه العلوم وعرّف بكتبها تعريفاً بِبْليوغْرافيّاً هو «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (مجاهد).

الظهر وجب عليه معرفة الوضوء والصلاة، فإن أدركه رمضان وجب عليه معرفة أحكام الصيام، فإن امتلك النصاب وجب عليه معرفة أحكام الزكاة... ومن أراد زيادة الوقوف على رأيه فليرجع إلى كتبه: «الإحياء» و«فاتحة العلوم»[1] وكتاب «ميزان العمل».

وقسّم العلوم باعتبار أصلها إلى شرعية وغير شرعية، فغير الشرعية منها ما هو عقليّ كالرياضيات، أو تجريبي كالطب، أو سماعي كاللغة. والشرعية تقسم عنده إلى أصول وفروع ومقدّمات ومتمّمات.

تصنيف ابن خلدون: قسّمها إلى «طبيعية» يهتدي إليها الإنسان بفكره، و«نقلية» يأخذها عمّن وضعها. فالطبيعية هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي عامّة لجميع البشر. ويلاحَظ أن الفلسفة على عهد ابن خلدون كانت تنتظم العلومَ كلها، أي أنها كانت لها كالأم الحاضنة للأولاد الصغار، فكلما كبر علم استقلّ عنها، وآخر علم استقلّ (أو كاد) هو علم النفس. وصارت الفلسفة في أيامنا قاصرة على مسائل المغيَّبات (الميتافيزيقا). وقال إن العلوم النقلية مستمَدّة من الخبر إلى الواضع الشرعي، وهي خاصّة بالمسلمين ولا مجال للعقل فيها إلاّ في إلحاق الفروع بالأصول، وأصلها الكتاب والسنة.

تصنيف ابن النديم: أمّا ابن النديم المتوفّى سنة ٣٨٥ صاحب «الفهرست» فليس له تصنيف كامل للعلوم، وإنما يُستنبَط من كتابه

---

(١) ورد باسم «فاتحة العيون» في الطبعات السابقة من الذكريات، وهو خطأ صوابه ما أثبتُّه هنا (مجاهد).

الذي جعله عشرة فصول (أو عشر مقالات كما سمّاها) وجعل كل طائفة من العلوم في مقالة منها، وتكلّم عن لغات الأمم وخصائصها، ثم عن كتب الشرائع المنزلة، ثم النحو واللغة، ثم التاريخ، ثم الشعر، ثم علم الكلام، ثم الفقه والحديث، ثم الفلسفة والعلوم القديمة، ثم الأسمار والخرافات والسحر والشعوذة، ثم المذاهب والاعتقادات (انظر مقدّمة الفهرست).

تصنيف شمس الدين السنجاري المتوفى سنة ٧٤٩: قسّم العلوم إلى مقصودة في ذاتها ومقصودة لغيرها. فالأولى هي العلوم الحكمية، وهي عنده إما نظرية كالفلسفة والطبيعيات والهندسة، وإما عملية كالسياسة والأخلاق وتدبير المنزل. والثانية علوم الأدب، فهي عشرة: اللغة والتصريف والمعاني والبيان والبديع والعَروض والقوافي والنحو والخط والقراءة. ثم العلوم الشرعية وهي ثمانية: القراءات ورواية الحديث ودرايته والتفسير وأصول الدين وأصول الفقه والجدل وعلم الخلاف. ثم العلوم العقلية وهي الطب والبيطرة والبيزرة (وهو طب البُزاة، وقد كتبت عنه في مجلة الرسالة من أكثر من خمسين سنة[١]) والفراسة وتعبير الرؤيا (والحقيقة أن تعبير الرؤيا ليس بعلم) والنجوم والسحر والطلّسْمات (وهذه كلها ليست من العلوم) والكيمياء والسيمياء

(١) في مقالة عنوانها «كتاب في البَيْزَرة»، نُشرت في «الرسالة» سنة ١٩٣٥، وفي مطلعها أنها وصف لنسخة فريدة من كتاب مفقود في هذا العلم. وهي ضمن مجموعة من المقالات جمعتها لتصدر في كتاب جعلت عنوانه «فصول في الثقافة والأدب»، وأرجو أن يصدر غيرَ بعيد بإذن الله (مجاهد).

والفلاحة والمرايا المحرقة والمساحة والمياه (راجع كتابه «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»).

تصنيف طاشْكُبْري زاده: قال في كتابه العظيم «مفتاح السعادة» إن الأشياء لها وجود في أربع: في الكتابة، وفي الألفاظ، وفي الأذهان، وفي الأعيان (وأقول أنا إن هذا التقسيم مأخوذ من الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»).

وصنّف طاشكبري زاده العلوم تبعاً لذلك، فجعل من القسم الأول الكتابة وعلم الخط والإملاء. ومن الثاني اللغة وعلم الوضع (أقول: وقد كان يُدرَّس على أيامنا ثم أهملَته المدارس) والاشتقاق والتصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعَروض والقافية والإنشاء وقرض الشعر والشروط والسجلاّت والأحاجي (أي الفوازير) والأغلوطات والتاريخ والمغازي.

ومن الثالث المنطق والجدل والمناظرة والخلاف (وهو ما نسمّيه اليوم «الفقه المقارن»). وقسّم الرابع إلى: «إلهيّ» ومنه علم النفس (وهو غير ما ندرسه باسم السيكُلوجي) وعلم المَعاد (أي الآخرة) ومقالات الفِرَق. و«رياضيّ»، كالعدد (أي الحساب) والهندسة والهيئة (أي علم الفلك) والموسيقى. و«طبيعي»، وهو الطب والبيطرة والبيزرة والنبات والحيوان والفِلاحة (أي الزراعة) والمعادن والفراسة وتعبير الرؤيا والنجوم والسحر (وهذه ليست علوماً) والكيمياء والكحالة (أي طب العيون) والصيدلة والجراحة.

وقد جمعتُ تصنيفات أُخَر، ولكنني أجتزئ هنا بالذي كتبته وأعتذر إلى القارئ بأنني جعلت هذه الحلقة من الذكريات بحثاً علمياً قد ينفع ولكنه لا يمتع.

* * *

إن لذكرياتي في الكلية الشرعية صفحات أربعاً:

صفحة تدريسي فيها. وقد درّست الثقافة الإسلامية كما بيّنت لكم، ثم درّست لطلاب القسم العالي في الكلية لمّا أُنشئ الجزءَ الثاني من أمالي القالي.

وصفحة عملي في رياسة مجلس العمدة، الذي كان المرجع الأعلى للكلّيات الشرعية (أو الثانويات الشرعية كما سُمّيت بعدُ) في سوريا كلها.

والثالثة أنهم لمّا وحّدوا المدرستين، كليتنا هذه ومعهد العلوم الشرعية الذي أنشأته الجمعية الغرّاء، كنت رئيس هذه العمدة الموحَّدة بحكم كوني القاضي الممتاز في دمشق، أي لوظيفتي الرسمية لا لعلمي ولا لفضلي.

وصفحة رابعة هي لمّا كلّفني السرّاج (وزير الأوقاف أيام الوحدة مع مصر) بوضع مناهج الكليات الشرعية، فوضعتُها كلها وحدي بعد أن استشرت علماء الشام وحاورتهم، ثم ذهبت إلى مصر وقابلت الشيخ شلتوت شيخ الأزهر، الذي عرفته قديماً في مجلس الشيخ عبد المجيد سليم وفي إدارة «الرسالة» وشرّفني حقاً بصداقته، وإن أنكرتُ عليه ما ذهب إليه في آخر عمره -رحمه

الله- في مسألة الربا. قابلت الشيخ شلتوت والدكتور البهي وفريقاً من علماء الأزهر، ثم وضعت هذه المناهج التي تسير عليها المدارس الشرعية اليوم.

ولكل واحدة من هذه الصفحات الأربع قصة أرجو أن أوفَّق إلى روايتها إن شاء الله. وسأكتب إن وفّق الله عمّن عرفت من الرجال في الكلية؛ أروي أخبارهم وألخّص سِيَرهم، وفي بعض أخبارهم ما يُفيد وفي بعضها ما يسرّ ويسلّي.



-١٨٩-

في الفقه الإسلامي والأحوال الشخصية

أحاول في هذه الذكريات ألاّ أقصر القول على ما كان مني أو ما وقع لي، بل أن أضمّنها شيئاً من الأدب يلذّ ويمتع أو قليلاً من العلم يفيد وينفع. وقد تعلّمت هذا الأسلوب من الإمام السبكي في «طبقات الشافعية»، فإنه إن ذكر مناظرة بين عالِمين لخّصها وبيّن وجهة كل منهما، وإن عرض لذكر مسألة عرّف بها ولم يكتفِ بالإشارة إليها؛ كما صنع عند الكلام عن محنة خَلق القرآن وموقف الإمام أحمد منها، فقد فصّل القول فيها -على بُعد عهده من عهدها- فكان كتابه أوفى مرجع للباحث فيها، وامتاز من كتب التراجم الكثيرة جداً بأنه كان كتاب علم وأدب فوق أنه كتاب تاريخ وخبر. وما أنا مثله ولكن أتشبّه به:

فتشبّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهمْ ... إنّ التشـبّـهَ بالكِرامِ فَـلاحُ

وكان ذلك مزيّة لذكرياتي عند قوم من القراء، كما كان عيباً عند آخرين يأخذونه عليّ، كما يأخذون عليّ أني أشرع في موضوع ثم أنتقل عنه إلى غيره قبل أن أحيط بخبره، ثم أعود إليه.

وهذه سنّة الحياة. والذين يكتبون القصص التي يدعونها

«واقعية» لا يروون حوادثها كما وقعت، بل يجمعون الشيء إلى ما يماثله ويقاربه، فيكون من هذه الأشباه والنظائر ما يُظَنّ واقعاً. وما وقع[1]؛ ما وقع ولكن وقعَت أجزاؤه متناثرة، فجمعها الكاتب فنظمها في سلك فكانت قصة واقعية.

ولعلّي عندما أعيد طبع الذكريات (التي صدر منها جزءان، وجزءان على الطريق قد صدرا ولم يصلا، وثلاثة مُعَدّة للطبع، ولا أزال فيها كلها قبل أكثر من أربعين سنة من يوم الناس هذا) لعلّي حين أُعيد طبعها أبدّل تنسيقها وترتيبها، أو تتولّى ذلك إحدى بناتي أو بعض أحفادي بعد موتي[2].

* * *

أبدأ هذه الحلقة بإنذار، لا أُنذِركم خطراً محقَّقاً ولكن مللاً متوقَّعاً وسآمة وضيقاً؛ ذلك أن هذه الحلقة جاءت أيضاً علمية فقهية. إنها كطعام كله لحم ودهن وبروتينات ومغذِّيات، ولكن ليس معه

---

(١) ما هنا نافية، ليست موصولة كالتي قبلها (مجاهد).

(٢) صنعت ذلك، فاستللت من الكتاب ذكريات علي الطنطاوي مرتَّبة متسلسلة، لكنني فقدت عندئذ جزءاً كبيراً من مادة «الذكريات» المنشورة لأنني وجدته بعيداً عن الذكريات الحقيقية (كهذه الحلقة والتي قبلها مثلاً). ثم إنني أضفت إلى هذه «الذكريات» الجديدة ما يكمّلها، مما استخرجته من بطون بعض الكتب المنشورة الأخرى أو من مادة مخطوطة، بعضها لم يُنشَر من قبل قط وبعضها نُشِر في بعض الصحف ولم يضمّه أي من الكتب المنشورة، ومن ذلك كله جاء كتاب كبير سمّيته «قصة حياة علي الطنطاوي بقلمه»، ولا أدري أيُنشَر هذا الكتاب ذات يوم أم يبقى حبيس الأدراج (مجاهد).

أبازير ولا مشهّيات، فمَن صبر عليه استفاد إن شاء الله منه، ومن لا يصبر فليبتعد عنه وسيجد العوض في الحلقات المقبلات.

الفقه الإسلامي -يا أيها القراء- شيء عظيم ليس لأمّة في الدنيا مثله، لا أمس ولا اليوم. ولقد كان لروما قوانين وأبحاث حقوقية مدوَّنة، وفي الدنيا اليوم كلّيات حقوق وعلماء في الشرع (ولا تقُل في التشريع)، وفيه كتب لا تُحصى، ومحاكم فيها قضاة وفيها محامون علوا في منازل السموّ الفكري البشري، وتعمّقوا في البحوث وغاصوا فيها حتى استخرجوا الجواهر من أعماق الفكر ومن زوايا المجتمع ومن خفايا الضمائر.

ولكن ذلك كله لا يشبه الفقه الإسلامي ولا يقاربه. هذا كله للصلات المالية والحقوقية المادّية بين الناس. وإذا قلنا «الفقه الروماني» أو «الحقوق الرومانية» أو قلنا «الفقه القانوني الحديث» فإنما نقوله على نوع من التجوّز الواسع والتشابه البعيد؛ فالفقه الروماني والحديث غايته أن يكون موافقاً للقانون ليكون صواباً، والمؤيِّد له: الشُّرطي والضمير البشري، والشرطي قد يغيب فلا يَرى والضمير قد يغفل فلا يراقب. ومؤيِّد الفقه الإسلامي خوفُ الله الذي لا يغفل ولا يغيب ولا يخفى عليه شيء مما تصنع الجوارح وما يعتلج في القلوب والأفكار.

والفقه الإسلامي يشمل العبادات والمعاملات والمناكحات وأحكام الجنايات والعقوبات، أي أنه يبيّن لنا كيف تكون علاقة المرء بربّه وبأهله وبمن يعامله ومن يعيش معه؛ فهو دين بالمعنى الذي يفهمه غير المسلمين من كلمة الدين، وهو قانون مدني،

وقانون للأحوال الشخصية، وقانون للجنايات، وقانون إداري، ثم إنه -فوق ذلك- أخلاق.

وهذا كله صار اليوم معروفاً وصار القول فيه من الكلام المُعاد، ولكنه لم يكن كذلك من نحو ستين سنة لمّا أصدرتُ رسائل الإصلاح سنة ١٣٤٨هـ، التي كانت أول ما نشرتُ من الكتب، والتي أحمد الله على أن جعلني فيها من أوائل من عرّف من الشبان في هذا العصر بهذا الذي صار اليوم معروفاً، ومن أوائل من نشره في الناس بوسائل النشر الحديثة مكتوباً بالأسلوب الذي يفهمونه. وإن دار المنارة في جدة تستحثّني الآن على أن أكتب مثل تلك الرسائل وأجدّدها لأصل بها ما انقطع من نحو ستين سنة.

ومباحث الفقه منها ما يهمّ طائفة من الناس كالمعاملات المالية، ومنها ما يهتمّون به جميعاً ويحتاجون إلى معرفته جميعاً كأحكام العبادات: الصلاة والزكاة والحجّ (أعني كيفية أدائها لا تفصيل أحكامها) وأحكام الأحوال الشخصية الإجمالية، لأنها تعرض لكل زوج وزوجة وكل عازم على الزواج من الرجال ومن النساء.

لذلك جعلتُ هذه الحلقة للكلام عن الأحوال الشخصية والقانون الذي وضعتُ مشروعه، كما هو مصرَّح به في مذكّرته الإيضاحية التي تُعتبَر جزءاً منه، والذي كان أولَ قانون جامع للأحوال الشخصية في البلاد العربية، صدر سنة ١٩٥٣ (١٣٧٢هـ) ولا يزال العمل به في الشام إلى الآن.

وفي كل كتاب من كتب الفقه بيان أحكام الزواج والطلاق

والمخالعة والتفريق والعدّة والنفقات والنسب والحضانة والرضاعة وأحكام الأولياء والأوصياء وأحكام الوصايا والمواريث، ولكن لم يكن يجمعها هذا الاسم المحدَث، اسم «الأحوال الشخصية».

وكان المشايخ يقرؤونها ويُقرئونها تلاميذهم، لكنهم يقتصرون غالباً على الكتب المتأخرة التي تبيّن الحكم ولا تذكر دليله، أي أنها كانت كنصوص القوانين. وكانوا يُقبِلون عليها ويحيطون بما فيها ويحفظونه، وقد سلك بعض لِداتي وإخواني هذا الطريق فكانوا فقهاء فقه رواية وإحاطة بالمذهب، وبعضٌ سلك طريق الدراسة الحديثة في المدارس وعرف كثيراً من الجديد الذي لم يكن يعرفه المشايخ، وإن كان قد جهل كثيراً مما كانوا يعرفون.

وقدّر الله لي أن أسلك الطريقين، من غير أن أتمكّن من إحدى الحسنيَين، فلم أستوعب فروع الفقه ولم أحفظها كما استوعبها وحفظها إخواننا هؤلاء، ولم أُحِط بالجديد مثل إحاطة الآخرين، ولكن لم أهبط إلى الدرك الذي قيل في صاحبه:

هوَ في الفقهِ شاعرٌ لا يُبارى	وهْوَ في الشعرِ أفقهُ الفقهاءِ
لا إلى هؤلاءِ -إن نسبوهُ-	وجـدُوهُ، ولا إلى هؤلاءِ

لا، لم أصل إلى هذا. ولماذا أنسى فضل الله عليّ فأُنكِر ما كرّمني به؟ ولماذا لا أحمده على أن وفّقني فأخذت حظاً من الفقه وحظاً من الأدب؟ أنا لا أتواضع حتى أسلب نفسي حقّها ولا أستكبر حتى أدّعي لها ما ليس فيها.

أقول إني قرأت من الفقه على المشايخ أكثر ما كانوا يُقرؤون، وإن لم أقرأ كل ما قرؤوا. وفهمت والحمد لله كل ما قرأت وحفظته، ورُبّ قارئ لا يفهم وفاهم لا يحفظ. قرأت ما يُدعى اليوم بالأحوال الشخصية في كتب الفقه على أبي وأنا صغير مع تلاميذه الكبار، فلما مات من ثلاث وستين سنة (أي سنة ١٣٤٣هـ، وكنت أناهز السابعة عشرة) وذهبوا يقرؤون على الفقيه الكبير المفتي الشيخ عطا الكَسْم ذهبت معهم، فحضرت أكثر «فتح القدير» لابن الهُمام، وقرأت على جماعة من المشايخ كشيخنا الشيخ أبي الخير الميداني وغيره رحمة الله عليهم جميعاً.

ولكن جلّ انتفاعي كان بمجالسة العلماء والرجوع إلى الكتب، فما أسمعه منهم يُنقَش في ذهني فلا أنساه (وهذه المنّة من الله باقية عندي إلى الآن) وإن سمعت باسم كتاب أو قرأت شيئاً منقولاً عنه أو معزوّاً إليه بحثتُ عنه حتى وجدته فقرأته. وقد اطّلعت على مذهب أحمد لمّا طبع ولدي الفاضل النابغة الأستاذ زهير الشاويش كتبَه كلها بأمر الشيخ علي آل ثاني رحمه الله وعلى نفقته، واستفدت من إدمان النظر في كتب الفقه غير المذهبي مثل «نيل الأوطار» و«سبل السلام» و«فتح الباري»، واستفدت الفائدة الكبرى من مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله وجزاه خيراً وجزى مَن جمعها ومن طبعها.

وكان مكتب عنبر هو الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق، وإن كان فيها ثانويات أكثر أهلية ونصرانية. وكان عندنا في المكتب دروس في الفقه، وستعجبون إن علمتم أن كتاب «مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح» كان مقرَّراً تدريسُه والامتحان فيه لتلاميذ

الصف السابع، أي السنة الأولى من المدرسة المتوسطة! وهو كتاب مُغلَق الأسلوب صعب الفهم كثير التفريعات والاستطرادات، وربما يعسر فهمه اليوم على بعض المدرّسين.

وبعد ذلك بسنتين (أي في سنة شهادة «الكفاية» التي يسمّيها الناس «الكفاءة») كان مقرَّراً علينا كتاب «الأحكام الشرعية» لقدري باشا، الوزير المصري الفقيه المتمكّن. وهو كتاب جامع لأحكام الأحوال الشخصية في المذهب الحنفي، يأخذ بأصحّ الأقوال في المذهب. ولا يستطيع كل من تفقّه أن يختار الأصحّ عند تعدُّد الأقوال، ولا كان ذلك بالأمر السهل، بل إن عندنا علماً ألّف فيه ابن عابدين إحدى رسائله، هو علم «رسم المفتي» الذي يعلّم قارئه كيف يميّز القول الأصحّ والقول الصحيح عند ازدحام الأقوال.

وكان يدرّسه لنا الشيخ عبد القادر المبارك. وما عرفت بين أساتذتي في الدراسة وبين زملائي في التدريس أقدرَ منه على الشرح والإيضاح؛ يرفع صوته ويخفضه، ويبدّل لهجته وإيقاعه، ويشير بيديه ويمثّل بوجهه، ويكتب بالخط الثُّلُث على اللوح الأسود، ويضرب الأمثال، فلا نخرج من الفصل ولا تمرّ الساعة حتى تُنقَش المعلومات على ظهور قلوبنا نقشَ الإزميل الحادّ على الصخر فلا تُمحى أبداً.

وكنا نرجع بعد الدرس وأحياناً قبله إلى الشروح والحواشي، كحاشية ابن عابدين، والفتاوى الهندية العالِمْكيرية التي أمر بوضعها وشارك في تأليفها إمبراطور الهند المسلم الذي حكم

شبه الجزيرة كلها، أورانك زيب عالمكير، وانظر الكلام عنه في كتابي «رجال من التاريخ»[1].

وكنا نضيع بين التفريعات الكثيرة جداً، ما وقع من أحداثها وما تصوّر الفقهاءُ وقوعَه ليبيّنوا للناس الحكم فيه. وهذا الذي نقدتُه في رسائل الإصلاح التي كانت أول ما نشرتُ من كتب وقد سبق الكلام عنها.

* * *

وأشير هنا إلى أمر فيه فائدة للقارئ، تنبّهتُ إليه لمّا كنت مشغولاً بوضع مشروع قانون الأحوال الشخصية الذي عقدت هذه الحلقة للحديث عنه؛ هو أن أكثر المذاهب تفريعاً المذهبُ الحنفي، ثم المذهب المالكي، ثم الشافعي، ثم الحنبلي. وقد علّلت ذلك بأن المذهب الذي تتخذه الدولة مذهباً رسمياً لها: الفتوى عليه والقضاء وفق أحكامه، تكثر فروعه لأنه يواجه مشكلات الناس.

والمذهب الذي صار شبه رسمي للدولة العباسية -منذ تولّى الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة منصب قاضي القضاة، وهو بمثابة منصب وزير العدل أو رئيس مجلس القضاء الأعلى اليوم- ثم غدا المذهب الرسمي للدولة العثمانية هو المذهب الحنفي.

---

(١) انظر مقالة «بقية الخلفاء الراشدين» في كتاب «رجال من التاريخ»، وفيها أن أورانك زيب ألّف كتاباً في الحديث وشرحِه وترجَمَه إلى الفارسية، وأمر بوضع الفتاوى التي نُسِبت إليه فسُمّيت «الفتاوى العالمكيرية» وأشرف عليها وشارك فيها. قال: "وهي من أشهر كتب الأحكام في الفقه الإسلامي وأجودها ترتيباً وتصنيفاً" (مجاهد).

والمذهب المالكي صار مذهب الدولة في الشمال الإفريقي كله من الزمن القديم إلى الآن. والمذهب الشافعي لا أعرف أنه صار مذهباً رسمياً إلاّ في عهد الأيوبيين، ولمّا جعل الملك الظاهر المذاهب الأربعة رسمية وأنشأ لكل واحد منها محاكم يتولاها قضاة يحكمون به، وصار لها في المدارس -على أيامه وبعده- فروع، كالذي ترونه في مدرسة السلطان حسن في القاهرة في أواوينها الأربعة وفي أروقة الأزهر وغيره من المدارس. أما المذهب الحنبلي فلا أعرف أنه صار مذهباً رسمياً للإفتاء والقضاء، أو كالمذهب الرسمي، إلاّ بعد قيام الدولة السعودية. وإن كان القضاة والمفتون هنا لا يلتزمون بالمذهب الحنبلي بل يبحثون عن الدليل الصحيح، فحيثما وقفوا عليه وقفوا عنده وأفتوا به[1].

---

(١) يقسّمون الفقهاء إلى أصحاب الرأي وأهل الحديث. وليس المراد الرأي المجرَّد، فالرأي وحده لا يُعتبر دليلاً شرعياً، والدليل قول الله وما صحّ من قول رسولهﷺ. ولكن أهل الرأي ينظرون -كما يُقال اليوم- إلى مقصد الشارع، وأهل الحديث يقفون عند حرفية النص أو قريباً منها. وبعبارة أخرى: إن أصحاب الرأي يأخذون بالأدلّة مجتمعة ويفهمونها معاً، فإن وجدوها تجتمع على شيء جعلوه قاعدة، فإن ورد حديث على خلافها قلّبوا الوجوه في فهمه حتى يوافق القاعدة المستنبَطة من مجموع الأدلة. والآخرون يأخذون به ولو خالف القاعدة، أي ولو جاء على خلاف القياس.

وهاكم حديث المُصرّاة مثلاً، وهي الدابّة (الشاة مثلاً) التي يُربَط ضرعها حتى يجتمع فيه اللبن فيحسبها المشتري كثيرة الحلب، فإذا حلبها رجع ضرعها إلى ما كان عليه. لقد رُفعت هذه القضية إلى النبي ﷺ فقضى على المشتري الذي يريد ردّها بعد حلبها بأن يردّها =

فلما دخلت كلية الحقوق كان يدرّس لنا الأحوالَ الشخصية الشيخُ أبو اليسر عابدين، وهو عالِم واسع الاطّلاع عالي الهمّة كان يعيش للعلم، يقرأ ويُقرئ نهاره وليله، يكتب كل ما يجد في الكتب من غرائب المسائل، في الفقه وفي الاجتماع وفي الأدب وفي التاريخ، ويدوّن كل ما يخطر على باله مما ينفع الناس. ولم تكن العوائق لتعوقه عن طلب العلم مهما طال الطريق وتوعّرت المسالك؛ أراد -وهو كبير- أن يدرس الطب فاقتضاه ذلك تعلّم اللغة الفرنسية، فتعلّمها ودخل كلية الطب مع تلاميذه ومَن هم في سنّ أبنائه، وثبت على الدراسة فيها حتى خرج منها طبيباً. وكانت له عيادة يطبّب فيها المرضى كما كان يُفتي المستفتين، ثم صار مفتي الشام، أي مفتي الجمهورية السورية. وكان أبوه من قبله

= وصاعاً من تمر (وأنا أكتب الحديث من حفظي لم أراجعه). فهل يكون الصاع من التمر بدلاً دائماً للحليب، أم أن المشتري حين جاز له ردّها كان عليه أن يردّها على الحالة التي كانت عليها، وقد أخذ الحليب بغير حقّ، فكان هذا بدله (أي ما يعادله)؟ فقال أصحاب الرأي بأن عليه ما يعدل ثمن الحليب، والرسول ﷺ حدّد الصاع من التمر لأنه كان يومئذ معادلاً لِما حلبه. وقال الآخرون: بل الصاع هو الواجب عليه في كل حال.

في هذا وأمثاله نجد المذهب الحنفي والمذهب المالكي يتفقان، كاتفاق الشافعي والحنبلي. ومن تتبّع فروع المذاهب وجد أمثلة كثيرة على هذا، فلماذا عدّوا مالكاً على رأس أهل الحديث مع أنه أقرب إلى أهل الرأي؟ هذا ما عجبتُ منه ولم أفهمه، بل إنني كلما زاد اطلاعي على فروع المذهبَين وجدت مالكاً أقرب إلى أصحاب الرأي، فما قول السادة العلماء؟

الشيخ أبو الخير مفتي الشام، وعمّ أبيه هو صاحب الحاشية ابن عابدين، أفقه حنفي ظهر من نحو مئة وخمسين سنة.

كان يُقرئنا الأحكامَ على المذهب الحنفي من كتاب الأحكام الشرعية لقدري باشا، الذي ألّفه نحو سنة ١٣٢٨هـ وصاغه على أسلوب القوانين، مادّة بعد مادّة، صياغة عربية صحيحة فصيحة (لا كصياغة القوانين التي أخذناها من غيرنا فما وُفِّقنا في اختيار أحكامها ولا في أسلوبها ورصف كلامها) وضمّنها أصحَّ الأقوال في المذهب الحنفي. وكان الشيخ أبو اليسر مُحيطاً بالمذهب الحنفي إحاطة عجيبة مطّلعاً على كتبه كلها، ولولا أنني عرفته بملازمتي إياه سنين طوالاً لشككت إن حدّثني محدّثٌ بما أعرفه عنه. ولقد أرسلَت إليّ إحدى المكتبات العامّة هنا من سنين صورة عن كراس مخطوط في الفقه ما له عنوان وما عليه اسم المؤلف ولا تاريخ النسخ، فلم أعرفه، فكلمتُ شيخَنا بالهاتف من مكة وتلوت عليه فقرات من الكتاب، فعرفه وسمّى مؤلّفه! ثم تحققت أن ما قاله الشيخ هو الصحيح.

ولكن عيبه (وما خلا من العيوب إلاّ ملَك مقرَّب أو نبيّ مُرسَل، أو عبد من عباد الله المخلَصين) عيبه أنه كان يختار لنا ونحن طلاّب في كلية الحقوق نقولاً من أغرب كتب المذهب وأقلّها ذيوعاً وأكثرها تعقيداً، لنَأْلف -كما يقول- أسلوبها، ولا سيما في أصول الفقه. ولست أكتمكم أني خرجت من كلية الحقوق وأنا لم أستوعب علم الأصول، حتى قرأته في كتاب الشيخ محمد الخضري أولاً ثم في كتاب الشيخ عبد الوهاب خلاّف ثانياً، ثم درسته على أستاذنا الأديب اللغوي الأستاذ سليم

الجندي. ثم رأيت أن أقرب الطرق إلى إتقان علم هو أن تعلّمه الطلاب، فجمعت في سنين متتاليات كثيراً من مدرّسي الدين في المدارس الرسمية، وبينهم علماء أفاضل، فدرسته معهم ووزعنا كتبه بيننا حتى وفق الله ففهمته.

ثم قرأنا في كلية الحقوق قرار حقوق العائلة، وهو القانون الذي كان معمولاً به في المحاكم الشرعية أيام العثمانيين واستمرّ العمل به إلى أن وفّق الله فصدر قانون الأحوال الشخصية سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣). وقرارُ حقوق العائلة أصدرته الدولة العثمانية سنة ١٣٣٦هـ وأخذَت غالب أحكامه من اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية. وقد انصرفتُ وأنا طالب في الحقوق سنة ١٣٥٠هـ إلى المقابلة بين أحكام المذهب وبين هذا القرار، وأحصيت المسائل التي وردَت فيه مخالفة للمذهب فبلغَت سبع عشرة مسألة، أكثرها اعتمد على بقية المذاهب الأربعة فلم يكن عليه اعتراض. وجاء فيها ما يخالف المذاهب كلها وما لم يقُل به فقيه من الفقهاء، بل ما يخالف السنّة الثابتة وصريح القرآن، وهو اعتبار زواج مَن كانت دون التاسعة من العمر زواجاً فاسداً. وقد زعم واضعو هذا القانون أنهم استندوا إلى قول لابن أبي ليلى الذي كان معاصراً لأبي حنيفة. ولم تصحّ نسبة هذا القول إليه، ولو صحّت لما التُفت إليه ولما عُوّل عليه، لأنه مخالف للدليل القطعي وهو كتاب الله وما صحّ من سنّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومخالف لإجماع المسلمين الذين اتفقوا على أن للأب أن يزوّج ابنته الصغيرة مهما كانت سنّها، ومخالف لصريح القرآن في قوله تعالى: ﴿واللائي يَئِسْنَ منَ المَحيضِ مِن نِسائِكُم

إنِ ارْتَبْتُمْ فعِدّتُهُنَّ ثَلاثةُ أَشْهُرٍ واللائي لَمْ يَحِضْنَ﴾. ويكون عقد رسول الله عليه الصلاة والسلام على الصدّيقة بنت الصدّيق عقداً فاسداً بموجب هذا القانون الأحمق، لأنه عليه الصلاة والسلام عقد عليها وهي بنت سبع سنين! ولطالما حملتُ على هذا القانون بقلمي ولساني أكتب فيه وأخطب وأحاضر، حتى وفق الله فصدر القانون الجديد خالياً منه.

* * *

أنا إلى هنا كالمحارب الذي يتعلّم رسم الخطط وأساليب الهجوم والدفاع، يقرؤها في الكتب ويسمعها من المدرّسين، لم يخُض المعارك ولم يواجه العدوّ، يقاتل بالمنظار من فوق الجبل. فلما وليتُ القضاء نزلت إلى ميدان المعركة وواجهت مشكلات الناس، فوجدت حقاً ما قيل من قديم من أن النصوص -مهما كَثُرَت وطالت- محدودة ووقائع الحياة لا حدّ لها، والشريعة القويمة التي تصلح لكل زمان ومكان هي التي يكون في عموم نصوصها المحدودة وشمولها مبادئُ يُستنبَط منها حكم كل واقعة من الوقائع التي لا تُحَدّ. وهذا هو شأن الإسلام.

وكنت أجتهد رأيي في هذه الوقائع فأجد في الإسلام حلّ كل عقدة ودواء كل داء، ولكن يحول بيني وبين الحلّ ويمنعني من الوصول إلى الدواء القانونُ الذي أوجبوا علينا الحكم به، أو المذهب الذي ألزمونا الاقتصار عليه. فكنت أبعث بالرسائل تترا[١]

---

(١) تترا أي متواترة، اسمٌ يظنّها كثير من الناس فعلاً من الأفعال، في مثل قوله تعالى: ﴿ثمَّ أرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا﴾، وما هي بفعل.

إلى وزارة العدل، أضمّنها اقتراحات أرجو العمل بها أو تعديلات للقوانين أطلب تحقيقها، أو أحكاماً في المذاهب الثلاثة أقوى دليلاً من الحكم في المذهب الحنفي وأرفق بالناس وأضمن للمصلحة، استأذن بالعدول إليها. حتى إذا كثر ذلك مني بدأت الوزارة تفكّر بجمع هذه المقترَحات وبأن تضمّنها مشروع قانون جديد للأحوال الشخصية.

وسألخّص إن شاء الله في الحلقة الآتية مراحل وضع هذا المشروع.



-١٩٠-

كيف وُضع مشروع قانون الأحوال الشخصية؟

كان في قديم الزمان في بلد من البلدان شعب برع في صناعة الأدوية والعقاقير التي تداوي كل مرض يُصيب الجسد أو يعتري النفس، وكان عندهم العناصر (أي الموادّ الأولى) التي يتركب منها الدواء، وعندهم كتاب قديم عظيم يُرشِدهم إلى طريق ترتيبها، فلم يبقَ لدى ذلك الشعب داء إلاّ له دواء. وكانوا يجمعون ما يصنعون من هذه الأدوية في صيدليات مبثوثة في كل مكان، يجدها كل من احتاج إليها، ثم صارت الصيدليات شركات ومؤسسات قوية بمالها وبكثرة أعضائها، فاستولت على السوق وصرفت الناس عن الصيدليات الصِّغار. ثم ظهر الدُّخلاء على صناعة الدواء، وكَثُرَ فيها الأدعياء ممّن حاولها من غير أن يقرأ كتابها أو قرأه ولكن لم يفهمه لأنه لم يفهم اللسان الذي كُتب به، فمَنعوا (ولست أدري مَن الذي منع) الناسَ من صنع دواء جديد واقتصروا على ما صُنع من قبل، ثم بالغوا فحصروا تجارة الأدوية بهذه الشركات والمؤسسات ومنعوا ارتياد الصيدليات التي يملكها آحاد، ثم بالغوا في التضييق على الناس وحصروا التجارة في

شركات أربع، وألزموا كل واحد من الناس بأن يكون من زبائن واحدة منها لا يجاوزها إلى غيرها، ولو كان الذي يطلبه مفقوداً فيها وموجوداً في التي تليها.

هذا مَثَل المسلمين في القرون السبعة الماضية، من أول القرن السابع الهجري إلى أوائل الرابع عشر.

أما الأدوية والعقاقير فهي أحكام الإسلام التي تصلح لكل زمان ومكان، بل تُصلِح هي فسادَ كل زمان ومكان وترفع أهلَه إلى المُثُل العليا وتجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً سليماً نظيفاً خيّراً، كما كان أول مرة على عهد الصحابة، العهد الذي تحققَت فيه (أو كادت تتحقق) آمال الفلاسفة والمصلحين في المجتمع المثالي. وأمّا صناعة الأدوية فهي «الاجتهاد». وأمّا الكتاب الذي يرشد إليها ويدلّ عليها فهو القرآن والسنّة المُبيِّنة له، التي تفصل مُجمَله وتجلو مقاصده. وأمّا الصيدليات الأربع فهي المذاهب الأربعة، أما الصيدليات التي أعرض الناس عنها ولم يعودوا يقفون عليها فهي مذاهب الأئمة السابقين.

وقد كان في عصر كل من الأربعة وكان قبلَه مَن هو مثله ومَن هو أعلم منه، ولكنْ نُسِيَ مذهبه على حين دُوّنت مذاهب الأربعة وحُفظت. وحسبكم شاهداً واحداً على هذا هو الشافعي، ألا تقبلون شهادة الإمام الشافعي؟ إنه يقول: الليث (ابن سعد) أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به[1].

---

(١) ذكر الخضري في كتابه «تاريخ التشريع الإسلامي» أمثلة على ما سمّاه «المذاهب البائدة»، فمنها مذهب الليث بن سعد هذا في مصر، =

وأول الأربعة وأقدمهم زماناً وأسبقهم إلى الصناعة الفقهية الخالصة هو أبو حنيفة، وتلميذُه الإمام محمد هو أول من صنّف في الفقه. و«الموطّأ» كان قبله، ولكنه لم يكن فقهاً خالصاً بل كان -على علوّ شأنه وجلالة قدره- كتاب رواية واستنباط، أي كتاب حديث وفقه. ولمّا قدم أسد بن الفرات من تونس قرأ الموطّأ على مالك، ثم ذهب إلى العراق فقرأ على محمد كتبه، ثم دوّن مسائل مالك على أسلوبها، فكان من ذلك «المدوَّنة» التي صارت عماد مذهب مالك (واقرأ تفصيل هذا الخبر في كتابي «رجال من التاريخ»[1]).

والشافعي قرأ على محمد كتبه الفقهية، فكان شبه تلميذ له.

= ومنها مذهب داود الظاهري الذي نبذ القياس وبقي مذهبه حياً إلى أواسط القرن الخامس، ومذهب ابن جرير الطبري الذي استمر معروفاً معمولاً به إلى القرن الخامس أيضاً، ومذهب الأوزاعي في الشام. وكان الأوزاعي من رجال الحديث الذين يكرهون القياس، وكان أهل الشام يعملون بمذهبه، ثم انتقل مذهبه إلى الأندلس وبقي معمولاً به حتى منتصف القرن الثالث. وللأوزاعي موقف مشهود عظيم مع عبد الله بن علي العباسي لمّا قدم الشام متتبعاً بني أمية بالقتل، فمَن شاء قرأ خبره في كتب التاريخ (مجاهد).

(١) انظر مقالة «الفقيه الأميرال» في الكتاب. و«المدوَّنة» هي العمدة في الفقه المالكي، وهي منقولة من طريقين؛ أولهما طريق أسد بن الفرات هذا، والثاني طريق سحنون، وهو عبد السلام بن سعيد التنوخي وأصله من حمص. ويُستفاد من وصف النسختين أن نسخة سحنون أضبط وأحسن تبويباً، وهي التي كان الاعتماد عليها حينما طُبعت «المدوَّنة» في مصر قبل قرن ميلادي كامل (مجاهد).

وأحمد تلميذ الشافعي، فمن هنا كان أبو حنيفة «الإمام الأعظم» وكان الناس -كما قيل- عيالاً في الفقه عليه. وأرجو أن لا يفهم أحدٌ من هذا الذي أقول إني أفاضل بين الأئمة وأصنّفهم أصنافاً وأمنحهم درجات النجاح في الامتحان. من أنا وما مكاني من أئمة الدين؟ ولكن أقرّر الحقيقة التي أعرفها.

* * *

وقد مرّ بي شطر من عمري كنت فيه حنفياً متعصّباً، لا أقبل بما يخالف المذهب ولا أرى الحقّ في غيره، حتى إنني كنت أسمع الحديث الصحيح على خلاف مذهبي فأجادل فيه، أقول: هل اطّلع فقهاء المذهب خلال ألف ومئتَي سنة على هذا الحديث أم لا؟ فإن قلتم «لا» قلت: إن هذا بعيد، بل يكاد يكون مستحيلاً. فإن اطّلعوا عليه فلماذا لم يعملوا به؟ هل تعمّدوا مخالفته واتفقوا جميعاً على هذا المنكَر الذي لا يرتضيه عوامّ المسلمين لأنفسهم، فكيف بعلمائهم، على امتداد الزمان وتباعُد الأقطار التي وصل إليها المذهب الحنفي؟ فإن كانوا اطلعوا عليه ولم يعملوا به، ولم يكن ممكناً أن يتعمّدوا جميعاً مخالفته، فلم يبقَ إلاّ أن يكون عندهم دليل لم يصل إلينا علمه.

بهذه الحُجَج الجدلية كنت أدافع عن مذهبي. ثم وجدت أن فقهاء المذاهب الأربعة (لا الحنفي فقط) يحرصون على التثبّت من صحّة الرواية عن إمامهم، فإن ثبتَت الرواية عنه لم يلتفتوا بعدها إلى دليل، مع أن قول الإمام وحده -وهو غير معصوم- لا يصلح دليلاً في الدين. الدليلُ الآية الصريحة والحديث الصحيح

الصريح، أو الإجماع الثابت أو القياس الظاهر؛ ذلك هو العلم. «العلم قال الله وقال رسوله» كما قال الشافعي أو نُقل عنه أنه قاله. على أنه لا يجوز لمسلم إن صحّ له الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يردّه بقول قائل غير معصوم، وهذا ما كانوا يصرّحون به حتى في أشدّ عصور التقليد المذهبي (راجع حاشية ابن عابدين وما قال في أولها).

وهذا كله للعالِم الذي يستطيع أن يميز الأدلة صحيحها من سقيمها، ثم يفهم الصحيح إن وصل إليه ويقدر أن يستنبط منه، ليس هذا للناس جميعاً، العالِم منهم والجاهل والعاقل والأحمق.

ولا بُدّ من بيان أن الأحاديث ليست في هذا سواء؛ فمن الأحاديث ما لا يحتاج إلى فقه كبير في فهمه كجهر الإمام بالبسملة أو الإسرار بها، هذه مسألة يدركها كل من سمع الحديث الصحيح لأنه إما أن يكون قد جهر بها أو أسرّ. ولكن من الأحاديث ما لا يفهمه إلا عالِم أو طالب علم متمكّن، ولو ضربتُ الأمثلة لذلك لخرجتُ عن الموضوع ثم لم أستطع أن أعود فأدخل فيه.

ولمّا كنت صغيراً أطلب العلم من نحو سبعين سنة كان التقليد هو الأصل، بل لقد صار الاجتهاد خروجاً على الأصل وذنباً يُحاكَم من يُتّهَم به، كما اتُّهم شيخ مشايخنا في دمشق الشيخ جمال الدين القاسمي.

وأوجبوا على المسلمين اتّباع مذهب من المذاهب الأربعة، وكانوا يحفّظوننا: «وواجبٌ تقليدُ حَبْرٍ منهُمُ». ولست أدري مَن أوجبه؟ وعلّمونا أن الاجتهاد قد سُدّ بابه. ولست أعلم مَن سدّه؟

ومن أين له أن يسدّه وهو ما فتحه، بل فتحه الله وهو -إن شاء- سدَّه وحده.

ووجدنا في المذهب الحنفي مسائل اجتهادية لم تَعُد تُقبَل ولا تُستساغ، منها: أن المرأة التي تبدأ عدّتها بالحيضات ثم ينقطع عنها الحيض تلبث معتدّة حتى تدرك سنّ اليأس ثم تعتدّ بثلاثة أشهر؛ أي أننا نوجب عليها أن تبقى في العدّة أربعين سنة أو أكثر منها! وأن المشرقيّ الذي يتزوّج مغربية فتلد ولداً يُنسَب إليه ولو ادّعى الزوج عدم التلاقي وأثبت ما ادّعاه. وأن طلاق السكران يقع إن شرب الخمر طائعاً مختاراً، وقالوا: إننا نوقع الطلاق عليه عقوبة به. فقلنا: إنه أذنب فعوقب كما تقولون، فما بال زوجته وولده وأثر الطلاق فيهم أشدّ وأنكى من أثره في الزوج، وهذه العقوبة تسقط على رؤوسهم وهم ما جنوا ذنباً ولا أحدثوا حدثاً؟

ومنها أن النفقة تُقدَّر بحسب حال الزوجة، فإن كان له زوجتان إحداهما بنت أغنياء نفقة مثلها مئة والأخرى نفقتُها تبعاً لحال أهلها عشرون، فإن اتبعنا ما ذهبوا إليه فأين العدل بين الزوجات؟ ومن هذه المسائل أن الحمل أقصى مدّته سنتان. والله قد وضع لهذا الكون قانوناً ثابتاً وحدّد لكل أنثى (حتى من الدوابّ والحيوان) مدّة معلومة لحملها، وما سمعنا بشاة أو ناقة زادت مدّة حملها عن حدّها، فكيف يستمرّ حمل المرأة سنتين؟ وإن كانت السنتان في المذهب الحنفي أرحمَ من المذاهب التي تجعل أكثر مدة الحمل أربع سنين!

وسأتعجّل فأروي لكم حادثة وإن لم يأتِ أوان روايتها. ذلك أنني لمّا استكملت وضع المشروع (وكان ذلك أيام انقلاب حسني

الزعيم، وهو جبّار مجنون عرفته مرتين في مجلس أخيه الأكبر، الداعية الصالح العابد الشيخ صلاح الدين الزعيم)، لمّا انتهى وضع المشروع أبَيتُ إلاّ أن أعرضه العَرْضةَ الأخيرة على العلماء، فكلّمت أستاذنا الأمير مصطفى الشهابي الذي كان وزير العدل، فخاف من الزعيم وراح يجادلني ليصرفني عن هذا، وأنا مُصِرّ عليه تبرئة لذمّتي وطلب الوصول إلى الحقّ. فلما أعجزه إقناعي قال لي (وأنا اذكر كلمته): "ما شُفتني ولا شُفتك، فاعمل ما تريد".

فجمعتُ علماء دمشق جميعاً في دار الشيخ عبد القادر العاني (وكانت داره وقفاً على مصالح المسلمين)، وكان فيهم الفقيه الشافعي الكبير الشيخ صالح العقاد، فعرضت عليه اقتراحنا في المشروع أن نجعل أكثر مدّة الحمل سنة كما صنعوا في مصر. ونحن نعلم أن الحمل لا يمتدّ سنة، ولكن احتياطاً وأسوة بما ذهب إليه علماء مصر. فأبى وأصرّ على مذهبه بأن الحمل يمتدّ أربع سنين، فقلت له: أنت تعلم يا سيدي أني أُجِلّك وأقدّرك، وأنا أقبّل يدك على أن تسمح لي بسؤال أوجّهه إليك، وأن يتّسع له صدرك فلا تغضب منه. قال: تفضل. قلت: ولا تؤاخذني إذا كان السؤال شائكاً؟ قال: تفضل. قلت: هَبْ أنك -لا سمح الله- طلّقت امرأتك، وذهبَت من بيتك وغابت ثلاث سنين ونصف السنة، ثم جاءت إليك وقد ولدت ولداً من أسبوع وقالت: هذا ابنك. فهل تعتقد أنه ولدك؟

فضاق بالسؤال، ولكنه لم يجد مجالاً للعنف في الجواب بعدما مهّدت إليه ذلك التمهيد، وقال: هذا هو الحكم في المذهب الشافعي. قلت: يا سيدي، إن الطفل ينمو، فإن بلغَت سنّه أربع

سنين وهو لا يزال جنيناً فكيف يتّسع له بطن أمه؟ وكيف ينزل منه؟ إلاّ أن يولد واقفاً ثم يمشي على رجليه فيمضي رأساً إلى المدرسة؟

وسكت مغضَباً، ولم يجد جواباً لأن الذي أوردتُه لا جواب عليه، ثم إني قدّمت له مقدّمات تمنع غضبه. وكان في المجلس أبو مصطفى النحلاوي رحمه الله ورحم كل من ذكرتُ، وهو رجل كبير السنّ أحد الزكرتية المعروفين في الشام، فتكلّم ساخراً من هذا الحكم الذي يعتبر الحمل مستمراً أربع سنين. فقام الشيخ عليه وأفرغ رصاص غضبه في صدره، وقال له: أنت تطعن بالإمام الشافعي يا كذا وكذا؟ وسكتُّ أسمع ولم أقُل شيئاً.

ربما قال قائل منكم: وكيف قرّر الفقهاء ذلك وما دليله؟ ما له يا سادة دليل شرعي، وإنما هي استقراءات قالوا بأنهم استقرَوْها (ولا تقُل استقرؤوها) وأخبارٌ قالوا بأنهم سمعوها فوثقوا بها.

فلما درسنا الطبّ الشرعي ومرّ بنا هذا البحث رأينا المحدَثين يعتمدون على استقراءات كاملة لم يكن مثلها تحت أيدي الفقهاء الأوّلين، فقد ارتقى العلم وتقاربت البلدان واتصل الناس بعضهم ببعض، فلو أن حادثة من هذا القبيل حدثت لملأت أخبارُها المجلات العلمية وتحدّثوا بها في النوادي والمجامع، ودُرست في كليات الطبّ ودخلَت في أبحاث الطب الشرعي.

* * *

كانت بداية تكليفي بوضع مشروع هذا القانون بكتاب وزارة العدل رقم ١٢٢٩٩ وتاريخ ١٩٤٥/١٠/٢٢ على عهد الوزير

صبري العسَلي. فعملت فيه سنة، أنظر في النص الوارد في قرار حقوق العائلة الذي كان العمل به والرجوع إليه، فإن وجدته مخالفاً لمذهب رجعت إلى مطوَّلات المذهب. ثم نظرت في كتب المذاهب الأخرى وسألت علماءها، وكان العلماء كثيراً عددُهم في الشام، وأعانني على ذلك مكتبة حافلة بأكثر كتب الفقه المطبوعة، مكتبة جدي وكان مولَعاً بالكتب يمضي جلّ وقته بمطالعتها، ثم مكتبة أبي الذي كان أميناً للفتوى في الشام وكان من فقهاء الحنفية الكبار. ثم رجعتُ إلى كتب الحديث، إلى مثل شروح البخاري، وكان عندنا في مكتبة الدار ثلاثة منها: فتح الباري، وشرح العيني الحنفي، وشرح القسطلاّني. وإلى سبل السلام ونيل الأوطار، وإلى كتب الفتاوى الكثيرة جداً. واستفدت كثيراً من مجلة «المنار» للسيد رشيد رضا أراجعها في مكتبة شيخنا الشيخ بهجة البيطار، وكانت مجموعتها عنده كاملة.

ثم اقترحت أن أُوفَد إلى مصر، ففي مصر الأزهر ولم يكن في الدنيا مثل الأزهر، وفي مصر علماء ليس في أمصار المسلمين من هو في طبقتهم. فاستصدرَت وزارة العدل مرسوماً جمهورياً وقرّرَت بناء عليه القرار ٥١٦ بتاريخ ١٩٤٦/١٢/٢ وهذا نصّه:

> يوفَد السيد علي الطنطاوي القاضي الشرعي في وزارة العدلية إلى مصر مدّة سنة واحدة عملاً بأحكام المرسوم ذي الرقم ٧١٠ المؤرَّخ ١٩٤٦/٢/١١.
>
> المادّة الثانية: يتوجّب على السيد علي الطنطاوي خلال مدّة بقائه في مصر الأمور التالية:

أ- دراسة تشكيلات المحاكم الشرعية وأصول المرافعات فيها.
ب- دراسة نظام الإشهاد والتوثيق وأنظمة حفظ الوثائق والسجلاّت.
ج- دراسة أسلوب التفتيش في المحاكم الشرعية.
د- دراسة تطوُّر قانون الأحوال الشخصية.
هـ- دراسة نظام المواريث والوصايا.
و- دراسة أنظمة المجالس الحسبية ومقارنتها بالأحكام المتبَعة في سوريا لإدارة أموال الأيتام.
ز- دراسة سلطات المحاكم الشرعية في شؤون الأوقاف.

المادة الثالثة: يتقاضى السيد علي الطنطاوي:
أ- راتبه الشهري غير الصافي كاملاً خلال مدّة إيفاده.
ب- نفقات الانتقال المنصوص عليها في القانون، إلخ.

المادة الرابعة: يتمتّع السيد علي الطنطاوي بجميع الميزات المحفوظة للموفَدين بمهمة رسمية وتُقدَّم إليه جميع التسهيلات التي تُقدَّم للبعثات الحكومية.

المادة الخامسة: يمكن لوزارة العدلية أن تطبع على نفقتها ما توافق عليه من الأبحاث والدراسات والتقارير التي يقدّمها السيد علي الطنطاوي.

المادة السادسة: يُنشر هذا القرار في الجريدة الرسمية ويُبلّغ لمن يُلزَم بتنفيذ أحكامه.

* * *

وسافرتُ السفرة الرابعة إلى مصر. وكانت الأولى سنة ١٣٤٦هـ، وأقمتُ في مصر شهرين ثم رجعت. والثانية سنة ١٣٤٧ وقد دخلت فيها دار العلوم العليا في حيّ المنيرة، ولم أكملها بل رجعت فجأة إلى دمشق فدرست الفلسفة ونلت شهادتها. والثالثة سنة ١٣٦٤ (١٩٤٥)، وفيها عرفت الشيخ حسن البنا من قريب، ولقيت الأستاذ الزيات أول مرة وكنت أكتب عنده وأراسله من سنة ١٩٣٣ (١٣٥١)، وقد عرفته قبل ذلك في دمشق لمّا مرّ بها وألقى فيها محاضرته عن كتاب ألف ليلة ولكني لم أقابله. وهذه هي المرة الرابعة.

وكان الذهاب إلى مصر برّاً كما عرفتم: نركب السيارة أو القطار إلى حيفا، ثم نغدو منها في الساعة الثامنة صباحاً فنقف عند القنطرة ونجتاز قناة السويس في عبّارة، ثم نركب قطار مصر فنصل محطة باب الحديد في القاهرة الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

وقد كنت أسافر وحدي، فأنا اليوم أسافر مع زوجتي وبناتي الصغيرات. واستأجرت سيارة كبيرة تتّسع لسبعة رُكّاب وتركت مقاعدها خالية حتى يستريح فيها البنات وأمّهن. ثم وقعت لي واقعة لا أزال كلما تذكرتها أغضب منها وقد مضى عليها الآن أكثر من أربعين سنة قمرية، أغضب من الناس الذين خدعوني، وأغضب من نفسي حين انخدعت لهم، وأغضب من الثقيل الذي نغّص علينا سفرنا. وهو أحد أخوين تاجرَين في البزورية بدمشق، قصير القامة صورته أمام ناظري، جعلني أندم على عمل الخير (فهل سمعتم بمن يندم على عمل الخير؟) وأنوي أن لا أعود إلى مثله! وأستغفر الله من مثل هذه النيّة.

ذلك أن أصحاب المرأب (الكراج) وهم في العادة من أكذب الناس، وأنا أعلم ذلك عنهم ولكنني انخدعت لهم حين قالوا إن هذا الرجل قد مشت سيارته وهو يريد أن يلحق بها ويطلبون مني أن أُركِبه معي إلى الكسوة (وهي قرية على طرف دمشق الجنوبي)، وجعلوا يرقّقون قلبي ويتزلّفون إليّ ويثيرون فيّ مروءتي ونخوتي ويُقسِمون لي أنه لن يركب معنا أكثر من هذه الأكيال المعدودة، فقبلتُ، ولست أدري كيف قبلت. وحلّ بيننا، وحال بيني وبين أهلي وبناتي، وقيّدني وأمسك بلساني فلم أعُد أستطيع أن أتحدّث معهن كما أريد، واستلبَنا حريتَنا وضايقنا أشدّ الضيق.

فلما بلغنا الكسوة علمت أن المسألة كلها كذبة مدبَّرة وأنه لا سيارة له وأنه سيبقى معنا، فأصررتُ على إنزاله. ولم يكن له حقّ عليّ، ولكن زوجتي أخذتها الرأفة به وذهبَت تطلب مني أن أبقيه، وقالت إنها تصبر ويصبر البنات. فبقي راكباً معنا إلى حيفا، وتستطيعون أن تتصوّروا مبلغ ما أصابنا من هذا الضيف الثقيل الذي ركب معنا مجّاناً. ولم أكن أريد منه مالاً بل كنت أرضى أن أعطيه عشرة أضعاف أجرة السفر ولا يكون معنا! وخاتمة القصة أننا لمّا بلغنا القنطرة وذهبنا ننتقل من قطار فلسطين إلى قطار مصر، وكان معي حقائب كثيرة ومعي البنات وكنت في ضيق، مرّ بي فما سلّم عليّ ولا التفت إليّ ولا عرض عليّ مساعدة.

صدّقوني إن مثل هذا العمل يصرف الناس عن المعروف!

بقيتُ في حيفا يومَين. وكنت قد عرفتها من قبل، فاستطعت بهذه المعرفة أن أُريها أهلي وأولادي، فأخذت سيّارة دارت بهنّ البلد كلها، أريتُهن أحياءها. وصعدت بهنّ جبل الكرمل، ولم

يكن قد سُكن ولا شُقّت فيه هذه الشوارع ولا أُنشِئَت فيه هذه البيوت.

وجاءني بعد الظهر في الفندق شابّ يسلّم عليّ يرحّب بي، يحمل إليّ ثلاث طاقات من الورد وثلاثة دواوين من الشعر كانت أجمل وأحفل بالشذى والعطر من طاقات الزهر، دواوين له هو مطبوعة طبعاً أنيقاً جداً على ورق صقيل جداً، فتصفّحتها أقرأ ما فيها، فوجدت من النظرة الأولى شعراً فيه طبع وفيه جمال، تجري في أبياته روح وطنية في حس شعريّ مرهف. وكان اسمه حسن البحيري، وعجبتُ كيف لم أسمع به من قبل. ولازَمَنا ما يفارقنا، يُرينا كل ربع ساعة لوناً جديداً من كرم خلقه وطيب نفسه وأصالة أدبه. وأخذني أزوره في بيته، وأنا قلما أزور ناساً لا أعرفهم في بيوتهم، فرأيت داراً فقيرة ولكنها نظيفة، وأمّاً له فيها ما له غيرها، عامية ولكنها ذكية، وودّعتُه وأنا لا أدري كيف أكافئ كرمه ولطفه بمثله. ثم قدم دمشق فأقام فيها واشتغل بالإذاعة فكان من أحسن مذيعيها، ثم صار خبير العربية فيها، ينظر في الأحاديث التي تُلقى وفي الأخبار فيصحّح خطأها وينبّه أصحابها، وكانت الإذاعة جديدة. ثم سافرتُ سفرات باعدَت ما بيني وبينه، ثم علمت (وإن لم أتوثّق) أنه قد مات رحمة الله عليه.



وبلغنا مصر، وخرجنا من محطة باب الحديد فأخذتُ سيارة، وكانت سيارات الأجرة يومئذ في مصر كثيرة وكانت رخيصة، وكانت الشوارع نظيفة، وذهبت أؤمّ بيت خالي. وكان

قد نقل بيته ومطبعته من شارع الاستئناف في ميدان باب الخلق إلى الروضة، في بناء أقامه لها، في واجهته كلمة «الفتح» كبيرة تكاد تملأ واجهة العمارة الصغيرة كلها. فسلكنا طريق مصر القديمة (الفسطاط) حتى قاربنا جسر (كُبري) الملك الصالح، بعد الشجرات الكبيرات التي جمعت الجلال والجمال، فاتّسقَت فروعها وامتدّ ظلّها، وكانت تخرج منها أشباه الأغصان فتنزل بدلاً من أن تصعد، حتى تبلغ الأرض فتمدّ فيها جذوراً ويكون من هذه الجذور شجرات جُدُد.

ولست أدري ما حال هذه الشجرات اليوم: هل بقيَت أم بدّلها الزمان الذي يبدّل كل شيء؟

فإذا اجتزنا الجسر على فرع النيل الصغير لم نذهب قدماً إلى الجسر الآخر على فرع النيل الكبير فنبلغ الجيزة، بل ننعطف فتكون الدارات (أي الفيلات) عن إيماننا والنيل الصغير عن شمائلنا حتى نبلغ «المندورة»، وهي شجرة ضخمة من تلك الأشجار التي وصفتُها ولكنها منفردة وحدها نائية عنها قائمة على الشطّ الآخر، كلها خرق معقودة على أغصانها. ذلك أنها مقدسة عند العامّة، يَنذرون لها النذور ويطلبون منها المطالب، كأن لم ينزل جبريل بالتوحيد الخالص على محمد عليه الصلاة والسلام وكأن لم تنتهِ أيام الجاهلية الأولى!

حتى بلغنا دار مجلة «الفتح» والمطبعة السلفية، وفوقهما دار خالي.

* * *

-١٩١-

مصر قبل أربعين سنة

أتكلم اليوم عن رحلتي الرابعة إلى مصر، وكانت قبل أربعين سنة كاملة، وقد وصلتُ معكم في الحلقة الماضية إليها ووقفنا في الروضة عند مقياس النيل الأثري.

مصر التي كانت أم الدنيا، كانت الأم ومدائنُ العرب بناتُها، كانت العروس وهنّ وصيفاتها، كانت أوسعَها سعة وأنظفها نظافة وأحسنها ترتيباً وأزهاها رونقاً، ليس للعرب جامعة إلاّ جامعتها، أمّا جامعها الأزهر فكان فحل الجامعات وكان مثابة العلم وكان كعبة الطلاّب، وكان يحمل على عاتقه أمجاد ألف سنة.

الأزهر كان فيها، والمطابع الكبرى مطابعها، والجرائد جرائدها، وأعلام الأدب وأئمة العلم فيها. كانت كبغداد أيام عزّ بني العباس التي قلت فيها (في «الرسالة» عدد ١٧ رمضان سنة ١٣٥٨): "يا بلد العلم والتقى واللهو والفسوق، والمجد والغنى والفقر والخمول، يا موئل العربية ويا قبّة الإسلام، يا بلداً فيه من كل شيء". كان في مصر المساجد فيها الأئمة القرّاء وفيها المدرّسون الخطباء، وفي المساجد قبور عندها البدع

والمخالفات. وفي مصر الملاهي، وفي الملاهي تكشُّف واختلاط ورقص ومحرَّمات وآفات. فيها دار الكتب والمكتبات الكبار: في الأزهر وفي الجامعة وعند تيمور باشا وأحمد زكي باشا ومحب الدين الخطيب، وفيها آلاف وآلاف لا يقرؤون وليس لهم في عالَم الكتب مكان.

وكانت مع ذلك أم الدنيا (أعني دنيا العرب) في سعتها وكبرها، في حدائقها التي لم يكن لها في بلاد العرب نظير: حديقة الحيوان يوم كانت متعة الناظرين وكانت فرجة الزائرين، مَن دخلها أمضى فيها اليوم كله ولم يستطع أن يُحيط بكل ما فيها. والقناطر الخيرية والأزبكية. خبّروني اليوم ما حال الأزبكية؟ هل باقٍ لها رونقها وجمالها؟ هل هي على أناقتها ونظافتها؟ هل الكتب القديمة لا تزال معروضة على سورها كما تُعرَض أمثالها على السور الواطي عند نهر السين؟ كنت أجد بين هذه الكتب نفائس نزل بها الدهر فأذلّها حتى قعدَت هنا، ومكانها المكتبات الكبيرة في الشوارع الواسعة. لقد طالما رأيت أدباء وعلماء يفتّشون بينها عن كتاب يشترونه بالقروش وثمنه الحقّ في المكتبات بالجنيهات! وكذلك كان يفعل أناتول فرانس بالكتب المعروضة على كتف نهر السين.

خبّروني عن حديقة الأورمان، عن حديقة المتحف الزراعي التي كانت لنا متنزَّهاً يوم كانت مصر بلد المتاحف: المتحف المصري، ومتحف الآثار العربية في باب الخلق، ومتحف الشمع في طريق قصر العيني، والمتحف الزراعي نفسه وما فيه من تحف نادرة المثال. يوم كانت مصر أرخص المدن، حتى إننا ونحن ثلاث أسر: أسرة خالي وأسرتي وأسرة أخي عبد الغني (وكنا

في دار واحدة) نشتري في الصباحِ فولاً بثلاث تعريفات (بقرش ونصف) فيُشبِعنا جميعاً وربما فضلَت منه فضلة عنا.

يوم كان الجنية المصري يعدل ليرة إنكليزية من الذهب (أمّ حصان) وفوقها قرش ونصف، لأن الجنيه المصري كان أغلى من الذهب. يوم كانت مصر أغنى بلاد العرب، فما الذي هبط بها وبه؟ ما الذي أذهب بَرَكته؟ إنها اللفحة الماركسية التي لم تدخل بلداً إلاّ أخرجَت منه البَرَكة وأذهبَت منه الرخاء، وأحلّت بأهله الضنك والضيق والشقاء.



أقمت في مصر سنة ١٩٤٧ (١٣٦٦) بطولها وطرفَي السنتين قبلها وبعدها، وكان وقتي كله بين ثلاث: إدارة التشريع في وزارة العدل التي فيها عملي، ودار «الرسالة» التي فيها هواي وإليها يميل قلبي وفيها تحطّ بي الأماني، و«السلفية» وفوقها دار خالي التي كانت المنزل وكان فيها المقام.

وكان رفيقي في هذه الرحلة الأستاذ نهاد القاسم رحمة الله عليه، الذي كان يومئذ مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم صار أيام الوحدة وزير العدل المركزي لمصر وللشام، وهو أحد رفاق العمر الذين لم يبقَ منهم إلاّ قليل من كثير، مدّ الله في آجالهم وزادهم حسناً في أعمالهم، كالأستاذ سعيد الأفغاني والشيخ ياسين عَرَفة والأستاذ الشيخ مصطفى الزّرقا والدكتور معروف الدواليبي، وغيرهم ممّن إن نسيت أسماءهم هنا فإن ذكرياتهم ثابتة في القلب لا تُمحى ولا تزول.

أما المطبعة السلفية فالعهد بها قديم والحديث عنها طويل، ولعلّي أوفَّق إلى الكتابة عنها وعن صاحبها، عن سَبْقه في الدعوة إلى إحياء العربية التي أراد الاتحاديون (الدولْمَة) قتلها، عن سبقه إلى تعميم الدعوة الإسلامية في مصر، عن سعيه في تأليف جمعية الشبّان المسلمين التي ضمّت إليها الشبّان الأدباء من أهل التمسّك بالدين. ولعلّي أوفَّق إلى سرد كل ما له عندي، فما يتّسع له استطراد في مقالة. ولقد كتبت عن محب الدين في المجلة التي أسميتُها «البعث» قبل أن يؤلَّف حزب البعث ويسرق مني هذا الاسم بسنين، وكانت أول مجلة إسلامية في الشام، أصدرت منها خمسة أعداد من أكثر من خمسين سنة.

وكان مجلس السلفية -لمّا كانت في شارع الاستئناف في باب الخلق- يجمع جلّة من علماء مصر وأدبائها ومن علماء الأقطار الإسلامية الذين يفدون عليها، منهم أحمد تيمور باشا والسيد الخضر حسين والأستاذ أحمد إبراهيم بك والشيخ عبد الوهاب النجّار والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وإخواننا الذين كانوا يومئذ شباباً فصاروا شيوخ الأدب وأعلام العرب: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون وعبد المنعم خلاّف والدكتور الخضيري وأبو شادي الشاعر (الذي كانت السلفية في دار أبيه، المحامي الأشهر على أيامه) والشيخ أطفيش الفقيه الأباضي والأستاذ الغمراوي (أول من جمع جمعاً مُحكَماً بين علوم الدين وعلوم الكون) والأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة «الشورى» وكثير من أمثالهم.

وأمّا دار «الرسالة» فكان منزلُها أقربَ المنازل إلى قلبي وجوُّها أبردَ الأجواء على كبدي، قضيت مع الزيات سنة كاملة،

أكون معه فيها في المكتب وأصحبه -بإلحاح منه- إلى الدار، وأراه في مباذله وأعرف جميع أحواله ودواخله. وأشهد ما رأيت منه إلاّ فضلاً ونبلاً، وإذا كان لكل رجل صفة تطغى على الصفات حتى ليُعرف بها أو تكون له -كما يقول العقّاد- مفتاح شخصيته، فمفتاح الزيات الرفق والحياء؛ إن تكلّم فعلى مهل، وإن كتب فعلى مهل. وقد راعه مني أول الأمر صراحتي وثورتي، ثم ظننتُ أنه تعوّدها وإن كان أحياناً كثيرة يضيق بها.

جاء مصرَ رجلٌ اسمه القُمّي، إيراني شيعي حاذق ذكي داهية من الدواهي، ففتح «دار التقريب»، يدعو فيها إلى التقارب بين الفريقين السنة والشيعة وهو في الحقيقة داعية إلى التشيّع. وفي مصر ميل إلى آل البيت لعلّه باقٍ من أيام العبيديّين (الذين تسمّوا كذباً بالفاطميّين، وما لهم بفاطمة رضي الله عنها صلة ولا يربطهم بها نسب ولا لهم إليها سبب، برئت فاطمة الزهراء منهم ومن كفرهم). أهل مصر يحبّون آل البيت حباً قد يصل أحياناً إلى الغلوّ، تراه عند قبر الحسين وما يصنعون عنده وما يصنعون عند قبر السيدة زينب وما في مصر من مشاهد منسوبة إلى أهل البيت.

والحسين رأسه في المشهد المعروف باسمه في جامع بني أمية في دمشق وجسده موسّد ثرى كربلاء في العراق، وما منه في مصر شيء. ولست أنا قائل هذا الكلام فتُوجَّه إليّ السهام ويُلقى على عاتقي الملام ويجرَّد في وجهي الحسام، ولكن قائله، بل كاتبه الذي أيّده بالدلائل وأقام عليه البينات، هو شيخ الإسلام ابن تيمية. فمَن غضب منه فليردّ على الشيخ لا عليّ، فما لي في الأمر ناقة ولا جمل ولا لي فيه سخلة ولا حمل.

وكلنا يحبّ أهل البيت الذين قال الله لهم: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويُطهّرَكمْ تَطهيراً﴾، وإن كان المراد الأول هنا بأهل البيت أمهات المؤمنين اللائي وُجِّهت الآية إليهن وصُدِّرت بندائهن: ﴿يا نساءَ النبيِّ﴾. وهذا الكلام أيضاً ليس من عندي، بل هو كلام ابن حزم العظيم الذي كان -لولا ظاهريته- المُفرَد العلَم.

أراد الزيات أن نزور هذا القمي أنا وهو وأخي الأستاذ سعيد الأفغاني. وكان ينويها زيارة مطارحة ومجاملة ونويناها (أنا وسعيد) زيارة مصارحة ومجادلة. وكان عنده العالِم الأزهري الكبير الشيخ محمد عرفة، فخرقنا جدار الصمت (على وزن قولهم عن الطيارة خرقت حجاب الصوت) وسألنا القمّي لماذا جاء إلى مصر ففتح دار التقريب فيها، وكان أولى به أن يفتحها في طهران لأن الفرع الذي أنبت يُرَدّ إلى الأصل، ومن خرج عن الجماعة يعود إلى الجماعة، والقمر الصغير الذي انفصل عن الجرم الكبير إن لم يرجع إليه دنا منه فدار حواليه، وما عهدنا في الفضاء قمراً صغيراً يجذب جرماً كبيراً.

فأراد الشيخ عرفة أن يرشّ الماء البارد على الجمرة التي بدأت تتّقد وأن يلطّف الجو فقال: إن الخلاف على مسائل من الفقه أمرها هين. قلت: بل الخلاف يا سيدي على أمور من أصول الدين، وأنت تكلّم رجلاً عاش في العراق سنين مدرّساً في ثانويّاتها، من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩، تنقّل من البصرة في جنوبي العراق إلى شماليها، فقرأ كتب القوم وناظر مشايخهم وعرف ما عندهم. وسردتُ له بعض أوجه الخلاف مما لا نفع

للقراء الآن من سرده هنا[1].

وطالما عُقِدت في دار الرسالة، في هذه الغرفة الصغيرة، بحضور الأستاذ الزيات غالباً وغيابه أحياناً، ندوات ودارت أحاديث في الأدب وفي العلم حضرها أدباء كبار وعلماء أجلاّء. وكانت الأحاديث تنساب هادئة كالنهر الرائق الماء الهادئ المجرى، فيها نفع ولا تخلو من نكتة تُضحِك أو طريفة تسلّي، وربما اضطرب الماء وقذف بالزبَد حين تشتدّ المناقشة حتى تكون مُهاوَشة، وكثيراً ما كنت أنا الذي يصنع هذا كله، أعترف الآن به وأرجو من الله أن يسامحني فيما أخطأت فيه.

وأنا أناظر أولاً برفق وأدب، أحاول أن لا أقول كلمة تخدش الخصم أو تجرحه، فإذا صدر منه ما يمسّ ديني أو كرامتي لبستُ جلد النمر ونكّبت عن ذكر العواقب جانباً، ولم أعُد أبصر من غضبي لديني أو لكرامتي مَن الذي هو أمامي، لا أبالي أن يكون كبيراً أو خطيراً. ولقد كان صِدام مرة بيني وبين الدكتور زكي مبارك، وكانت لي به صلة حسنة وأُقِرّ له أنه يملك أجمل أسلوب في هذا العصر. فنطق مرة بكلمة فيها كفر ظاهر وعدوان على الدين أثيم، فنبّهته فما انتبه وحذّرته فما بالى، فزاغ بصري ولم أعُد أرى أمامي الأستاذ

---

(١) القصة الكاملة للقاء علي الطنطاوي مع القُمّي هذا منشورة في العدد ٨٤٤ من مجلة «الفتح» الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٦٦هـ في مقالة عنوانها: «كيف قابلت هذا القمّي»، وقد سبقتها بأسبوع واحد مقالة بعنوان «إلى علماء الشيعة» نُشرت في «الرسالة» في الخامس من أيار (مايو) سنة ١٩٤٧ (وهي في كتاب «فصول في الدعوة والإصلاح» الذي وفقني الله إلى إصداره من قريب) (مجاهد).

زكي مبارك بل رجلاً ينال من ديني ومن عقيدتي، فهجمت عليه هجمة مفاجئة بجُمَل تتلاحق كلماتها كرصاص المدفع الرشاش ضعضعَت أركانه، ثم استفاق من دهشته وتمالك بعض نفسه، وقال لي في بعض ما قال: من أنت وبأيّ سلاح تنازلني؟

قلت: بسلاحَين، أولهما أن الحقّ معي وأني أستنصر الله لأني أناضل عن دينه وأحامي عن شرعه، والثاني أني أعرفك في مصر وأعرف سلوكك في العراق ومجالسك بين كاسك وطاسك، فما الذي تظنّه يُخيفني منك ويمنعني من منازلتك: دينك وتقواك؟ سلوكك واستقامتك؟ علمك؟ وقد حقّقتَ كتاب «زهر الآداب» للحصري وكنا ندرسه مع تلاميذنا في دمشق فما تمرّ صفحة تخلو من زلّة لك تسقط منها فيُشَجّ رأسك أو تُلوى قدمك، أم هذا الكتاب الذي صدّعتَ بذكره الأسماع وجعلتَه معجزة العصر وآية الدهر، «النثر الفني»؟ إن فيه سقطات لمّا أمسك الدكتور الغمراوي ببعضها وقيّدك بمنطقه وحجّته بقيد من حديد لم تملك معه حراكاً، جعلتَ تقفز من حوله تصرخ وتهدّد ولا تستطيع أن تتحلل من القيد ولا أن تبرّر الغلط؟ وهل تعتصم إلاّ بستار من سبّ الناس إذ تصول وتجول وحدك وتتوعّد وتهدّد (زعمَ الفرزدقُ أنْ سيقتُلُ مِرْبعاً!) ولو كانت معركة أدبية بيني وبينك لتردّدتُ، وربما خفتك أو تَهيّبتُ لقاءك أو آثرت السلامة من قلمك، ولكنها معركة لله أدافع فيها عن دين الله، واللهُ يدافع عن الذين آمنوا، ومن كان الله معه كان هو الغالب.

واشتدّ الأمر وتعالت الأصوات ولم يبقَ إلاّ المواثبة والنقاش بالأيدي، فدخل الزيات بيننا وأخذه جانباً يناجيه. وسمعته يقول له:

ما تشوف اسمه طنطاوي، إنه شامي دماغه ناشف وأسلوبك لا يفيد معه، والأزهريون من مدرّسين وطلبة يقرؤون له ويحبّونه، ولمّا كان الخلاف بينه وبين الشيخ أمين الخولي كانوا كلهم معه. وهو يحاربك الآن بسلاح الدين، فما لك ولخصومة أهل الدين؟

فليّن منه بعض اللين، ثم أقبل عليّ يكلّمني فقلت: أنا أحب الأستاذ وأقدّر له سنّه وسبقه وهو أستاذ معروف، وما بيني وبينه خلاف شخصي إلاّ هذه الكلمة التي قالها وسمعتموها، إن فيها كفراً لا يجوز لمسلم أن يسكت عن إنكاره، فإن رجع عنها وتبرّأ منها قمت إليه الآن فقبّلت رأسه، وإن أصرّ عليها فسأتوكل على الله وأخوض معركة معه ربما أنست القرّاء معاركه الأولى مع الأدباء. وما بسيفي أضرب ولكن بسيف الشرع.

فاعتذر من تلك الكلمة وقال إنها كلمة سبق بها لسانه، وراح يؤكّد أنه مؤمن صادق الإيمان وأنه طالما جرّد قلمه للدفاع عن الإسلام وأمثال هذا الكلام، فقلت له: تسمح الآن أن أقوم فأقبّل رأسك، ولكن بعد أن تسرّح شعرك المنفوش! فضحك وضحك القوم وانتهت المعركة بسلام.

وأنا أعترف بأن زكي مبارك أقدم مني في الأدب قِدَماً وأثبت فيه قَدَماً، ولكن إذا جاء الدين بطلَت المجاملات وعزّ منَ كان معه وذلّ من كان عليه.

* * *

وكنا نحضر في مصر مجالس كثيرة كانت في حقيقتها مدارس بغير نظام ولا منهاج، وكانت نوادي علمية وأدبية بلا

موعد ولا إعلان، وكانت بما يدور فيها من نافع الأحاديث أنفع من الجامعات.

منها: مجلس لجنة التأليف والترجمة والنشر، الذي كان فيه الأستاذ أحمد أمين وكان معه جلّة من أكابر أساتذة مصر وعلمائها. ودار المفتي الشيخ عبد المجيد سليم، العالِم الجليل الذي كان من جلسائه الشيخ شلتوت والشيخ محمد المدني. لقد جئته مرة في الشتاء وأنا متلفّع مُرْتَدٍ المعطف الثقيل وهو حاسر جالس بين نافذتين مفتوحتين يجري بينهما الهواء، فقلت: يا سيدي... فضحك ولم يدَعْني أُتِمّ وقال: الله الله، أنتم الشباب وتخافون الهواء؟!

ومن تلك المجالس مجلس العالِم الجليل السيد الخضر حسين، رئيس جمعية الهداية الإسلامية والذي صار شيخ الأزهر. ومجلس الأستاذ محمد علي الطاهر، وهو ندوة سياسية قومية عربية. ومن أوائل هذه المجالس مجلس لأستاذ كان إذا تكلّم بذّ القائلين ولم يدع لأحد منهم مجالاً، على تجويد منه في الحديث ورغبة صادقة منهم في سماعه، يتمنّون لو أفاض وزاد، هو الأستاذ العقّاد. وهو في مجلسه مع جلسائه غيره مع مقالته مع قرّائه، تقرأ فتتصوّره مدرّساً عالِماً نافعاً ولكنه متجهّم الوجه قاسي النظرات يلوّح فوق رأسك بالعصا، وتراه في بيته منبسطاً مبتسماً يضمّ مجلسُه أصنافاً من الناس فيحدّث كلَّ صنف بما يفهمون، يخوض في كل موضوع ويتكلّم في كل مجال، حيثما اتجه الحديث اتجه معه فكان سابقاً فيه. حتى لقد ذكرتُ مرة أمامه الشيخ عثمان الموصلّي، وهو شاعر موسيقي معروف عندنا في

الشام والعراق كان من أذكى العميان، كان إذا صافح إنساناً ولمس يده ثم صافحه بعد عشر سنين أو عشرين عرفه من مصافحته وسمّاه باسمه. وإذا الأستاذ العقاد يعرفه ويروي عنه خبراً لم أسمع به وأنا أجمع أخباره!

ما أعرف مثل العقّاد في هذا إلاّ اثنين: فارس الخوري، وآخر لم تسمعوا به كان شيخ القضاة في الشام وكان آخذاً من كل علم بطرف، وإن كان عمله الأصلي هو القضاء، أعاد فيه للناس سِيَر القضاة الأولين، ولم يكن يقضي إلاّ بما يعلم أنه يُرضي الله ويطمئنّ له ضميره المؤمن ويوافق ما علم من شرع الله، لا يميل مع لذّة ينالها أو منفعة يحصل عليها أو مضرّة من قوي إذا قضى عليها يخشاها، ولا يطمح أحد أن يكلّمه في قضية ينظر فيها، هو مصطفى بَرْمَدا. وكان مجلسه في موعد مجلس العقاد من صدر يوم الجمعة، ولكنه كان إذا دنا موعد الصلاة تقوّض المجلس وذهب أهله كلهم إلى المسجد، فكان رجلاً آمن قلبه وآمن لسانه، وآمنَت جوارحه فظهر عليها أثر إيمان قلبه: امتثالاً لأمر الله وابتعاد عمّا نهى عنه الله.

ورُبّ كاتب يكتب بقلمه أو يقول بلسانه ما لا يترجم عنه فعلُه ولا يوافقه سلوكه، يُرضي الناس ولا يسعى لما يُرضي الله.

* * *

أمّا إدارة التشريع في وزارة العدل فهي التي قدّمنا لها وأُوفِدنا للعمل فيها.

وكنا نظنّ أن لقاء الوزير سهل كالذي عرفناه في الشام؛ فنحن نذهب إلى الوزير عن موعد أو بغير موعد فندخل عليه رأساً أو ننتظر قليلاً إن كان مشغولاً، بل إن هذه كانت سنّتنا مع رئيس الجمهورية: محمد علي بك العابد (وهو ابن أحمد عزة باشا العابد، أقرب العرب منزلة من السلطان عبد الحميد) ومع هاشم بك الأتاسي الرجل الجليل الذي كان شيخ الوطنيين، والشيخ تاج الدين الحسني وهو ابن شيخ علماء الشام، مَن كان اسمه أكبر من كل صفة يوصف بها وهو الشيخ بدر الدين، ثم مع الزعيم المناضل شكري بك القوّتلي.

وكان السّنْهوري باشا في الشام مدعواً للمشاركة بوضع القانون المدني. وليته ما وُضع، وليتنا بقينا على «المجلة» المنبثقة عن ديننا والموافقة لشرع ربنا والمكتوبة بالعربية لساننا، ولم يأتِنا هذا القانون المدني الذي طالما كتبتُ عنه وعن لغته وكتب أخي الأستاذ الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا، الذي هو الآن ركن كل لجنة تنعقد لوضع القانون المدني الإسلامي.

وكان زميلنا الأستاذ نهاد القاسم مع السنهوري في اللجنة وكنت أنا في لجنة قانونية أخرى، فلم يكن يوم لا نلتقي فيه بالسنهوري، في المكتب أو في أحد المقاهي الخلوية على سِيف الغوطة أو على سفح قاسيون، فنشأت بيننا وبينه مودّة أزالت الكلفة لأن الرجل، أي السنهوري -كما بدا لنا في الشام- سمح الطبع حسن العشرة غير مترفع ولا متكبر، فظننّا أن الوزراء في مصر كلهم من هذا الطراز.

وذهبنا (أنا والأستاذ نهاد القاسم) إلى وزارة العدل، وكان الوزير يومئذ خشبة باشا، فسألنا عن غرفته فأخذونا إلى مدير مكتبه، ومدير مكتبه استأذن لنا عليه. وكان معنا كتاب رسمي موجَّه إليه من وزير العدل في سوريا تاريخه ٢١ جمادى الآخرة ١٣٦٦ (١٩٤٧/٥/١١) فحملناه إليه ودخلنا عليه، فهشّ لنا وبشّ في وجوهنا وأحسن استقبالنا، وتهيّأتُ أكلّمه فيما جئنا من أجله فلم يدعْني أتكلّم، بل فاجأني بسؤال ما كنت أقدّر أو أتخيّل أنه سيسألني عنه، قال: الشيخ أبو الخير الفرّا هل تعرفه؟ قلت: نعم، وقد كان جارنا وقد تُوُفّي رحمه الله من عهد قريب. قال: ألا تزال داره آخرَ دار في حيّ المهاجرين تُشرِف على دمشق وغوطتيها؟ قلت: نعم، ولكنها لم تعُد آخر دار، لقد أُنشئَ حيّ كامل إلى الغرب منها حتى بلغ فم الوادي المفضي إلى دمر وصعد فوقها حتى وصل إلى الصخرات الكبار في قمة الجبل.

فسكت متعجباً، فقلت له: تسمح لي يا سيدي أن أسأل معاليك، من أين تعرفه؟ فقص علينا قصّة عجيبة.

* * *

-١٩٢-

في إدارة التشريع في وزارة العدل

أنا منذ بدأت الكلام على الكلية الشرعية وقانون الأحوال الشخصية أحسست أني مشيت بالقراء في طريق وعر، لأني كلّفتهم قراءة مباحث فقهية ليس لأكثرهم حرص عليها ولا اهتمام بها، لذلك بدأت أوجز: أمرّ بالكثير منها فأشير إليه ولا أطيل الوقوف عليه، لأن الناس لا يأخذون الجريدة اليومية ليتعلّموا منها الفقه ولا ليأخذوا منها العلم.

قلت إننا وصلنا أخيراً إلى الوزير، وكان وزير العدل يومئذ خشبة باشا. وما أخذ منا الكتاب الرسمي الذي حملناه إليه من وزير العدل في سوريا ولا كلّمنا في المهمة التي جئنا من أجلها، بل واجهَنا بسؤال وجدناه غريباً لا نتوقع مثله من مثله؛ سألَنا عن الشيخ أبي الخير الفرّا. والشيخ أبو الخير من الوجهاء الأغنياء في الشام، ليس من رجال السياسة ولا من أرباب المناصب ولا من أهل الصحافة والأدب، وليس من طراز الوزير ولا من أشباهه، لذلك عجبنا من سؤاله عنه. وقلت لكم إنني سألته من أين يعرفه، فقصّ علينا قصّته[١].

(١) وقد مرت بكم مختصَرة في الجزء الثالث من هذه الذكريات، في الحلقة الثامنة والسبعين (مجاهد).

قال: إنه جاء دمشق من نحو أربعين سنة قبل أن تنشب نار الحرب الأولى، يوم كانت دمشق البلد الوادع الساكن وكانت في شبه عزلة، أقرب مدينة إليها بيروت، يصل إليها القطار ولكنه يُمضي بينهما وقتاً يزيد على ما تُمضيه الطيارة اليوم بالمسافرين من بيروت إلى لندن. ولقد أخذتُ أنا إخوتي إلى بيروت بهذا القطار فقضى بنا على الطريق إحدى عشرة ساعة، ولا يزيد ما بينها وبين دمشق عمّا بين مكة وجدّة إلاّ قليلاً! وهذا القطار باقٍ إلى اليوم، ولكنه لا يمشي إلاّ إلى الزبداني أو المصايف الشامية، وهو قطار أثري ما أظنّ أنه بقي مثله في الدنيا.

قال الوزير إنه وصل دمشق ولم يكن قد زارها من قبل وهو لا يعرف فيها أحداً، فذهب إلى الجامع الأموي فزاره وزار قبور الفرسان الثلاثة: نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر، الذين طهّر الله بهم بلاد الشام من الصليبيين، الذين كانوا أكثرَ عدداً وأقوى قوة من الواغلين الغاصبين الذين أقاموا دولة إسرائيل، فلم يدُم لهم ملك ولم يستقرّ لهم قرار.

ودخل المكتبة الظاهرية وزار المدارس الأثرية، ثم أحب أن يرى البلد فاستأجر عربة (ولم تكن السيارات قد وصلت إليها) فمشت به العربة في طريق الصالحية الذي يجري فيه الترام، يستقبل جبل قاسيون يراه ماثلاً أمامه، في ذروته قبّة النصر التي كانت شعار دمشق وكانت لها كبرج إيفل في باريس، يُعرف قاسيون بها بين الجبال كما تُعرف ببرج إيفل باريس بين المدن. وإذا كان في الجبال الجميل والقبيح فقاسيون أجمل الجبال، هو

بينها كالفتى الغُرانِق[1] بين الرجال، وكلما دنونا من سفحه (يقول الوزير) صعدَت بنا العربة قليلاً وتَكشّف لنا من البلد ومن البساتين التي تحفّ به منظر أكبر، حتى وصلنا آخر حيّ المهاجرين حيث ينتهي خطّ الترام، فرأيت منظراً عجيباً.

ولقد سافرت إلى بلاد الشرق والغرب فما رأيت مثله: تنظر من ورائك فترى قاسيون الفتي الذي يشبه بين الجبال أدونيس في أساطير اليونان، وتتلفّت إلى يمينك فتُبصِر مدخل الطريق الجبلي إلى دُمّر بادياً بين صخرتين عظيمتين، وكان قديماً هو مدخل البلد. وتُطِلّ بعده على أجمل وادٍ في الدنيا أو هو من أجملها: ضيّق لا يتّسع إلاّ للطريق ولنهر بردى الذي يجري فيه، أمّا أبناء بردى فتمشي في الجبلين عن يمين وشمال واحدٌ فوق واحد لتسقي أعالي البلد وأسافله، والماء يخرج من الأعلى إلى الأدنى في شلاّلات دائمة، إذا نظرت إليها وإلى الأنهار والجبل من ورائها رأيت صورة صفوف من عقود اللؤلؤ في جيد غادة حسناء. ولا أقول هذا على طريقة علم البلاغة الميتة التي تُدرَّس في المدارس فلا تنشئ بليغاً، لكن أصف الحقيقة الحيّة المشاهَدة.

فإن اجتزت بنظرك الوادي إلى اليمين رأيت جبال المزة، وتحتها وتحت قاسيون أشجار الغوطة التي تبدأ من هنا وتنتهي شرقي دمشق بعد عشرين كيلاً. فمَن رأى بستاناً واحداً طوله عشرون ألف متر فيه من كل فاكهة زوجان ومن كل الثمار أشكال وألوان؟ والبلد وسط هذا البستان، وفي وسطها الجامع الأموي بقبّته

(١) الغُرانِق: الشاب الأبيض الناعم الجميل (مجاهد).

المشمَخِرّة التي كانت تُدعى قبّة النسر، ومآذنه الثلاث الكبار.

قال الوزير إنه لمّا رأى هذا المنظر تمنى أن يجد هنا فندقاً ينزل فيه، وتلفّت حوله فرأى رجلاً حسن الزيّ مَهيب الطلعة أمام دار مفتوح بابُها يلجها الناس ويخرجون منها. فسأله: أليس ها هنا فندق ينزل فيه الغريب؟ قال: بلى، ألا ترى الباب مفتوحاً؟ فتفضّل. قال: أريد غرفة تُطِلّ على هذا المنظر. قال: حباً وكرامة. يا فلان (ونادى خادماً كان في الدار)، قُل لهم أن يُعِدّوا الغرفة الفلانية للأستاذ.

قال الوزير: ونزلتُ عنده، ووجدته فندقاً مريحاً والنزلاء قليلاً والخدمة جيدة، وكان يسألني كل عشية: ماذا تريد أن تأكل غداً؟ ويعدّد لي الألوان الشامية فاختار منها ما أريد. وطاب لي المقام ولم يكن لي في مصر عمل يستعجلني، فلبثت عنده خمسة وعشرين يوماً، أطلب فأجد، ما وجدت تقصيراً ولا احتجت إلى شكوى. ثم قررت السفر فقلت له: أنا مسافر غداً. قال: بالسلامة إن شاء الله، وإن كنا نؤثر أن تطيل الإقامة عندنا. قلت: أتمنى ولكن آن أوان الرحيل. قال: كما تريد. قلت: أين قائمة الحساب؟ فضحك وقال: الحساب يوم القيامة، ونسأل الله أن يجعله يسيراً. قلت: إنما أعني حساب الفندق. فضحك وقال: أي فندق؟ أتراني من أصحاب الفنادق؟ إنما هي داري، وقد نزلتَ عليّ ضيفاً كريماً، فهل تأخذون مني إن زرتكم أجرة المبيت وثمن القِرى؟

فجرّبت معه كل وسيلة فما أفلحت، فدعوته أن يشرّفني بزيارته في مصر فوعد. وبعثتُ إليه بهديّة من مصر، فقبلها

وردّ عليّ بهديّة أغلى منها. وكتبتُ إليه مرات أطالبه البرّ بوعده وزيارتي، فمضت أربعون سنة وما جاء مصر ولا رجعت أنا إلى الشام. أفتعجبون -بعد- إن سألت عنه وإن طلبت منكم أن تُبلِغوه أني لا أزال متعجّباً من عمله معجَباً به شاكراً له.

* * *

وهي قصة عجيبة، ولكن الشيء من معدنه لا يُستغرَب، والكرم سليقة في العرب، وهو أول مفاخرهم وأول ما يثني به شعراؤهم على أكابرهم. وهو فيهم حاجة قد تبلغ حدّ الضرورة، ذلك أنهم كانوا يعيشون غالباً في بادية ما فيها للغريب فندق ينزل فيه ولا مطعم يأكل منه، فإن لم يجد الغريب مَن يُقريه ومن يطعمه ويسقيه مات جوعاً، لذلك كان من مكارم أخلاقهم التي بُعث الرسول عليه الصلاة والسلام لإتمامها أن للضيف حقاً أقرّه الشرع، وجعل له أن يقاتل عليه إن مُنع منه لأنه يكون في موقف حياة أو موت. لكن هذا العرف لا يسري على مدينة فيها الفنادق وفيها المطاعم وفيها كل ما تحتاج إليه إن كان المال في يدك.

والخلق الكريم وسطٌ بين رذيلتين، بين السرف وبين التقتير، بين البخل وبين التبذير، هذا هو أدب الإسلام: ﴿ولا تَجْعَلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسوراً﴾.

ثم دخلنا في حديث المهمّة التي جئنا من أجلها. وودّعنا الوزير وأخذَنا وكيل الوزارة معه إلى مكتبه، ثم ودّعنا الوكيل وذهبنا مع رئيس المفتّشين، ثم أخذونا إلى إدارة التشريع في الوزارة، وجعلوا لنا أنا والأستاذ نهاد القاسم رحمه الله غرفة نصبوا

لنا فيها مكتبين. وكنا نذهب إلى الإدارة كل يوم، وإن لم نكن مكلَّفَين بمثل دوام الموظفين.

ورأيت في مصر شيئاً لم نكن نألفه في الشام ولم يكن يألفه ولا يعرفه الناس هنا في المملكة. رأينا كل موظف إذا وقف بين يدَي رئيسه تضاءل وتصاغر والرئيس يستكبر وينتفخ، فإذا لقي المرؤوس من هو دونه تكبّر عليه واستخذى الآخر بين يديه. ونحن نعرف للرؤساء حقوقهم ولكن في حدود القانون، فإن جاوزوها وأرادوا أن يأخذوا شيئاً من كرامتنا قلنا لهم: لا، ولا كرامة.

وكان اجتماعي في إدارة التشريع بنخبة من أكابر القضاة في مصر لبثنا في صحبتهم سنة كاملة، أمّا القضاة المدنيون منهم فكانوا أكثر منا اطّلاعاً على اجتهادات المحاكم الأجنبية ومباحث علمائها القانونية وعلى الكتب الحقوقية، وكنّا أعرفَ بالفقه وكتبه ومذاهب علمائه، وكان القضاة الشرعيون منهم مثلنا.

وممن كنت أعمل معهم العالِم المحدّث القاضي الشرعي الشيخ أحمد شاكر، ابن شيخ المشايخ محمد شاكر وأخو شيخ الأدباء الأستاذ محمود شاكر، ومنهم من كان اتصالي به أكثر واجتماعي به أطول، أقضي معه ساعات في الإدارة ربما اتصلَت بساعات أخرى أقضيها معه في داره في حيّ السيدة، وهو فقيه واسع الاطّلاع شارك في وضع القوانين الجديدة في مصر (قانون الوصية وقانون المواريث) وألّف في شرحها، وهو الشيخ محمد فرج السَّنْهوري.

وحيّ السيدة هو مدينة «القطائع» التي أنشأها أحمد بن

طولون الذي أقام في مصر دولة انفصلت (أو كادت تنفصل) عن الخلافة العباسية، بل أوشك أن يتغلّب عليها، كما تغلّب يوماً بنو بويه من شيعة الفرس والسلاجقة من أهل السنّة من الأتراك، لولا أن قيّض الله له رجلاً كان عبقرياً مثله وكان كفؤاً ونِدّاً له، هو المُوفَّق، الذي كان الخليفة بالفعل وإن كانت الخلافة لأخيه بالاسم.

ومصر (أعني القاهرة الكبرى) ليست مدينة واحدة، ولكن مدائن تعاقبت ثم اتصلت: الفسطاط أولاً، وهي مصر القديمة وفيها مسجد عمرو بن العاص الذي فتح مصر بجيش يقلّ عدده عن نصف عدد طلاب كلية واحدة في إحدى الجامعات العربية الكبيرة. وكان مسجد عمرو بن العاص (الذي بُني في موضع فسطاطه فسُمّيت المدينة باسمه) كان شبهَ مهمَل في تلك السنة، ثم سمعت بأن الحكومة عادت إلى العناية به وإلى عمارته، عمارة الجدران والأركان وعمارة العلم والإيمان، وولّت خطبته واحداً من الدعاة المخلصين ومن المفكّرين المسلمين هو صديقنا الشيخ محمد الغزالي.

وأنشئت بعد مدينة الفسطاط مدينة القطائع (وهي حيّ السيدة زينب الآن)، وفيها جامع ابن طولون بمنارته التي تمتاز من المنارات بأن درَجها من ظاهرها، بُنيَت على نمط منارة مسجد «سُرّ مَن رأى» التي تُسمّى المَلْويّة والتي سبق الكلام عنها، أُنشئت بعدها بنحو نصف قرن. ثم أُقيمت مدينة المعزّ العبيدي الذي يُدعى الفاطمي، والتي فيها الأزهر وفيها مسجد الحسين. ثم مشى البناء إلى العتبة الخضراء والأزبكية على عهد محمد علي،

ثم إلى حيث لم أعُد أدري، فاسألوا الأساتذة المصريين الذين يعملون هنا.

ولمّا كنت في مصر (في السنة التي أتكلم الآن عنها) كانت شبرا منقطعة عن البلد، وكان ما بعد الجيزة خالياً ما فيه إلاّ الترام الذي يمشي إلى الهرم. ولم يكن فُتح -كما أذكر- الشارع الموصل من العتبة الخضراء إلى الأزهر ولا الشارع الآخر الذاهب إلى العباسية، وعرفتُ شارع الخليج قبل ذلك ضيقاً ملتوياً أركب الترام الذي يمشي فيه من ميدان باب الخلق الذي كنت أنزل فيه في دار خالي حتى أصل إلى دار العلوم في حيّ المُنيرة، فلا أرى على الجانبين إلاّ أبنية قديمة دبّ فيها دبيب الخراب، حين مُنع إصلاحها لأنها ستُهدم ليُفتح فيها الشارع الفسيح الذي ترونه الآن. وكانت مصر الجديدة بلداً آخر، وكان وراء الأزهر ومسجد الحسين جبل موحش، لم يكن هناك عمران، وكانت البلدة تنتهي عند جبل المُقطَّم.

وهذا استطراد، وعيبي الاستطراد لا أستطيع منه فكاكاً فاحتملوه مني.

* * *

وكان أكثر جدالنا مع الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهوري في مسألتين، إن أذنتم لخّصتهما تلخيصاً ولم أفصّل القول فيهما: مسألة الوصية للوارث، ومسألة الوصية الواجبة.

ذلك أن العمل على عهد العثمانيين كان على المذهب الحنفي وحده، بل بالقول المُفتَى به في المذهب، حتى إننا -أنا وأخي

الأستاذ الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا- لمّا اخترنا في قانون الأحوال الشخصية العدول في توريث ذوي الأرحام عن قول الإمام محمد المفتى به إلى قول الإمام أبي يوسف، لأنه أسهل على الناس وأرفق بهم، أبى ذلك علينا شيخنا العلاّمة مفتي الشام الشيخ محمد شكري الأسطواني. وهذا تضييق على الناس ليس في الشرع ما يوجبه ولا ما يرغّب فيه ويدعو إليه، والدين لم ينحصر في مذهب واحد ولا في المذاهب الأربعة مجتمعة بحيث لا يجوز الخروج عليها ولا مخالفتها، على أن تكون مخالفتها بالدليل الشرعي.

ولكن الذين وضعوا مشروع قانون الوصية في مصر أرادوا الخروج من هذا الضيق فوقعوا فيما هو أبعد عن الحقّ، حين خالفوا الحديث الصحيح الذي تلقّته الأمّة كلها بالقبول وانعقد عليه الإجماع، فجوّزوا الوصية للوارث ولغيره بالثلث وبأكثر منه. ولست أدري إذا كانت هذه المادّة لا تزال موجودة في قانون الوصية وقانون المواريث أم أنها عُدّلت وبُدّلت، فإن كانت باقية فإنه يجب وجوباً شرعياً تعديلها.

لقد أمضينا مع الشيخ محمد فرج ساعات طويلة في المناقشة فيها. والوصية منحة من الشارع ليست حقاً طبيعياً، لأن الإنسان إذا مات لم يعُد يفكّر بمنح ولا منع، ولو أرادهما لما أطاعته جوارحه، ولو كان مفتاح الصندوق الذي فيه ماله تحت وسادته لم يستطع بعد موته بربع ساعة أن يمدّ يده إليه. إنه ميت، فكيف يتصرّف الميت بماله؟ إن تصرّفه بثلث المال بعد موته وصية، واعتبار إرادته بعد أن فقد التحكّم فيها منحة من الشارع، فلا يجوز أن نتعدى الحدّ الذي حدّه لها الشارع.

أمّا الوصية الواجبة فالكلام فيها طويل، وهو ماثل في ذهني لأني -من طول ما ناقشت فيها في مصر ثم في الشام- استقرّت فيه كأنها منقوشة نقشاً عليه. والدافع الذي دفعنا إلى اعتبار الوصية الواجبة أن الإسلام دين العدل ودين الحقّ، وأننا نرى رجلاً ساعده ولده الأكبر في عمله وشاركه في جمع ماله، فانصرف بذلك عن الدراسة وعن العلم لأنه كان مشغولاً بمساعدة أبيه وكان أبوه فقيراً لا يملك أن ينفق عليه، فلما اغتنى الأب بمساعدة الولد وكبر أبناؤه الصغار أدخلهم المدارس والجامعات، فنشؤوا متعلّمين قادرين على الكسب حاملين الشهادات العالية، والولد الكبير لم يتعلّم علماً ولم يحصّل شهادة، ثم قضى الله أن يموت الولد الكبير قبل أبيه وأن يترك أطفالاً صغاراً لا مال لهم ولا يرثون من جدهم الغني حين يموت جدهم، فهل من العدل أن يبقى هؤلاء فقراء؟

أنا لم أنازع في أنهم يستحقون المساعدة، ولكني كنت أجادل الشيخ فأقول له: لو أراد الشرع أن يورّثهم لقضى بتوريثهم، فهل نحن فيما نضع من قوانين مستمَدّة من الشرع أعدل من الذي أنزل الكتاب وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وليس في الكتاب ولا في سنّة الرسول ما يوجب إعطاءهم. ثم رجعتُ إلى نفسي بعد هذه المناقشات الطويلة جداً فشرح الله صدري لإقرار الوصية الواجبة في مشروع القانون، وقلت لنفسي: إن الشرع ندب الجدّ في هذه الحال بأن يوصي لأحفاده هؤلاء الذين مات أبوهم في حياته، والذين يسمّيهم الفقهاء «أولاد المحروم». والمسلمون الأولون كانوا -لتمسّكهم بالدين- يكفيهم الندب ليقوموا بالعمل، ثم إن في بعض المذاهب الأربعة أن التركة لا

تُوزَّع على المستحقّين من الورثة إلاّ بعد أن يخرج منها حقّ الله، فإذا اعتبرنا الوصية لابن المحروم التي ندب الشرع إليها حقاً من حقوق الله وأخرجناها قبل توزيع التركة لا نكون قد خرجنا عن المذاهب الأربعة.

أما القول في هذه الوصية والوصية للوارث فألخّصه بكلمات، من جهة التقليد ومن جهة الاجتهاد، أي بالنظر إلى جهة مذاهب الأئمة المعتبَرة والنظر للأدلّة: أما من جهة التقليد فقد اتفق جمهور الفقهاء على أن الوصية للوارث غير جائزة، وإن كان منهم من منعها من أصلها ولم يجوّزها ولو أجازها الورثة، وعلى ذلك مذهب مالك (فيما سمعت) وداود الظاهري وأحد القولين في مذهب الشافعي، ومنهم من جعلها موقوفة على إجازة الورثة كأبي حنيفة والشافعي في أحد القولين وأحمد على ظاهر المذهب. وخالف الفقهاءَ بعضُ الفرق التي لا نأخذ بأقوالها كالشيعة الإمامية وبعض الزيدية.

أمّا من جهة الاجتهاد فالأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيراً الوصيّةُ للوالدَينِ والأقرَبِينَ بالمعروفِ، حقّاً على المُتّقينَ، فمَن بَدّلَه بَعدَما سَمِعَهُ فإنّما إثمُهُ على الذينَ يبدّلونَهُ، إنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ﴾ (وهذه الآية فَرضت على من ترك مالاً -مطلقاً أو مالاً كثيراً- أن يوصي للوالدَين والأقربين)، وقوله تعالى في آية المواريث: ﴿يُوصِيكمُ اللهُ في أولادِكُمْ للذّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، فإنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَينِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ﴾ (إلى آخر الآية)، وحديث: «إنّ اللهَ أعطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ فلا وصيَّةَ لوارثٍ»، وهذا الحديث رُوي

من طرق كثيرة وهو موجود في جامع الترمذي وصحّحه وعند أحمد والنسائي وابن ماجه.

وجمهور العلماء على أن آية الوصية منسوخة الحكم، واختلفوا: هل نُسخَت بآية المواريث أو بالحديث، أو بهما معاً؟ وهو الأشهر. وإنّ صدر الحديث يدلّ على أنه بيان لآية المواريث، أي أن الله كتب علينا الوصية، ثم تولّى بنفسه توزيع التركة فحدّد للوالدَين والأقربين وللزوجين ما يأخذونه. وقال بعض العلماء إن ما فرضه الله إنما يُعطى لأصحابه من بعد وصية يوصى بها أو دين، فلا ينسخ آية الوصية. ورُدّ عليهم بأن الوصية في آية المواريث هي الوصية للأجنبي من ثُلُث المال، لإطلاق اسم الوصية فيها، وأجابوا بأن الحديث خبر آحاد وليس متواتراً فلا ينسخ الكتاب، وردّ عليهم الجمهور بأن الأمّة قد اتفقت على تلقّي هذا الحديث بالقبول.

تفسير الآية: (١) اختلفوا في تفسير كلمة «خيراً» بعد اتفاقهم على أن المراد بها المال. هل هو المال إطلاقاً أم هو المال الكثير؟ (٢) واختلفوا في تفسير الأقربين، فقال زيد هم الأولاد، وقال ابن عباس ما عدا الولدَين، وقيل من لا يرث من الرجل، وقيل غير ذلك، والاختلاف في معنى القرابة كثير بين الفقهاء، ومن شاء من القرّاء راجع أحكام القرآن للجصّاص والمحلّى (٩/٣١٤) ونَيل الأوطار (٦/١٦٣ و٢١٧) والطبري (٢/٧١) والقرطبي (٢/ ٢٦٦) وسائر التفاسير.

حكم الآية: الآية عند الجمهور منسوخة، وقال في المغني

(٦/٤١٤): تجب الوصية على مَن عنده وديعة أو عليه دين، وبغير ذلك لا تجب. وقال قوم: تجب للأقرباء الذين لا يرثون، ونُقل عن بعض الصحابة. وجاء مثل ذلك في نيل الأوطار (٦/٢٩)، ونُقل عن المنذر بن سعيد أول باب الوصية من مواهب الجليل للحطّاب المالكي، وأفاض فيه ابن حزم في المحلى (٩/٣١٢)، وهي عنده فرض على كل من ترك مالاً لقرابته الذين لا يرثون، وروى القولَ بذلك عن جماعة من التابعين.

إذا مات ولم يوصِ هذه الوصيّة فما العمل؟ اختُلف فيه على ثلاثة أقوال: (١) فقال قوم بأنه إن لم يفعل خُتم عمله بمعصية ولا شيء لهم (راجع نيل الأوطار ٦/١٦٣)، (٢) وسكت قوم عن الحكم، (٣) وانفرد ابن حزم فقال بأن له أن يوصي بما طابت به نفسه، وإن أوصى بثلاثة أجزاء (وإن لم يوصِ بالكل) فإنه يكون قد أوصى للأقربين لأن أقل الجمع ثلاثة. فإن مات ولم يوصِ أعطوا جزءاً من ماله يقدّره الورثة أو الوصي ولا حدّ له، ومذهب ابن حزم قضاء ديون الله قبل ديون العباد.

فإن أوصى لغيرهم من الأباعد وتركهم؟ إن تركهم محتاجين وأوصى لغيرهم من الأباعد رُدّت الوصية عليهم على قول في مذهب أحمد، نقله ابن مفلح في كتاب الفروع (٢/٩٢١ و٨٩٢) وقيل إن أوصى لغيرهم بالثلث أُعطوا ثلثَيه وللموصى له ثلثه، قياساً على المال كله، وهو قول معزوّ لسعيد بن المسيّب والحسن البصري.

* * *

فمشروع الوصية الواجبة في القانون مأخوذ من هذه الآية، وهي منسوخة لكن حكمها باقٍ في غير الوارث، ومعنى ذلك أن الله أمر فيها بالوصية للأقربين جميعاً، ثم حدّد لبعض الأقرباء أنصباءهم وحصصهم من التركة فأُعطوا ما فرضه الله لهم، وباقي الأقربين بقي حكم الوصية قائماً في حقّهم.

بقي تحديد المقدار الواجب. اختلف المفسرون في المراد من كلمة «بالمعروف»، فقال ابن مسعود: الأحوج فالأحوج. وقيل: ذلك متروك لاجتهاد الموصي. وفي حاشية الرّهوني في المذهب المالكي أنه إذا أوصى بجزء مُبهَم غير مقدَّر فلا شأن للورثة أو الوصيّ في تعيينه، وإنما يكون للموصى له سهم من السهام التي تنقسم إليها التركة، وهو رأي ابن القاسم. والذي ذهب إليه واضع المشروع في مصر أن المعروف هنا هو أن يأخذ أبناء المحروم حصّة أبيهم من التركة لو بقي حياً[١].



(١) نصّ الدكتور وهبة الزّحيلي في كتابه «الفقه الإسلامي وأدلّته» على أن القانون المصري أوجب هذه الوصية لأولاد الابن مهما نزلوا وللطبقة الأولى فقط من أولاد البنت، أما القانون السوري فقد قصر هذه الوصية على أولاد الابن فقط، ذكوراً وإناثاً، دون أولاد البنت. ثم قال: "والأَولى الأخذ بما ذهب إليه القانون المصري تسويةً بين فئتين من جنس واحد، سواء لطبقة واحدة أو أكثر". ثم ذكر أن القانون حدّد للأحفاد ما كان يستحقه أبوهم لو كان حياً. انظر المسألة في الجزء الثامن ص١٢٣ (مجاهد).

-١٩٣-

ترشيحي في انتخابات الشام سنة ١٩٤٧

عرفتم أن أبي رحمه الله مات سنة ١٣٤٣هـ وأنا لم أكمل السابعة عشرة، وترك أسرة كبيرة ولم يترك مالاً، لا نقداً ولا عقاراً، فخضتُ معترَك الحياة بلا سلاح إلاّ ما منّ الله به عليّ من مواهب. طرقتُ لكسب الرزق كل باب وصلت إليه، إلاّ باباً حراماً يكرهه الشرع أو باباً وراءه مهانة ومذلّة تأباها الكرامة؛ فاشتغلت بالتجارة حيناً، وبالتعليم، دخلت فيه سنة ١٣٤٥ وأنا لا أزال طالباً ثم لم أخرج منه، وبالقضاء من سنة ١٣٥٩ إلى سنة ١٣٨٥ ، وبالصحافة احترافاً لها وقتاً قصيراً وكتابة فيها الوقت كله، ما أعرضت عنها من يوم أقبلت أول مرة عليها.

فلما كانت سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧) التي أحدّثكم الآن حديثها وكنت في مصر كانت الانتخابات في الشام. وقد تجري الانتخابات الآن في بعض الدول التي دخلَت إليها الماركسية أو إحدى بناتها أو جرّتها إليها أو استمالتها فأمالتها، تجري الانتخابات فيها فلا يحسّ بها أهل البلد إلاّ أن يسمعوا أخبارها من إذاعة حكوماتهم أو يقرؤوها في جرائدها، تجري هيّنة ليّنة كالماء السلسبيل لا يعترضه عارض ولا تموج فيه موجة، لأن مَن يلي أمرها رتّب كل شيء

فيها، كما يصنع بالمسرحية مؤلفُها ومُخرِجها: يُعِدّ الأول النص، ويوزّع الثاني الأدوار، ويحفظ الممثّلون أدوارهم، وتجري التجارِب ليتوثّق المخرج من حسن الأداء، ثم يُرفَع الستار عن مسرحية أُعلنَ أنها جديدة لم يُكتَب لها نصّ ولم يُخرِجها مخرج، بل تجري على الطبيعة بتعاون حرّ ووحدة مخلصة، وبهذه الوحدة والحرّية يُضمَن النجاح.

ولكن الانتخابات يومئذ كانت تهزّ البلد هزاً، تدخل كل بيت وتكون أخبارها أحاديث الناس، وإن لم يخلُ أكثرها من تزوير. وأنا لم أفكّر فيها يوماً، وما كان لي في السياسة من أرب وما كنت من أربابها ولا سألت عن الطريق إلى بابها، لا أعني سياسة المبادئ والأهداف والاهتمام بأمر المسلمين والمشاركة في حدود الاستطاعة لإصلاح أحوالهم، فهذا واجب إسلاميّ، ولكن أعني سياسة النزاع على الكراسي والزحام على الحكم.

لمّا كانت هذه الانتخابات خطر لي خاطر مفاجئ (وأكثر ما اتخذت في عمري من قرارات كان آنيّاً مفاجئاً) فقلت لنفسي: إن الله أعطاني كل وسائل النجاح في النيابة، فأنا (ولا مؤاخذة إن قلت أنا ومدحت نفسي، فإني أقول حقاً) معروف في بلدي وفي كثير من البلاد العربية، ولي كما يقولون شعبية واسعة، وأعطاني الله لساناً طليقاً وجرأة على مخاطبة الناس، ومعرفة بطرق إقناعهم ومقدرة على إثارة عواطفهم والوصول إلى قلوبهم، ومن وراء ذلك ثقافة إن لم تكن كاملة شاملة فليست قليلة ولا تافهة، واطّلاعاً على أوضاع الناس.

ونسيت أن النيابة تستلزم شيئاً غير هذا لعله أهم منه ليس عندي؛ هو أن أفتح بيتي لمن أحبّ ومن أكره، وأسمع من القول ما يروق لي وما يعكّرني، وأمشي في حاجات الناس ما كان منها حقاً وما كان باطلاً، وألقى العدوّ بمثل الوجه الذي ألقى به الصديق، وأن يستبيح الناس وقتي كله... وهذا ما لم أتعوّده ولا يمكن أن أتعوّده بعد الأربعين (وقد كنت في تلك السنة على عتبة الأربعين من عمري).

ولكن رغبتي القوية حجبت عني هذه الحجج المنطقية، وأنستني أن على طالب النيابة أن يُعِدّ لمعركتها المال الكثير، وأن يرسم لها الخطط المُحكَمة، وأن يكون له فئة ينصرونه ويؤيّدونه. ومالي أنا من ذلك كله شيء، ولكني أقدمت مع ذلك، فذهبت من فوري فأبرقت إلى محافظ مدينة دمشق أني رشّحت نفسي.

وجعلت أتتبّع أخبار الانتخابات. وكان قد صحّ عزم الشيخ حسن البنا رحمه الله، المرشد العامّ للإخوان، على أن يسلك بهم مسلكاً جديداً، فيقترب من الإصلاح عملياً للمشاركة في توجيه دفّة الحكم، وأحبّ -كما يبدو- أن يجرّب ذلك بمساندة مرشَّحي الإخوان في الشام على النجاح. فبعث بالأستاذ عبد الحكيم عابدين والأستاذ سعيد رمضان إلى دمشق، وكلاهما خطيب لا يُجارى وفارس من فرسان الكلام لا يُشَقّ له إن أقدمَ غبار، وإن كان بعض الناس يتكلمون فيهما، لا في بلاغتهما وأقوالهما بل في سلوكهما وأفعالهما.

ولبثت أنتظر النتائج وليس لي أمل في أن أنال مئة صوت. وكانت جريدة الإخوان المسلمين آلت رياسة تحريرها إلى خالي

محبّ الدين الخطيب، فكنت أزوره فيها أُمضي عنده الساعة والساعتين أستقي الأخبار، وقد رأيت فيها أول مرة هذا «التلِكس» الذي يطبع من بُعد. وكانت إعلانات المرشَّحين تغطّي كل جدار في الشام وبياناتهم تصل إلى كل يد، والوعود الضخمة مُعَدّة مهيّأة في مكاتبهم توزَّع على الناس بلا حساب.

وأنا ما نشرت بياناً ولا علّقت إعلاناً، إلاّ شيئاً صنعه أخي بلا علمي حين رأى المرشّحين جميعاً يكتبون «انتخبوا فلاناً»، فأحبّ أن يجدّد في الإعلان فكتب بالحروف الكبيرة «لا تنتخبوا علي الطنطاوي» وكتب تحتها بالخط الصغير الذي لا يُرى إلاّ بالمجهر[1]: «إلاّ إذا وثقتم منه ومن سيرته».

وانجلى الغبار، وظهرت النتائج ونُشرت في الجرائد، فإذا المرشَّحون أصناف ثلاثة: صنف نجحوا وصاروا نوّاباً، وصنف خرجوا من المعركة لم ينالوا شيئاً وأضاعوا أموالهم وآمالهم، منهم صلاح الدين البيطار، رفيقي في المدرسة وأحد الرجلين اللذين أسّسا حزب البعث. ومنهم الدكتور صبري القباني، وهو رفيقي أيضاً. ومنهم أستاذنا في كلية الحقوق شيخ المحامين الأستاذ سعيد محاسن، ومنهم الوطني المجاهد نزيه المؤيَّد، وكثير غيرهم.

وصنف لم ينجحوا فيصيروا نواباً ولم يخسروا فيخرجوا من المعركة، وهم على ترتيب ورود أسمائهم في الجرائد: الأستاذ مظهر العظمة مؤسّس جمعية التمدّن الإسلامي الداعية المخلص والكاتب الشاعر، والأستاذ لطفي الحفّار الخطيب الزعيم،

---

(١) المِجهَر (على وزن المِنْبَر)، ويتحذلق من يذيع دائرة المعارف في الرائي فيقول: المُجهِر (على وزن مُؤمن)!

والأستاذ أحمد الشرباتي الوزير، والأستاذ صبري العسلي المحامي المعروف الذي ولي رياسة الوزارة مرة وولي الوزارة مرات، وبعدهم اسم علي الطنطاوي، وبعده الأستاذ نصوح بابيل الصحافي الكبير ونقيب الصحافة في الشام، والأستاذ نسيب البكري الزعيم المناضل، والأستاذ حسن الحكيم الذي كان واحداً من أشرف السياسيّين الذين عرفَتهم أمّتنا وكان رئيس الوزراء وكان وزيراً مراراً وكتبتُ عنه فيما مرّ من هذه الذكريات، ومنهم نبيه العظمة من قدماء الوطنيين العاملين، والأستاذ بشير القضماني الذي كان أمين مدينة دمشق، والشيخ عبد الحميد الطباع رجل العلم والمال مرشَّح الجمعية الغرّاء. ومنهم رفيقنا الذي آثر الضلال على الهدى والكفر على الإيمان فكان زعيم الشيوعية عاش حياته كلها لها، وأرجو أن يرحمه الله فيهديه فلا يموت عليها، وهو الخطيب الذي يلعب بالقلوب ليسوقها إلى النار خالد بكداش. وكثير غيرهم.

* * *

عندئذ صحّت عزيمتي على السفر إلى دمشق. وكانت البلاد العربية -على عهد الاستعمار- دار إخوة أحبّة وإن أقاموا بينها حدوداً ووضعوا لمن يتنقل فيها قيوداً، كانت على رغم الاستعمار أفضل مما انتهت إليه لمّا امتدّت إليها إصبع الماركسية فأوقعت بينها العداوة والبغضاء، حتى صار يحارب بعضها بعضاً ويعدو بعضها على بعض.

وكان عندنا مَفاسدُ نبكي منها، فلمّا رأينا عهوداً جاءت بعدُ صرنا نبكي عليها! كانت رائحة مخازي فاروق تملأ الساحة

الكبرى حول قصر عابدين، فلما جاء عهد ما بعد فاروق خرجت رائحة أسوأ منها فملأت البلاد وكانت غازاً خانقاً للعباد، كنا في شكوى الفسوق فصرنا في الصراخ من الكفر.

لمّا وصلتُ إلى دمشق رأيت لكل حزب أو جماعة ولكل مرشَّح كبير مركزاً انتخابياً بابه مفتوح والمرشَّح موجود فيه دائماً. وكان أكبر مركز انتخابي هو الذي أقامته رابطة العلماء في جامع تنكز، وهو الذي يُطِلّ على شارع النصر أقدم وأشهر شارع في دمشق، ويُطِلّ من شماليه على أكبر ميادين الشام، ميدان المرجة التي كانت رحبة البلد.

ولقد كتب الصديق الأستاذ نصوح بابيل عن هذه الانتخابات، ولكنه لم يُثبت فيما كتب إلاّ ما نشرته الجرائد. ونحن نعلم أن الكلام المنشور في الجرائد لا يصوّر دائماً الواقع المطويّ كله، لقد أغفل الأستاذ ذِكر العامل الأقوى في هذه الانتخابات، إنه وصف المعمل بآلاته وجهازه ولكن نسي المحرّك (الموتور)، وكان المحرّك هو «رابطة العلماء».

والعلماء لو استكملوا أمرين لكانوا هم قادة الشعوب الإسلامية في كل قطر وفي كل زمان، وهما: أن يكون عملهم لله لا للدنيا ولا للرياسة، وأن يدَعوا هذا الخلاف بينهم على الفرعيات وأن يكونوا صفاً واحداً.

ولقد تكلّمت فيما سبق عن إنشاء الجمعيات الإسلامية في الشام، وكنت عاملاً صغيراً فيها، حملت خبرها لمّا رجعت من مصر وقد شهدت فيها قيام جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٨. ولم تكن هذه الجمعيات بداية العمل الجماعي، بل كان قبلها

المشايخ. وكانت الرابطة بين الشيخ ومريديه أقوى من الرابطة بين أعضاء الجمعية وقادتها، حتى إن الصوفية جاؤوا بشيء لا يُقِرّه دين المسلم ولا يسيغه عقل العاقل، هو أن «يكون المُريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل»، أي أنهم يريدون أن نكون أمّة أموات!

ومر بكم أني -على ضعفي وعجزي- حاولت لمّا عدت من العراق (سنة ١٩٣٩) جمع المشايخ والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية فما أفلحت. وكنت كلما زار دمشقَ الشيخُ أمجد الزهاوي مع الشيخ محمد محمود الصواف جمعت لهما بطلب منهما كل العاملين للإسلام من أقصى الصوفية إلى أقصى السلفية، لأن صلتي بحمد الله بهم جميعاً صلة طيبة، أمشي معهم من مراحل الطريق ما يوافق طريقي ثم أسلك طريقي وأدعهم يسلكون طريقهم. ثم إنني لا أنازع شيخاً على مشيخته ولا رئيساً على رياسته، ولو عُرضت عليّ لرفضتها وامتنعت عن قبولها، بل لقد عُرضت فعلاً وصنعت هذا الذي قلت.

ثم لمّا رجع الشيخ كامل القصّاب -كما عرفتم- من منفاه ألّف «جمعية العلماء»، فضمّت المشايخَ جميعاً إلاّ «الجمعية الغرّاء». ثم كانت «رابطة العلماء»، وشملت هذه المرة الجميع، وكان رئيسها شيخنا الشيخ أبا الخير الميداني وكان نائبه السيد مكي الكتاني. تلك (أي الرابطة) هي التي قادت الناس يوم الانتخاب حتى صار الوطنيون يقدّمون أنفسهم للعامّة بلقب المشيخة: الشيخ لطفي الحفّار والشيخ صبري العسلي، لأن الزمن كان زمن المشايخ.

وأنا لا أمنع أن تتعدّد الجماعات الإسلامية، لكن بشرط أن

تكون كلها صادرة عن بداية واحدة، ماشية إلى غاية واحدة، يربط بينها التنافس على رضا الله لا التزاحم على الدنيا والجاه، وألاّ تقوم على أسلوب الأحزاب السياسية بل الجماعات الإسلامية. وإن كان الأَولى والأفضل أن يكونوا جماعة واحدة تمشي على الطريقة الواحدة النقية البيضاء التي تركَنا عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وأصدرت الرابطة قائمة مرشَّحيها، وكنت واحداً منهم. بتُّ في دمشق ليلة وصولي، ثم ذهبت من الغد إلى الاجتماع الكبير في جامع تنكز، وقد رُصّت المقاعد رصّاً في ساحته الواسعة جداً حتى لم يبقَ فيها فراغ لمقعد وامتلأت بالناس حتى لم يبقَ فيها مقعد فارغ، ووضعوا في صدرها سدة قعد عليها بعض أعضاء الرابطة وبعض المرشَّحين، وتداولوا المنبر يخطبون. فلما جئت أخطب استقبلتني الجموع بالهتاف العالي والتصفيق المستمرّ، ولكن تجهّمَت لي وجوه أكثر مَن هم على السدة وبدا عليهم أنهم كرهوا حضوري، وحاولوا منعي فما استطاعوا.

وشرعتُ أتكلم، فما راعني إلاّ ذراعان تلتفّان حول خصري وأنني أُحمَل من فوق المنبر فأُنزَل عنه! وضجّ الناس. وأذكر أن ممّن وقف معي وشدّ من أزري وبذل كل ما استطاع الإخوة الأفاضل الذين كانوا يوماً بين تلاميذي ثم صاروا من زملائي، بل غدوا أفضل مني، محمد القاسمي ووحيد العقّاد وعبد الرحمن الباني وأديب صالح، وأعادوني بالقوة إلى المنبر كما أُنزلتُ عنه بالقوة وبالغدر، ورجعت أتكلم أعاتب مَن صنع هذا. وإنه لَيؤلمني أن أقرّر حقيقة ما كنت أتمنى أن تكون ولكن الأماني لا تدفع

الواقع، هذه الحقيقة هي أن الإخوان المسلمين قد حاربوني في الانتخابات كما حاربتني الجمعية الغرّاء.

وأنا لا أعتب على الغرّاء بقدر عتبي على الإخوان لأنني لم أدّخر وسعاً يوماً في تأييدهم. وقد لبثتُ على ذلك بعد هذا الحادث، ولمّا قُتل الأستاذ الشهيد عبد القادر عودة وإخوانه كتبتُ مقالة طويلة عنوانها «هذا يوم الحداد» طُبع منها أكثر من تسعمئة ألف نسخة، وتُرجمت إلى اللغة الأردية ونُشرت في باكستان، ربما لخّصتها يوماً أو نشرتها في هذه الذكريات. ولقد بكى منها كل مَن قرأها، ما كتبتها ليشكرني الإخوان عليها بل لأجد عند الله ثوابها، فلا أمنّ بها ولا أطلب عنها بدلاً. وأيام الوحدة أذعت من إذاعة دمشق الرسمية خبر ما صنع الإخوان عند القناة وسمّيتهم بأسمائهم التي سمعتها من أخي وولدي الأستاذ كامل الشريف (ثم ألّف عنها كتاباً)، وخبّرني أخي الأستاذ نهاد القاسم رحمة الله عليه أن الرئيس جمال عبد الناصر غضب منها لما سمعها وبعث يؤنّب القائمين على الإذاعة لأنهم أذاعوها.

ولكن عذر الإخوان أنهم دوائر بعضها وسط بعض، فأنا معهم في الدائرة البرّانية[1]، فإذا جئنا إلى الدائرة الصغيرة الجوّانية أخرجوني عنهم. وهذا ما كنت أُنكِره، كنت أنكر على الجماعات الإسلامية أن تسير سيرة الأحزاب السياسية، كنت أحب منها أن تصادق لله وحده وأن تعادي لله وحده، وأن يكون سواء لديها مَن كان صالحاً وإن لم يدخل فيها ومن كان من أعضائها.

---

(١) كلمة «برّاني» و«جوّاني» فصيحة وردت في الحديث الصحيح.

لقد أعرض عني أقرب أصدقائي، ممن أسميهم أصدقاء العمر وكانوا رفاقي في المدرسة وكانوا أصحابي في حياتي، نسوا ما كان بيني وبينهم، ولعلّ ذلك لأنهم بعيدون عن أمثال هذه المعارك فلا يعرفون مداخلها ومخارجها ولا أصول الكرّ والفرّ فيها. فإذا كانوا:

لا خَيلَ عندَكَ تُهدِيها ولا مالُ
فليُسْعِدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ؟

لقد رأيت الوفاء من جيراننا في الحيّ ورأيت الوفاء من تلاميذي وتلاميذ أبي، حين أقام لي الشيخ محمود العقاد (رحمة الله عليه وعلى كل من مات ممن ذكرت في هذه الحلقة) حفلة في مدرسته، المدرسة التجارية العلمية، جمعَت وجوه البلد. وفي هذه الحفلة ظهر خطيب جديد كان يومئذ شاباً في العشرين، فبهر الناس بخطبة ارتجلها وبهرني مع الناس، هذا الذي صار من بعد نابغة الخطباء، وهو عصام العطّار.

وكانت الانتخابات التكميلية، ولكنها زُوّرت وأُبدلت فيها الصناديق، فجاؤوا بغير التي ألقى فيها الناس أوراقهم وملؤوها قبل أن يأتوا بها. وقصّة هذا التزوير يعرفها الصغير والكبير فلا حاجة إلى إثباتها، بل لا حاجة إلى العودة إليها.

وأراد الله لي خيراً مما أردت لنفسي؛ علم الله أنني لا أصلح للحياة السياسية، وأن الحياة السياسية ليست لساناً ينطلق ولا عقلاً يفكّر، ولكن لها طرقاً ملتوية لا يستطيع مثلي أن يمشي فيها، فأنقذني الله منها. ورجعت إلى مصر، ومررت بفلسطين فكان تسليمي عليها وداعاً، لأنها سقطَت بأيدي اليهود بعد ذلك

بشهور، ما أخذوها بقوتهم ولكن بتفرّقنا.

اضطُررت إلى البقاء في حيفا أياماً، فرأيت فيها من الفسوق المعلَن والفواحش الظاهرة -مما حمله إليها اليهود في هذه السنوات القلائل- ما لم أكن أتخيّل وجوده في الخيال فضلاً عن أن أراه بالعين! ذهبت أفتّش عن فندق فمشيت في الشارع الكبير (وأظن أن اسمه شارع الملوك)، سرت فيه إلى اليمين والبحر من ورائي، فلما بدأ الطريق يصعد رأيت فندقاً حسن المظهر، فولجته لأجد لي غرفة أقضي الليل فيها، فإذا على يسار الداخل غرفة واسعة مقدّمتها من الزجاج، لها جدار قصير يُبدي ما وراءه ولا يخفيه، فيها بنات كثيرات ما هن مستترات ولا محتشمات ولا يبدو أنهن موظفات، وإلى اليمين مكتب كالذي يكون في الفنادق. فسألت عنهن فقال لي من هو في المكتب: اختر من تشاء وادفع، واذهب معها إلى غرفتها! وتبيّنت من لهجته وهيأته أنه يهودي.

وعدت أمشي في الشارع فوجدت رجلاً عليه سيما الخير، فسألته عن فنادق البلد، فإذا في أكثرها مثل هؤلاء البنات المومسات. ووجدت أسواق المسلمين وسخة تتراكم فيها القمامات والأقذار، فاجتمعَت وساخة الطرق ووساخة الخلق. ورأيت أشياء لو ذهبتُ أفيض في ذكرها لكنت ممن يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

وأردت العودة إلى مصر فتعسّر عليّ أن أجد مكاناً في القطار، فقيل لي: اذهب إلى شركة الطيران المصرية. فذهبت وحفظت لي عليها مكاناً، ولم أكن قد ركبت الطائرة من قبل ولم يكن ركوبها للناس مألوفاً ولا معروفاً، وحان موعد قيامها وأنا

وَجِل منها خائف من شرّها، فإذا هي طيّارة صغيرة فيها سبعة مقاعد والطيار ومعاونه قاعد معنا في مقدّمتها، ولم يكن فيها إلا راكب واحد علمت أنه يهودي. فكان الطيار يحدّثني طول الطريق، فأقول له: كيف تترك مقود الطائرة؟ فيضحك ويقول: هل تصطدم بالجدار أو تسقط في حفرة؟

وبلغت مصر فكتبت في الرسالة مقالة عنوانها «عشرة أيام في الشام»، أغضبَت ناساً وأرضت ناساً، وصورت حقيقة وتضمّنت نصيحة[١].

* * *

(١) ورد اسم هذه المقالة في الطبعات السابقة من الذكريات «عشرة أديان في الشام»، وهو خطأ صوابه ما أثبتّه هنا. في أولها: "يُمضي المسافرُ أياماً طِولاً لا يقطع فيها إلا أذرُعاً من طريقه، ثم يجتاز الفراسخ والأميال في ساعات. ويعيش المرء سنين لا يفهم فيها من أسرارالحياة ولا يرى من معالم الكون إلا الأقل، ثم يرى في لحظة واحدة أخفى المعالم ويفهم أعمق الأسرار. وكذلك كان شأني: سرت على طريق الحياة قريباً من أربعين سنة، فلم أدرك من حقائق الحياة حولي ولم أعرف من خلائق الناس مثلَ الذي أدركته وعرفته في هذه الأيام العشرة التي «طرت» فيها فجأة إلى دمشق ثم عدت طائراً منها". وفي آخرها: "لقد كانت تجربة لن أعيدها ولو جرّتني إليها كل حروف الجر. لقد كانت تجربة تعلمت منها دروساً جمّة، أهمها أني لست مخلوقاً للسياسة. إن السياسي هو الذي يقول للحمار: أنت غزال بأذنين طويلتين. وأنا لا أقول للحمار إلا يا حمار! فإن غضب فدونَه «بردى» فليشرب منه ما يشاء!" (مجاهد)

-١٩٤-

عودة إلى الحديث عن مصر

قرأت ما كتب عني الأستاذ أحمد أبو الفتح. وأنا أعرفه قراءة له لا اجتماعاً به، أعرفه أيام إقامتي في مصر، أيام كانت مصر هي مصر وكان الناس هم الناس. وما جئت أجزيه ثناء بثناء ومدحاً بمدح، فأنا أكتب وأنشر من ستّين سنة كاملة، من يوم حرّرت آخر جزأين من مجلة «الزهراء» التي كان يُصدِرها خالي محب الدين الخطيب ويكتب فيها الأعلام كالرافعي والأمير شكيب أرسلان.

وقد كُتب عني من الثناء ما لو كبرت مئة مرة لما كنت أهلاً له، وكُتب عني من الهجاء ما لو صغرت مئة مرة لما كنت أهلاً له، فهان عليّ الأمران حتى لم أعُد أفرح (إلاّ قليلاً) بالثناء ولا آسى ولا أتألم (إلاّ أقلّ من القليل) من الهجاء. ولكن سرّني أني وجدت من كبار أصحاب الأقلام في مصر من يشاركني الشعور بأن الأمس الذي كنا نبكي فيه مما نسمع من بعض الفساد في حكومة مصر، ومن تسلُّط الإنكليز على مصر وليس لهم فيها من حقّ. فلما جاء حكم الضباط الأغرار، أقصد الأحرار، فقد سبق القلم إلى ما هو الصواب، بكينا على العهد الذي قبله لا حباً فيه ولكن بغضاً لِما جاء بعده.

أعرف الأستاذ أحمد أبا الفتح ركناً من أركان الصحافة في مصر يوم كان الصحفيون يكتبون ما يشاؤون، يعبّرون عن رأي الشعب أو رأي فريق من الشعب، لم يكونوا قد صاروا موظفين يقولون ما يُقال لهم ويردّدون ما يُلقى عليهم. على أني أسارع فأقول: إن ذلك الداء قد أوشك بحمد الله أن يزول، وإن الصحّة بدأت تعود، وإن مصر اليوم في ما يشبه عهد النقاهة من المرض: لا المرض متمكّن منها ولا الصحّة عادت إليها، فوجهها مصفرّ من أثر الداء، والكيس خالٍ مما أنفقَت في ثمن الدواء، ولكن الأمل قوي بالشفاء.

وقد تفضّل فنقل فقرات مما كتبت، منها أني قلت عن مصر إنها أم دنيا العرب وأوسمها سمة (كذا)، والذي قلته: وأوسعها سعة، ولو أردت ذلك لقلت وسامة لا سمة. ويشكرني على أني أحب مصر، مع أني تلقّيت يوم صدور العدد الذي كتب فيه رسالة لو صدقتُ في وصفها لقلت إنها رسالة بذيئة، يسبّني مُرسِلها أشنع السبّ لأني أكره -كما يقول- مصر.

وهذه «شنشنةٌ أعرفها من أخزَم»؛ فأنا متّهَم دائماً بكراهية مصر، من يوم كنت في العراق وكانَ الخلاف بيني وبين المفتّش المصري سنة ١٩٣٦، أي من خمسين سنة، ولم ينفعني أني كنت يومئذ صديقاً لسفير مصر في العراق، الرجل الكبير الأستاذ عبد الرحمن عزام.

أنا -ويحكم- أكره مصر ومِن مصر أصلي؟! منها جاء جدي أبو أبي لا جدي البعيد، والشام مولدي ومنبتي، وإن أنكرَتني بعد

الشيب والصحبة وقتلَت غدراً وظلماً بنتي، وكأنها أرادت (والله هو الذي يُمضي ما أراد) أن أموت قبل أن تكتحل برؤيتها عيناي. والعراق بلدي، عشت فيها وأحببتها. ولبنان بلدي عملت فيها. أما المملكة فأشهدكم أنني أُقِرّ بفضلها عليّ، من ملوكها الخمسة الذين أدركتُهم إلى آخر واحد من أهلها، رحمة الله على مَن ذهب للقائه من الخمسة ومدّ الله في عمر الباقي ووفّقه إلى ما يحبّه وإلى ما يرضاه. المملكة التي فيها مكة والمدينة بلدي الأول وبلد كل مسلم، الدين أشرق نوره منها والعربية هي أصلها ومعدنها، وكل البلاد دخلها الاستعمار يوماً إلاّ المملكة فإن الله سلّمها منه وصانها.

يقول الأستاذ إنه بكى لمّا قرأ سؤالي عن الأزبكية ما حالها؟ إنه -يا أستاذ- بكاء الرجال من فيض العاطفة ورقّة القلب، ليس بكاء الضعف ولا بكاء النساء. إن كل من عرف مصر من قبلُ وعرفها اليوم بكى، وإنْ كان آخر عهدي بمصر سنة ١٩٥٩ لمّا كنت مستشاراً في محكمة النقض في الشام، وكانت الوحدة فجمعت المحكمتين، فانتقلنا إلى مصر وعقدنا فيها الجمعية العمومية مرات كان آخرها سنة ١٩٥٩.

وأنا أعرف مصر ملجأ الأحرار من قبل أن أعرف هذه الدنيا، وعمري الآن ثمانون سنة. كان الناس يفرّون من بلاد العرب إليها، من كان عنده فيض من بلاغة أو فضل من خبرة وبراعة حمل قلمه وخبرته ومشى إليها فأنشأ الصحف والمجلات فيها، كالأهرام والمقطّم والمقتطف، وإن لم تكن كلها مع مصر، وإن كان بعضها يساير أعداء مصر والعادين عليها وغاصبي الحكم فيها، وكالمنار والفتح اللتين كانتا دوماً مع الإسلام، ومن كان معه كان مع مصر.

ومن كان عنده أثارة من فن حمله إليها، كأبي خليل القباني ومن عرفتم من المغنّين والممثلين (فما جئت أؤرّخ لأهل الفنّ ولا تاريخهم مما يعنيني أو ينفعني). ومن كان عنده رغبة في الإصلاح أو خطة للنجاح حملها إلى مصر، كالشيخ جمال الدين الأفغاني. أما علوم الدين فما حملها إليها أحد، لأنها فيها ومنها أُخذت وعنها اقتُبست، فحسبكم بالدين وعلومه فخراً.

ما كان أهل مصر يعرفوننا ولكن نحن نعرفهم، لأننا كنا نتعلم منهم، من كُتّابهم وأدبائهم ومن صحفهم، والتلاميذ يعرفون المعلّم ولكن المعلّم لا يعرف التلاميذ جميعاً. ما كانوا يعرفون الأقاليم العربية، وعندي على هذا شواهد كثيرة منها رسالة من الأستاذ أحمد أمين رحمه الله بخطه، على ظهرها عنواني واسمي وتحته دمشق وخط تحتها، وتحت الخط كلمة فلسطين! ولعلّ ذلك أن حبّهم لبلدهم كرّه إليهم البعد عنها أو معرفة غيرها، حتى إن ابن مصر (أعني القاهرة) إن نُقل إلى الفيّوم شكا وبذل الجهد وجاء بالوسطاء ليعود من غربته إلى بلدته، فإن نُقل إلى إسنا أو أسيوط اسودّت الدنيا في عينيه وأحسّ أن الأمل ضاع من يديه. وكانوا يعجبون من اقتحام الشاميّين الأخطار وحملهم مشقّات الأسفار حتى مدحهم بذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم، فما بال المصريين اليوم تبدّلت حالهم فصاروا يمشون شرقاً ويمشون غرباً، ويسيرون شمالاً ويسيرون جنوباً، حتى ما تجد بلداً يخلو من المصريين، وهم في كل بلد يحلّونه وفي كل عمل يختارونه، من أعمال الفكر في الجامعات والمجامع وفي ميدان المال في الشركات والمصانع، يحتلّون في كل عمل أعلى محلّ ويكونون في صدور المجالس.

فإن كان العهد الأسود الذي مرّ على مصر قد عدّ عليها أنفاسها وخنق ناسها وقتل خيارها وأذهب خيراتها، فإنه أخرج أهلها من عزلتهم فعرّف الناس بهم وأرى الدنيا عبقرياتهم، في بلاد العرب والمسلمين وفي أوربا وفي أميركا. وإن كان الذي يسرّنا ويرضينا أن يبقى أبناؤنا في أرضنا، وكل أرض المسلمين أرضنا، وأن يكون خيرهم لنا لا لغيرنا، وأن تنشأ ذرّيتهم عندنا لا في بلد لا يُسمَع فيه القرآن ولا يُصدَح فيه بالأذان. فإن اضطُررتم إلى الهجرة إلى مثل هذا البلد فذكّروا الصغار دائماً بأنهم مسلمون، وأنهم سلائل مَن حملوا مشعل النور حين شمل الأرضَ الظلامُ وميزانَ العدل حين طغى وبغى الحكّام، لئلاّ يفتنهم ما يرون من مظاهر الحضارة عمّا عندهم. أفهموهم أن الذي يرونه فرع مما كان عندهم، وأن أجدادهم هم الذين علّموا هؤلاء ثم ناموا حتى سبقهم في علوم المادّة هؤلاء، وأن أجدادهم كانوا هم الأساتذة وكانوا هم القادة وكانوا هم السادة.

لا يا إخوان، أنا ما أقول هذا لننام عليه بل لنصنع مثله؛ إنه لا بدّ من التاريخ لأن اليوم هو ابن الأمس وأبو الغد، ومَن ليس لهم في الأمجاد تاريخ كهؤلاء اليهود يخترعون لهم تاريخاً مكذوباً لأنها لا تعيش أمة بلا تاريخ، ولكن الفخر بالتاريخ وحده لا يُجدي. ما الذي يُجدي الفقيرَ أن يكون طول مائدة أبيه عشرة أذرع وعليها عشرة ألوان، وهو خاوي البطن فارغ المعدة يكاد يقصفه الجوع؟ ما الذي يُفيد الهزيلَ النحيل العليل أن يكون أبوه بضخامة الفيل؟

إنَّ الفتى مَنْ يقولُ هأنذا ليسَ الفتى مَنْ يقولُ كانَ أبي

ألا تعرفون قصة فولتير مع النبيل الذي عيّر الكاتب بنسبه وفخر عليه بشرف أسرته، فقال له فولتير: "إن شرف أسرتك ينتهي عندك، وأسرتي يبدأ شرفها بي". فافتحوا في التاريخ صفحة مجد أنتم عنوانها، لا تكونوا حاشية مطموسة في ذيل صفحة مجد الجدود. اجعلوا شعاركم قول الشاعر:

نبني كما كانَتْ أوائلُنا تبني، ونفعَلُ مثلَما فعَلوا

بل نفعل فوق ما فعلوا. ولِمَ لا، وقد تيسّرَت اليوم الأسباب وفُتحت الأبواب؟ فهل فقد المسلمون بطولتهم؟ هل أضاعوا نصيبهم من إرث محمد ﷺ؟ أليست العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين؟ بلى، ولا تزال العزّة لهم إن مشوا على طريقها وسلكوا سبيلها، وسبيلُها سبيلُ الله وسبيل رسول الله.

إننا نتحدث دائماً عن بدر والقادسية واليرموك وحطّين، وتلك الأيام الغُرّ لا في تاريخنا وحده بل في تاريخ البشر، فهل فقدنا العزائم التي انتصرنا بها في تلك الأيام؟

لقد ظفرنا في عشرة آلاف معركة خضناها، نثرنا فيها شهداءنا نثراً في كل بقعة من الأرض وتحت كل نجم في السماء، ثم سقينا أجداثهم بدمائنا، سقينا الصحارى المتسعّرة الرمال في بلاد العرب وفارس وإفريقيا، وجنان الشام والسهول الممرعة في مصر والعراق وفي أرض فارس، والأفغان والهند وأطراف الصين، وفي شواطئ البحر المتوسط التي كانت كلها أو جلّها لنا وكان هذا البحر يُدعى تارة بحر العرب وتارة بحر الروم، وفي

أوربا التي جئناها من الغرب بالجيش العربي المسلم حتى بلغنا قلب فرنسا، وجئناها من الشرق بالجيش التركي المسلم حتى وصلنا إلى أسوار فينّا.

أفأضعنا هذه البطولات؟ إن محمداً ﷺ صبّ البطولة صباً في أعصاب المسلمين، فما تلقى في الدنيا مسلماً جباناً. فإن رأيتم مسلماً يخاف الموت في الجهاد في سبيل الله حين يجب الجهاد فاعلموا أنه مسلم باللسان وحده وليس مؤمناً بالجَنان.

ما أضعناها، ولكن تعبنا فنمنا وطال بنا المنام، وحسِبنا أن ذلك الليل لا آخر له وأن الصباح لن يطلع أبداً، حتى سمعنا الأذان من الشرق (من نجد): حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح الله أكبر لا إله إلاّ الله. وسمعنا البوق العسكري من الغرب (من مصر) يوقظ النيام. الأول هو صوت الدين يهتف به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والثاني صوت الدنيا ينفخ فيه في هذا البوق محمد علي، الأول من منارة المسجد والثاني من الثكنة ومن المدرسة. والدين مسجد وثكنة ومدرسة وسوق.

* * *

فيا أيها الأستاذ، هل تيأس من أن يجيء مرة ثانية نصر الله والفتح وأنت أبو الفتح؟ أما ترى الشباب يعودون فيدخلون في دين الله أفواجاً؟

كنا يا أستاذ نخاف أهل أوربا لأننا نرى أسلحتهم ومنجَزاتهم ولا نعرف سرّها، فنخشاهم ونخشاها. اقرأ (ولا شكّ أنك قرأت) ما كتب الجَبَرْتي في تاريخه لمّا دعاه الفرنسيون إلى مشاهدة

تجرِبة كيميائية فحسب ما رأى سحراً، على حين تُجرى أمثال هذه التجرِبة اليوم في المدارس الثانوية والمتوسطة ولا يعجب التلاميذ منها لأنهم عرفوا حقيقة أمرها.

وما السحر؟ أصل معنى السحر في لغة العرب: الشيء الغريب الخفيّ الذي لا تعرف سببه. فإن عُرف السبب بطل العجب.

ونحن قد عرفنا اليوم من علوم القوم مثل ما يعرفون، وكانت مصر هي السابقة إلى هذا. قلت في محاضرة ألقيتها في الرياض في الندوة العالمية للشباب المسلم سنة ١٣٧٣هـ (وهي محاضرة أعددتُ -على عادتي- أفكارها ولكني لم أكتبها، فسجّلوها جزاهم الله خيراً وكتبوها) وكان مما قلت فيها...

عفوكم يا أيها القراء، لم أجد المحاضرة تحت يدي لأنقل منها الفقرة التي أتحدّث عنها، والبحث عنها بين أوراقي مثل الأشغال الشاقّة التي يُحكَم بها على عُتاة المجرمين، فأعفوني من نقلها واكتفوا بخلاصتها، فإن خلاصتها في ذهني ولكن نصّها بعيد الآن عن عيني[١].

قلت إننا كنا في الشام في شبه عزلة عن مناطق الحضارة الحديثة في أوربا وأميركا واليابان، أقمنا حولنا جداراً حبسنا أنفسنا فيه فلا نرى ولا نحب أن نرى ما وراءه، ولكن كنا نسمع عنه، تصل إلينا أطراف من أخباره وطرف من صناعاته وآثاره. وكان

---

(١) المحاضرة منشورة بكاملها في آخر كتاب «فصول إسلامية» في طبعته الجديدة التي أصدرتها دار المنارة، وهي بعنوان «موقفنا من الحضارة الغربية»، وقد نشرتها دار المنارة في رسالة مستقلّة أيضاً (مجاهد).

منا ناس درسوا العلوم الجديدة في إسطنبول[1] ولكن كانوا قلّة، فلما انتهت الحرب الأولى سنة ١٩١٨ انهار الجدار ودخلَت علينا دخولَ السيل إذا سقط من أمامه السدّ.

وأنا أصف ما رأيت وما سمعت، وكنت يومئذ في آخر الدراسة الابتدائية. وللوصف طريقتان: طريقة مَن يجمع الوثائق في الموضوع ويُحيط بما كُتب فيه، وهذه هي الطريقة الموضوعية (أوبجيكتيف)، أو أن يروي الكاتب ما رأى وما سمع، وهذه هي الطريقة الشخصية (سَبْجكتيف). الأولى شاملة وينقصها التفصيل والثانية فيها التفصيل وينقصها الشمول. كنا مع هذه الحضارة التي اقتحمَت علينا كالذي يكون في بيت مظلم ويخرج إلى الشارع في رأد الضحى حيث الشمس ساطعة، أو إن شئتم العكس، كالذي يكون في الشارع المضيء ويدخل إلى البيت المظلم، كلاهما يزيغ بصره فيلبث لحظات لا يرى ما حوله ولا يدري من أين يمشي.

وكانت النتيجة أن أكثرنا ما أحسّوا بها ولبثوا يعيشون بعد دخولها كما كانوا يعيشون من قبلها، والقلّة التي شعرَت بها خافت منها، فالمشايخ عبّروا عن خوفهم بمحاولة دفعها ونبذ كل ما جاءت به، بحجّة أن أصحابها كفار وأن الكفر شرّ ولا يجيء خير من شرّ. وبعض الشبّان أظهروا خوفهم منها بالانقياد لها وأخذ كل ما جاءت به، ودليلهم أن أصحابها أقوى وأكثر حضارة منا، والحضارة خير وكل ما يأتي من الخير خير.

---

(١) أصلها إسلامبول، أي مدينة الإسلام (مثل إسلام أباد). سمّاها بذلك محمد الفاتح.

كلهم خافوا منها، والخائف الذي يواجه الخطر إما أن يفرّ منه أو أن يحاول دفاعه أو أن يستسلم له. أما الآن وقد زالت صدمة المفاجأة وأَلِفَت أبصارُنا النظرَ فيما حولنا، فلم نعُد نخافها فنحارب كل ما فيها حتى الحقّ من العلم والنافع من المستحدَثات، أو نمشي معها فنأخذ كل ما فيها حتى الفسوق والعصيان والفواحش والتأميم والشيوعية. لقد تعلّمنا علومهم وصار منا مَن هو فيها مثلهم. ولقد سردت في المحاضرة مشاهدات مما رأيت في ألمانيا وبلجيكا وهولندا، رأيت في المستشفيات أطباء كباراً من العرب ورؤساء أقسام فيها يمشي وراءهم ويتبع خطاهم ويستنير بعلمهم أطباء من تلك البلاد، ورأيت مهندسين وعلماء في الجامعات يُعترف بفضلهم ويقدّرهم أهل تلك البلاد. ولمّا ألقيت المحاضرة كانت تجرِبة المراكب الفضائية جديدة، وقلت لهم إن الذي يوجّه هؤلاء ويدرّبهم ويعلمهم هو شابّ مصري من الزقازيق أبوه شيخ اسمه فاروق الباز، وأنا لا أفرح أن يذهب علماؤنا والنابغون منا فيفيدوا بعلمهم ونبوغهم غيرَنا، ولكن أمثّل بهم على ما قلت من أننا عرفنا ما عندهم فلم نعُد نخافهم.



وبعد، فإن العاقبة للتقوى: ﴿وإنّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبونَ﴾، وإن هذا الدين محفوظ بحفظ الله: ﴿إنّا نحنُ نَزّلْنا الذِّكرَ وإنّا لهُ لَحافظونَ﴾. فلا خوف يا أستاذ على الإسلام؛ لقد مرّت به مِحَن شِداد وأيام أقسى من الأيام التي مرّت بها مصر من سنة ١٩٥٢ إلى الآن، ولكن الإسلام خرج منها ظافراً: يوم الردة، يوم رمَت قبائلُ العرب الإسلامَ عن قوس واحدة وقالت:

أطعْنا رسولَ اللهِ إذْ كانَ بينَنا فيا لَعبادِ اللهِ ما لأبي بَكْرِ
أيُورِثُها بَكراً إذا ماتَ بعدَهُ وتلكَ لَعَمرُ الله قاصمةُ الظّهْرِ

فقصم الله ظهر المرتدّين بعدما حسب المنافقون أنها نهاية هذا الدين، ورجعَت الجزيرة كلها إلى الله، ثم خرجَت تنشر دين الله ففتح الله لأبنائها ما بين قلب فرنسا وقلب الهند، ووصلَت راية الإسلام إلى شاطئ بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وجبال الصين.

ويوم اتّحدَت أوربا كلها لحرب الإسلام، ومشت جيوشها حتى صار أولها في فلسطين وآخرها في القسطنطينية، وحكمت سواحلَ الشام واحتلّت القدس وظنّت أنها استقرّت فيها إلى الأبد، فما هي إلاّ أن قام نور الدين ومِن بعده صلاح الدين، فنشرا علَم الإسلام وضربا بسيف محمد ﷺ، فطهّرا البلاد من أوزار الصليبيّين. لا كما فعل صاحبكم حين رفع راية الاشتراكية وضرب بسيف تيتو، فأضاع ما كان باقياً لنا من فلسطين وأعان الكفار على المسلمين.

ويوم جاء السيل الدفّاع الذي اجتاح دول الشرق الإسلامية كلها، ووطئ ثرى بغداد وقتل أهلها وأغرق كتبها، وظنّ أنْ قد استتبّ له الأمر ولم يعُد يقوم له أحد، فبعث الله له رجلاً من مصر كان مملوكاً فجعله الإسلام ملكاً، ورجلاً من الشام كان شيخاً فقيراً اسمه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، فاجتمع القلب المؤمن والقائد الجريء والجيش المطيع والشعب الخيّر الكريم، فردّت مصرُ الجيشَ الذي لم تقوَ على ردّه دولة الخلافة في بغداد

يوم كانت بغداد أعظم مدينة على ظهر هذه الأرض.

ما بيننا وبين النصر، ما بيننا وبين أن ننقذ فلسطين إلاّ أن نعود إلى ربنا، وأن نعلم أنها إن كانت تُمِدّ إسرائيلَ وتُعينها وتؤيّدها قوى كبيرةٌ فإن الله أكبر. لقد طالما قلت هذا يا أستاذ ولم يسمع مني أحد. قلت: ما الذي ينقصنا لننتصر على اليهود؟ العدد؟ نحن -المسلمين- ألف مليون فكم عدد اليهود؟ العلم؟ عندنا -معشرَ المسلمين- من العلماء أكثر مما عند اليهود. المال؟ معنا، مع ألف مليون من المسلمين أكثر مما مع اليهود؟ فما الذي ينقصنا؟

ينقصنا الإيمان. لقد قلت في الإذاعة (وأنا أقدم محدّث فيها، أذيع بلا انقطاع من أكثر من خمسين سنة) قلت: إن السلاح لا يُغني عن الإيمان مهما كثر السلاح. فضحكوا مني وسخروا بي، وقالوا: ما يُدريك وأنت شيخ أديب ما العسكرية وما فنون القتال؟ فلما نشر مونتغمري مذكّراته وتكلّم عن القوة المعنوية وقال مثل الذي قلت سكتوا وما قالوا شيئاً. أيسخرون من مونتغمري ويقولون له: أنت لا تدري ما فنون القتال؟

نحن نشكو أدواء في مجتمعاتنا وأعداء تكالبت علينا ومظالم حاقت بنا، فلماذا نواجهها وحدَنا ولا نطلب من الله أن يقف معنا؟ لماذا لا ننصره باتّباع شرعه لينصرنا؟ إننا نريد أن يغيّر الله ما نحن فيه، فما طريق التغيير؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بقَوْمٍ حتى يغيّروا ما بأنْفُسِهِم﴾، فهل غيّرنا ما بأنفسنا إلى ما هو أرضىً لربنا وأقرب لديننا؟

قضية فلسطين والمسجد الأقصى قضية المسلمين جميعاً،

فلماذا لا ندعوهم ليقفوا فيها معنا؟ لماذا نُعرِض عنهم وهم يمدّون أيديهم إلينا؟ لماذا نجعلها قضية فلسطينية أو عربية ولا نجعلها قضية إسلامية فيقف معنا الألف المليون مسلم؟

* * *

لو جمعنا عشرة من أكبر علماء الأرصاد الجوية فتناقشوا وبحثوا ثم قرّروا أن اليوم صحو، وكان المطر ينزل، فما قيمة مناقشاتهم ومباحثهم؟ التجربة أكبر برهان. وقد جرّب أجدادنا تجربة وجرّبنا تجرِبة؛ جرّبوا العمل لله والجهاد لإعلاء كلمة الله فملكوا ثلث المسكون من الأرض في ثلث قرن وأزاحوا كسرى وقيصر يوم كانت فارس والروم مثل أميركا وروسيا الآن، وجرّبنا نحن التقدمية والاشتراكية والبعد عن أحكام الدين، فغُلبنا على قبلتنا الأولى وعلى مسرى نبينا. ومَن الذي غلبنا؟ غلبنا أذلّ الأمم اليهود.

فماذا تريدون بعد هذا؟

* * *

-١٩٥-

حلقة مفردة: وحي صورة

تلقّيت أمس بالبريد رسالة من صديق قديم، كتبها على ظهر بطاقة بريدية فيها صورة مدرسة أثرية في دمشق من أجمل الآثار المملوكية، هي المدرسة الجَقْمقيّة التي بناها سنجر الهلالي ثم جدّدها الملك الناصر سنة ٧٦١هـ، ثم احترقَت فأعاد بناءها الأمير سيف الدين جقمق فنُسبت إليه.

وهي واحدة من مئات ومئات من المدارس بناها الملوك والأمراء في مصر والشام والعراق وكثير من البلاد، مضوا وخلّفوها وراءهم كأنها قصيدة رثاء صادق لهم. وإذا خلّد غيرُ المسلمين عظماءهم بتماثيل ينحتونها على صورهم لا تنفع أحداً، فإن أمراء المسلمين يخلّدون ذكراهم بمدارس فيها العلم النافع ومعاهد ومباني فيها النفع الدائم.

وإن كان أكثرُ هذه المدارس قد عدا عليه العادون فجعلوها مساكن لهم يملكونها بالأسناد الرسمية، ولا يزال على أبوابها نقش ثابت على الرخام باقٍ من تلك الأيام باسم باني المدرسة وبيان ما وقف عليها من دور ومزارع! فأكلوا أوقافها ونسوا أسماء بُناتها.

يمرّ أهل البلد على هذه المدارس فلا يلتفتون إليها، ويقف السياح عليها مُعجَبين بروعة بنائها وجمال نقشها، ويصوّرونها ويحتفظون بصورها ثم يدَعونها ويرحلون عنها. أمّا أنا فقد رأيت في صورة هذه المدرسة ما لا يرون؛ لقد هزّتني هزاً فحرّكَت في أعماقي ذكرياتي، كما تهزّ الشجرةَ المثمرة فيسقط عليك من ثمارها. لقد ردّتني هذه الصورة سبعين سنة إلى الوراء، إلى سنة ١٣٣٧ يوم كنت تلميذاً فيها.

وكنت لمّا جاءني البريد أمسك القلم لأكتب حلقة من هذه الذكريات، فصرفتني هذه الصورة عنها، فرميت القلم وأمسكت عن كتابة الحلقة. وصدق شوقي إذ يقول:

قدْ يهونُ العُمْرُ إلاّ ساعةً   وتهونُ الأرضُ إلاّ موضِعا

ولو أنّ إنساناً نام ليلة، فلما أصبح وجد معه أهلاً بدلاً من أهله ووجد نفسه في بلد غير بلده، قد تبدّل عليه كل شيء حتى لم يعُد يعرف مما كان يعرف شيئاً. ماذا تحسبونه صانعاً؟ ألا ترون أنه يُجَنّ؟ أنا ذلكم الرجل؛ لقد كانت هذه المدرسة نصف دنياي، والنصف الآخر داري والطريق بينهما، فلا أُرى إلاّ غادياً عليها أو رائحاً منها، أسلك الأسواق والحارات نفسها وأرى الرجال أنفسهم، فإذا أنا أجدني الآن قد فقدت ذلك كله.

ذهبَت دنياي وأهلي وناسي جميعاً، ولكن ما كان ذلك بين عشيّة وضحاها، فليس التطوّر المفاجئ وليست الطفرة من سنن الله في الوجود، بل يكون التبدّل بطيئاً لا يحسّ به البشر، كما يتحرّك العقرب الصغير في الساعة. انظر إليه ترَه ساكناً واقفاً

مكانه، هل تستطيع أن تدرك سيره؟ ولكنه -على ذلك- يسير. عُدْ إليه المساء تجده قد انتقل من مكانه. وضع في القارورة حبراً وأنزل عليها الماء خيطاً رفيعاً، وعد إليها بعد حين تجد الحبر قد صار ماء. والليل أسود مظلم والضحى أبيض منير، فهل انتقل الكون من ظلام الليل إلى بياض النهار في لحظة واحدة، أم أن الله يولج النهار في الليل ويولج الليل في النهار؟

وكنت أنا طفلاً ثم صرت شاباً وأمسيت اليوم شيخاً، فهل أستطيع أن أحدّد اليوم والساعة اللذين انتقلت فيهما من الطفولة إلى الشباب ومن الكهولة إلى الشيخوخة؟

لماذا أرسلتَ إليّ يا صديقي هذه الصورة التي هاجت أشجاني وحرّكت لواعجي، وجعلتني أبكي ما مات من أيام عمري؟ كانت لي أسرة أودّعها كل صباح ذاهباً إلى المدرسة وأعود إليها كل عشيّة، فلم يبقَ منها أحد، وجاءت أسرة جديدة فيها زوجة لي وبنات وأحفاد، وبناتي صرن جدّات. أين كان هؤلاء كلهم لمّا كنت أذهب تلميذاً إلى هذه المدرسة؟ وإلى أين ذهب الذين كانوا يومئذ أركان أسرتي: جدّي وجدّتي وأبي وأمي وعمّتي، واثنان فقط من إخوتي؟ أين دمشق التي كانت يومئذ؟

ومَن يقول إنها هي دمشق التي نراها اليوم؟ هل في المئة من سكانها الآن واحد ممن كانوا يومئذ أهلها؟ لقد تبدّل الناس وتغيّر كثير من العادات والأعراف، والطرق والأحياء تغيّرَت. أين دمشق سنة ١٤٠٦ من دمشق سنة ١٣٣٧ لمّا كنت تلميذاً في المدرسة الجقمقية؟ أين رفاقي فيها؟ ما أحسب أنه بقي منهم إلاّ هدى

الطباع وصلاح شيخ الأرض وحسن السقا، وسبقني الباقون إلى لقاء الله. فمن ألقى من الرفاق إذا ذهبت إلى الشام؟

هذا جزاءُ امرئٍ أقرانُهُ درَجُوا مِن قَبلِهِ فتمنّى فُسْحَةَ الأجَلِ

* * *

لقد تداول هذه المدرسةَ رجالٌ لا يعلمهم إلاّ الله. مرّ عليها الآن ستمئة وستّ وثلاثون سنة، فمَن يعلم مَن وليها فيها؟ ولكني أعلم أنها انتهت على أيامنا إلى الرجل الذي نقل التعليم في دمشق من الكتاتيب إلى المدارس، والذي تعلّم على يديه ثلث من كان يومئذ حياً من أبناء الشام، والذي لبث سبعين سنة يعلّم، والذي تعلّم عنده أبي ثم صار معلماً في مدرسته، وتعلّمت أنا في مدرسته ثم صرت معلّماً عنده، والذي رأيت في سجلّ تلاميذه يوم كنت معلماً اسمَ التلميذ واسم أبيه من قبله وجده من قبلهما، والذي كنت يوم مات سنة ١٣٤٩ محرّراً في جريدة «اليوم» عند الأستاذ عارف النكدي، فكتبت عنه، فجاء مَن يقول لي: أتشغل الجريدة بالكتابة عن شيخ كُتّاب؟

لم تكن قبله في الشام إلاّ مدرسة واحدة هي مدرسة الشيخ الصوفي، والمدرسة التي يعلّم فيها الشيخ محمد المبارك والد أستاذنا الشيخ عبد القادر المبارك، ومن تلاميذها الأستاذ محمد كرد علي الذي كان له الفضل على كل من اشتغل بالصحافة وبالكتابة في دمشق. الشيخ المبارك الذي كان يُعَدّ في زمانه من الأدباء أيام لم يكن في دمشق إلاّ قليل ممن يُعنى بالأدب، وكان الأدب سَجعاً ورصف ألفاظ، وكانت قدوةَ الأدباء وكان المثلَ

الأعلى لهم مقاماتُ الحريري. وإذا أردتم أن تروا مثالاً على أدب الشيخ محمد المبارك فاقرؤوا رسالته المطبوعة «بهجة الرائح والغادي في أحاسن محاسن الوادي».

بقي الشيخ عيد السفرجلاني يعلّم سبعين سنة، وكانت مدرسته لمّا افتتحها شيئاً جديداً مفرَداً، فلما كثرَت المدارس وصارت شيئاً قديماً انصرف التلاميذ عنها. ومن كانت عنده مجموعة الرسالة وجد في سنتها الأولى في عدد ٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٢ مقالة لي عن الشيخ في أخريات أيامه[١]. هذا الرجل الذي نسيه أهل دمشق، وقد كانوا يتلقّون العلم عنه ويقبسون الضوء منه، فيهتدون به في طرق الحياة المظلمة.

خبّروني: لماذا نؤلّف الكتب ونُعِدّ الدراسات -نجعلها موضوعات الرسائل الجامعية والأطروحات- عن رجال السياسة ورجال الفنّ ولا نقضي ديون رجال التعليم علينا؟ هؤلاء هم الذين نشّؤوا أولادنا، هم الذين وضعوا الأساس لبناء ثقافتنا، هم الذين يكون الصلاح منهم إن كانوا صالحين. فلماذا لا نوليهم من العناية ما يستحقّون؟ لماذا لا يكتب الشاميون عن الشيخ عيد السفرجلاني والشيخ كامل القصّاب والشيخ أبي الخير الطباع؟ لماذا لا نكتب هنا عن محمد علي زينل وعمّن فتح المدرسة الصَّوْلتية وعن الذين أقاموا للتعليم في المملكة هذا الصرح العظيم؟

ولا تعجبوا إن قلت لكم إن الشيخ عيد لبث سبعين سنة يعلّم، فأنا العبد الفقير أعلّم من ستين سنة، من سنة ١٣٤٥هـ،

---

(١) مقالة «نهاية الشيخ»، وهي في كتاب «قصص من الحياة» (مجاهد).

وفي الشام رجل اسمه الأستاذ درويش القصّاص، لمّا كنت أنا تلميذاً في الابتدائية كان في أيدينا كتاب اسمه «مبادئ الهندسة» من تأليفه. وممن أذكر الآن من قدماء المدرّسين في الشام ممن يستحقّ التكريم: أحمد عزة الرفاعي وسعيد الأفغاني وسليم الزركلي ومحبّ الله النابلسي وحمدي الزركلي ومصطفى الصواف.

فعدّوا أنتم من تعرفونه هنا من قدماء المدرّسين. إنهم طالما هجروا نومهم ليصحّحوا دفاتر أبنائكم، وشغلوا يومهم بتقويم أذهان أبنائكم، أفلا تقولون لهم شكراً؟

* * *

لقد كتبتُ كثيراً عن هذه المدرسة، وعن المدرسة الأمينية، وعن الكاملية التي أنشأها الشيخ كامل القصاب، العالِم السياسي المعلّم الذي عرفتموه هنا مديراً للمعارف، وقد سرّني أمس كتاب أهداه إليّ أستاذ فاضل لم تُكتَب لي معرفته، هو الأستاذ الخطاط حلمي، فيه صفحات من تاريخ التعليم في المملكة، لم يُفسِد حقائقَها أسلوبٌ مزخرَف مثقل بأدوات الزينة، ولم تخنقها المبالغات والتهويلات التي يلجأ إليها ناس من الكتّاب، يحسبون أنها تزيد الحقائق تثبيتاً في النفوس، لا يدرون أنها تطمسها وتُذهِب رونقها، وأن جمال الحقيقة في عرضها عاطلة من كل زينة سالمة من كل مبالغة.

كانت هذه مدرستي. وإن فكّرتم عجبتم من قولي إنها مدرستي ومن قول القائل هذه داري. لقد أقمت في عمارة الكعكي في أجياد عشرين سنة وكنت أقول إنها داري، لو دخل شقّتي

إنسان بلا إذن مني لقلت إنه سارق جاء ليسرقني، ولوجدت حيثما نظرت من يصدّقني ويُبعِد هذا الداخل عني. فما لي الآن أمرّ بها فلا أستطيع أن أضع المفتاح في بابها فألجها؟ وإن قرعتُ بابها سألني مَن فيها: من أنت وماذا تريد منها؟ هذه يا ناس هي الدنيا، كانت الدار قبلي لغيري وصارت بعدي لغيري، فأنا كراكب الطيارة التي رُقِّمَت مقاعدها: المقعد الثاني من الصف الثاني مقعدي، ولكن يكون لي أنا ريثما تصل الطيارة إلى محطّها ويبلغ المسافرُ غايتَه، ثم يكون المقعد لسواي كما كان من قبلي لسواي. وسريرك في الفندق هو اليوم لك، وأمس وغداً لغيرك.

إننا مسافرون، فإذا انقضى السفر لم يبقَ لنا من وسائله شيء. والريالات التي هي اليوم ملك يمينك: كم من يد ملكَتها قبلك وكم من يد تملكها من بعدك؟ كلها عاريّة مستردّة. بل إن حياتك في هذه الدنيا عاريّة لا بد أن يستردّها صاحبُها. صدق المعرّي حين قال في اللزوميات (وإن كان في «اللزوميات» كثير في الأقوال لم يكن فيها صادقاً ولا باراً):

المُلكُ لله، مَن يَظفَرْ بنَيلِ مُنَىً
يترُكْهُ قَسْراً ويضمَنْ بعدَهُ الدَّرَكا

لوْ كانَ لي أو لغيري قيدُ أُنمُلةٍ
مِنَ الوجودِ لكانَ الأمرُ مشتَرَكا

ألسنا مثل إمام الشعراء امرئ القيس الذي وقف على ديار الأحبّة يرى آثارها ويستقري أخبارها، فاستعجمت الديار فما تحدّثه بخبر، وضيّعت ما استُحفظت فما تكاد تحفظ من أثر؟ لقد

وقف واستوقف صحبَه فوقفوا مطيَّهم معه، وبكى واستبكى مَن معه، فلا البكاء أفاد ولا الوقوف نفع، ولا أيام الوصال عادت ولا الحبيب رجع.

إني لأفكّر: كم من المنازل كان لي فصار لغيري، وكان يعرفني وصار يُنكِرني؟ وفي كل منزل منها شعبة من قلبي وبقايا من حبي وقطعة من حياتي وأطراف من ذكرياتي: في الشام وفي مصر وفي العراق وفي بيروت، وفي كل بلدة دخلتها أو أقمت فيها من أقصى الجنوب الشرقي من آسيا إلى أقصى الشمال من هولندا. فما لها اليوم صارت كلها غريبة عني وصرت غريباً عنها؟ حتى الدار التي عمرتها بيدي على أرض اشتريتها بمالي في سفح قاسيون في بلدي، وشهدت نموَّها يوماً بعد يوم وقيامَها حجراً فوق حجر، حتى هذه الدار صارت لغيري. وإن أعطاني الله -والحمد له دوماً- داراً خيراً منها، فحرمني العباد من رؤيتها ومن سُكناها:

كمْ منزلٍ في الأرضِ يألَفُهُ الفتى وحنينُـهُ -أبـداً- لأوّلِ منزلِ

وأول منزل لي دار صغيرة في أحد الأحياء الفقيرة في دمشق. على أن في البيت معنى لا أحسبه خطر على بال أبي تمام الذي قاله، معنى أعلى وأسمى وأصدق مما أراده الشاعر؛ هو أن أول منزل لنا معشر البشر المنزلُ الذي كنا فيه فأخرجَنا منه عدوٌّ لنا، قال لنا الله اتخذوه عدواً فاتخذناه صديقاً، وقال لنا اعصوه فأطعناه، هذا العدوّ هو إبليس وأول منزل هو الجنّة.

فالعاقل مَن صدَق العزم على الرجعة إليها، وأعدّ لهذه الرجعة عدّتها وهيّأ لها وسائلها وسلك سبيلها. وما سبيلها؟

الأماني؟ بل العمل:

ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مَسالكَها
إنّ السفينةَ لا تمشي على اليَبَسِ

* * *

لقد ذكرت وأنا أقرأ هذا الكتاب الذي ورد عليّ مكتوباً على ظهر الصورة، ذكرت مقالة لي في «الرسالة» عن هذه المدرسة، فبحثت في أجزاء الرسالة (وتحت يدي أكثرها) فوجدتها في عدد يوم ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥، فقلت: أروي للقراء فقرات منها ليروا كيف كنت أكتب قبل أربعين سنة. قلت[١]:

ما مررتُ بهذه المدرسة الخَرِبة المعطَّلة وذكرت ما أودعتها من عواطفي وما تركت فيها من حياتي إلاّ تلفّت القلب، وصفا الفؤاد، وانبثقت في النفس خواطر وانبعثت للعين صور أُقِرّ بالعجز عن صوغها ألفاظاً مقروءة وجُمَلاً، ووضعها في هذه القوالب الجامدة الضيقة وهي أشدّ انطلاقاً من النور وأوسع من الزمان.

(إلى أن قلت): فاسألوا هذه الجدران العارية وهذه الغرف الخالية، ويا ليتها تملك النطق فتصف ما رأت! ليتها تعي المغاني وتحدّث المباني، وأنّى؟ وما وعت قلوب الناس ولا وفت حتى يفي الجماد. (إلى أن قلت): لقد عشتُ دهراً لو قيل لي فيه إنه سيأتي عليك يوم تجوز فيه بهذه المدرسة فلا تقف عليها إلاّ

---

(١) انظر مقالة «وقفة على طلل»، وهي في كتاب «من حديث النفس» (مجاهد).

وقفة التذكّر والحنين، ثم تمضي لطيّتك وتنساها بعد خطوات لما صدّقت. فكيف هانت عليّ هذا الهوان؟

(إلى أن قلت): وأنا رجل كلما تقدّمَت به السنّ ازداد إيغالاً في عزلته وهرباً من جماعته، فكأنه يقطع كل يوم خيطاً من هذا الحبل الذي يربط زورقه بآلاف الزوارق الصغيرة التي تمخر عباب الحياة مجتمعة، كما كانت تجتمع السفن من قريب إذ تجوز بحر الظلمات (أي المحيط الأطلسي، وكان ذلك أيام الحرب)، حتى غدوت وقد رثّ حبلي وتصرّم إلاّ خيوطاً: طائفة من الأصحاب لا يبلغون عدد أصابع اليدَين، وأماكن هي أقلّ من ذلك؛ لا ألقى سواهم ولا أرتاد غيرها. ولم يبقَ لي في لياليّ الطِّوال مؤنسٌ أو سمير إلاّ هذه الكتب وهذا الماضي، أزداد كل يوم تعلّقاً به وحنيناً إليه، أمّا المستقبل فأخافه ولا أجرؤ على التفكير فيه.

لذلك تراني إن لقيت رفيقاً من رفاق الصبا استوقفتُه وعانقته وشممته، لعلّي أجد في ثيابه عبَقاً من أزاهير الماضي الحلو الذي سَرَبْنا فيه جميعاً يحملنا مرح الطفولة وعبثها اللذّ، فجزنا خلال رياضه وأوغلنا في دروبه المُعشِبة ومسالكه التي ابتسم على جانبَيها الأقحوان وضحكت الشقائق (أي زهر شقائق النعمان)، أحاول أن أستطلع من وراء هذا الشباب الذي نالت منه الليالي حتى أشرف على الكهولة، وهدّته مطالب العيش فأخذَت منه رواءه وبهاءه، فبدا كالشجرة المنفردة القائمة على شفير الوادي عاجلها الخريف ببرده وعواصفه... أحاول أن أرى من ورائه طلعة «ذلك» الصبي المرح دائماً، الضاحك اللاهي الذي كنته يوماً، والذي أحببتُه وقاسمته مرحه ولهوه. فإذا لم أرَها رجعت أجرّ رِجْلَي خائبٍ فُجع

في أعزّ آماله وفقد أحبّ أمانيه إلى قلبه، وإن وقفتُ على معهد من معاهد الصغر أو ملعب من ملاعب الطفولة فتّشت في زواياه وأركانه، وتحسّست الحجارة من جدرانه، علّي أجد بينها ذكرى حلوة قد خبّأتُها يوماً ونسيتها.

ولذلك وقفت اليوم على المدرسة الجقمقية، ولكني لم أجد فيها ما أريد؛ لقد عدا سارقان على أحلى ذكرياتي فسرقاه في غَلَس الليل كما يسرق النبّاشون الذهب من قبور الفراعنة، ولم يدَعا لي إلاّ كل تافه حقير. فبماذا أُتحِف القرّاء بعد الذي صنعه معي هذان اللصان: الزمان والنسيان؟

هذه هي المدرسة التي أودعتُها عهد الطفولة وذكرياته العِذاب، لا تزال قائمة جدرانُها ماثلاً بنيانُها، وهذه هي الطرقات التي كنت أسلكها غادياً عليها كل يوم، وهذا هو الأموي العظيم الذي كنا نعرج عليه بكرة وظهراً وعشيّاً، وما بيننا وبينه إلاّ أن نخرج من باب المدرسة فندخله من بابه، والبابان متقابلان.

(إلى أن قلت): هذا هو الأموي لا يزال على عظمته وجلاله، غير أن صورته في ناظري قد تبدّلت وامّحَت روعتها وبطل سحرها. وماذا تصنع الجدران والسقوف إذا ذهبَت الوجوه ومضى الساكنون وتغيّرت الروح؟ لقد أضحى الأمويُّ غيرَ الأموي، فلا دروسه تلك الدروس ولا علماؤه أولئك العلماء ولا جوّه ذلك الجوّ. إن المدن كالأشخاص، تُخلَق كل يوم خَلْقاً جديداً. لقد ماتت دمشق التي نشأنا فيها، دمشق الإسلامية المرحة الفاضلة التي لم يكن فيها ماخور مشهور ولا ميسر ظاهر ولا عورات

باديات ولا حانات ولا مُلهِيات، وكانت فيها المرأة لبيتها والرجل لأهله، وكان العلماء عاملين بعلمهم مُطاعين في قومهم، والحيّ كالبيت الواحد في تعاون أهله وتعاطفهم، والمساجد عامرة، والرجولة بادية، وأهل الدين لا يأكلون به الدنيا ولا يتخذونه تجارة... فيا أسفي على دمشق ويا رحمة الله على تلك الأيام، أيام لم نكن نعرف من الدنيا إلاّ المتع الفاضلة والفضائل الممتعة، نلهو ونلعب ولكن لا كلهو فتية اليوم ولا كلعبهم؛ كان أقصى ما نأتيه أن نركض في الأموي، أو ننقسم عند المساء قسمَين فنقيم بيننا سوق حرب سلاحها المقالع والعِصيّ، وقد نُجرح أو نُكسر ولكننا نتعلم الرجولة والقوة، ثم نرجع متفقين.

(إلى أن قلت): فأين أيامنا في هذه المدرسة؟ وهل تعود تلك الأيام؟ وأين ذلك الشيخ الحبيب إلى كل نفس الجليل في كل عين، شيخ الشام ومعلّمها الشيخ عيد السفرجلاني؟

* * *

هذا كلام كتبته سنة ١٣٦٤ هجرية، فماذا أكتب لو أردت أن أصف الحال سنة ١٤٠٦؟ ماذا أقول وممّن أشكو وإلى من أشكو؟ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله.

* * *

-١٩٦-

وقفة استراحة

في الهند اليوم خلاف بين المسلمين وبين مَن بأيديهم الحكم موضوعه «الأحوال الشخصية» للمسلمين. وقد قرأت أن وزراء العدل الذين اجتمعوا من أقلّ من شهر قرّروا إصدار قانون موحَّد للأحوال الشخصية. والمبدأ المعمول به في القانون الدولي أن الأجانب في البلد الذي ينزلونه يحاكَمون في الأحوال الشخصية وفق قوانين بلادهم، وهذا كله يدلّكم أو يذكّركم بأن الأحوال الشخصية من أهم فروع الحقوق، وأنه إن انحصر اهتمام التجّار مثلاً بقانون التجارة فإن الأحوال الشخصية تكاد تهمّ كل رجل في الأمّة وكل امرأة، لأنها المنهج الذي تتبعه الأسرة ولأن الأمّة إنما تتألف من مجموعة أسر.

وقد كنت بدأت الكلام على قانون الأحوال الشخصية السوري لأنه أول قانون شامل لأحكامها صدر في البلاد العربية، ثم وجدت أن هذا الموضوع لا يعجب أكثر القراء ولا يُطربهم، ولا يكشف دخائل العواطف في النفوس ولا يجلو مواطن الجمال في الوجود، ولا يدخل في باب الأدب الذي يستهوي القراء ويمسّ حبّات قلوبهم، ولكن لا بد منه، فهو كطبق الطعام المليء

بالشحم واللحم والدهن، ولا بدّ قبله من مشهّيات ومرغّبات.

لذلك عزمت على أن أجعل هذه الحلقة وقفة استراحة فأعرض فيها صوراً سريعة من ذكرياتي، يستريح القراء بها ويستعدّون للكلام على قانون الأحوال الشخصية.

* * *

دخلت الحرم مرة في رمضان فلم أجد مكاناً، لا أعني أنه كان ممتلئاً بالمصلّين، ولكن كانت الأمكنة محجوزة بالمصلَّيات، وكل من وضع سجّادة أو خرقة في موضع ظنّ أنه امتلكه، ومن الناس من راقبتُه من بعيد، فإذا هو يبسط سجّادتين أو ثلاثاً ويقعد على واحدة منها، فإذا جاء من يريد الصلاة في المكان أفهمه أن له أصحاباً.

ثم وجدت مكاناً فارغاً في الصف فوقفت فيه وأقيمت الصلاة، فإذا أنا برجل يخترق الصفوف يمرّ أمام المصلّين، وعليه ثوب يبدو أنه كان يوماً من الأيام أبيض، ثم تبدّل لونه على توالي الشهور وركبته الأوساخ على الأوساخ حتى لم يعُد له لون يُعرَف! ولم يكفِه ذلك حتى توضّأ من زمزم، ونضح الماء على ثوبه فابتلّ وصار... تصوروا ماذا صار. ثم لم يَرُق له إلاّ أن يزاحم المصلّين وأن يحشر نفسه بيني وبين جاري، وكنت ألبس ثوباً أبيض أخذتُه من دار التنظيف قبل ساعة، فجعلتُ أضمّ ثوبي، وكلما رآني ضممته ظنّ أني أوسع له فازداد التصاقاً بي، حتى صرنا كما قال العباس بن الأحنف... ولكن لا مكان هنا لأروي ما قال العباس بن الأحنف. وكان كلما ركع باعد بين رجليه لأنه

سمع أن صفّ المصلّين يكون متماسكاً متداني الأكتاف والأقدام، حتى كاد ينفسخ وهو يدوس بإحدى قدميه على قدمي وبالأخرى على قدم جاري!

ودخلنا في الصلاة فكان في حركة مستمرّة، يسوّي عقاله، ويدخل إصبعه في أنفه ثم يمسحها بثوبه، ويُخرِج من جيبه خرقة سوداء لعله يعدّها منديلاً، فيقرّبها من فمه ويصنع فيها ما لا يحسن ذكره ووصفه، وسواكه في يده يُديره في فمه ثم يعصره بإصبعه ويتجشأ بصوت مُنكَر، وينظّف أذنه بإصبعه... أي أنه لم يهدأ لحظة واحدة. وأنا أقول لكم الحقّ: إني لم أعرف كيف صلّيت. فلما قُضيَت الصلاة حاولت أن أفهمه بلطف أن النظافة من آداب المسجد وأن الخشوع من لوازم الصلاة، فلم يفهم، وقدّرت أنه لا يحسن العربية وظنّ أني أترفّع عنه لأنه -كما يقول- فقير ويردّد كلمة فقير، فتركته.

* * *

وكنت[١] يوماً خارجاً من داري في دمشق صباحاً مسرعاً إلى عملي في المحكمة، فما برزتُ من الباب وهممت أن أغلقه ورائي وأمضي حتى رأيت أمامي زائراً جاء يزورني. وكان رجلاً كبير السنّ جليل القدر، ولم يكن يعتادني بالزيارة فلم أستطع أن أعتذر إليه، وخفت أن يُطيل فيفوّت عليّ موعدي، ثم قلت

(١) انظر مقالة «ثلاثة مشاهد من حياتنا» في كتاب «فصول اجتماعية»، وقد نُشرت سنة ١٩٦١، وهي تضم هذا المشهد واللذين بعده (مجاهد).

في نفسي إني أبقى معه ربع ساعة ثم أستحضر سيارة أذهب بها. ودعوته فدخل، وقعدت بين يديه كما كنت أقعد وأنا تلميذ له لمّا كنت صغيراً، وكان مدرّساً في مدرستنا، وقلت له: أهلاً وسهلاً. فقال: بكم، قلت: كيف الصحّة؟ قال: الحمد لله. قلت: شرّفتمونا. قال: أستغفر الله.

وانتهت هذه المقدمة، وانتظرت أن يبدأ الحديث بما جاء به فلم يتكلم ولم يبدُ عليه أنه ينوي الكلام، فدخلنا في الفصل الأول من أحاديث المجالس وتكلمنا عن الجوّ: تحسّن الجوّ. قال: الحمد لله. والمطر كثير. قال: حقيقة، الله يبعث الخير. انتهى الكلام عن الجوّ فلم يبدأ حديث الزائر الكريم. دخلنا الفصل الثاني من الكلام الفارغ فتكلمنا في السياسة، فتحدثنا عن إسبانيا والجنرال فرانكو وعن البرتغال وعن فنلندا وعن الأفغان.

وانتهى هذا الفصل على عجل. وجئت بالقهوة وقلت في نفسي إنه سيشربها ويحدّثني، فما نطق ولا فتح فمه، ولكن استرخى في مقعده وجعل يرتشف القهوة متمهلاً، كل ثلاث دقائق رشفة صغيرة، وأنا قاعد أتقلّب على مثل الجمر. وجعلت أنظر في الساعة وأتململ وأتحرك في مجلسي، ثم قلت له: عندنا اليوم جلسة في المحكمة، لذلك بكّرت في الذهاب. فقال: إن شغل المحاكم صعب، الله يعطيك العافية. قلت: الجلسة في التاسعة، وقد بقي دونها ثلث ساعة فقط. قال: أعانكم الله. قلت: تشرّفت بكم، وإذا كان لكم أمر فمروني به. قال: ما في شيء. قلت: هل من خدمة أقوم بها؟ قال: أبداً.

وسكت وسكتنا، وجعلنا نتبادل الأنظار كالقطط، حتى مضت الساعة التاسعة وذهب موعد الجلسة.

* * *

وكنت يوماً أستقبل في بيتي جماعة من الأصدقاء، فجاء أحد أصحابنا وجاء معه بولد صغير. وأنا لا أكره شيئاً كما أكره من يزورني ويأتيني بولده معه، ولكني تجلّدت وقلت لنفسي: إنه ضيف ولا بد من الاحتمال.

وما كاد يستقرّ في المجلس حتى شرع يتحدث عن ولده وعن ذكائه ونوادره وعن كماله، والحاضرون يبتسمون مجاملة ويتمنون أن يحسّ فيختصر هذا الحديث الثقيل، وهو يقول لولده: بابا، قم اخطب لهم خطبة. فتدلّل الولد وتمنّع وقال: ما بدّي. قال: قُم، عيب. وما زال معه في شدّ ودفع حتى استجاب وخطب خطبة كانت أزعج لسامعيها من شربة زيت خروع لشاربها، ولكنهم اضطُروا أن يكشّروا عن أنيابهم ويقولوا مجاملة: ما شاء الله. وحسبوا أن المحنة قد انتهت، ولكن الرجل عاد فقال: وهو حافظ غيرها كمان (أيضاً).

وانتظر أن يستبشروا بهذا الخبر ويطيروا سروراً بهذه البشارة، فلما رآهم سكتوا وأحجموا لم يسكت هو ولم يُحجِم، وقال للولد: اخطب بابا الخطبة الثانية.

ومن خطبة إلى خطبة، حتى خطب عشر خطب شعر الحاضرون كأنها عشر مطارق تنزل على رؤوسهم، وطلعت منها أرواحهم، وهو يضحك مسروراً كأنه جاء بمعجزة، ثم قال: وهو

يغني كمان. غنِّ -بابا- أغنيّة (الأغنيّة بتشديد الياء). قلت في نفسي: أعوذ بالله، خرجنا من الخطب فجاءت الأغاني! وغنّى أغنية ثم أتبعها بأخرى، فقلت: يكفي، إنه قد تعب. قال: لا (ومطّها)، إنه لا يتعب الله يسلّمه ويرضى عليه. من حقّ تعبت يا بابا؟ قال: لا، ووثب ينطّ بالغرفة. قال أبوه: يعرف يلعب كمان.

وخرّب في لعبه كثيراً ممّا كان في الغرفة من التحف. وجئنا بالشاي فمدّ يده ليأخذ الفنجان، فقلت: إنه حار. قال: لا. ورفع رجله بحذائه الملوث فوضعها فوق المقعد، وأخذ الفنجان وقرّبه من فمه، فأحس حرارته فأفلته من يده فانكبّ على المقعد الجديد. وتوقعت أن يعتذر أبوه عن إفساده وجه المقعد، وإذا به لا يهتمّ بوجهه ولا قفاه، لقد اهتمّ بولده وقال له: لا ترتعب، ما صار شيء. هل احترقت يدك؟ ونظر فيها وابتسم وقال: سليمة والحمد لله.

وانتقل هو وابنه إلى مقعد آخر، وجعل الولد يكلّمه في أذنه فقال الأب: كأس ماء من فضلك، الولد عطشان. فقمت وأتيته بها. فشرب وأراق الماء على المقعد الثاني، وبعد لحظة قال أبوه: ممكن من فضلك يخرج إلى الحمام؟ قلت: قم. وأخذته بيده فصرخ صرخة أرعبَتني أنا، وحسبت أن قد أصابه أذى، وسألت: ما له؟ قال أبوه: إنه لا يخرج إلاّ معي. فقلنا: خذوا طريقاً وهاتوا طريقاً، ووقفنا حتى وصل الموكب الهمايوني إلى بيت الخلاء!

ولا أريد أن أصف لكم بقية المشهد، فتصوروا آخره من معرفة أوله.

* * *

وكنت يوماً أقطع الشارع أتلفّت ذات اليمين وذات الشمال، أرقب السيارات وهُنّ يُسرِعن مختلفات الأشكال والمظهر ولكنهن متّحدات الحقيقة والأثر، كلها تمثل الموت تحت العجلات. فما كدت أتوسط الشارع حتى سمعت نداء ملهوف يهتف باسمي، فاستدرت لأنظر فكادت درّاجة نارية تصيبني، وولّت عني وأصوات محرّكها بالضجيج وسائقها بالشتم لا تزال في أذني، ووصلت إلى الرصيف وإذا بالرجل يلحق بي يناديني.

فوقفت، فأقبل عليّ وهو مفتوح الفم من الضحك والسرور وقال: الأستاذ الطنطاوي؟ قلت متجهماً: نعم. قال: أهلاً وسهلاً، في غاية الشوق، لقد مضى زمن طويل. قلت: على ماذا؟ قال: على لقائنا. قلت: ومتى التقينا؟ قال: أنسيتني؟ قلت: مَن حضرتك؟ فضحك وقال: احزر (والكلمة فصيحة). قلت: يا أخي أنا لا أعرفك ولم أعرفك قط. فازداد ضحكاً وقال: إنك تمزح بلا شك. قلت: قُل ما تريد وخلّصنا.

فذكر اسمه، قلت: ما سمعت بهذا الاسم قبل الآن. قال: طيب، الخلاصة، متى أستطيع التشرف بزيارتك؟ قلت: وماذا تريد مني؟ قال: لا شيء، لا شيء، التشرف بك فقط. قلت: أنا مشغول ويعرف أصحابي كلهم أني لا أزور أحداً ولا أستقبل زائراً إلاّ نادراً. قال: وهذا من النادر. قلت: يا رجل، هل تريد مني شيئاً؟ قال: التشرف بك فقط، أنا أحب أهل الفضل والعلم. قلت: أنا لست منهم. قال: كيف وأنت سيدنا ومولانا؟ قلت: أستغفر الله. قال: متى أزورك؟ قلت: تعال إلى المحكمة في الساعة الواحدة،

فإن الباب يُفتح للمراجعين. قال: أظنّ البيت أحسن. قلت جازماً: غداً في المحكمة، وتركته ومشيت.

وجاءني في اليوم الثاني وبدأ يتكلم في الصحّة وفي الجوّ وفي أحوال الدنيا، ثم ألقى محاضرة بالثناء عليّ ومدحي وأني شيء عظيم وأثنى على كتبي، فسألته: أي كتاب قرأ منها؟ قال إنه قرأها كلها ولكنه أُعجِب بحديث الأربعاء. قلت: ولكن حديث الأربعاء لطه حسين. فلم يخجل ولم يضطرب وقال: عفواً، قصدت أن أقول كتاب فجر الإسلام. ولم أقُل له إن فجر الإسلام لأحمد أمين لئلاّ يقول إنه كان يقصد كتاب ألف ليلة وليلة!

وبعد هذه المقدمات التي لا آخر لها نطق بالدرة المصونة والجوهرة المكنونة، وعرض حاجته فإذا هو صاحب دعوى في المحكمة يريد أن يوصيني بها.

* * *

ودخلت مرّة دار صديق لي موظف عندنا في المحكمة، عمله تسجيل عقود الزواج وحضور حفلاتها، فوجدت في الدار خزانة كبيرة ملؤها علب السكّر الملبَّس من زجاجية وخزفية وخشبية ومعدنية، من مستديرة ومنبسطة ومربعة ومثلثة وملساء ومحفورة ومزوَّقة ومنقوشة... من كل شكل وكل جنس، أرخصها بليرة (كانت الليرة يومئذ تعدل عشرين ليرة في هذه الأيام) ومنها علب من الفضّة عليها اسما الزوجين وتاريخ العقد ثمنها أكثر من عشر ليرات. فوقفت أنظر إليها وأفكّر: كم يُنفَق في دمشق كل سنة في أثمان هذه العلب؟ فرأيت أنه إن كان يُعقد في دمشق مئة عقد

في السنة، وهذا أقلّ من الواقع، وكان في كل عقد مئة مدعوّ، وهذا هو الحدّ الأدنى، فإنه يُصرف في كل حفلة مئة ليرة ثمن هذه العلب إن كانت من العلب الرخيصة، فإن كانت من العلب الغالية أو كان المدعوّون مئتين أو ثلاثمئة صُرف في علب الملبس خمسمئة ليرة في الحفلة الواحدة.

فلو أنه أُلّفت جمعية لحمل الناس على توزيع الملبس في قراطيس وأوراق وأخذ ثمن العُلَب لإنفاقها في مساعدة الفقراء أو في بناء المستشفيات أو في عمل آخر من أعمال البرّ، ولم تشتغل إلاّ بهذا وحده، لاستطاعت أن تجمع من هذا الباب أكثر من ثلاثين ألف ليرة في السنة. فكيف إن أُنشئت جمعيات أخرى لتدفع غير ذلك من وجوه التبذير التي أَلِفَها الناس وتعوّدوا إضاعة الأموال الكثيرة فيها (مع أن الفقراء في أشدّ الحاجة إلى بعض هذه الأموال)؛ كطاقات الزهر التي تُهدى في الأعراس ويُنفَق فيها من مئة ليرة إلى ٥٠٠ في كلّ عرس (بحساب تلك الأيام)، فإن كان يُقام في دمشق مئة عرس في السنة، والواقع أكثر بكثير، فيكون مبلغ ما يُنفَق في البلد كل سنة ثمن هذه الأزهار التي تُلقى بعد أيام على المزابل من عشرة آلاف ليرة إلى خمسين ألفاً![1]

وأكاليل الجنائز وكفوف الآس التي تُحمَل فيها في دمشق،

---

(١) ما أكثر ما نبّه جدي -رحمه الله- في أحاديثه وكتاباته إلى هذا السرَف الذي لا يعود على أحد من الناس بخير ويضيّع أموال الأمة في كماليات وتُرّهات لا فائدة منها. انظر على سبيل المثال مقالة «بطون جائعة وأموال ضائعة» في كتاب «في سبيل الإصلاح» (مجاهد).

وعشرات من أمثالها لا عشرة واحدة. لو أن ما يُنفَق فيها جمعته أيدٍ أمينةٌ وأنفقته في جهات صالحة لصارت دمشق في عشر سنين فقط جنّة في الأرض، ولَما بقي فيها فقير ولا جاهل ولا مريض، لأن هذه الأموال تُنشئ كل سنة عشرة مستشفيات[1] وعشرة ملاجئ وعشر مدارس.

وهذا كلام نشرته من أكثر من ثلاثين سنة.

* * *

وذهبتُ مرة إلى الكوّاء الذي يكوي لي ثيابي فلم أجده، فسألت عن غيره، فدلّوني على آخر له مكان واسع وعلى بابه لوحة كبيرة، وعلى شفتيه ابتسامة لا تفارقهما، فهما دائمتا الانفراج كأن قد انحلّت عضلاتهما فلا تنطبقان، وفي فيه لسان رطب ليّن طويل كأنه لسان الثعبان. فخدعني مظهره حتى دفعت إليه حُلّتي الجديدة التي ألبسها في المواسم وأتجمل بها في المجامع، ووصّيته أن يكويها لي كياً فقط وألاّ يغسلها، وأن يبعث بها إليّ في غده. فقال: أمرك يا سيدي، على عيني ورأسي، بِدْنا[2] خدمة.

وانصرفت آمناً مطمئناً، وجاء الغد ولم تُرسَل، ومرّ يوم ثانٍ وثالث وسابع وثامن، وانصرفَت عشرة أيام والحلة عنده، وأنا

---

(١) المستشفى مذكَّر.

(٢) «بدنا» كلمة من عامية الشام بمعنى نريد، ولعلها محرفة من «بِوِدّنا» أقول هذا ظانّاً ولا أحقق. وهم يصرّفونها على كل الوجوه، فيقولون «بِدّي» للمتحدث المفرد و«بِدَّك» للمخاطب، وهكذا (مجاهد).

أستحثّه فيقابلني بهذا الفم الباسم أبداً وهذا اللسان الدافئ دائماً، ويبتدع لي كل يوم عذراً جديداً. وكان آخر أعذاره اشتغاله بموت أبيه الذي علمت -فيما بعد- أنه مرّ على وفاته رحمه الله على هذه الخلفة الطاهرة تسع سنين!

وأعاد لي الحلة بعد ستة عشر يوماً، فإذا هو قد غسلها فأفسد حشوتها ومزّق أزياقها، وجعل لها رائحة مثل رائحة الخنازير البرّية، ذلك لأنه غسلها بصابون رديء استرخصه وحكّ أطرافها بالحجر الذي تُنظَّف به الأقدام في الحمام!

وهذه واقعة لا أريد أن أعلّق عليها.

* * *

وليس في بلاد الناس شيء أسهل من الشراء. يدخل الرجلُ المخزنَ فيرى البضائع المعروضة وعليها أثمانها، فيختار ما يشاء ويدفع الثمن ويمضي، ولو جاء من بعده أمهر الناس ما استطاع أن يأخذ بثمن أقلّ ولو جاء أغفل الناس ما أُعطيَ بثمن أكثر.

أما الشراء في بلادنا فهو معركة تحتاج إلى أسلحة شتّى، من الكذب أحياناً، واليمين الكاذبة، والكرّ والفرّ، والذهاب والرجوع، ومعرفة أجناس البضائع، وتحتاج فوق ذلك إلى مفاوضات دبلوماسية أصعب من المفاوضات على نزع السلاح بين أميركا والسوفييت.

لذلك عوّدت نفسي من الصغر ألاّ أقف على بائع ولا أشتري بنفسي شيئاً، لا اللحم ولا الخضرة ولا الثياب ولا الأثاث، وإنما

أوكّل من يشتري لي. وإذا أنا خالفت عادتي واضطُررت إلى شراء شيء رجعت في كل مرة بقصة من أعجب القصص.

من ذلك أني دخلت دكاناً في سوق الحميدية مع صديق لي يحبّ أن يشتري قماشاً لأهله، فتلقّاني صاحب الدكان مسلّماً ومعظّماً، وأهوى لتقبيل يدي لأني كما يقول أستاذه وصاحب الفضل عليه: أهلاً وسهلاً بسيدنا، يا مرحباً، مَن علّمني حرفاً كنت له عبداً، قُل لي يا أستاذ ماذا تأمر لأخدمك بعيوني؟

ولم أكن آمر بشيء، ولكن هذا المدح وهذا التعظيم وأن الرجل سيخدمني بعيونه قد خدّر أعاصبي، كما يخدّر الصيادُ الأسدَ والنمر بإبرة يطلقها عليه أو كما يخدّر الحاوي في الهند الحية الخطرة حتى ترقص بين يديه. والإنسان مفطور على محبّة الثناء. فنظرت فاخترت لوناً من الحرير أعجبني، فسألته عن ثمنه فضحك وقال: أي ثمن؟ محلّك يا أستاذ.

فحسبته أنه سيُهديه إليّ وحلفت أني لا آخذ إلاّ بالثمن، ولكن أطلب أن يبيعني بربح معقول. قال: برأسمالي، لا أريد منك ربحاً أبداً. وراح يحلف بذمّته ودينه وأبيه وأمانته وشرف آبائه وعظم أجداده، وما لا أذكر الآن من الأيمان التي لا يجوز أن يحلف بها مسلم، أنه لا يبيعني إلاّ برأس المال. وكان في داري يومئذ خمس نسوة، عمّتي وأختاي وزوجتي وبنتي الكبرى، وبناتي الصغيرات، فاشتريت لهن جميعاً، وبلغ الثمن قريباً من ثلث الراتب.

وذهبت إلى الدار فقال النساء: متى كنت تشتري؟ وبكم

اشتريته؟ قلت: احزرن. قلن: بالله عليك إلاّ أن قلتَ. فأخبرتهن بأن الرجل تلميذي وقد خدمني بعيونه فباعني برأس المال وهو كذا. قلن: لقد زاد عليه ثلاثين بالمئة. قلت: مستحيل. قلن: ما قولك إن ذهبَت فلانة الآن (لجارة لهن خيّاطة) فجاءت بالقماش نفسه من المحلّ نفسه بحسم ثلاثين بالمئة؟ قلت: أنا أدفع الثمن وأُهدي إليها القماش.

وذهبَت من فورها إلى الدكان التي اشتريت منها، ورجعَت بعد ساعة وقد أخذته بثلثَي الثمن الذي دفعته أنا، لتلميذي البارّ الذي حلف أنه لا يبيعني إلاّ برأس المال!

* * *

ورأيت يوماً في طريقي إلى المحكمة امرأة كأنها جبل من الشحم واللحم، تميس لا كغصن البان بل كجذع السنديان على ساق أضخم من خصر إنسان، ومعها خادمة رقيقة العظم نحيلة الجسم بادية السقم، ما أظنّ أن عمرها يزيد على سبع سنين. وتحمل للمرأة ولداً عمره ثلاث، ولكنه صورة مصغَّرة لها يُشبِهها كما يشبه الفيلُ الصغير الفيلَ الكبير، منفوخ نفخ الكرة لا يُعرَف طوله من عرضه إلاّ بالحساب والجبر والمثلثات، ولا يُحيط به ذراعها النحيل ولا ينهض به جسدها الهزيل، وهي تخطو به تجرّ قدمها جراً من الإعياء وتلهث من التعب، والمرأة تخطر متعالية.

ففكّرتُ أن أكلّمها وفتّشت في ذهني عن الكلمات التي تصلح لها، ولكني رأيت رجلاً مكتهلاً قد سبقني إليها فقال لها: يا ستّ حرام هذه البنت، خذي الولد منها. فوقفت الستّ

ووضعت يديها في خاصرتيها، ورفعت أنفها ثلاثة أصابع ومدّت شفتيها إصبعين، وقلبت وجهها حتى صار كوجهِ مَن أكل ليمونة بقشرها، وصبّت عليه من فمها سيلاً من أوساخ اللغة وفضلات الكلام، وهرب كل من كان في الطريق من قذارته وسوء رائحته، وهربتُ مع الناس وتركت هذه الصورة بلا تعليق!



-١٩٧-

بقايا من ذكريات رمضان

من أقدم صور الحياة في رمضان صورة منقوشة في ذهني، كلما تذكرتها رأيت فيها رمزاً لحياتنا منذ ثلاثة أرباع القرن وحياتنا الآن.

في جامع بني أمية الكبير في دمشق أمام القبر الذي يقولون إنه قبر يحيى بن زكريا (وليس قبره) ثُريّا ضخمة جداً من قضبان متشابكة بحجم قبة مسجد من المساجد وعلى صورتها، معلَّق فيها مئات من السُّرُج. والسراج كوب صغير من الزجاج مثل كوب الشاي، فيه فتيل من القطن في قليل من الزيت. فكانوا يبسطون تحتها بساطاً واسعاً ليحمي سجّاد المسجد من وَضَر الزيت ثم يُنزِلونها حتى توضع على الأرض، ويُباشَر بإيقاد السرج من بعد صلاة المغرب إلى قُبَيل أذان العشاء، فيزدحم عليها الأولاد وقد عمّتهم فرحة عجيبة وغمرهم سرور لا يوصف، وهم يصعدون القبّة من جوانبها وبأيديهم أعواد الكبريت يقرّبون شعلتها من فتيل السراج حتى يشتعل. والقبة معلَّقة بحبل غليظ تدور به بكرة، فإذا أُوقِدَت شدّوا الحبل فارتفعَت والسّرُج تتراقص شعلها، فكأن سماء رُكّبت فيها (كما قال البحتري).

ثم كرّت الأيام فوضعوا مكان هذه السرُج مصابيح كهربائية صغيرة، لا تُوقَد من الشجرة المباركة بل من التيار الكهربائي الخفيّ الذي لا يُرى، ولا يمضي في إشعالها ما بين المغرب والعشاء بل نشعلها كلها بلمسة زرّ في الجدار فتضيء في مثل لمح البصر.

أليس هذا هو مثال حياتنا في تلك الأيام وحياتنا الآن؟ ألسنا الآن في عصر السرعة؟ لقد ربحنا الوقت ولكن خسرنا المشاعر والأحاسيس.

لقد أمضيت على الطريق من جدة إلى مكة لمّا جئتها أول مرة من ثلاث وخمسين سنة (سنة ١٣٥٣) اثنتي عشرة ساعة في السيارة، حملنا فيها المَشاقّ وقاسينا المتاعب، ولكنها أثارت في النفس مشاعر وأبقت فيها ذكريات لا أزال أتحدّث عنها إلى الآن. ونصل الآن من جدة إلى مكة في أقلّ من أربعين دقيقة، ونصل في مثلها بالطيارة من المدينة إلى جدة، ولكن لا تثور في النفس مشاعر ولا يبقى بهذه الرحلة ذكريات.

فنحن نركض دائماً كأننا في سباق، ولا ندري إلامَ نتسابق. لا نقف ولا نفتر ولا نبطئ، ركض من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، لا نثبت في مكان. مَن كان في مكة ذهب في عطلة الأسبوع إلى جدة، ومن كان في جدة جاء مكة، كل يطلب التبديل. فإذا قدم رمضان تنبّه الرَّكْبُ وتلفّت مَن فيه إلى الوراء ينظرون من أين بدأ المسير، وإلى الأمام يرون إلى أين المصير. فرمضان محطة على طريق العمر ووقفة تأمّل وتبصّر.

* * *

ومن الصور التي اختزنتها من الصغر واحتفظت بها وأنا أحملها في زحمة الحياة، ثم فُقدت من حولي وكادت تضيع من ذهني: صورة البوّابات.

هل تعرفون ما البوابات؟ لم يكن الأمن وأنا صغير قبل سبعين سنة أو أكثر من سبعين، لم يكن الأمن مستتباً أواخر عهد العثمانيين، وكانت الحكومة المحلّية ضعيفة والمركزية في إسطنبول بعيدة. وكانت قد عادت دمشق في كثير من أحوالها (كما عادت مدن من أمثالها) إلى مثل عهد الجاهلية الأولى، فكان القوي يعدو على الضعيف، وكان في كل حيّ قبضاياته وزكرتيّته، وكان يسطو بعض الأحياء على بعض ويغزو بعضُها بعضاً. فاتّخذ أهل كل حيّ باباً كبيراً، بوّابة تُغلَق من بعد العشاء ولا تُفتَح إلاّ بعد الفجر، يقوم وراءها الحارس الليلي (الخفير) ولا يفتح الباب إلاّ لمن يعرفه ويثق به.

وأذكر وأنا صغير جداً في نحو الخامسة أن أمي أخذها الطلق، فبعثوا بجارة لنا وأنا معها لتأتي بالقابلة، فمررنا بالبوابة، فصاح بنا الحارس من ورائها يقول: مَن؟ قلنا: مُطْلِقة (أي امرأة أخذها الطلق) قال: قفوا في اليمين حتى أراكم. ونظر من طاقة الباب وأدرك أنه لا يُخشى خطر منا ففتح لنا الباب.

فإذا كان شهر رمضان فُتحت البوابات الليل كله وزادت الأنوار في الحارات، وكانت تُضاء بالكهرباء، جاء بها وبالترام الوالي التركي ناظم باشا قُبَيل مولدي. وناظم باشا هو باني حيّ المهاجرين، وفي كتابي «دمشق» قصة إنشاء هذا الحي وفي كتابي

«قصص من الحياة» قصته[1] لمّا قدم دمشق أواخر أيامه. دمشق التي كان واليها وكان إليه وحده أمرها وله الحكم فيها، فتبدّلَت الحال وتغيّرت الدنيا، فلم يعرفه لمّا جاء أحد. وهكذا الناس، فيا خيبة من اطمأنّ إلى الدنيا وحدها!

كانت المصابيح في الطرق ضئيلة والطرق تكاد تكون مظلمة، فإذا جاء رمضان أنيرت الطرق ومشى فيها الناس الليل كله، لذلك قلت من أيام للصديق الأستاذ ماجد شبل في مقابلة له معي في الرائي لمّا سألني عن شعوري عندما يجيء رمضان، قلت له: إن قدوم رمضان مقترن في نفسي بالنور: نور في الحارات بعد الظلام، ونور في المساجد وفي البيوت حيث يسهر في الليل النّيام، ونور في القلوب هو ضياء الإسلام.

* * *

ومن المشاهد التي ذهبَت مع أمس الدابر، ألغاها انتباه الناس وازدياد معرفتهم بالإسلام، وقرّر إلغاءَها الشيشكليُّ لمّا كان هو الحاكم؛ وهي ما كان يجري ليلة السابع والعشرين من رمضان في الجامع الأموي: يسهر الشاميون فيه الليل كله، فإذا كان السحر جاء «المولَويّة» يدورون فيه أو يرقصون (كما كان يقول علماؤنا) رقصاً يعجز عن مثله الراقصون المحترفون. وكنا ونحن صغار نراه شيئاً عظيماً، نحرص عليه ونتسابق إليه.

والمولوية طريقة صوفية منسوبة إلى جلال الدين الرومي، وهو شاعر كبير في اللغة الفارسية يعدّونه من كبار الشعراء الصوفية،

---

(١) أي قصة ناظم باشا، وعنوانها «في شارع ناظم باشا» (مجاهد)..

ولكن طريقته لا أصل لها في الشرع ولا فرع. وهم يتخذون إزاراً ضيقاً من أعلاه من عند الخصر واسعاً من تحت، ثم يدورون فيه، لا دورة ولا دورتين ولا تستمرّ دوراتهم دقيقة ولا دقيقتين، بل نصف ساعة أو ساعة لا يقفون ولا يستريحون، والإزار ينفتح حتى يصير مثل المخروط الناقص في الهندسة، وعلى رؤوسهم قلانس طويلة مثل علب اللّبَن التي كانت على أيامنا بشكلها ولونها. ولقد كتبت أنكر صنيعهم هذا (كما أُنكِر أمثاله من البدع التي استُحدثت في الإسلام) في «رسائل الإصلاح» التي أصدرتُها وطبعتها سنة ١٣٤٧هـ، أي من ستّين سنة إلاّ سنة واحدة.

وكنا ننزل من الصالحية إلى بيت خالتي الكبرى، وهذا البيت يستحقّ مني وقفة عليه قصيرة فهو بيت العجائب؛ تقيم فيه خالتي، وهي بنت الشيخ أبي الفتح الخطيب شقيقة محب الدين، وهي التي ربّته بعد أمه، وأولادها: الشيخ شريف، مدير المدرسة الأمينية التي طالما كان لها في نفسي ذكريات، والتي بدأت التعليم فيها سنة ١٣٤٥هـ وعلّمت فيها سنين وسنين ولي فيها أخبار طوال سبق ذكر بعضها. وأخوه الشيخ سهيل، وهو رجل عبقري في الفنّ متفرد في الشخصية، كان ضابطاً صغيراً أيام الحرب الأولى، وكان -مثل أكثر آل الخطيب في الشام- أزرق العينين أصفر الشعر، فجعلوه مرافقاً للقائد الألماني الذي قاد الجيش في حرب التّرعة ورجع منها خائباً. فمن كان يرى هذا الضابط الصغير لا يظنّه إلاّ ألمانياً.

ثم لمّا قامت نهضة العلماء لزم ابنَ عمّه الشيخ هاشم الخطيب الذي كان أحد الشيخين لهذه النهضة، أولهما وأكبرهما

الشيخ علي الدقر. فاتخذ عمامة لها عَذَبَتان، كان ينفرد بها لا يشاركه أحد في حمل مثلها. وأخذ على نفسه ألاّ يسمع بسنّة من سنن الرسول عليه الصلاة والسلام إلاّ فعلها، فقرأ أن الرسول كان شعره يصل تارة إلى منكبَيه وتارة إلى شحمتَي أذنيه فأطال شعره، وكان مثل أسلاك الذهب. وعمل بعد تَرْكه الجيشَ في بيع العطر في سوق البزوريّة في الشام الذي يقصده السياح، فصار فرجة السائحات من النساء يقفنَ عليه ويصوّرْنَه.

وكان فنّاناً رسّاماً، فلما سمع أن الرسم حرام ترك رسم الأحياء. وصنع شجرة لآل الخطيب (وهم أسرة أمي وزوجتي) وهي من الأسر التي تدّعي أنها متصلة النسب بالسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام، والله أعلم بصدق الدعوى، فما نكذّب أحداً في نسبه ولا ينبغي لنا، ولا نستطيع أن نصدّق كل مدّعٍ شرفَ النسبة إلى الرسول ﷺ. فصنع شجرة على لوحة من القماش المشمَّع طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة وضعها في صدر إيوان الدار، لمّا كنا نسكن تلك الدور الشامية التي كانت مصيفاً ومشتى وكانت داراً وبستاناً، وكانت قصوراً يضحك فيها الرخام والمرمر وتغنّي فيها النوافير فوق البِرَك، ويُزهِر فيها الفلّ ويعرش الياسمين وتمتدّ فوق سطحها دوالي العنب، هذه الدور التي قفزت البحر المتوسط -بطوله لا بعرضه- فوصلت إلى الأندلس وإلى المغرب، ولا تزال موجودة فيها. فلما أصابتنا النكسة في عاداتنا وهجرنا هذه الدور، وسكنا صناديقَ من الإسمنت ليس فيها بِرَك يجري فيها الماء ولا أشجار يتدلى منها الثمر ويرقص على أفنانها الزهر، ولا تستر نساءنا ولا تكتم

أسرارنا، ودَنَت سقوفها من الأرض فخفضنا لذلك رؤوسنا... لمّا كان ذلك لم يعُد لهذه الشجرة مكان، فكلّمتُ متحف الفنون الشعبية فاشتراها بألف ليرة من نحو أربعين سنة، وهي تعدل اليوم أكثر من عشرين ألفاً.

وهذه الدار إحدى الأعاجيب، ولعلّي أعود يوماً إلى الكلام عنها.

* * *

ومن الصور الرمضانية في مصر اثنتان كنت في كليهما مع الأستاذ الزيات؛ أخذني أولاً إلى قصر عابدين وقد مُلئت ساحته بالكراسي وفُتحت أبوابها للداخلين، وجاء الملك فاروق بالقرّاء يقرؤون القرآن بالأنغام ويعدّدون القراءات، فمن رواية حفص عن عاصم إلى وَرْش عن نافع إلى غيرهما، وكلما ازداد تعداد القراءات والتنقل بين المقامات والتفنّن في النغمات كان ذلك أدعى لإعجاب الناس وقولهم: الله، الله، ما شاء الله، الله أكبر! كأنهم يسمعون أحد المغنّين أو إحدى المغنّيات في ملهى من الملهيات، والله يصف المؤمنين بأنهم الذين ﴿إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم، وإذا تُلِيَتْ عَليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً﴾، فهل زادت هذه الآيات السامعين إيماناً أم زادتهم طرباً؟

لقد عدّها الناس يومئذ مزيّة للملك فاروق. وتلاوة القرآن في مصر تُعَدّ قربة لذاتها، ومن عادة الوجهاء والكبراء أن يفعلوا مثل الذي فعل الملك فاروق، بل إنه أراد القربة إلى الله والتحبّب إلى الناس بأن يفعل مثلما فعلوا. حتى إن من التجار من يأتي بقارئ

يتلو شيئاً من القرآن عندما يفتح محلّه صباحاً قبل أن يزاول عمله. وهذا حسن، ولكنهم يخلطونه بآخر سيّئ هو أنه لا يُصغي أحدٌ للقارئ ولا يتدبّر معنى ما يسمع منه، فكأن القرآن عندهم كلمات مُعَدّة للتلحين لا يُراد منها إلا التغنّي بها.

ولقد سمعت مرة قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فغُلُّوهُ، ثمّ الجحيمَ صَلّوهُ، ثمّ في سِلْسِلةٍ ذَرْعُها سَبْعونَ ذِراعاً فاسْلُكُوه﴾، هذا الكلام الذي ترتجف له القلوب من الخوف ومن شدة الوعيد كان يقرؤه القارئ بنغمة السيكا (وهي نغمة مرقّصة) وهم يتمايلون طرباً كأنهم لا يفكّرون بمعنى ما يسمعون! أفهؤلاء ممن يتدبّر القرآن؟ هل فهم هؤلاء معنى ما يقرأ القارئ ويسمعون؟

وإنك لتجد في رمضان في بيت الله الحرام خمسين ألفاً بأيديهم المصاحف يقرؤون القرآن، ولكن لا تجد خمسين منهم يفهمون أو يفكّرون في أن يفهموا معاني ما يقرؤون. فلو أن رجلاً أخذ الجريدة فقرأها من العنوان إلى آخر ما نُشِر فيها من إعلان، ثم سألتَه عن الأخبار التي كُتبت بالعناوين الكبار فقال لك: إني لا أدري. هل تراه قد قرأ؟ وهل القراءة أن نحرّك الألسنة بالحروف أو أن نفهم المعاني التي تحملها الحروف؟

على أني لا أُنكِر أن لقارئ القرآن أجراً على كل حال؛ له على كل حرف يقرؤه أجر، ولكن الله يقول: ﴿أفلا يَتَدبّرونَ القُرآنَ أمْ على قُلوبٍ أقْفَالُها؟﴾، فمتى نكسر هذه الأقفال حتى نفهم ما يُقال؟

* * *

وعرض عليّ الأستاذ الزيات أن يأخذني إلى قهوة الفيشاوي. وأنا لست من أحلاس المقاهي الذين ينفقون من أعمارهم في ارتيادها الساعات الطوال، يتنفّسون فيها هواء فاسداً يؤذي الصدر ويسمعون من قرع حجارة النرد (الطاولة) وصياح النُّدل (الجارسونات) ضجّة تُصِمّ الآذان، فهممت بالاعتذار فقال: إنها ليست كما تعرف من المقاهي وليس فيها إلاّ الشاي الأخضر الذي تحبّه، ويرتادها في مثل هذه الليالي أعلام الأدب وأرباب الفنّ يذكرون بها مصر التي كانت قبل خمسين سنة.

فذهبتُ معه، فإذا هي كما قال: قهوة من مقاهي الأحياء القديمة في مطلع هذا القرن، كأن التاريخ مرّ بها ونسيها ها هنا، فلم تمشِ مع مصر في طريق الحضارة المستورَدة من حيث مشَت بل بقيَت في مكانها. وهذا ما يرغّب الناس فيها ويجعلهم يتعلّقون بها. والإنسان مفطور على حب الجديد، ولكنه يحنّ إلى القديم.

وأنا أقيس نشاط الشعب في كل بلد أنزله بأمرين: مشي الناس في الشوارع وقعودهم في المقاهي. والناس في ألمانيا مثلاً لا يمشون إلاّ مسرعين، وما رأيت في بلد فيها (وقد زرت أكثر بلادها) مَن يمضي ساعة في المقهى أو ساعتين كما يفعل الناس في غيرها من البلاد.

* * *

ومرّ بي رمضان وأنا بعيد، دخل عليّ أوله وأنا في كراتشي في باكستان وآخره وأنا في جاكرتا في أندونيسيا، وترك في ذهني صوراً لم تذهب بها الأيام من سنة ١٣٧٣هـ إلى الآن، وإن ذهبت

صور مثلها أكثر عدداً منها.

دُعينا في كراتشي إلى طعام الإفطار. وأنا لا أكاد أستثقل شيئاً ما أستثقل أن أُدعى إلى طعام، وكانوا يُكرِهونني أحياناً فأجيب مرغَماً، ثم عزمت أمري ورفعت راية العصيان، وأعلنت أنني لا أذهب إلى وليمة مهما كانت الحال ومهما كان الشأن.

وكراتشي بلدة كبيرة مترامية الأطراف، فساروا بنا بين طرفَيها ما يقرب من مسافة القَصر! وكنا جياعاً، وكان النهار طويلاً والحرّ شديداً والصوم مُتعباً، فقدّموا لنا تمراً وشراباً بارداً وفاكهة قليلة، ثم أقاموا الصلاة فصلّينا، فلما سلّمنا حسبت أننا نتوجه إلى المائدة، فإذا نحن نوجه إلى الباب! قلت: ما هذا؟ قالوا: هو هذا، إنها دعوة إلى إفطار وقد أفطرتم، فتفضّلوا مشكورين. أي فانصرفوا مطرودين! وخرجنا جائعين كما دخلنا جائعين.

هذه صورة لها في الفم طعم فيه مرارة، ولكن يحلّيها صورةٌ أخرى إلى جنبها كأنها من حلاوتها عسل الشهد، هي صورة إفطار في السفارة المصرية مع سفير مصر، الأديب الكبير والمسلم الصادق والعربي الأصيل، الأستاذ الصديق الدكتور عبد الوهاب عزام رحمة الله عليه. والعظيم فيها أنها وُضعت مائدة واحدة قعد عليها السفير وموظفو السفارة والعمّال فيها والفرّاشون والخدم، كلهم قعدوا إلى مائدة واحدة وأكلوا طعاماً واحداً، فكان مجلساً إسلامياً يشرح الصدر ويُرضي الله.

وكل أبناء مصر عرب، ولكن آل عزام وآل الباسل (وأحسب

أن منهم أيضاً آل أباظة) هؤلاء عرب جاؤوا من غرب مصر، من الشمال الأفريقي، فدخلوا واديها فصاروا على مرّ الأيام من أهلها. وإن وقفتم معي وقفة قصيرة حدّثتكم حديثهم الذي سمعتُه من الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، لمّا كان سفير مصر في بغداد وكنت مدرساً فيها سنة ١٩٣٦ (١٣٥٤هـ).

هل تعرفون نظرية الموجات البشرية في جزيرة العرب التي ألّف فيها خالي محب الدين الخطيب كتاباً صغيراً من أكثر من نصف قرن؟ إن جزيرة العرب تكاد تكون الموطن الأول للبشر، فهي تموج بأهلها مَوَجان مياه البحر، تدفع كلُّ قبيلة مَن تكون أمامها حتى تخرج آخرُها من حدود الجزيرة، فتمضي غرباً إلى مصر، كما مضت موجة قديمة تحمل «مينا» أول فراعنة مصر ومؤسّس الأسرة الأولى، أو تمضي شرقاً إلى أرض الرافدَين (العراق)، أو تمرّ إلى الساحل الشامي فتستقرّ فيه ثم تُبحِر منه، كما فعل الفينيقيون الذين أسّسوا في الشمال الإفريقي مدناً كان منها قرطاجنّة (قرطاجة) التي صارعت يوماً روما يوم كانت روما سيدةَ القارات الثلاث، وأخرجت القائد الذي غلب يوماً روما سيدة القارات.

لقد حدّثني الأستاذ عبد الرحمن (رحمة الله عليه وعلى الدكتور عبد الوهاب، وهو عمّه) أن القبائل في الشمال الإفريقي صورة مصغَّرة لِما كان في الجزيرة، تدفع قبيلةٌ من أقصى الغرب القبيلةَ التي تليها، وهذه تدفع التي بعدها، حتى تدخل آخرُ واحدة وادي مصر فتكون من أهل مصر.

* * *

ومن ذكريات رمضان في أندونيسيا صورة لا تزال واضحة خطوطها، هي أني كنت -كما مرّ بكم- في الفندق الكبير جداً في الجناح الفخم جداً، ولكني كنت ضيق الصدر جداً، أصوم ثم لا أجد على مائدة الإفطار ما آكله. لا لقلّة الطعام بل لأني لا أجد طعاماً أعرفه وآلفه، ثم إنه مملوء بهذه «الشَّطّة» التي تُلهِب الفم وتحرق الصدر. وقد أوصيتهم على طعام يُعِدّونه لي، فما أحسنوا إعداده ولا أسغت طعمه. في هذه الشدة سخّر الله لي اثنين كريمين، رجلين دبلوماسيَّين: سفير مصر الأستاذ العَمْروسي، والقائم بالأعمال السعودي الأستاذ عزّة الكُتْبي، ففتحا لي دارَيهما فعرفت كيف آكل، وأعرف الآن كيف أشكر.

ولمائدة الإفطار في رمضان سحر ولها فلسفة، هي أن الناس كلهم فيها كطلاب المدرسة الداخلية أو أبناء الأسرة الواحدة، حين يجتمعون على المائدة في وقت واحد، يأكلون طعاماً قد لا يكون واحداً في نوعه ولكنه -بعد هذا الصيام- يكون واحداً في لذّته.

والحديث عن ذكريات رمضان حديث طويل لا أكاد أفرغ منه إن أردت استيفاءه. إنها ذكريات ثمانين سنة، اتركوا من أولها خمساً كنت فيها صغيراً لم أكن أدرك ما حولي ولا أحفظ ذكريات ما أدرك في صدري، فهل ترونني أستطيع أن أجمع ذكريات ثلاثة أرباع القرن ثم ألخّصها ثم أحدّثكم حديثها؟

فما لا يُدرَك كله لا يُترَك قُلّه (أي قليله).

* * *

-١٩٨-

في «آخِنْ» عاصمة شارلمان

الآن بعد أن بلغَت الحلقات المنشورة من هذه الذكريات مئة وسبعاً وتسعين أدركت أني لن أفلح في تدوينها، وأني كمن يرسله أهله في حاجة لهم يتعجلون قضاءها، قد حدّدوا له غايته ورسموا له طريقه، فمشى متمهلاً، كلما أبصر جمعاً من الناس وقف عليهم أو سمع متكلمين أصغى إليهم، وبدلاً من أن يمضي في طريقه قُدُماً جعل يسلك ذات اليمين مرة وذات الشمال.

فأنا كلما حزمت أمري واستقمت في سيري جاءني صارف يصرفني. ورد عليّ اليوم من آخن في ألمانيا مطبوعتان: إحداهما نكأت عليّ جرحاً حسبت أنه اندمل، ذكّرتني بأكبر صَدْع أصاب قلبي، ثم لم أستطع أن أسخّر لوصفه قلمي وأنفّس بما أكتب عن نفسي. لقد خانني هذا القلم الذي صحبته ستّين سنة فكان دائماً أسرع مني إلى ما أريد، وكان يشفي الفؤاد ويصيب الغرض، فما له اليوم وقف فما يسير؟ هل أدركه الكبر كما أدرك صاحبَه؟

نعم، ومَنْذا الذي لا يصيبه الهرم؟ النسر الذي لا يرتضي لعشّه إلاّ الصخور العوالي في شُمّ الذرى ويضرب بجناحيه في

جِواء الفضاء وينحطّ على فريسته انحطاط حتم القضاء، يأتي عليه يوم يأوي فيه إلى السفوح ويهون أمام بغاث الطير. والأسد سيد الغاب، يدركه الهرم فيجرؤ عليه صغار السباع. والسنديانة الضخمة يجفّ عودها فتصير حطباً، إن لم تحطمه الرياح نالت منه فأس الفلاح.

ولا يدوم على عظمته وجلاله إلاّ الحيّ القيوم.

لقد استحييت من كثرة ما بدأت حديثاً ثم قطعته ووعدت أن أعود إليه فشُغلت بغيره، وصرت أكتب وأحدّث في الرائي والإذاعة ببقايا النشاط الذي كان لي يوماً، وإني لأقدّم ما أقدّمه هنا في الجريدة وفي الرائي على استحياء.

وأنا أعلم أن أدباء كباراً يتفضلون عليّ بالكثير من الثناء الذي لا أستحقّه، ينظرون إليّ بعين الرضا التي تكلّ أو تُغضي عن إدراك العيوب. بالأمس كتب عن حديثي «على مائدة الإفطار» الأستاذ تركي السديري في جريدة «الرياض» كلمة أخجلَتني وجعلتني أندم على أني لم أجوّد أحاديث رمضان هذا العام لأستحقّ منه بعض هذا الثناء، ومن قبله كتب متفضلاً الأستاذ عبد الله بلخير الصديق القديم، ومن قبلهما الأستاذان الكبيران أحمد أبو الفتح والأستاذ أكرم زعيتر. وهؤلاء كلهم أعلام يعتزّ من ينال منهم بعض ما نلت، لولا أنني أعرفهم كراماً يُعطون الكثير وأعرف أني لا أستحقّ الأقلّ من هذا الكثير.

لقد أدركت أني لن أفلح في السير في تدوين هذه الذكريات كما يسير الناس، لأني لا ألتزم فيها أسلوباً من الأساليب التي

اتبعها الأدباء، وأني بنيتها على الفوضى لا على الترتيب، وأني على مذهب من قال (وأظنّ ظناً لا يقيناً أنه حافظ إبراهيم):

ولذيذُ الحياةِ ما كانَ فَوضى   ليسَ فيهِ مُسَيْطِرٌ أو نِظامُ

وخير لي لو اتبعت ما قاله الشاعر القديم جداً، الأَفْوَه الأَوْدي:

لا يَصلُحُ الناسُ فوضى لاَ سُراةَ لَهُمْ
ولا سُـراةَ إذا جُهّالُهـم سادوا

* * *

ولكن لماذا لم أكمل ما بدأتُ به من القول وجئت أستأنف قولاً جديداً؟

لماذا أدع مصر سنة ١٩٤٧ وقد بدأت حديثي عنها لمّا كنت فيها، لأكتب عن رحلتي إلى ألمانيا سنة ١٩٧٠؟ ولماذا لم أكتب عن هذه الرحلة لمّا كنت فيها أو يوم كانت حوادثها ماثلة في ذهني بارزة بين ذكرياتي، وأتيت أكتب عنها الآن؟ لماذا تركت حصاد قمحي يوم الحصاد، وأبقيته في سنابله ستّة عشر عاماً حتى أكلَت منه الطير وامتدّت إليه أيدي اللصوص، فلما لم يبقَ منه إلاّ الأقل شرعت أجمعه؟ لماذا، لماذا؟ وكل واحدة من هذه «اللماذات» يأخذ جوابه صفحات.

أكتب عن رحلة ألمانيا لسببين: سبب عاطفي حرّك كوامن قلبي، وسبب عقليّ نبّهني إلى واجب يوجبه عليّ ديني. ذلك أنه ورد عليّ مطبوعتان، في إحداهما كلمات وجدوها في أوراق

بنتي التي قتلها المجرمون في بيتها في آخن غدراً وغيلة، وفي الأخرى مختارات لها طبعوها طبعاً أنيقاً. والمطبوعة الثانية فيها بعض ما يصنع المركز الإسلامي في ألمانيا، في المدينة التي يسمّيها الألمان «آخِنْ» ويدعوها الفرنسيون «إكْس لاشابيل»، والتي كانت يوماً عاصمة شارلمان لمّا كان يحكم غربي أوربا، وفيها قصره وفيها آثاره.

انتزعتني هذه المطبوعات مما كنت فيه وحملتني حملاً إلى سنة ١٩٧٠، لمّا ذهبتُ إلى تلك البلدة وجلت في البلاد من حولها: في مدن ألمانيا وبلجيكا وهولندا، يأخذونني إلى مجتمعات الشباب فأحدّثهم على قلّة علمي، وأحاضرهم وأجيب على أسئلتهم بمقدار ما يفتح الله عليّ من الجواب.

وهذا المركز يعمل على نشر الإسلام عملاً عظيماً، إن لم يهتمّ به الناس فأرجو الله أن يجزيهم عليه الثواب. عندهم ندوة شهرية في يومَي السبت والأحد من آخر كل شهر يحضرها نحو ألف من الرجال والنساء والطلاّب والعمال، يأتون إليها من أطراف البلاد، ومنهم من يقطع حتى يحضرها ثلاثمئة أو أربعمئة كيل (كيلومتر). وعندهم درس يوميّ للقرآن بعد صلاة الظهر، ودرس أسبوعيّ للفقه، وجلسة ثقافية يوم الجمعة يحضرها الرجال والنساء منفصلين كما يوجب الشرع. ثم إنهم يهتمّون بالأطفال فيدرّسونهم اللغة العربية لئلاّ ينسوها إذ يقيمون في بلد لا يسمعون فيه من يتكلم بها، والقرآن الكريم والثقافة الإسلامية، وعندهم اليوم ١٨٥ طفلاً تركياً و٣٥ طفلاً يوغسلافياً.

ثم إن لهذا المركز نشاطات اجتماعية، فهم يُعِدّون في رمضان مائدة إفطار مشتركة ثم يشتركون بعدها في إقامة الصلاة: العشاءَين والتراويح. ولقد أدركت رمضان مرة عندهم فوجدت جواً روحانياً لا أكاد أجد مثله اليوم في بلد من بلاد المسلمين (إلاّ المملكة فرمضان فيها ما له نظير) وكل من يحضره من الشبّان ومن الشابّات، والشاب الذي ينشأ في طاعة الله أحدُ الذين يظلّهم الله بظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه. ثم إن هذا المركز يعقد عقود الزواج، ويقيم حفلات التخرّج لشباب المسلمين، ويشارك في كثير من الجمعيات الإسلامية، وله كما علمت لقاءات منظَّمة في أوربا. وفي أوربا اليوم من المسلمين ما يزيد على ستة عشر مليوناً، إن لم يتدارك المسلمون فيها أولادَهم خسروهم وأضاعوهم، لذلك عزم المركز على توسعة بنائه توسعة تزيد أضعافاً على ما هو عليه الآن، وأن تكون فيه مدرسة للبنين ومدرسة للبنات، وأسأل الله أن يُلهِم القادرين مساعدتهم على ذلك.

وأنا قد زرت أكثر البلاد الإسلامية، فما وجدت أزمة بخل ولكن وجدت أزمة ثقة. لقد كثر المدّعون الذين يجمعون الأموال لمشروعات إسلامية وهمية حتى ضاعت ثقة المسلمين بهم وبغيرهم. والقائمون على هذا المركز أعرفهم، ولا أشهد إن شاء الله زوراً إن قلت إنهم أمناء يضعون الأموال في مواضعها، ولست أقول هذا دعاية لأشخاص بأعيانهم فليس الذي يهمّني العاملون وإنما يهمّني العمل، وهذا العمل إن شاء الله عمل إسلاميّ ضروري ونافع.

* * *

فتح عليّ هذا بابَ الكلام عن رحلتي التي رحلتها إلى ألمانيا، وقد دعاني يومئذ اتحاد الطلاّب المسلمين فيها إلى حضور مؤتمر في إحدى المدن الألمانية (في كيسن).

وكنت أخشى السفر إلى أوروبا وأنكر على من يذهب إليها من غير ضرورة تُلزِمه زيارتها، وأتصوّر -لكثرة ما أسمع عن فسادها وفُشوّ المنكَرات فيها- أن الفواحش تُرتكب علناً على حاشية الطرق. فلما بلغتها ودخلت بضع عشرة مدينة من مدن أوربا الغربية لم أرَ فيها كلها مثل الذي كنت أراه في بيروت! على أني لم أعرف منها ولا من بيروت ولم أرَ إلاّ ما يراه الماشي في الطريق، ثم إني لم أنفرد بنفسي في أوربا أبداً، فقد كنت في السفر مع أهلي وفي التجوال مع نفر من الشباب المسلمين يسيرون دائماً معي لا يفارقونني، لذلك لا أستطيع أن أحكم على الخفايا التي لم أطّلع عليها، وأحمد الله على أني لم أطّلع عليها.

كنت في عمّان فقطعوا لي تذكرة في شركة الطيران الألمانية (لوفتهانزا)، فركبنا من عمّان، وأنا أجد بحمد الله في كل سفرة -على قلّة سفراتي- مَن يجنّبني مشقّة الزحام في الوصول إلى الطيارة، فيُدخِلني المطار مدخلاً خاصاً ويخرج بي إلى ساحته مخرجا خاصاً ويُركِبني سيارة توصلني إلى سلّم الطيارة.

وكان علينا أن ننام ليلة في بيروت لأن هذه الشركة لا تصل طياراتها إلى عمان. وكنت أعرف من فنادق بيروت فندق الأهرام للحاجّ أحمد المغربي، وقد سبق الكلام عنه، وعلى سطحه غرفٌ نحسّ فيها كأننا في منازلنا، والمجلس مع الحاج ومع من

يكون عنده من خيار المسلمين مجلس إسلامي، والطعام طعام شاميّ، والحاج أحمد أحسن من كان يطبخه في بيروت ويقدّمه في قهوة الحاجّ داود، والشاي الأخضر بالعنبر بعده، والصلاة جماعة وبعد الصلاة مجلس فيه فائدة أو موعظة فيها نفع. ونزلتُ مرة في غيره لأني وجدت السطح مشغولاً، وكان الفندق الذي نزلت فيه معدوداً من فنادق الدرجة الأولى، فما كان مني إلاّ أن ذهبت إلى ساكن السطح الذي أَلِفتُ المبيت فيه فأعطيته غرفتي في الفندق الكبير، وأخذت هذا السطح بغرفه القديمة وأبوابه التي لها صرير.

وكنت أنزل تارة فندقاً يطلّ على ساحة البرج على يمين المتوجّه إلى البحر، يوم كان البرج قلب مدينة بيروت وكان فيه ملتقى خطوط الترام ومواقف السيارات وكان مجتمع الناس، وكان معي في تلك السفرة زميلي في المحكمة القاضي الشيخ مرشد عابدين، فقلت لصاحب الفندق: إن الغرفة التي تعوّدت النزول فيها مطلّة على الساحة وفيها ضجيج لا يدعني أنام، فأعطِنا غرفة في الجهة الأخرى. فأظهر الدهشة والعجب وقال: كيف تنزل في تلك الغرفة؟ فما فهمت سرّ سؤاله وحسبت أنه لا يرتضيها لي لأنها من غرف الدرجة الثانية، فأصررت عليها لأنني فضّلت هدوءها الذي قدّرته على فخامة الغرفة الأولى مع ضجيج الساحة. فلما خضع لرأيي ونزلنا الغرفة عرفت سرّ امتناعه؛ ذلك لأن نوافذها تطلّ على عمارات «المحل العمومي» الذي لم نكن نعرفه. وأنّى لي وأنا شيخ وقاضٍ شرعيّ وأنّى لزميلي وهو مثلي أن نعرف هذا المكان؟

فلما أطللنا من النافذة ورأينا ما في تلك العمارات عرفت سرّ محاولته صرفي عن المبيت فيها. ذلك أن وراء صف العمارات القائمة على أكبر ساحة في المدينة حيّ كامل هو حيّ البغاء، فيه كما علمت المومسات وعلى أبوابهن لوحات بأسمائهن والأضواء ساطعة فيه والمنكَرات معلَنة. شيء ما كنت أظنّ أن مثله يكون في بلد من بلاد العرب وبلاد المسلمين[1].

ولم أكن أعرف من الفنادق الكبرى الممتازة (كما يدعونها) إلاّ فندق سان جورج، أراه من ظاهره ضخماً متربعاً على الشط لم أدخل جوفه، فلما خبّرونا أن الشركة ستُنزِلنا أنا وزوجتي على حسابها في فندق ممتاز لأننا من ركّاب الدرجة الأولى في الطيارة حسبت أنهم سيُنزِلوننا فيه، وإذا هم ينزلوننا في أخ له لعلّه أضخم منه فرشاً من الداخل، ولكن ليست له هيئته ولا هيبته من الخارج، وقد قال العارفون إنه إن لم يَفُقْه لم ينزل في درجته عنه.

ولم أستطع أن أنام إلاّ سويعات متقطعات، لأن من عادتي أن يطير النوم من عيني إذا كان عندي موعد صغير أفكّر فيه أخاف أن يفوتني، فكيف وأنا مُقدِم على أصعب رحلة في حياتي؟ ولقد رحلت من قبل إلى أقصى الشرق وسلكت الصحراء، ولكني كنت

---

(١) ومن عجيب ما رأينا لمّا أطللنا من النافذة قبل أن ندع الغرفة، واحدة من نساء المحل (أي من المومسات) بالحجاب الشرعي والخمار الأبيض والسبحة في يدها، لأننا كنا في آخر شهر رمضان. فهي تتوب فيه وتدع ما كانت فيه! فلا ييأس الدعاة إلى الله، فما دام في القلب بقية من إيمان فالإصلاح ممكن.

مَقُوداً لا قائداً، وكان معي من يرتّب لي أمري ومن يُزيح لي علّتي (كما كان يقول الأولون) ويُعنى بي ويهيّئ لي كل ما أحتاج إليه، وأنا اليوم مسؤول عن نفسي وعن زوجتي، أمشي إلى بلد لا أعرفه وليس في فمي لسان أخاطب به أهله. والفرنسية التي كنت أتقن نحوها وصرفها والتي أخذتُ بحظّ من أدبها واطّلاع على أخبار أدبائها (ولا أزال أستطيع أن أقرأ بعض ما كتبوا) تركت درسها من سنة ١٩٢٩، ثم إني من الأصل أقرؤها ولا أنطق بها، ذلك أن الفرنسيين الذين كانوا يعلّموننا لسانهم كما يعلّمونه أبناءهم في باريس، المناهج هي المناهج والكتب هي الكتب، هؤلاء الفرنسيون دفعونا بحماقتهم عن النطق بلسانهم. ثم إن الذي يحبّ أن ينطق بلغة عليه أن يفكّر بها، لا أن يفكّر بالعربية مثلاً ثم يترجم فكره إليها.

أضرب لذلك مثلاً: أردت في بروكسل أن أركب سيارة أجرة، ففكّرت فيما أقوله له لو كنت في بلدي؛ أقول: خذني إلى محلّ كذا. فلما ترجمت له كلمة خذني ضحك وتعجّب مني، فقلت أكلمه بالفصيح فأقول كما كان يقول أجدادنا الأولون «احملني إلى كذا»، فلما سمع ترجمة احملني ازداد الخبيث كركرة وضحكاً، ذلك أنهم يقولون للسائق «قُدْني» (conduisezmoi)، لا يقولون خذني ولا يقولون احملني.

* * *

المسافر المُقدِم عادة على البلد المجهول تتنازعه عاطفتان، هذه تشدّه من هنا وتلك تسحبه من هناك: تطلُّع إلى الجديد، وكل جديد له لذّة، ورهبة من الظلام، وكل ظلام مقترن بالخشية. وقد

عرفتُ من قبل طرفاً من إفريقيا لمّا ذهبت إلى مصر، ثم أوغلت في آسيا لمّا سافرت إلى السند والهند والملايا وجاوة، ولكن هذه هي أول مرة أزور فيها أوربا.

وأصبحنا وذهبنا إلى المطار. وكان مطار بيروت يومئذ أكبر مطار رأيته في عمري، لا تكاد تهبط فيه طيارة حتى ترتفع منه أخرى، ولقد شبّهته يوماً بهذه الحياة الدنيا: نكون حول المائدة نتغذى أو نشرب الشاي، لا ندري متى تقوم طياراتنا بالضبط، فنسمع من المكبّر أسماء ناس منا يُدعَون إلى الطيارة المسافرة إلى باريس وناس إلى التي تقصد كراتشي والثالثة التي تذهب إلى أواسط إفريقيا، أليس هذا هو مثال الحياة الدنيا؟ نجتمع فيها على الطعام والشراب والحديث والعمل، لا ندري متى يُدعى الواحد منا إلى السفرة الطويلة التي لا يؤوب منها والتي لا يدري غايتها، لا يعرف هل يُدعى إلى الجنة والنعيم المقيم فيها أم إلى النار والعذاب الدائم، ونحن في غفلة ننسى مصائرنا، وننسى أن حياتنا على هذه الأرض حياة موقوتة، وأن مردّنا إلى الله، وأن الآخرة لَهي الحيوان، أي الحياة الدائمة الباقية. نسأل الله أن يوقظ قلبي وقلوبكم، وأن يردّنا جميعاً إلى دينه، وأن يحسن خواتيمنا.

وقامت بنا الطيارة في موعدها المحدَّد لها، لم تتقدم عنه دقيقة ولم تتأخر عنه دقيقة. وهذه إحدى صفات المؤمنين، تَخلّينا نحن عنها وتمسّكوا هم بها. أليس من شأن المؤمن ضبط المواعيد؟ أليست مواعيدنا الإسلامية على الدقيقة؟ أليس الذي يفطر في رمضان قبل غروب الشمس بدقيقة يكون قد أفسد صيامه ووجب عليه القضاء؟ أليس الذي يصلّي قبل حلول وقت الصلاة

بدقيقة لا تُقبَل منه صلاته؟ فلماذا علّمَنا الدينُ ضبطَ المواعيد ثم أقمنا حياتنا على الإخلال بها؟ ألم يقُل الرسول عليه الصلاة والسلام: آية المنافق ثلاث، منها أنه إذا وعد أخلف؟ فلماذا يعمّ الخُلف مواعيدَنا؟ مواعيدنا الشخصية، ومواعيد حفلاتنا واجتماعاتنا، ومواعيد دعواتنا وولائمنا؟ ولماذا أخذ هذه الحسنةَ منا غيرُنا وتخلّينا نحن عنها؟

وعلَت بنا الطيّارة فرأيت منظراً عجباً؛ رأيت كأن تحتي خريطة كبيرة مجسَّمة لقبرس (قبرس بالسين لا بالصاد) وطرف إيطاليا، فقلت: لا إله إلا الله، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين. سخّر لنا الفُلك تجري في البحر بأمره، وسخّر لنا الخيل والبغال والحمير، وخبّرنا أنه يخلق ما لا تعلمون. من قال لمحمد ﷺ -الذي عاش في بلد ما فيه مدرسة ابتدائية والذي لم يتعلم كتابةَ اسمه والذي لم يسمع بأرسطو ومن قبله أفلاطون- أن الله سيخلق غير هذه المراكب التي نراها؟

ثم سرنا فوق البرّ الأوربي فرأينا من تحتنا البلاد والقرى والجبال والبحيرات والطرق، منظر عجب كنت أغمض عيني تارة فأتصور أني أرى ذلك في منام. ألم يرَ كثير منكم في المنام أنه يطير على وجه الريح ويرى الدنيا من تحته؟ لقد حقّق الله هذا الذي كنا نراه بالأحلام! ثم هبطنا في ميونخ (التي يسمّونها مونْشِنْ) لمشاهدة الجوازات والإذن لنا بدخول البلاد، فوجدنا مطاراً هائلاً ومعاملة كريمة وثقة بالغة. ولم تكن يومئذ قد ظهرت بدع خطف الطائرات، ولا كانت مظاهر الإرهاب وإيذاء الركاب.

وعدنا إلى الطيارة. وهنا ذهبَت السَّكْرة وجاءت الفكرة: إن الطيارة ستنزل في فرانكفورت، فأين الطيارة الأخرى التي تحملني إلى آخن؟ وحرت، فأنقذني الله بأن وجدت رجلاً كريماً عرف أني عربي مسلم حائر، وكان عربياً كريماً من البحرين.



-١٩٩-

رحلتي من فرانكفورت إلى آخن

انتهت الحلقة السابقة وأنا في فرانكفورت التي لم أكن أعرفها ولا أعرف أحداً فيها. وكانوا يعلّموننا ونحن صغار في المدرسة أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فوجدت هنا أني بنفسي أقلّ من القليل لأنني لا أُحسِن صنعاً ولا أعرف لنفسي وجهة، وأنه لا إخوان لي أتكثّر بهم. فجعلت أتلفّت حولي أفتّش عن مَنْجَى، ولا منجى ولا ملجأ إلاّ إلى الله، وحسب المؤمن الله. أدور كما كان يدور الأحوص في طرق المدينة ليرى أم جعفر:

أدورُ ولولا أنْ أرى أمَّ جعفرٍ   بأبياتِكم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ

وما في مطار فرانكفورت جعفر ولا أم جعفر. وكنت أرى مطار بيروت أكبر مطار فوجدتُه هنا غرفة في دار! كلاّ، ما هذا مطاراً ولكنه قرية كبيرة أو بلدة صغيرة، اللوحات التي تُرشِد إلى مخارجه فيها حروف معها أرقام، تدلّ على أنها عشرات وعشرات. جهنّم لها سبعة أبواب وهذه لها سبعون، وأنا فيها... أرأيتم الصرصور يسقط في القدر الفارغة الملساء الجوانب، يعدو في كل اتجاه يريد أن يصعد وكلما صعد زلّت به القدم فسقط؟

ورأيت مَن كان معي في الطيارة يؤمّون موضعاً يتجهون إليه يأخذون منه حقائبهم، فسرتُ من حيث ساروا، فوجدت نضداً مستطيلاً عليه الحقائب يمشي بها، بطيئاً مشيه، فكلما أبصر أحدهم متاعه مدّ إليه يده فأخذه ومشى، حتى مشى الناس كلهم وانقطع سير الحقائب، وبقينا أنا وزوجتي واقفَين لم نتسلّم متاعاً ولم نقضِ من وقوفنا وطراً. فذهبتُ فكلّمتهم فما فهموا عني وكلّموني فما فهمت عنهم، فأدركت مبلغ الخسارة التي خسرتُها حين لم أُحسِن النطق بالفرنسية. وماذا ينفعني أن أفهم ما قرأت من روائع أدبها وبدائع بيانها، وأنا لا أدري كيف أستعملها للسؤال عن متاعي؟! على أن الفرنسية لم تعُد شيئاً أمام الإنكليزية التي فرضها نشاط أهلها على ربع العالَم؟ ولقد قلتُ قديماً مقالة حقّ لا مقالة عربي يتعصّب للسانه: إن العربية في الدرجة الأولى بين الألسُن واللغات، والدرجة الثانية والثالثة شاغرتان فارغتان لا شيء فيهما، وفي الدرجة الرابعة الفرنسية، أما الإنكليزية فتأتي متأخرة ولكن نشاط أهلها هو الذي قدّمها.

انصرف الناس وبقيتُ حيران لا أنصرف. و«حيران» ممنوع من الصرف إذا كنتم لا تزالون تذكرون ما درستم من قواعد اللغة العربية. هنا، وعند شدة الضيق يأتي الفرج؛ جاء الفرج من البحرين. والنسبة إليها عند العرب «بحراني»، ولكنهم (ولست أدري لماذا) لا يحبّون أن يُدعى أحدهم بها. وباب النسب عند العرب أكثره سَماعي، فإن نسبوا إلى المدينة المنوَّرة (بنور الإسلام) قالوا: «مدني»، فإن وجدتم بين المحدّثين من اسمه «المَديني» فهي نسبة إلى مدينة المنصور، أي إلى بغداد أول

ما بناها، فإن قالوا «المدائني» فالنسبة فيها إلى مدائن كسرى.

وكان رجلاً عربياً كريماً، تاجراً من البحرين، مرّت ستّ عشرة سنة ما نسيت فيها ما كان من فضله وإحسانه ولكن نسيت أول اسمه، أمّا آخره فباقر. فهل تعرفون في آل باقر في البحرين رجلاً كان سنة ١٩٧٠ مسافراً إلى ألمانيا؟ إذا رأيتموه فأبلغوه أني لا أزال أذكره وأشكره وأدعو له.

رآني غرقان فأخذ بيدي؛ سألني عمّا أريد، فلما عرف خبري مدّ لي يد العون. وكان له عميل ألماني كأنه من عفاريت الجنّ، خرّاج ولاّج سريع الحركة واسع الحيلة كبير الطاقة، فهم قصّتي فدخل من حيث لم أكن أقدر أن أدخل وقال ما لم أستطع أن أقول، فجاء بالحقائب محمولة على عربة صغيرة تسير. وإذا خبرها أني لمّا وكّلت مَن يقطع لي التذكرة في عمان قلت له أن يوصلني بها إلى بروكسل فالسفر منها إلى آخن سهل ميسور، ما عليّ إلاّ أن أركب القطار فأصل بعد ساعة واحدة إلى آخن، ثم إن بروكسل ينطق شطرها باللغة الفرنسية، وأحسب أن ما بقي لدي من الفرنسية (وقد هجرتُها وتركتها من سنة ١٩٢٩) أن ما بقي لديّ منها يكفي ليوصلني من بروكسل إلى آخن. وآخن عند ملتقى حدود ألمانيا وبلجيكا وهولندا، حتى إن الحدود ربما كانت فيها فكان هذا الجانب من الشارع من أرض هولندا أو بلجيكا والجانب الثاني من أرض ألمانيا، وكان الانتقال سهلاً والأبواب مفتَّحة.

فلما رأوا بطاقة سفري نقلوا حقائبي إلى الطائرة التي تذهب إلى بروكسل، وكان عليّ أن أنتقل معها، وقيامها موقوت بوصول

طائرتنا، ولكني كنت في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض: جهل بالمكان، وجهل بالسكان، وجهل باللسان؛ فتركت الطائرة تُفلِت مني وبقيتُ في مكاني، فلم يبق إلاّ أن أبيتَ في فرانكفورت لأركب طائرة أخرى إلى بروكسل من الغد.

وأخذَنا السيد باقر جزاه الله خيراً معه في سيارته إلى فندقه. وكان قد حجز له غرفة في فندق كبير، وكان في البلد معرض لست أدري ما هو كَثُرَ بسببه زوّار البلد حتى ضاقت بهم فنادقها، فحاول أن يجد لنا في فندقه غرفة فما استطاع، فترك عمله -أحسن الله إليه- وذهب معي في سيارته حتى وجد لي غرفة في فندق آخر، دون الذي ينزله هو وفوق الذي كنت أطلبه أنا، والشرط أن يكون في الغرفة حمّام حتى لا أُضطرّ إلى الخروج منها ومشاركة مَن لا أُحبّه في مرافقها، وهذا شرط أصرّ دائماً عليه ولا أقدر أن أتنازل عنه.

فاختار لي الغرفة، وكلّم هو وعميله مديرَ الفندق أمامي فأمر بإصعاد المتاع إليها لنصعد نحن بعدها، فلما رأيناها وجدناها بلا حمام، فعدتُ إلى صاحب الفندق أكلّمه فلا يفهم عني. وكان كهلاً ألمانياً عصبياً حديد المزاج سريعاً إلى الشجار، وكنت في هذا كله مثله، بل كنت أكثر منه! فاختلفنا، وتركت الغرفة وخرجت أشتمه بلساني فتذهب الشتائم كالطلقات الطائشة من الرشاش تذهب في الفضاء فلا تصيب أحداً!

بلغنا الشارع ووقفنا فيه، ولم نعرف لنا مذهباً نذهب إليه. وماذا أصنع وأنا في بلد غريب ولا أعرف فندق صاحبي لأذهب

إليه؟ فتصوّروا حقائبي على رصيف الشارع وأنا وزوجتي واقفان، وقد برّح بنا التعب فلم تعُد تستطيع الوقوف. وندمت على ترك الغرفة، لأن غرفة بلا حمّام خيرٌ من النوم على الرصيف... هذا إن تركونا ننام عليه ولم يقبضوا علينا قبضهم على المشرَّدين فيكون مبيتنا في السجن! هنالك بلغتُ من اليأس قرارته وضاقت بي المسالك، بل لقد سُدّت في وجهي السبل. وحين تُسَدّ سبل الأرض كلها لا يبقى إلاّ سبيل واحد لا يُسَدّ أبداً ويظلّ دائماً مفتوحاً لا يردّ قاصداً، هو سبيل السماء، هو الدعاء، هو أن تدعو الله مخلصاً له الدين واثقاً من كرمه بالإجابة.

وشرح الله صدري فذكرت أن السيارة لم تمشِ من الفندق الكبير إلى هذا الذي تركتُه إلاّ قليلاً، فهو إذن قريب. فجعلت أمشي على مهل حتى لا تضيع مني زوجتي، أتلفّت إليها تارة وأنظر أمامي تارة أتفرّس في وجوه الناس، حتى وجدت وجهاً يُشعِر بالطمأنينة فسألته بالفرنسية عن الفندق الكبير، ففهم والحمد لله عني ودلّني، فإذا هو قريب، فذهبنا إليه. والمصيبة في ما رأينا من المحطات والمطارات أنه ليس في شيء منها حمّالون كالذي نراه في بلادنا، وإنما فيها عربات صغار يوضع فيها المتاع وتُدفَع بالأيدي. لكنني في شارع، فمن أين آتي بالعربة؟ فأخذتُ سيارة أجرة وقلت له: خذني إلى الفندق الكبير. وكلمة فندق (أوتيل) تكاد تكون كلمة عامّة يفهمها الناس كلهم على اختلاف ألسنهم، وعجبتُ من نفسي كيف لم يخطر لي من أول الأمر أن أركب سيارة توصلني إليه.

ودخلت الفندق وسألت عن صاحبي فوجدته مع عميله

الألماني قد بسطوا دفاترهم يتكلمون، فلما رآني ترك ما هو فيه جزاه الله خيراً وجعل همّه مساعدتي. ولم نكن قد أكلنا شيئاً ولا صلّينا الظهر (وإن نوينا الجمع)، فأخذنا إلى غرفة في الفندق كانت خالية استأجرناها إلى غروب الشمس فقط، فاسترحنا وأكلنا وصلّينا. ورجعت إلى صاحبي أسأله: ما العمل؟ قال عميله: لِمَ لا تذهب بالقطار؟ قلت: إن السفر بالقطار أحب إليّ، ولكن هل يمضي رأساً إلى آخن؟ قال: بل لا بدّ من تبديله في بلدة كذا (ولقد نسيت الآن اسمها). قلت: هلمّ بنا.

وكانت محطة القطار مواجهة الفندق في الشارع الذي كنا فيه، فذهبنا إليها، وسألته أن يقطع لي تذكرة في الدرجة الأولى، فحاول أن يُفهِمني (وكان يعرف كلمات من العربية) أن الثانية قريبة من الأولى وهي أرخص منها، ولكني لخوفي من المشقّة ورغبة في الراحة بعد ما رأيت من التعب أصررتُ على الدرجة الأولى. وأقعدني في غرفة للانتظار فيها مقاعد مريحة وخبّرني أن القطار يأتي بعد عشر دقائق، وودّعني لينصرف فحاولت أن أدسّ في يده مبلغاً من المال جزاء ما تعب بي فأبى واستنكر، بل لقد استكبر أن يأخذه وكاد يغضب، فتركته وأجزلت له الشكر وفارقته.

* * *

وأخذنا مكاننا في القطار، وسلك بنا طريقاً من أجمل ما عرفتُ من الطرق في حياتي، وكان يمشي على شطّ نهر الراين أرى منه النهرَ والسفن تجري فيه، والقرى والمدن على شطَّيه، والجبال الشَّجْراء من حولها... منظر كان متعة للنفس وفرجة

للنظر، لولا أني كنت منشغل الذهن أخاف أن أصل إلى حيث يجب أن أبدّل القطار فلا أتنبّه إليه فيمضي بي إلى بلد لا أعرفها.

ووادي الراين لمن عرفه من أجمل الأنهار، ولكن يد البشر ما مسّت شيئاً خلقه الله إلاّ أفسدته ومحت جماله ونقصت كماله. فقد سلّطنا عليه المصانع فلوّثت ماءه وعكّرت صفاءه، حتى إنني لمّا جئت بعد هذا بستّ سنين (سنة ١٩٧٦)، وكانت سنة قحط، وجدته -فوق ما حلّ به من البلاء- قد قلّ منه الماء وتلوّث وفسد حتى صارت رائحته تؤذي الناس على الشطّين. وكنت أرى في تلك السنة الغابات في الجبال تشتعل ولو لم تمسسها نار، من شدة الحرّ واحتكاك الجذوع أو مما لست أدري، وكذلك البلاء إذا نزل لا يُرَدّ. ولكن أين مَن يعتبر؟ بالأمس القريب أُعلن أن الشيوعيين سينشطون في خططهم في نشر الإلحاد ومحاربة الأديان، يحسبون أنهم يتصرفون في ملك الله، فأدّبهم الله بأدقّ خلقه، بشيء يبلغ من صغره أنها لا تراه العيون ولا بالمكبّرات والمجاهر: بالذرّة. فكان ما كان في تشرنوبيل، ولَعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون.

وما زلت كلما وقف القطار في محطة أسأل: أهذه مدينة كذا[١] التي يجب علينا أن نبدّل فيها القطار؟ فيقولون: لا. حتى إذا بلغتها جاؤوا فخبّروني (وقد سمعوني أسأل مرات) يقولون لي: هذه هي فأعدّ نفسك للنزول. ونزلنا من القطار، وأبواب القطار عادة عالية، لذلك يرفعون أرض المحطات حتى يسهل

(١) لا بد أنها كولونيا (كولْن)، فهي التي ينتقل فيها المسافر من قطار فرانكفورت إلى القطار الذاهب إلى آخن. وباسم هذه المدينة سُمّي ماء العطر (الكولونيا) لأنه صُنع أولَ ما صُنع فيها فنُسِب إليها (مجاهد).

الخروج منها والدخول إليها فيكون القطار كأنه يمشي في حفرة من الأرض، ثم ننزل من المحطة على درجات فنصل إلى الشارع.

دَلّوني على القطار الذي ينبغي أن أنتقل إليه فإذا بيني وبينه حفرتان من هذه الحفر التي تمشي فيها القطارات، أي أن عليّ أن أنزل إلى الشارع ثم أصعد من الجهة الأخرى حتى أبلغ القطار الذي أريد. وكانت حقائبي ثقيلة فحرت ماذا أصنع، وإذا بشابّ عريض المنكبين قويّ الساعدين يتدفق صحّة وقوة، فسألني بالإشارة عن القطار الذي أريد فأشرت إليه، فأمسك بالحقيبتين باليدين وقفز قفزة واحدة من جانب إلى جانب وأتبعها بقفزة أخرى، وأشار إليّ أن أنزل أنا بالدرَج. فنزلت وأنا ألهث من التعب وزوجتي معي حتى صعدنا، وخفت (و«سوء الظنّ من أغلى الفِطَن» كما يقولون) أن يذهب بها، وإذا هو قد وضعها لي في غرفة القطار وأمرني أن أصعد، وبدأ القطار يتحرّك فمددت يدي إليه بشيء من المال، فجعل يشكرني بوجهه الذي انطلقت منه الأسارير وضحكته التي بلغت أقصى الخدّين ولسانه الذي تدفّقت منه الكلمات وإشارات يديه.

فعجبَت زوجتي وقالت: كم أعطيته؟ قلت: أعطيته ماركاً ونصف المارك. قالت: هذا الشكر على أكثر من ذلك، فاحسب ما معك. فما عرفت كيف أحسب، قلت: إذا رجعنا حسبنا. فلما رجعنا وحسبت ما كان معي وجدت أنني لم أعطه ماركاً ونصف المارك بل أعطيته مئة وخمسين ماركاً، لذلك كان منه هذا الشكر العجيب.

هنالك اطمأننت لأني علمت أني لن أنزل من مركبي إلاّ في

آخن، وجعلت الآن أتأمل ما حولي وأستمتع بما أمرّ به من جميل المناظر. وكذلك تتغير الدنيا أمام الإنسان بتغيّر حالة نفسه، فكأنه يراها من خلال زجاج وضعه أمام عينه، فإن كان مبتئساً كان زجاجاً أسود رأى الدنيا من خلاله سوداء، وإن كان مسروراً أبصرها من خلال زجاج وردي فرآها مشرقة مزهرة. رأى لامارتين البحيرة لمّا كان مع إلفير بغير العين التي رآها بها لمّا عاد إليها وحده بعدما ماتت إلفير، فأنشد فيها قصيدته التي تُعَدّ رائعة في الأدب العاطفي الرومانسي، والتي ترجمها الزيات نثراً وإلياس فيّاض شعراً، فتصرّف في معانيها وعبّر عنها بخياله العربي فقال في مطلعها:

أهكذا تنقضــي دومــاً أمانينا
نطوي الحياةَ وليلُ الموتِ يطوينا
تَمضي بنا سُــفُنُ الأيامِ ماخرةً
بحرَ الوجودِ ولا نُلقي مَراسينا

بل لعلّ الفيلسوفَ المتشائمَ تشاؤمُه لعلّة في جسده أو نكبة في معيشته. لو كان أبو العلاء المعرّي مبصراً يرى الدنيا ويعيش كما يعيش الناس هل كان يقول هذه الأشعار؟ أوَلم يكن يختلف شعره لو كان له مثل جسد بشّار (وهو أعمى مثله) ومثل شهوته ومثل إقباله على طعامه وشرابه؟ لي رسالة عنوانها «في التحليل الأدبي» مطبوعة من خمس وخمسين سنة شرحت فيها أثر التكوين الجسدي والوضع الاجتماعي والحالة النفسية للأديب في أدبه[1].

* * *

(١) انظر «مقالة في التحليل الأدبي» في كتاب «فِكَر ومباحث» (مجاهد).

وبلغنا آخن، وقلت لسائق السيارة أن يأخذني إلى المسجد، وكان معروفاً ولم يكن في البلدة مسجد غيره، وكان أمام المحطة الفرعية للقطار فلم يكن يضلّ عنه أحد. وكان المسجد مجاوراً لأبنية الجامعة في آخن، بل هو داخل في نطاقها، فلما دنوت منه وجدت حفيدَيّ هادية وأيمن ولدَي الأستاذ عصام العطّار يلعبان، فدعوتهما، فلما رأياني بدت على وجهيهما دهشة لا يمكن وصفها، ثم زادت هذه الدهشة وتضاعفت لمّا رأيا جدّتهما (زوجتي) معي، وأسرعا إلى أمهما يخبرانهما. كانت مشغولة الفكر مرّت عليها أيام أبطأت فيها رسائلنا وتعسّر الاتصال بنا، فلما قالا لها إننا هنا حسبت (كما خبّرتني رحمها الله ورزقني الصبر عنها) أنهما يمزحان معها فكادت تغضب منهما، فلما أكّدا الخبر وكرّراه خرجت لترانا فلم تصدّق بصرها، وجاء عصام فخرج يتلقانا يرحّب بنا.

وكان كل ما بذلنا من الجهد وما حملنا من المشقّة لهذه المفاجأة التي لم يكن ينتظرها أحد.

* * *

-٢٠٠-

الدعوة الإسلامية في ألمانيا

أنا أكتب هذه الحلقة يوم العيد. ما على ألسنة الناس إلاّ التهنئات فيها الأمل الحلو، وما في قلبي أنا إلاّ ذكريات فيها الألم المرّ. مَن يقفز قفزة لا يقوى عليها يسقط بعدها سقطة قد لا ينهض منها، وأنا قفزت من ذكريات سنة ١٩٤٧ في مصر إلى سنة ١٩٧٠ في ألمانيا. وهل في ذكرياتي عن ألمانيا إلاّ بنتي؟ لولاها ما وطئت ثرى تلك البلاد. وما لي فيها؟ وهل أستطيع أن أحدّث عن رحلتي إليها من غير أن يكون الحديث عن بنتي؟ وهل أستطيع أن أتحدث عن بنتي وجرحُها لم يلتئم بعدُ في قلبي؟

على أنني رجعت بالذكرى إلى أيام صِغَري فوجدت أن عيدي -من يوم عرفت العيد- ممزوج فيه السرور بالكدر، يختلط فيه هتاف المعيّدين بنُواح المفجوعين، وتتجاور فيه الحياة في أحلى صورها بالموت في أجلى مظاهره. ذلك أن أعيادنا لمّا كنت صغيراً كانت تُقام في حيّنا في المقبرة (وكانت مقبرة الدحداح في طرف دمشق فصارت الآن في وسط وسطها)، ولا تزال صورتها من أقدم الصور المحفورة في نفسي حفراً؛ كنا ندخل إليها من حارة ضيقة لا يعدو عرضها المترين فنصير في ساحة واسعة،

كان فيها شجرة ضخمة لا أزال أذكرها ممتدّة الفروع كثيفة الظل، وحولها بيوت فقيرة جداً في حارة كانت تُسمّى «المعمَّشة». ولعلّ مَن سمّاها اشتقّ اسمها من «العَمَش»، فمَن كان فيها لا يبصر من الدنيا إلاّ صوراً مشوَّهة كالتي يراها الأعمش. ثم نمرّ إلى المقبرة فنرى إلى اليمين جدولاً صغيراً غائراً في الأرض على طرفَيه أشجار شديدة الخضرة يانعة المنظر نامية الفروع. وكيف لا تنمو وتخضرّ والجدول الذي يسقيها لم يكن إلاّ الماء الذي يخرج من المجاري؟ وعلى كتف الجدول ساقية لم تكن نظيفة، ولكنها بالنسبة إلى الجدول فيها العذب الزّلال.

وكان من أثر هذه الساقية في نفسي أن كتبت عنها في السنين الأولى من «الرسالة» (في عدد لم أعُد أذكر تاريخه) مقالة ضافية الذيول فيها ذكريات وفيها تاريخ، لا أزال راضياً عنها على مرور أكثر من خمسين سنة عليها، على حين لا أرضى الآن عن كثير مما كتبت[1].

وكان من عاداتنا التي نشأنا عليها صغاراً واستمررنا عليها كباراً أن نذهب صباح العيد -بعد أداء حقّ الله بالصلاة- في أداء حقّ الأموات بالزيارة والدعاء. فأنّى لي الآن وهذا يومُ العيد أن أقوم بهذا الذي كنت أراه واجباً عليّ؟ كيف أصل إلى القبرين اللذين ضمّا أحبّ اثنين إليّ، أبي وأمي، وبيني وبينهما ما بين مكة والشام؟ وكيف أصل إلى القبر الثاوي في ضاحية مدينة آخن في

---

(١) هي مقالة «ساقية في دمشق»، نُشرت في الرسالة سنة ١٩٣٥، وهي في كتاب «دمشق» (مجاهد).

ألمانيا، في مقبرة لا أعرف اسمها ولا مكانها؟ ما كان يخطر على بالي يوماً أن يكون في قائمة من أزور أجداثَهم بنتي، ويا ليتني استطعت أن أفديها بنفسي وأن أكون أنا المقتول دونها. وهل في الدنيا أب لا يفتدي بنفسه بنتَه؟ إذن لَمِتُّ مرة واحدة ثم لم أذُق بعدها الموت أبداً، بينما أنا أموت الآن كل يوم مرة أو مرتين، أموت كلما خطرت ذكراها على قلبي:

ليسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بمَيْتٍ   إنّمــا المَيْتُ ميِّــتُ الأحياءِ

فما لي أعاود الآن محاولة تذكّرها والكتابة عنها؟ أما حاولت أن أكتب ستّ مرات من قبلُ ثم عجزت؟ إن المصاب أكبر من أن ينهض به قلمي ثم يجري وهو يحمل وقره على القرطاس، فيقرأ الناس فصلاً أدبياً يستمتعون بقراءته ساعة ولا يدرون كم بذلتُ في كتابته.

لقد كانت الأيام التي قضيتها في ألمانيا وبلجيكا وهولندا من أمتع أيام حياتي، وكانت هي مصدر متعتها ومبعث جمالها، كانت المصباح الذي ينوّر لي ما حولي فأراه، فماذا أصف بعدما انطفأ المصباح وانكسر زجاجه؟ لذلك أدع الحديث عنها وأستبقي ألمي لنفسي، وإن ضاق به صدري وعجز عنه احتمالي، ذلك لأنني مؤمن بأنها من الشهداء، والشهداء أحياء عند ربهم ولكن لا نشعر نحن بحياتهم. أدع الحديث عنها وأتحدّث عن عملها حديثاً لعلّ فيه للقراء نفعاً، ذلك لأن الشبّان والشابّات في أوربا على حافّة الدخول في الإسلام، ما بينهم وبينه إلاّ أن يأتيهم مَن يعرّفهم به ويدلّهم عليه، على أن يكون عارفاً بنفسياتهم، يفكّر بمثل تفكيرهم

ويكلّمهم بلسانهم. لا أعني أن يُحسِن الإنكليزية أو الفرنسية فقد صار من العرب كثيرٌ ينطقها كأهلها، ولكن أريد من يعرف السبيل إلى إقناعهم والوصول إلى قلوبهم.

إن إدخال هؤلاء إلى الإسلام أهون من أن تردّ إليه مَن نشأ مسلماً في أسرة مسلمة ثم امتلأ قلبه بمذهب إلحاديّ أو انتحل نِحلة مكفِّرة، أخلص لها ومشى معها وصار من أهلها. مثل دعوة هؤلاء كمن يشتري الدار القديمة ليقيم في مكانها بناءً جديداً، فهو يحتاج إلى هدمها ونقل أنقاضها وإخلاء أرضها، والأوّلون (أي أكثر شباب أوربا) كمَن يجد الأرض خالية، لا يُحوِجه البناء عليها إلاّ إلى شقّها وإرساء الأساس فيها ثم إقامة الدعائم على هذا الأساس.

قلوب أكثر الشبان والشابات في أوربا (أو من عرفت منهم) خالية ليست فيها عقيدة دينية راسخة، فالنصرانية بارت في أوربا سوقُها والكنائس خلَت أو كادت من أهلها (والذين يرتادونها إنما يدخلونها بأجسادهم وقلوبُهم وراء أبوابها) على ما أحدثوا فيها من الوسائل الجديدة التي يُغرون بها الناشئة للدخول إليها، وأكثر هذه الوسائل لا يرضى الدين بها. وقد رأيت كنائس تخلّى عنها أصحابها. ولا تغترّوا بنشاطهم بما يسمّونه التبشير، والذي نبّهت من قديم إلى ما في اسمه هذا من تزوير وأنه ليس تبشيراً ولكنه التكفير والتنصير، إلاّ أن يكون من أسماء الأضداد كتسمية المَهْلَكة بالمفازة والأعمى بالبصير.

ليس بين الناشئة في تلك الديار وبين اتّباع الحقّ الذي هو

الإسلام إلاّ أن يجدوا هذا الذي يعرّفهم به ويجلوه لهم. ولقد قام بذلك كثير في أوربا وفي أميركا، جزاهم الله خيراً، فأنشؤوا المراكز الإسلامية وفتحوا للناس أبوابها، وكان من هؤلاء عصام العطار. وكانت هي عوناً لعصام، كانت تتولى هي أمر النساء على حين يتولى هو أمر الرجال.

والإسلام للرجال وللنساء، سوّى بينهما في الحقوق والواجبات وفي الثواب وفي العقاب، كما يسوّي قانون الموظفين بينهم جميعاً في الدرجة وفي العلاوة وفي الإجازات والتقاعد والإحالة على المعاش، مَن حمل شهادة نال الدرجة المحدَّدة لها، يستوون كلهم في هذا كله. لكن لا يستوون في العمل، فلا يُكلَّف الطبيب من الدرجة الثالثة بعمل المهندس من هذه الدرجة، ولا مدرّس الكيمياء في الجامعة بعمل زميله الذي يدرّس الفقه أو القانون. ومن هنا ما كان من اختلاف بين الرجل والمرأة إذ يرث اثنين وترث واحداً، وشهادة اثنتين منهن بشهادة واحد، وأن الطلاق بيده هو لا بيدها هي... ولكل من هذه الأمور جواب ليس هذا موضع بيانه لكن أشير إليه. وإذا أَلِفَ الناس مني ما ابتُليت به من استطراد في سرد الأحاديث، فلأن أستطردَ ببيان حكم فقهي فيه نفع للقارئ ودفع تهمة ظالمة عن الإسلام أولى، فليحتملوه مني.

أما الإرث وأن للذكر مثل حظّ الأنثيين فالجواب عليه: لو أن رجلاً مات عن بنت وولد وترك ثلاثين ألفاً فأخذت هي عشرة وأخذ هو عشرين، كان في بادئ الأمر مجال لسؤال سائل: لماذا أُعطيَت هي أقلّ مما أخذ هو؟ ولكن الأمور تؤخَذ جملة ليُحكَم لها أو عليها ولا تُفرَّق أجزاء، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؛

فهو أخذ عشرين ثم تزوّج فدفع منها مهراً، وأخذت هي عشرة ثم تزوّجَت فأخذت مهراً فوقها، ثم أخذ ينفق هو على بيته وزوجته وهي ينفق عليها زوجُها، فيتوفر ما معها وينقص ما معه هو، فلا تمرّ مدّة حتى تنقلب الحال فتصير هي ذات العشرين ويبقى له هو العشرة أو لا يبقى له شيء.

وأما الشهادة في المحكمة وأن شهادة اثنتين تعدل شهادة واحدة، فلست أدري لِمَ يحرص النساء عليها ولم الاحتجاج على وضعها، والشهادة تكليف لا تشريف، ومهمّة ثقيلة يفرّ العقلاء ما استطاعوا منها ولا يحرصون عليها. وما نفعها في أن تُدعى إلى المحكمة فتدع عملها وتترك بيتها، ثم تنتظر في المحكمة دورها وتُسأل أمام الناس فتجيب، وتُناقَش فتنجو أو تعجز؟ أليس من الكرامة لها أن يُخفَّف هذا الحمل عنها؟ ثم إن الجواب أن أكثر دعاوى المحاكم دعاوى مالية أو اجتماعية، أقول هذا وقد مارستُ القضاء من أدنى درجاته إلى أعلاها فخرجت وأنا مستشار في محكمة النقض في القاهرة ومن قبل ذلك في الشام. والمرأة ببعدها عن المجتمع لا تعرف عنه ما يعرف الرجل ولا تذكر منه ما يذكر، لأن الانتباه مرتبط بالمصلحة، والمرأة لا مصلحةَ لها في شيء من هذا. ومَن درس علم النفس أو قرأ نظرية طاغور، الكاتب الهندي الذي لم يكن عربياً ولا مسلماً، وجد عنده تأكيد هذا الكلام حين يجعل لكل امرئ عالَمه الضيق من عالَم الله الواسع، يعيش فيه ولا يكاد يخرج بفكره واهتمامه عنه. هل تنتبهون وأنتم تطالعون جريدة الصباح إلى مواعيد وصول البواخر إلى الميناء وإبحارها منه؟ أمّا التاجر الذي ينتظر وصول البضاعة فإن أول ما يقرؤه من الجريدة

هذه المواعيد، بل ربما اشترى الجريدة ليراها ويقرأها.

وأما الطلاق وأنه بيد الرجل فأحسن جواب عنه ما سمعتُه من أخي ورفيقي في كلية الحقوق الدكتور معروف الدواليبي، الذي أجاب به في أحد الملتقيات التي كانت تقيمها حكومة الجزائر. ذلك أن بعض الحاضرات من النساء سألن عن علّة جعل الطلاق بيد الرجل، فأجاب بأن ما تقرّره «نظرية العَقْد» التي تُدرس في كليات الحقوق كلها أن عقود المُعاوَضة هي في حقيقتها مبادلة بين ما يقدّمه طرف وما يقدّمه الطرف الثاني، وعقد الزواج المقصود الأول منه هذه الصلة التي تكون بين الرجل والمرأة والتي يكون من ثمرتها الولد، والتي قرن الله بها هذه اللذّة لتدفع إليها وتُبقي عليها، يقول: إن هذه اللذّة مشترَكة بينهما، ولكن الشرع منحها المرأة مجاناً وأجبر الرجل وحده بأن يدفع ما يقابلها وهو المهر، لذلك كان من حقه وحده أن يحلّ هذه الشركة، وإلاّ أُلزِم بالغرم ولم يكن له شيء من الغُنْم، ولو كان الطلاق بيدها تُوقِعه متى شاءت والزوج هو الملزَم بأداء مؤجَّل مهرها لكان الظلم في ذلك ظاهراً.

ولعلّي أسأت نقل جوابه أو لم أنجح في تلخيصه، لكنه جواب لا يسع المعترضَ إلاّ قبوله.

* * *

قلت إنها كانت تتولى هي جلّ قسط النساء من الدعوة إلى الله، ساعدها في ذلك ذكاء منقطع النظير رزقها الله ورزق مثله أخواتها، أقول هذا تحدّثاً بنعم الله لا فخراً وترفّعاً على عباد الله.

فدرسَت وحدها لأنها لم تُكمِل في الثانوية دراستها، وأرشدها وأعانها زوجُها الذي كان أستاذها، والذي صارت به مدرّسة ومرشدة لرفيقاتها من البنات. وأنا أنصح من أراد أن يتقن علماً وكان عنده اطّلاع على أسسه ومعرفة بمراجعه أن يدرّسه، فإنه لا يقوّي طالبَ العلم ولا يُعينه على إتقان هذا العلمَ مثلُ تدريسه. لقد بلغَت -بجِدّها وإخلاصها في طلب العلم واتصال قلبها بالله واستعانتها به واعتمادها عليه- منزلة سلوا عنها مَن عرفها من بناتكم وأخواتكم اللواتي كنّ يومئذ في تلك الديار.

وأنا أحمد الله على ما وفّقني إليه، فكانت بناتي كلهن متعلمات، وكُنّ داعيات إلى الله دالاّت على الطريق إليه، من غير انتساب إلى جماعة ولا إلى حزب ومن غير طلب رضا أحد من العباد، لا يقصدن إلاّ طلب الرضا من الله الواحد الأحد. بنتي الأولى لم تكمل دراستها ولكنها جدّت وحدها بالمراجعة وفي الدراسة حتى حصّلت ما لا يكاد يحصل على أكثر منه من مضى في الدراسة إلى آخر الجامعة، والثالثة محاضِرة في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ناجحة ولله الحمد، قامت بتدريس النحو والأدب وأصول الفقه والثقافة الإسلامية. ولتحصيلها قصةٌ عَجَبٌ أسردها لا لأنها قصة بنتي بل لأن فيها عبرة للناس ومثلاً يحتذونه؛ ذلك أنها تركت المدرسة مثل أختيها الكبيرتين قبل أن تتمّ المدرسة المتوسطة، وقضى الله أن تنفرد بنفسها وأن تقوم على تربية بنات ثلاث لها من غير معونة من أبيهن، فدرَست في بيتها حتى نالت شهادة الكفاية، ثم صبرت على الدرس وحدها حتى نالت الثانوية، ثم الإجازة الجامعية، وحملت بعد ذلك شهادة

الماجستير، وهي تحرص على نيل الدكتوراة لا أمنية لها في غيرها. وأمّا الرابعة فلها ولزوجها قصة لعلّها أعجب مما ذكرت؛ لقد درسا في كلية الشريعة في دمشق، وكانت دراستها المتوسطة والثانوية هنا في المملكة، فلما بلغت امتحان التخرج ونجحت في بعض المواد سافرت وسافر زوجها، وكان مِثلَها في الامتحان الأخير، فما نالا الشهادة، فكان مثالهما كمن جاء للحج فقطع البراري وركب لُجَج البحار، أو طار في الجوّ حتى بلغ مكة، فلما لم يبقَ بينه وبين عرفات إلاّ عشرون كيلاً قعد فلم يحج! وأمّا الصغرى فحصّلت هنا بحمد الله الشهادات كلها وهي الآن في الشوط الأخير من الجامعة، فعلت ذلك على قيامها على أولادها وإشرافها على بيتها.

ولا تعجبوا أن سردت هذا، فما أبغي به الدعاية لهن، وما يطلبن وظيفة ولا يرشّحن أنفسهن لانتخاب ولا يدخلن مسابقة ولا يبغين زواجاً، ما ينتفعن من سردها وإنما النفع -إن شاء الله- للقارئات. ولو أردت أن أزيد أن حفيداتي أيضاً مشين في هذا الطريق وهن أمهات، فمنهن من أكملت الجامعة ومنهن من لا تزال تدرس في الجامعات.

أما بنتي التي أتكلم عنها رحمها الله فكانت في المسجد داعية ومعلّمة، ومع البنات هناك أختاً كبيرة أو أماً صغيرة، لا سيما لمن كانت جديدة منهن لم تألف البلد ولم تعرف فيه أحداً. كانت ترعاهن، تسهّل الحياة عليهن، تشاركهن في حلّ مشكلاتهن. والعظيم في ذلك أنها تصنع هذا كله بمحبّة صادقة للناس كلهم، فطرها الله عليها وأعطى أخواتها مثلها. فكانت الأسر المسلمة

في ألمانيا كأنها أسرة واحدة، ورُبّ أسرة حقيقية فقدت الحب والتعاطف وهؤلاء كُنّ يشكّلن أسرة متحابّة متعاطفة. كانت تعمل هذا كله وهي بالحجاب السابغ والبعد عن المحرَّمات، ثم تعود إلى الدار فتتولى هي جميع أمور الدار، تشتري اللحم والخضر، وأكثر من يبيع ذلك هناك من النساء (لأن زوجها عصاماً مثلي لا يُحسِن شراءً ولا بيعاً) ثم تطبخ وتُعِدّ المائدة في مدّة لو أقيمت مسابقة في السرعة ما ظننت أن أخرى تُعِدّها بأسرع منها. مائدة منسَّقة، وطعام طيب، ووجه طلق.

وهي التي اخترعت هذا الجلباب الذي ترتديه البنات المتديّنات في كثير من بلاد العرب وتحاربه بعض الصوفيات الجاهلات، وكان ذلك من ثلاث وعشرين سنة لمّا جئت مكة وجاءت تزورني فيها، فأخذَت العباءة التي تلبسها هنا النساء فصنعت لها مثل الكم الضيق وقلّلت من عرضها وجعلت لها من أمامها أزراراً وعُرى، ثم انتقلت بها شيئاً فشيئاً حتى صار هذا الجلباب. وهو ما كنت أتمناه من قديم، كنت أكتب من القديم وأدعو في المحاضرات إلى ثوب يخترعه بعض النساء يحقّق الحجاب الشرعي الذي أمر به الله، ويكون سابغاً ساتراً ويكون أنيقاً جميلاً ولا يجلب أنظار الرجال في الطريق، فكان من ذلك هذا الجلباب.

وقد انتشر في الشام ثم في الأردن، ولمّا ولي وزارةَ المعارف[1] أخونا الأستاذ الصالح الداعية الدكتور إسحق الفرحان

---

(١) لا يسمّونها في الأردن «وزارة المعارف» بل «وزارة التربية والتعليم» (مجاهد).

استحسن هذا الجلباب ورغّب فيه طالبات المدارس، وجاء من كرام التجار مَن يتبرّع بالقماش للطالبات وممّن يحسن الخياطة مَن يخيطه لهن، فلبسه في تلك السنة آلاف. وإني لأعجب من بعض الجماعات في دمشق إذ يحاربن هذا الجلباب ويعارضنه ويفضّلن عليه معطفاً إلى منتصف الساق وتحته جوارب سميكة، يدّعين أنه لا يجلب الأنظار! مع أنها دعوى مردودة شرعاً وحسّاً، ذلك أن الجلباب يستر كل ما أمر الله بستره، وهذا الزيّ وإن سترت جواربُه لونَ السيقان فإنه يبيّن حجمها فتعرف صاحبتَها هل هي نحيلة أم هي ممتلئة سمينة. وأنا أعجب من إصرارهن على الباطل مع وضوح الحقّ لمن أراد أن يراه، أما الذي يُغمِض عينيه عن رؤية الشمس في رأد الضحى ويقول بأن الدنيا ظلام لأنه لا يبصر هو ما حوله، هذا من الأمراض التي أعيت من يداويها.



من دعا إلى الإسلام في تلك البلاد فلا بدّ له من أن يعرف لسان أهلها. ولمّا سافرَت إليها بنتي لم تكن تعرف إلاّ العربية، فتعلمَت اللغة الألمانية منذ سكنت آخن سنة ١٩٧٠ حتى أتقنتها، وتعلمت من قبلُ الفرنسية وأتقنتها لمّا عاشت في بروكسل ومن قبلها في جنيف، وأحسنت النطق بها وقراءتها، وأخذت نصيباً من الإنكليزية. ولم تكن تدعو إلى الله كالمدرّس القاعد على منبره والعصا بيده والتقطيبُ على وجهه، فينفّر بوضعه وشكله قبل أن ينفّر بمنطقه وقوله، بل كانت تخاطب الناس على مقدار أذهانهم، وتدرس نفسية كل واحدة منهن فتسلك السبيل الموصل إلى قلبها ليفتحه الله بها للإسلام.

وقلما خلق الله قلباً مُغلَقاً من كل جوانبه فلا يؤثر فيه قول ولا يصل إليه منطق. هؤلاء الذين طبع الله على قلوبهم بكفرهم، وهؤلاء لا أمل فيهم ولا خيرَ يُرتجى منهم. وأكثر القلوب لها منافذ وأبواب على الداعي (أو الداعية) أن يعرفها، فمن الناس من ينفع معه الإقناع بالحُجّة العقلية، ومنهم من تُفيده الموعظة العاطفية، ومن يصلح معه الرجاء، ومن يحرّكه الخوف... فكانت موفَّقة والحمد لله.

ورأيت في المجالس التي حضرتُها وحضرها الشباب مع زوجاتهم وهن متحجبات، رأيت مَن ذكّرني والله بما قرأت من سِيَر شباب الصحابة. لا أقول هذا مبالغة بل أسرده حقاً واقعاً، ولا يضرّهم أن يعيشوا في بلد غير مسلم فراراً من البلد المسلم الذي تسلّط عليه غير المسلمين وآذوا فيه أهلَ الدين، فإن لهم سالفة في الهجرة إلى الحبشة حيث الحرّية مَصونة واللسان طليق والقلم حرّ. لقد كانت أرض الحبشة أرضاً نصرانية ولكن لا يُظلَم عند ملكها أحد، ولم يكن ملكها يومئذ كمَن عرفنا من أمثال منليك وهيلاسِلاسي الذين كانوا من أعدى من عادى الإسلام.

كانت تتعلّم من عصام وتراجع الكتب، ثم تُقرئ البنات وتعاونهن ما وسعَتها معاونتهن، وتُصلِح إن كان بعض الفساد في الصلات بينهن، وهن يقابلنها حباً بحبّ وعطفاً بعطف، فكان الجميع أسرة واحدة.

* * *

-٢٠١-

في مسجد آخن مع القساوسة والهيبيين!

من سافر منكم قبل أربعين سنة من الرياض إلى أوربا أدهشه كل ما يرى: الطرق المعبَّدة المضاءة، واللوحات فيها تدلّ على أسمائها وترشد إلى تفرّعاتها، والسيارات الكبيرة ذات الطبقتين تجري فيها، والأضواء الحمراء والخضراء على مفارقها تتبدّل وحدها تفتح الطريق أو تغلقه، والعمارات الضخمة ذوات العشرين طبقة أو الثلاثين على جوانبها، والسلالم المتحركة التي تعلو بك بدلاً من أن تعلو أنت عليها، والمصاعد وهي غرفة ترتفع بك أو تنزل، فكأنها تأتيك بالدور الأعلى فتضعه أمامك على الأرض!

كان كل ما يبصره، حتى ما نراه نحن اليوم مألوفاً معروفاً ونعدّه شيئاً معتاداً، كان يدهشه إذا قاسه بما كانت عليه الرياض في تلك الأيام، يوم كانت قرية صغيرة ما فيها سيارة ولا شارع تمشي فيه سيارة، ما كانت فيها كهرباء ولا مروحة أو ثلاّجة تسيّرها الكهرباء، ما كان ماء يجري في الأنابيب ولا كان في البيوت أنابيب للماء، ما كان فيها مدارس للعلم ولا حدائق للمتعة، ما كان فيها مطعم للآكلين ولا فندق للمسافرين.

هذا ما كان من أربعين سنة، فما الذي يدهشه في أوربا حين يذهب إليها الآن؟ ما الذي يجده فيها ويفتقده في الرياض؟ ربما كان فيها ما هو أكبر في الحجم وكان فيها ما هو أكثر في العدد وكان فيها ما هو أتمّ أو أكمل في الوضع والترتيب، لكن لم يبقَ فيها شيء لا نعرف مثله أو مشابهاً له في بلادنا.

بل إن عندهم ما ينزل عن الحدّ الوسط مما هو الآن عندنا. لقد وجدت في بون لمّا زرتها بيوتاً ما فيها حمّامات كالتي تجدونها هنا في كل منزل، ما فيها إلاّ مرحاض صغير بين الغرف، فإذا أرادوا الاغتسال ذهبوا فاغتسلوا في فندق أو حمّام عامّ! لم أجد فيها عمارة كبيرة وإنما هي البيوت الصغيرة القديمة ذوات السقف المائل من القرميد ينامون تحته، فإذا وقفوا ودنوا من الشارع كادت رؤوسهم تلصق بالسقوف. ولست أفضّل العمارات الكبيرة على هذه البيوت الصغيرة، بل الفضل لهذه البيوت ولكني أصف الآن ما رأيت.

وبون كأكثر المدن المجاورة لها: كولن وآخن ودوسلدرف، كلها كانت إلى الحرب الثانية من المدن الصغار. بون العاصمة كانت بُلَيدة، أما «باد كودْسبرغ» التي فيها الحكومة والسفارات (وهي عاصمة العاصمة إذا صحّ القول) ما كانت إلاّ قرية أو ضاحية من الضواحي.

وكلمة «باد» التي تنتهي بها أسماء كثير من المدن في ألمانيا أصل معناها -كما فهمت- المكانُ الذي فيه الماء المعدني الذي يُغتسَل فيه، أي أنها بمعنى الحمّام. كما أن كلمة دام التي نراها

في هولندا (أمستردام، روتردام، فولندام) معناها سد، لأن تلك البلاد تُعرَف في أوربا بالأراضي المنخفضة، لأنها منخفضة عن سطح البحر أو مساوية لها، فهم يُقيمون سداً (دام) ويُلقون الأتربة خلفه فيأخذون من البحر أرضاً! ورأيت مثل هذا في بومباي في الهند في شارع سي فيس، أي شارع السِّيف، أي سيف البحر. بل إنكم ترون مثله في جدة؛ لقد كان القصر من عشرين سنة قريباً من البحر[1] فانظروا الآن كم بَعُدَ عنه؟ حتى صارت شوارع الكورنيش (أي السِّيف، بكسر السين) فرجة للنفس ومسرّة للبصر ومَراحاً للأرواح.

ومن يذهب إلى أوربا الآن لا يجد زائداً عما عنده إلاّ كماليات نستطيع أن نعمل مثلها، فأضواء المرور الأحمر والأخضر والأصفر تجدون عندهم تحتها أرقاماً كهربائية متحركة، من مشى عليها لم يجد أمامه ضوءاً أحمر. وكنت أعجب حين أركب مع بعض الشباب فنصل إلى الإشارة فلا نراها إلا خضراء، لا نقف أبداً، فلما سألتهم قالوا: إن هذه الأرقام الكهربائية المتحركة تحدد للسرعة حداً، فالسائق الذي يسير عليه لا يقف أبداً.

وفي محطات النقل الجماعي لوحات كهربائية فيها أرقام متحركة تخبرك كم بقي على وصول الحافلة (الأتوبيس)، وفي محطات القطار صناديق للحقائب مفاتيحها عليها، لكن لا تُسحَب

(١) يريد قصر الحمراء الذي يقع اليوم على شارع الأندلس في جدة، وقد أدركته أنا يوم كان البحر أمامه ليس بينهما إلا شارع ضيق، وذلك قبل ربع قرن أو يزيد (مجاهد).

إلاّ إن دفعتَ مبلغاً من المال تُسقِطه في شقّ فيها بمقدار المدة التي تريد أن تُبقي الحقائب فيها، فإن دفعتَ أجرة ساعة واحدة وعُدت بعد انقضائها لن ينفعك المفتاح الذي أخذته معك لأن الصندوق لا ينفتح. وصناديق إن أسقطتَ فيها النقد المطلوب وكبست زراً ترك لك ما شئت من أنواع الشطائر (السندويش) ومن الشراب الحارّ والبارد.

ولو كتبتُ هذا المقال قبل بضع سنين لوصفت هواتف العملة التي تستطيع أن تخابر بها مَن شئت من الشارع بقروش تُسقطها في شقّ فيها، فصار عندنا الآن مثل هذه الهواتف. ونحن قادرون على أن نعمل هذا الذي ذكرت كله وأضعافَه معه، بل لقد صنعنا ما هو أكبر منه، ولعلّ الله يقيّض من الموظفين المختصين به من يقترحه على الحكومة اقتراحاً مفصَّلاً معلّلاً، فيتحقق ذلك إن شاء الله.

أمّا ما حبا الله به تلك البلاد من الخضرة والماء والأنهار التي تجري فيها والغابات التي تملأ جبالها، فهذا شيء من صنع الله ما لنا فيه عمل. ومن ساح في الأرض مثلما سحت يرى أن أوربا كلها خضراء لا ترى فيها بقعة مقفرة، وأن آسيا مثلها كلها خضراء فيها الشجر والماء، تغطّي كليهما الأشجار فيهما الأنهار الكبار. ما في الأرض إلاّ نطاق واحد من الصحارى يدور بها، من شمالي إفريقيا حيث الصحراء الكبرى، إلى جزيرة العرب، إلى أرض فارس وشمالي باكستان، ويمتدّ من وراء البحر إلى صحراء نيفادا في أمريكا. نطاق فيه أرض حرَمها الله نعمةً أعطاها غيرَها فلم يكن فيها الخضرة ولا الماء، ولكنه منحها نعمة تقابلها هي النفط في باطن أرضها.

وقد وفّقنا الله مع ذلك فصنعنا العجب. أليس عجباً أن نستخرِج من القمح ونحن هنا في صحراء ما يكفينا ويفضل عنا حتى نصدّره إلى غيرنا؟ والبلاد التي كانت مصدر القمح إلى الرومان (حتى دُعيت «أنبار روما») صارت تستورده أحياناً. تلك هي الثمرة المرة المسمومة للاشتراكية التي هي بنت الشيوعية، أو لعلّها أمها فاعذروني فلست خبيراً بأنساب الشياطين! تلك التي ما دخلت بلداً إلاّ أدخلت إليه معها الضيق والضنك ونقص الأموال وفقد الحرّيات وفساد الضمائر والذمم، وأخرجت منه الخصب وسعة الرزق وراحة البال.

* * *

كنت أمضي أكثر وقتي في المسجد، نصلّي فيه وننام في غرف متصلة به ومنفصلة عنه. لا تعجبوا، فلقد جُعِلَت غرفاً مفردة في كل غرفة مرافقها وأمامها ممرّ فيه أبواب، فإذا فتحت الباب صارت الغرفتان معاً فكان منهما دار صغيرة، وإن فتحت باباً آخر اتصلت بهما غرفة ثالثة فصارت داراً من ثلاث غرف.

وفي المسجد مكتبة وتُقام فيه الصلوات الخمس، فإذا جاء يوم الجمعة خطب الخطيب بالعربية وتُرجمت الخطبة إلى الألمانية فقرة فقرة، يسكت الخطيب حتى يتكلم الترجمان، أو ألقيت الخطبة كلها ثم قام مَن يلخّصها باللغة الألمانية.

وجاءنا يوماً ثلاثة من القساوسة الألمان، وهم بروتستانت لا يتخذون القلانس التي يرتديها الكاثوليك وإنما يلبسون ما يلبس الناس، ولكن لهم شارات يُعرَفون بها منها ياقة بيضاء تكون

في أعناقهم في موضع العقدة (الكرافات). وطلبوا مني -وكنت مصادفة في المكتبة- أن أجيب إن سمحت على بعض أسئلتهم.

وكان يوم جمعة، وقد وصلوا قبل الصلاة بساعتين فامتدّ جلوسي معهم حتى أذن الظهر. ولا أستطيع أن ألّخص ما دار بيني وبينهم، ولكن أقول إن الحقّ يعلو دائماً، والله وعد أهل هذا الدين أن يُظهِره على الدين كله ظهور حجّة وبرهان. ووجدتهم علماء ذوي فكر وبيان، ولكن المحامي مهما كان بارعاً لا تنفعه براعته إن كان يرافع في دعوى باطلة، الدليل البيّن عليها لا لها.

وكان مما قالوه لي: ألا تؤمنون بأن الإنجيل منزَّل من عند الله؟ قلت: بلى، ومن أنكر ذلك لم يكن مسلماً. قالوا: فلماذا لا تؤمنون به؟ قلت: هاتوه حتى أؤمن به. قالوا: ها هو ذا. قلت: سبحان الله، هل أنزل الله إنجيلاً واحداً أم أربعة؟ إن عندكم أربعة أناجيل وقد اصطفيتموها من عشرات كانت لكم، فأيها الذي أنزله الله؟ وهل عندكم النسخة الأصلية التي كُتبت في عهد المسيح ودُوّنت يوم نزل به الوحي عليه كما كان يصنع كُتّاب الوحي بالقرآن؟

وكان الترجمان بيننا ضعيفاً في الألمانية، يفهمها -كما بدا لي- فينقل لي كلامهم، ولكنه يعجز عن نقل كلامي إليهم. عرفت ذلك من وجوههم، لأن في بعض الجواب ما يثير خواطر أو أفكاراً كان ينبغي أن يبدو أثرها على وجوههم فما كنت أرى لها أثراً، ثم علمت -بعدُ- أن هذا المترجم كان حديث العهد بالقدوم إلى ألمانيا وكان عاجزاً عن التعبير بها.

ولمّا دنا موعد الصلاة، وكان عليّ أن أخطب في ذلك اليوم وأصلّي بالناس، اختصرت الكلام وشرعت أودّعهم، فكان من قولهم لي مازحين: لكأنك تريد أن تُدخِلنا في دينك! أفلا تخاف أن نسحبك نحن إلى الدخول في ديننا؟ قلت: إن دينكم في الأصل منزَّل من السماء، وعيسى رسول من الله، ولكنكم فيه كالقاضي الذي يحكم بقانون قد صدر ما يعدّله ويُبطِل بعضَ أحكامه، والقانون الجديد أصدره وأمر باتّباعه الذي أصدر القانون القديم الذي تتمسكون به. ثم إني إن اتبعتكم خسرت وأنتم إن اتبعتموني ربحتم. قالوا: وكيف يكون ذلك؟ قلت: إن عندكم موسى وعيسى وعندي أنا موسى وعيسى ومحمد، فإذا اتبعتكم خسرت محمداً، وإن اتبعتموني أنتم بقي لكم موسى وعيسى وربحتم فوقهما محمداً صلّى الله عليهم جميعاً.



ورأيت يوماً في قلب البلد في الساحة الكبرى جمهرة من الناس من الشبان والشابات، يملؤون الساحة قاعدين على الأرض، ينامون على البلاط، يأكلون ويشربون وهم قاعدون، يتكوّم بعضهم على بعض، يختلط النساء بالرجال على حال لا يرضى بها الدين ولا تُقِرّها الأخلاق ولا يسيغها الذوق، هذه رأسها على كتفه وتلك رأسه في حجرها، وربما أبصرت وضعاً أفدح من ذلك:

وكانَ ما كانَ ممّا لستُ أذكُرُهُ　　　فظُنّ شرّاً ولا تسألْ عن الخبر

أقذوا العيون بقبح منظرهم وزكموا الأنوف بنتن رائحتهم.

وما ظنك بمن يقعد: بساطه أرض الشارع وسريره بلاطه، ويأكل فلا يغسل يديه ويذهب فيقضي حاجته ويعود فلا يتنظف من آثارها؟ ولا أظلم الحيوانات فأقول إنهم مثلها لأن من الحيوان ما ينظّف نفسَه ولو بلسانه كما يفعل القط، ومنها ما يغطس في الماء إن رأى الماء فيغتسل فيه، ومنها ما يتوارى عن الأنظار إن اجتمع ذُكرانه بإناثه فلا يراه أحد. من رأى فحلاً وناقة وهما في شهر العسل؟

فسألت: ما هؤلاء؟ قالوا: هم الهيبيون، خلفاء قوم آخرين ظهروا في إنكلترا قبلهم يتسمّون باسم الخنافس. والخنفساء أبشع الحشرات اسماً ومن أشنعها منظراً! وقلّدهم ناس منا فأطالوا شعورهم مثلهم، فكانوا كالذي زعموا أنه عاش عمره في القفر لم يرَ الحضر يقترب منه، نزل المدينة يوماً فرآهم يأكلون الزيتون الأسود، فحسبها صراصير، فلما عاد صار كلما رأى صرصوراً أمسك به فأكله. قالوا: ما تصنع ويحك؟ قال وما يُدريكم أنتم؟ رأيت أهل الحضر يأكلونها! وكثير منا ممن يقلد الأجانب بلا علم وبلا فهم مثل هؤلاء... إنهم أكَلة الصراصير!

والعجيب أن نفراً من أبنائنا هناك من الصالحين ذهبوا يسألونني أن أجتمع بأربعة من كبار هؤلاء الهيبيين لأنهم طلبوا زيارة المسجد والاجتماع بأحد رجاله. قلت: أعوذ بالله! ما لي ولهم، وما فائدة اجتماعي بهم؟ قالوا: إن في ذلك مصلحة، فإن منهم -على سوء منظرهم وقبح سلوكهم- من يحمل أعلى الشهادات، ومن له قلم وله لسان وله في قومه منزلة، فلعلّه إن عرف طريق الهدى كان من المهتدين ثم يدعو قومه إلى هذا

الطريق. فهَبْهُم من المؤلَّفة قلوبهم الذين يُعطَون من مال الزكاة، ونحن لا نسألك أن تعطيهم شيئاً من المال بل أن تعطيهم نافعاً من الأقوال.

قلت: وهل أذهب فأقعد معهم على الأرض على ما هم فيه من الرجس والنجس؟ قالوا: لا، بل يأتون هم إلى المسجد. قلت: وهذه أسوأ؛ المسجد طاهر نظيف لا يدخله إلاّ نظيف طاهر. قالوا: نشترط عليهم أن يتنظفوا ويغتسلوا ويبدّلوا ثيابهم والمرأة تستتر. قلت: وهل معهم امرأة؟ هل تريدون أن يكون بينهم في المسجد مثل الذي رأيناه في الشارع؟ قالوا: معاذ الله، بل هي طالبة في الجامعة تكتب وتنشر ولها في بلدها قرّاء وأتباع، وهي تأتي بالثوب السابغ والخمار (الإشارب) الساتر. قلت: نعم إذن.

فضربت لهم موعداً، فجاؤوا فيه ما تقدموا عنه ولا تأخروا. وكانوا ثلاثة ورابعهم فتاتهم، وكانوا جميعاً بالثوب النظيف وكانت هي بالحجاب المقبول. وفهمت لمّا عرّفوني بأنفسهم أن واحداً منهم أستاذ في جامعة له مكانة مرموقة وله مصنَّفات، ورأيته قد جاوز ميعة الشباب وكاد يدنو من مطالع الكهولة، والاثنان والبنت من طلاّب المرحلة الأخيرة من الجامعة. ودرت بهم في المركز، واخترت أن نجلس في غرفة الاستقبال على أرائك مريحة حول منضدة فسيحة على جدرانها الكتب، ففضّلوا أن يجلسوا في المسجد على الأرض، وجلست معهم لكنني استندت إلى الجدار، لأنني لا أستطيع أن أقعد طويلاً من غير سناد، لذلك أحمل معي إلى الحرم عندما أنوي إطالة القعود فيه خشبة مطوية طي الكتاب.

ونظروا إلى المحراب وسألوا عنه فخبّرتهم. قالوا: لماذا تتوجّهون إلى الكعبة؟ ولماذا تقدّسونها؟ وفهمت من كلامهم الذي نقله إليّ مترجم يُحسِن الألمانية والعربية، لم يكن كالمترجم الأول، فهمت أنهم يظنون أننا نعبد الكعبة كما يعبد الوثنيون أصنامهم. قلت: الكعبة بناء كأيسر وأبسط ما يكون البناء، حجارة مرصوفة ما فيها نقش ولا زخارف، وليس في داخل البناء شيء. ولقد احترقَت مرة وهدمها السيل مرة، كما يحترق وينهدم كل بناء على الأرض، فأعدنا نحن عمارتها بأيدينا وأقمناها من حجارة الجبل. فلا نعبدها ولكن نتوجه إليها امتثالاً لأمر ربنا أولاً، ولتنظيم الصفوف من حولها حين الصلاة، لأن الإسلام دين للفرد يربط قلبَه بالله، ودين للجماعة ينظمها في طاعة الله. إنها رمز نتوجه إليها، كما يقول الضابط لجنوده أو معلّم الرياضة لتلاميذه: توجهوا جميعاً إلى هذا الجدار أو هذه الشجرة؛ ما يريد تقديس الجدار ولا تأليه الشجرة وإنما يُقيم منها هدفاً لتسوية الصفوف. فنحن لا نعبد الكعبة بل نعبد ربّ الكعبة وربّ كل شيء.

فرأيت اثنين من الحاضرين يُسِرّ أحدهما إلى الآخر حديثاً فيعلّق عليه ويضحك منه، فسألت المترجم: ماذا يقولان؟ فكلّمهما ثم قال: ما هناك شيء مهم. قلت: أحبّ أن أعرفه إذا لم يكن يمنعهم مانع من عرضه عليّ. قال: لقد سأل: وما فائدة التنظيم؟ ولماذا لا يُترَك الناس أحراراً في صلاتهم يقومون كما يريدون ويصلّون ويتوجهون حيث يشاؤون؟ فأجبته جواباً عمَلياً بأن أدرت وجهي إلى الجدار وولّيتهم ظهري ثم كلّمتهم من ورائه، فعجبوا وسألوا الترجمان: لماذا صنعت ذلك؟ قلت: وهل

فيه ما تُنكِرونه أو تعجبون منه؟ قالوا: نعم. قلت: ألم يقُل صاحبكم إن النظام لا خير فيه وإن وقوفنا بالصلاة متدابرين خير من أن نقف صفاً واحداً؟

فرأوا في هذا جواباً لهم من غير أن أكلّمهم. ثم قلت للترجمان: دعهم يقولوا ما جاؤوا لأجله. فسألوني أسئلة عن الإسلام أجبت عنها، وتبيّن لي منها أنهم على فهم وعلى اطّلاع ولم تبدُ لي منهم نية سوء، فسألتهم عمّا هم فيه: لماذا يختارون الوساخة على النظافة والفوضى على الترتيب؟ ولماذا يصنعون ما يستقبحه الناس كلهم ويرونه حسناً؟ فتبيّن لي من حوار طويل جرى بيني وبينهم أن هذه الأعمال التي يقوم بها الشباب في أوربا (مما صنعوا سنة ١٩٦٨ في فرنسا على عهد ديغول، ومن اعتناق كثير منهم الوجوديةَ التي دعا إليها جان بول سارتر، ثم هذه الحركات كالخنافس وغيرها...) تبيّن لي سرّ ذلك كله وهو أنهم لم يعودوا مقتنعين بالدين الذي كان عليه آباؤهم، وأنهم حكّموا فيه عقولَهم فلم تعُد تطمئنّ إليه عقولُهم، ولم يعودوا يستطيعون أن يفهموا بأن واحداً يساوي ثلاثة (أي أن ١+١+١=١)، لذلك انصرفوا عن هذا الدين وأعلنوا خروجهم عليه، وأن هذه الحضارة التي كان يعتزّ بها آباؤهم ويفخرون بها ويستطيلون بها على عباد الله لم تعُد تطمئنّ إليها قلوبهم، لأنها حضارة مادية خالصة والإنسان جسد ونفس وروح، فلا بد له مما يضمن مصالح جسده ومسرّات نفسه واطمئنان روحه، لذلك أعلنوا خروجهم عليها بهذه المظاهر. وإلاّ (يقولون هم) فهل في الدنيا من يكره النظافة أو يفضّل أن ينام على بلاط الشارع ويترك السرير المريح النظيف؟

وأفاضوا في مثل ذلك فعلمتُ سرّ هذه الحركات التي نراها ونعجب منها ولم نكن نعرف الدوافع إليها.

وأقول الآن لمن يقلّدهم من شبابنا أو يحاول أن يسير مسيرتهم إن عذرهم هو ما قدّموه فما عذركم أنتم في تقليدهم؟ إذا كان الدين الذي نشؤوا عليه لم تعُد ترضاه عقولهم فدينكم -يا أيها المسلمون- يمشي مع العقل، بل العقل يمشي معه فلا يختلفان، لأن الذي خلق هذا العقل ووضعه في الإنسان وكان من ثمرته هذا التفكير هو الله الذي أنزل هذا الدين، فلا يمكن أن يخلق لنا العقول ثم يكلّفنا ما لا ترضاه عقولنا.

ولذلك ترون في القرآن الحثّ على التفكير وعلى التعقّل ﴿لقوم يتفكّرونَ﴾. أمّا هذه الحضارة فلا نزال نحن على شاطئها، لا نزالُ فيما هو الخيّر منها، لم نصل بعدُ إلى لُجّها ولم نتعرض للغرق فيها. على أن لي محاضرة طويلة ألقيتها في الندوة العالمية للشباب المسلم من بضع عشرة سنة بيّنت فيها موقفنا من هذه الحضارة المعاصرة وما ينبغي أن نأخذ منها وما يُطلب منا أن ندع، ولعلّي أعرض لها يوماً[١].

* * *

(١) سبقت الإشارة إلى هذه المحاضرة أكثر من مرة، وهي منشورة في كتاب «فصول إسلامية»، كما نشرتها دار المنارة مستقلّة في رسالة صغيرة أيضاً (مجاهد).

-٢٠٢-

السفر إلى المؤتمر

هذا العنوان أستعيره من اسم كتاب قرأته من قديم لشيخ العروبة أحمد زكي باشا، عليه وعلى زميله أحمد تيمور باشا رحمة الله، وإن كانت صلتي بتيمور باشا أوثق ومعرفتي إياه أعمق، ولقد عرفت من أعماله البارّة وخدماته الإسلامية الشيء الكثير.

وأنا أتحسر دائماً على أني لم أدوّن هذه الذكريات يوم كانت مشاهد تُرى لا ذكريات تُروى، وأجيء الآن لأدوّن أخبار رحلة ألمانيا بعد ستّ عشرة سنة، وقد طمس القِدَمُ بعضَ سطورها ومحا النسيان بعضها، ثم أرجع إلى نفسي فأقول: لعلّ الصورة الجديدة التي أكتبها الآن، والتي أصلح الخيالُ منها بعضَ ما انطمس وسطر بعض ما امّحى، لعلّ هذه الصورة كاللوحة الفنّية التي ترسمها ريشة الفنان. هل تعدلون بها الصورة الشمسية (الفوتوغرافية)؟ لو أن متحف اللوفر رضي أن يبيع لوحة جيوكوندا كم ترونهم يدفعون فيها؟ إن من السفهاء من يشتريها بنصف مليون دولار، ولو كان في عصر صاحبها ليورنادو دافنشي تصوير شمسي ووُجدت في ذلك العصر -قبل أربعمئة سنة- مثل آلات التصوير التي نجدها الآن وكان يتقن استعمالها لأخرج بها صورة لهذه المرأة أقرب إلى

الحقيقة وأصدق في النقل، صورة بألوانها ذاتها وتقاطيع وجهها وسمات جلدها تُبدي كل ما يراه الرائي منها، ولكنا لا نجد بعد ذلك من يشتريها بألف واحد من الخمسمئة الألف التي شُريت بها لوحة المصوّر.

ذلك لأن الصورة الشمسية تعرض الحقيقة كما تراها كل عين، وهذه تعرض ما يراه المصوّر بعينه وحدها. وربما كان فيها شيء لا ينطبق تماماً على الواقع، ومع ذلك فإن الناس يفضّلونها، والإسلام يحرّمها لأن فيها محاولة لمضاهاة خلق الله.

فأنا أنقل إليكم الآن الصورة التي بقيَت في نفسي مما رأيت في تلك الرحلة، لا أصف وصفاً جغرافياً أحدد فيه الحدود وأقيس الطرق وأسمي الأسماء، فإنكم تجدون ذلك في الخريطة، ولكل بلد خريطة مفصَّلة ولكل بلد مجموعة صور لمشاهدها ومناظرها.

صورة مدينة آخن في نفسي أنها منازل صغيرة أنيقة جداً على شوارع نظيفة جداً، في بلدة جميلة لكنها ليست كجمال سويسرا ولا أندونيسيا ولا لبنان. ولقد أعيا الرجالَ وضعُ مقاييس يُقاس بها الجمال، لذلك يلجؤون إلى الأوصاف فيقولون: جمال وادع، وجمال أخّاذ، وجمال فاتن، وجمال مثير، وما شئت بعد من أنواع الجمال. أما آخن والبقاع من حولها فجمالها جمال حلو هادئ. هل تعجبون من هذا التعبير؟ إن الحلاوة في معاجم اللغة هي الجمال، إنهما شيء واحد، ولكنهما في لغة المشاعر والعواطف شيئان، فرُبّ جميلة ليست حلوة وحلوة لم تستوفِ أكبر حظّ من الجمال.

ونحن إذ نجد هنا في المملكة بقعة خضراء فيها الشجر والزهر والماء نعدّها متنزَّهاً نتردّد عليه الصباح والمساء، أمّا تلك البلاد فحيثما سرتَ وجدت مثلها، بل تجد ما ليس له مثيل هنا، أمطار متصلة، سماء مفتَّحة الأبواب لا تكاد تخلو من سحاب، حتى إني رأيت فيها ما لم أرَه من قبل: طبقة رقيقة من الطحالب الخضر على جذوع الأشجار الضخام في الغابات، الغابات التي نجدها في كل مكان.

كنا نقف بالسيارة ونقعد حيثما شئنا على حافة الطريق فإذا نحن في نزهة، نأكل ما حملنا معنا من طعام ونشرب ما معنا من شراب، والناس يمرّون بنا فلا يلتفتون إلينا، والسيارات لا تغبر علينا، وما ثمة من غبار، ولا تزعجنا بزعيق لأن العرف أن تمشي صامتة. وإذا وقفنا عند الشارة الحمراء ثم انفتح الطريق وصارت خضراء لا يضع السائقون أصابعهم على أبواق السيارات، ومَن فعل عدّوا ذلك منه عدواناً على الآخرين ومسّاً بهم وإهانة لهم، ولا يفعلونه إلاّ في الندرة. ونظام السير في ألمانيا متين، تعرف قدره إذا خرجت من آخن على الحدود فسرت نصف ساعة بالسيارة حتى تصير في ليبج، المدينة البلجيكية القائمة في نصف طريق بروكسل، فتدرك الفرق ما بين النظامين في بلجيكا وألمانيا.

وفي الطرق الكبرى (التي يدعونها «الأَوْتوبان» وفي فرنسا «الأوتوروت» ونسمّيها نحن «الأوتوستراد»، من كلمة «سترادا»، وهي طليانية ومعناها طريق)، هذه الطرق ابتكار ألماني من عهد هتلر، بدأ فيها ثم عمّ بلاد الناس، فقرّبت المسافات وأدنت البعيد وسهّلت اليسير، لأنها تمرّ قرب المدن ولا تدخل فيها فلا يعرقل

شيء سيرَها، ولكن خطرها ولا سيما في جهة اليسار منها (حيث السرعة لا يجوز أن تقلّ عن مئة وعشرين كيلاً) أنها إذا وقفت سيارة لحابسٍ حبسها لم تستطع التي وراءها أن تقف فتصطدم بها. ولقد رأيت مرة بعيني ستّ سيارات قد دخل بعضها ببعض، كأنما جمعَتْها ثم ضغطَتها ذراعا آلة هائلة ذات قوة وجبروت.

وكان أول ما أرونا من متنزَّهات البلد اثنين: واحد عالٍ صعدنا إليه والآخر هبطنا إليه. أما الأول فجُبَيل (جبل صغير) في وسط البلد، حيث تقلّ الجبال في تلك المناطق من شمال أوروبا وتكثر الهضاب الصغيرة. وكنا نسير وسط أشجار تحجب عنا وجهَ السماء وزهور ونجوم (أي شجر صغار) تغطّي ظهر الأرض، فما عرفنا أننا نصعد حتى شعرنا أن الأرض قد مالت من تحتنا فملنا معها، حتى إذا علونا هامة الجبل وجدنا مطعماً واسعاً مستديراً فولجناه وقعدنا نتغدى. فقال لي ابن بنتي أيمن: جدّو، ألم تلاحظ شيئاً؟ قلت: لاحظت أشياء كثيرة جداً، فما الذي تسألني عنه منها؟ قال: لا بل هنا، انظر إلى هذا البناء. قلت: نظرت، فما له؟ قال: حدّد مكانه ثم انظر إليه بعد عشر دقائق. فنظرت بعد عشر دقائق فإذا هو قد مشى. قلت: ما هذا؟ فضحك وقال: إننا نحن ندور؛ المطعم يدور بنا! قلت: شيء عجيب، السلّم يصعد بك بدلاً من أن تصعد أنت عليه، والبلد يدور من حولك بدلاً من أن تدور أنت حوله!

ولمّا جئنا ننزل بعدت أنا والولدان هادية وأيمن عن والديهما أمتاراً معدودة، نزلا من هناك ونزلنا نحن من هنا، ولم نشعر بأننا

كلما ازددنا هبوطاً ازددنا عنهما بعداً، حتى إذا بلغنا السفح وصرنا على الأرض فإذا نحن في حيّ آخر من أحياء المدينة. وكذلك يصنع انحراف خطوة عن الطريق، إنه يبدّل وجهتك ويصرفك عن غايتك ويبلغ بك ما لا تحب.

ولم ندرِ من أين نسير، وكانا حديثَي عهد بالمدينة، قدما إليها من بروكسل وكانا من قبلها في جنيف، ولسان كليهما فرنسي، وهذا لسان ألماني لم يكونا قد تعلّما منه يومئذ إلاّ القليل، وقلت للبنت: كلّميهم بالفرنسية (وكانت تتقنها) واسأليهم عن المسجد. فوجدنا أكثرهم لا يعرف الفرنسية، والقليل الذي عرفها لم يكن يعرف المسجد. فجعلنا نسير على غير هدى حتى تعبنا من السير، فوجدنا كراسي مصفوفة فقعدنا عليها، وكان إلى جنبنا رجل كبير السنّ وجهه يدل على طيب نفسه، فسألناه ففهم عنا، ثم أشار إلينا أن ننتظره حتى يعود، ثم ذهب إلى هاتف قريب فطلب لنا سيارة (تاكسي) وأفهم السائق مقصدنا، فشكرناه بألسنتنا بمقدار ما استطعنا التعبير عن شكر قلوبنا.

وكنت قد سمعت بأن الألمان غلاظ القلوب لا يدلّون تائهاً ولا يُجيبون سائلاً، فكان الذي وجدته غير هذا، بل لقد وجدت منهم لطفاً وأدباً وظرفاً واهتماماً بالغريب. ضللت الطريق مرة بعد أن أقمت في البلدة مدة، فسألت رجلاً، فدلّني فما فهمت عنه، فبدّل وجهته ومشى معي حتى أوصلني إلى أول الطريق الذي أقصده. ولمّا جئت أشكره نسيت كلمة الشكر (دانكْهشون) فقلت له: دون كيشوت! فبدت على وجهه علائم التردّد بين الطرب لنكتتي والعجب من كلامي والغضب مني، فأدركت ذلك فقلت

له: شكراً، ثانك يو، ميرسي بوكو، تشكر أيدرم، بهوت شكريا (بالعربية والإنكليزية والفرنسية والتركية والأردية)، فعرف أني لم أكن أقصد شراً، فضحك وقال لي يشكرني وكأنه يعلّمني الكلمة: دانكهشون. وصافحني ضاحكاً ومشى.

أما المتنزّه الذي هبطنا إليه فهو «الآيْفِلْ». ويظهر أن اسم «الآيفِل» ليس لهذا الوادي وحده ولكنه لمنطقة أوسع منه. والمهبط إليه الجمالُ على جانبَيه والماء يجري في قرارته والقرى والمنازل مشرفة عليه. وقد انتشرَت فيه وفي غيره دكاكين صغيرة كأنها غرف خفير الليل (أو كأنها «الصَنْدَقات» كما تُسمّى هنا) فيها بنات عندهن البطاطا مقليّة لم تنضج، فإذا جاء مَن يطلب شيئاً منها وضعنَها في المقلاة، ثم في شبه كوب صغيرة من الورق المقوّى ومعها شوكة من الخشب صغيرة ودفعنها إليه بمارك واحد، فأكلها سخنة طيبة.

وشبه بيوت صغيرة لها شرفات يقعد عليها الناس يقدَّم فيها القهوة والشاي، والحساء لمن أراده، وفي كل مكان مقاعد ثابتة من الحجر أو من جذوع الشجر ومناضد أمامها من مثلها (وقد رأيتهم قد صنعوا في جدة عند السّيف، أي الكورنيش، مثلها) يحمل الناسُ طعامَهم وشرابهم إليها. والعجب أنك لا تجد أحداً يُلقي على الأرض علبة فارغة ولا كيساً خالياً ولا ورقة ولا زجاجة ولا شيئاً مما يوسخ المكان.

على أننا نحن المسلمين آخر من يحقّ له العجب من هذا؛ لأن تنظيف الطريق في ديننا معدود من شُعَب الإيمان. هل سمعتم

أن في دين ممّا يَدين به البشرُ مثل ذلك؟ الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. أي أن الذي يأكل الموزة ويلقي قشرتها على رصيف الشارع والذي يرمي الفضلات من نافذة السيارة أو من شبّاك الدار يكون قد نقص منه هذه الشعبة من شعب الإيمان.

وأشهد أن الألمان شعب نظامي. كنت أرى الجيران جميعاً يفيقون من الصباح الباكر، وحين أعود الظهر أسمع من كل شقّة أصوات الطعام وقرع الملاعق والشوكات. يفيقون في وقت واحد ويأكلون في وقت واحد، وأحسبهم ينامون في وقت واحد! والأسواق تغلق مخازنها في وقت واحد.

ونسمع في كل بلد عن الرُّخْصَة (أي الأوكازيون) في المحلات التجارية، ولكن الرخصة السنوية في ألمانيا حقيقية؛ يختارون من البضائع النفيسة الغالية عدداً محدوداً يبيعونه بأقل من عُشر ثمنه، فالثوب الذي يُباع عادة بمئة مارك قد تشتريه المرأة من الرخصة بخمسة ماركات، ومَن يأتي أولاً يختار ما يريد، لا تَسابُق ولا تدافع ولا ازدحام. لذلك ترونهم يتنافسون في التبكير، فمنهم من يأتي المخزن من الفجر أو من قبل الفجر، ورأيت من ينام أمام المتجر أيام الرخصة! ولا يكون زحام لأن كل شيء هناك بالدَّور، يقفون صفاً واحداً.

هذا الذي ينبغي أن نتعلمه منهم لا الفسوق والعصيان، وهذا الذي تعلّموه هم منا. ولقد قرأت مرة لكاتب فرنسي صحب

قافلة عربية في جنوبي الجزائر فوصف أهلها بأنهم جنّ على هيئة بني آدم، كلهم يركب رأسه ويمشي على هواه، لا يخضع أحد لأحد، ثم رأى منهم -كما يقول هو- شيئاً عجباً؛ قام رجل يتحرّك فيتحرّكون معه، يرفع رأسه فيرفعون رؤوسهم ويخفضه وينزل به إلى الأرض فينزلون رؤوسهم جميعاً إلى الأرض، فتعجّب مما رأى، ما درى أن هذه الصفوف التي وقفت منتظمة وراء الإمام تتحرك بحركته هي التي مشت وراء القائد ففتحت للحقّ وللإسلام بلاد الأرض، وهي التي أقامت الدولة العظيمة والحضارة البارعة[١].

* * *

ودنا موعد المؤتمر الذي دعانا اتحاد الشباب المسلم في أوربا إلى حضوره وأخذوا يستعدّون له، لأنه الحدث الأهمّ في أعمال المركز الإسلامي هناك، يأتيه الشباب من أرجاء أوربا وتُبحث فيه المسائل التي تهمّهم وتُلقى فيه المحاضرات التي تنفعهم، يَدعون إليه كل سنة أحدَ الأساتذة من الدعاة، وتُلقى فيه أسئلة وتُطبع فيه الأجوبة، فتكون مناقشات ومناظرات، والذي يدبّر ذلك كله ويديره هو الأستاذ عصام العطار. وكانوا يختارون له كل سنة مدينة، وكانت المدينة المختارة سنة ١٩٧٠ هي كيسن. وحضرت مثله مرة ثانية سنة ١٩٧٦ وكان في مدينة دوسلدورْف.

ومن عادتهم أنهم ينزلون في بيت من بيوت الشباب، وهي

---

(١) انظر مقالة «حي على الصلاة» في كتاب «نور وهداية» الذي أوشك أن يصدر بإذن الله (مجاهد).

منتشرة هناك لا يكاد يخلو منها بلد، يجتمعون فيها على الطعام يعده لهم البيت الذي ينزلون فيه. وطعامهم سهلٌ -كما يقولون- هضمه ولكن ساءٍ طعمُه، ما فيه لذة ولا له نكهة. إنه مثل طعام المرضى في المستشفى مسلوق سلقاً. وألذّ طعام طعامُ الشام، ولكنه ثقيل على المعدة يكاد يكون صعب الهضم، ويليه (كما سمعت ولم أذق) الطعام التركي، فيه لذّة وفيه خفّة. أما طعام الشرق الذي رأيته في الباكستان والهند وسنغافورة وأندونيسيا فإن ما فيه من الفلافل التي تُلهِب الحلق وتحرق الأمعاء يمنعني من استطاعة الحكم له أو عليه، وأنّى لي الحكم وفي جوفي هذه النار!

ثم إن النوم في بيوت الشباب في أسّرة ذات طبقات، اثنتين أو ثلاث، وأنا لا أستطيع أن أنام في غرفة فيها آخَر، فكيف لي بالنوم وفوقي أو تحتي نائم غيري، وإن كان بيني وبينه حجاب فلا يصل إليّ ولا أصل إليه؟ ثم إنها بيوت الشباب، وما كنت ولا كانت زوجتي التي تصحبني من الشباب؛ كنت يومئذ (سنة ١٩٧٠) في نحو الثالثة والستين، وزوجتي دوني بعشر سنين، فما لنا وللشباب ولبيوت الشباب؟

لذلك طلبت أن يستأجروا لي على حسابي غرفة في فندق، على شرطي الذي لا أدعه وهو أن يكون حمّامها فيها فلا أُضطر إلى الخروج منها. وقد فعلوا، فانفردنا عنهم. وسافرنا في سيارة لأخ كريم من إخواننا، أو هو على الأصحّ ولد من أولادنا، أصله من حرستا. وهي جارة دوما التي كنت قاضيها سنة ١٩٤٢، ومن مزاياها أن فيها من الزيتون ما يجاوز عمرُ الواحدة من شجره مئةً أو مئة وخمسين سنة، وأنها كانت منزل الشيخ أبي النصر الخطيب

القاضي العادل صاحب النوادر العجيبة، وهو عمّ أمي. وإن من مزاياها قبل هذا أن الإمام تلميذ الإمام، أول من ألّف الكتب في الفقه، كان أصله منها، وهو محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة. وقد ألّف الإمام مالك «الموطّأ» قبله، ولكن الموطّأ -على جلالة قدره وعظيم أثره- كتاب حديث وفقه، و«الكتب الستّة» التي ألّفها محمد بن الحسن في الفقه الخالص، وقد قرأها عليه الإمام الشافعي، كما قرأها وألّف «المدوَّنةَ» (التي هي عماد المذهب المالكي) على أسلوبها أسدُ بن الفرات، وإن نُسِبت إلى سحنون لأنه عدّل فيها وبدّل شيئاً منها. أسد بن الفرات هو الفقيه القاضي الأميرال (أمير الماء) قائد الأسطول الذي فتح صقلية وبقيَت بأيدي المسلمين دهراً طويلاً[1].

ولم يكن دليلنا الذي يقود السيارة ويقودنا عارفاً بالطرق ولم يزُر مدينة كيسن من قبل، وكان يومئذ حديثَ عهد بألمانيا، وهو لا يزال إلى اليوم فيها، وقد صار أستاذاً نابغة. وكان هذا الأستاذُ السابقَ إلى الدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بروكسل، وهو الآن في المركز الإسلامي في آخن، هو الدكتور محمد الهَوّاري الأستاذ في كلية الطب في الشام.

مررنا بطائفة من المدن حتى بلغنا كيسن، فجعل يلفّ بنا ويدور ولا يصل إلى بيت الشباب، فسألته: ألا يعرفه؟ قال: بلى، هو عند هذه... شو اسمها؟ التي هي فوق الطريق... ولم يكن يعرف هو على -ما يبدو- ما هي التي فوق الطريق ولا يعرف اسمها

---

(١) في كتابي «رجال من التاريخ» فصل عنه.

حتى يسأل عنها، وليست «اللي بيتها فوق الطريق» التي سمعتُ فيروز تغنّي بها! درنا كما يدور صاحب السانية حتى وصلنا إليها وعرفنا ما هي، إنها أنبوب ماء يمرّ من فوق طريق فرعي صغير، فقال: الآن عرفت. قلنا: الحمد لله.

وبلغنا بيت الشباب، وكان على سفح جبل صغير في طرف البلد، ووجدناه بناء كبيراً قديماً يعجّ بالنزلاء، وأكثرهم من جماعتنا. وقابلنا أصحابنا، وقلت للذي جاء بي: هلمّ إلى الفندق الذي حجزوه لي. فآثرَت زوجتي أن تبقى مع النساء، والحقّ معها، ولو كنت أستطيع لبقيت أنا أيضاً مع رجالهن لأنهم (أعني الرجال والنساء) من أهل الصلاح وصحبتهم تذكّر بالله وتوقظ القلب الغافل، وإذا أعطيتهم أنا في هذه الرحلة قليلاً من العلم الذي تعلّمته فإنهم أعطوني كثيراً من الإرشاد القلبي والموعظة النفسية.

ووجدت الفندق فخماً والغرفة واسعة، ومن نوافذها نطلّ على مشهد من أجمل المشاهد. وقضيت ليلة مريحة، وتعلّمت تحية الصباح (كودِنْ مورْكِنْ) وسبع كلمات أخرى لا بدّ منها ولا غنى عنها. وكان الموعد الساعة التاسعة من الصباح، وكان الاتفاق أن يجيء إليّ مَن يأخذني إلى بيت الشباب، فلم يحضر أحد ومرّت نصف ساعة. وأنا يغيظني جداً إخلاف الموعد لأنني أُلزِم نفسي به وأنتظر ممّن يعدني أن يُلزِم نفسَه بما ألزمتُ به نفسي وما ألزمَنا به كلينا دينُنا، لا أن يقيّدني ويبقى طليقاً. ونحن نرى إخلاف الوعد هيّناً وهو عند الله عظيم وهو من خصال المنافقين، فمَن كان مبتلى به فليعلم أنه ابتُلي بشعبة من النفاق كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وضاق صدري من الانتظار فقلت: أمشي حول الفندق. ولكن نسيت (وتلك حماقة مني) نسيت أن أحفظ اسمه، فمشيت قليلاً فوجدت حاجزاً له درَج كهربائي يصعد الصاعدون عليه فينزلون من الجهة الأخرى يمرّون على جسر فوق الطريق، فصعدت مصعدهم ونزلت منزلهم، وسرت قليلاً فلم أعُد أرى الفندق ولا الطريق إليه، ولا أعرف اسمه لأسأل عنه، ولا أعرف ما اسم بيت الشباب بالألمانية ولا رقم الهاتف، فضاقت بي الحال واشتدّ الأمر وحرت ماذا أصنع.

والضيق يولّد مخرجاً إن التجأ العبد فيه إلى ربه. فدعوت الله بقلب حاضر فألهمني أن أدقق النظر فيما حولي، فكلما رأيت لوحة على باب متجر أكدّ ذهني أفكّر: هل مررت بها وأنا قادم؟ فإذا تذكرت أني مررت بها وكانت على يميني أجعلها على شمالي لأعود من حيث جئت، وكذلك جعلت أتنقل خطوة خطوة حتى رجعت إلى جسر المشاة الذي يصعد الناس إليه بالسلم الكهربائي، فصعدته ونزلت فإذا أنا أمام الفندق، وإذا أنا لم أسِر إلاّ نحو ثلاثمئة متر.

* * *

وجاء يزورني في اليوم التالي صديق من أصدقائنا الشباب المؤمنين، فأحبّ أن يكرمني على غير رغبة مني، وكان يتكلّم الألمانية كأهلها، فحدّثهم عني حديثاً لست أدري ماذا قال فيه، ولكنه كبّرني ونفخني وأوهمهم بأن لي شأناً عظيماً وطلب أن يُخصَّص لي جناح في الفندق على أن يدفع أجرته هو. وكان

ذلك كله وأنا غائب عن الفندق، فلما عدت إليه من بيت الشباب وجدتهم قد نقلوني من غرفتي التي كنت فيها إلى هذا الجناح، وإذا هو دار مصغَّرة فيها غرفة استقبال وغرفة للنوم وردهة فيها مقاعد لا أدري ماذا أصنع بها ولا بهذا الذي وجدته. ومن أعجب ما وجدت خزانة فتحت بابها فإذا فيها من القوارير والقناني ما لا أستطيع إحصاءه، وفهمت أنه كان فيها من كل شراب أحلّه الله أو حرّمه، أي أنها خمّارة صغيرة في هذا الجناح!

وقال لهم إني لا آكل إلا أكلات أحدّدها، فجاؤوا يسألونني: ما الذي أريد أن آكله في المساء؟ وأنا لا أفهم عنهم ولا يفهمون عني، حتى وصل هذا الأخ فقلت له: ما هذا الذي صنعت يا غالب؟ أنا راضٍ بغرفتي وقانعٌ بها. وجاء الطعام وهو عندي، فوضعوا ملاءة بيضاء مطرَّزة يبدو أنها غالية الثمن وضعوا فوقها الأطباق، وأنا أنظر بعيني، ثم وضع النادل خادم المطعم منديله على ذراعه ووقف على رؤوسنا. وأنا لا أستطيع أن آكل وأمامي من يراقبني وينظر إليّ، فكنت أغمز هذا الأخ بمرفقي أقول له بالعربية بصوت خافت: اصرفه عني، وهو يظنّ أن من الإكرام أن يُبقيه قائماً على رأسي. حتى ضقت به ذرعاً فأمرته أن ينصرف فانصرف متعجباً.

ولم أرضَ أن يغرم هو ثمن هذا البذخ الذي لا داعي له ولا منفعة فيه، واضطُررت أن أدفع أنا أجرة هذا كله شاكراً له نيّته وحسن مقصده.

* * *

-٢٠٣-

إلى الوزير الشاعر عبد الله بلخير

لمّا أخذت الجريدة يوم الإثنين الماضي أسرعت إلى مقالتك كما أسرع كل مرة، لأني أجد لها طعماً لا أكاد أجده في كثير من المذكّرات التي تنشرها الصحف والمجلات فتكون كالدليل الذي يُري السيّاحَ شوارعَ البلد ويدلّهم على عماراتها وحدائقها ومطاعمها ومشاربها ولكن لا يلج بهم العمارات ليروها من داخلها ولا المطاعم ليأكلوا مما فيها. وأنت تُدخِلهم إليها وتُذيقهم طيباتها.

إن ما تكتبه هو من حديث النفس، يرى فيه القارئُ نفسَه فيحسّ كأنه معك وأنه صديق لك. وكذلك يصنع الأديب؛ الناس يعيشون وحدهم والأديب يُشرِك الناس كلهم معه، إن سُرّ شاركهم سروره وإن تألّم تمنّى أن يشاركوه ألمه.

أخذتُ الجريدة ففوجئت بما أملاه كرم نفسك ووفاؤك لأصدقائك من ذكري وذكر بلدي. لقد سرّني ما كتبت، ولكنه خضّ الكوب فأظهر ما رسب في قرارته:

وذو الشّوقِ القديمِ وإنْ تسلّى مَشُوقٌ حينَ يَلقى العاشقينا

أرأيت يا أخي كوب الماء العكر لا تستطيع أن تسيغه على عكره ولا تملك أن تعيده إلى صفائه، فتتركه للزمان يُنزِل إلى قرارته ما علق به من أدران فيبدو صافياً، وما صفا ولكن رسب فيه العَكَر. كذلك يستقرّ الحزن في أعماق النفس، يستره النسيان حتى لتحسبه ما كان. ولقد طالما تسلّيت، ولكن ما سلوت ولا نسيت، وهل ينسى امرؤ حياتَه؟

لقد سردتَ يا أخي أسماء ما لها في نفسك ظلال ولا لها في أعماقك جذور وما مسّت حياتك إلاّ مسّاً رفيقاً، أما أنا فأحسّ بها دائماً غائصة جذورها في كياني ممتدّة ظلالها على حياتي. حتى إنك يا سيدي نسيت الطريق. وحقّ لك أن تنسى، فقد كانت زيارة لك عابرة مرّ عليها الآن أكثر من خمسين سنة، فسلكت شارع بغداد فوصلت دُمّر والهامَة! فحقّ لي أن أقول لك مقالة ابن أبي ربيعة: «عَمْرُكَ الله، كيفَ يلتقيانِ؟»؛ شارع بغداد يمضي مشرّقاً ودمّر والهامة في الغرب، وشتّانَ بينَ مشرّقٍ ومُغَرّبِ.

لقد هزّت مقالتك شجوني. فيا شوق نفسي إلى دمشق ومغانيها، وغوطتها وواديها، وشاذروانها وميزانها!

وهلْ لي إلى تلكَ الديارِ ونظرةٍ   إلى بردى قبل المماتِ سَبيلُ؟

بردى الذي رآه حسّان مرات معدودات فأحبّه وذكره في شعره، فكيف بي أنا؟ لقد قال في مدح أصحابه من آل غسان (ولم أقُل من بني غسان، لأن «غسّان» ليس إنساناً بل نبع ماء في جبل الدروز، نزلوا عليه فنُسبوا إليه[1]) قال حسان:

---

(١) قال شاعرهم: الأزدُ نسبتُنا والماءُ غسّانُ.

يَسقُونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عليهِم   برَدى يُصَفّقُ بالرّحيقِ السَّلْسَلِ

أي يُمزج ماؤه الصافي بالخمرة المعتَّقة التي كانوا يشربونها. أما قصر البريص -إن شاء القرّاء تمام الفائدة- فإنه يقع عند سوق النحّاسين (والسوق قديم، والذي قلته كتبه البلاذري في «فتوح البلدان»)، أمام باب الفرج الذي يُدعى الآن باب المناخِليّة.

❊ ❊ ❊

أنا هنا في أكرم البقاع. إن كانت دمشق موطن جسدي وقلبي فإن ها هنا موطن روحي وروح كل مسلم. ومَن ذا يسوّي بالجسد الروح؟ وإن كانت هناك دنياي فها هنا دنياي وآخرتي، وما الدنيا في الآخرة إلاّ متاع. ولكنه وطني، ومَن الذي ينسى وطنه:

وحَبّبَ أوطانَ الرّجالِ إليهِمُ   مآربُ قَضّاها الشبابُ هُنالِكا

وإن جفاني موطني وقطع أواصر الودّ بينه وبيني ونسي ما صنعت له بلساني وقلمي، فما وجدتُ هنا واللهِ إلاّ البرّ والإكرام، من الملوك الخمسة رحم الله منهم من ذهب للقائه وأطال عمر مَن بقي وزاده من نعمائه ووفّقه إلى رضائه، ومِن كل من تضمّ هذه البقاع الطاهرة، ما لقيت منهم إلاّ كرماً وعطفاً وإحساناً.

دمشق التي صوّرتَها لي ببيانك حتى كأني أراها من جديد. وأين يا سيدي دمشق التي زرتَها ثم جئت فوصفتها؟

أمّا الخيامُ فإنها كخِيامِهم   وأرى نساء الحيّ غيرَ نسائها

هذه المساجد لا تزال كما كانت، ولكن أين الدروس التي

كانت تُلقى فيها؟ وأين العلماء الذين كانوا يُلقون هذه الدروس؟ وأين إقبال الشباب عليها وتسابقهم إليها؟ أين المجالس الدائمة التي كانت كأنها نوادٍ أدبية أو مجامع علمية، يتصدّرها أفاضلُ حديثُهم درسٌ ومطارحتهم أنس، وأبواب هذه المجالس مفتَّحة.

مجلس الشيوخ الذي سبق الحديث عنه في هذه الذكريات، وكنت أحضره مستمعاً لا عضواً، فما كنت قد بلغت سنّ الشيخوخة ولا المنزلة التي كان عليها مَن بلغها من أعضاء المجلس، كالرئيس هاشم الأتاسي والرئيس محمد علي العابد والرئيس فارس الخوري، والعلماء الأجلّاء كالشيخ عبد القادر المغربي وأقرانه الذين سمّيت بعضاً منهم فيما سبق من حلقات هذه الذكريات.

ومجلس محمد كرد علي أستاذ الكاتبين ورائد الصحافيين، ومَن كان أبا المجامع العلمية في البلاد العربية، أنشأ مجمع دمشق سنة ١٩١٩ على حين أن مجمع القاهرة قام سنة ١٩٣٢. ومجلس مصطفى برمدا شيخ القضاء في الشام، الذي حوى صدره موسوعة فيها من كلّ علم طرف والذي ما عرف القضاءُ عندنا مثلَه فكراً وهيبة وعدلاً. ومجلس عبد الرؤوف سلطان، والأمير طاهر الجزائري حفيد الأمير عبد القادر، والسيد بدر الدين ابن أخي الأمير عبد القادر، ومجالس أساتذتنا الذين أضاؤوا لنا الطريق وأخذوا بأيدينا حتى مشينا، سليم الجندي وعبد القادر المبارك والشيخ حسن الشطي، ومجالس من أمثالها لا أريد استقصاءها وأنتم لا تعرفون أصحابها.

أين دمشق التي لم يكن يُرى فيها منكَر معلَن ولا محرَّم

مستباح ولا عورة مكشوفة، وما كان في جمهور أهلها إلاّ كل ديّن صيّن؟

ذكّرتَني يا سيدي المظاهرات أيام النضال للاستقلال، الذي شاركتُ فيه على ضعفي وعجزي بما قُدتُ من مظاهرات وما دعوت إليه من إضرابات. ما كنا ننادي بوجوب الإضراب أيام الفرنسيين حتى تغلق الدكاكين ويخرج الناس متظاهرين يعرّضون صدورهم لرصاص المستعمرين:

لا يسألونَ أخاهم حين يَنْدُبُهم في النّائباتِ على ما قالَ بُرهانا

وما خطبت وما كتبت في جريدة «فتى العرب» و«ألف باء» و«القبس» و«الأيام» و«اليوم» و«المنار» و«النصر»، وجرائد غيرها نسيت حتى أسماءها. لقد كنت أخطب في المساجد وفي النوادي وفي الطرق وفي الساحات... ولكن هذا كله يا سيدي قد ذهب، ما بقي منه شيء، وإن لم يكتب الله لي عليه شيئاً من الثواب لا أستحقّه بعملي فيا ضيعة أيامي.

يحسب ناسٌ أن الاستقلال قد جاءنا عفواً بلا تعب، وأننا وجدنا يوماً مائدة مُعَدّة فقعدنا على كراسي مصفوفة من حولها ومن فوقها الزهر والورد وطبق مغطّى فتحناه فإذا فيه الاستقلال المطلوب! لقد نسي كثير منا ولم يدرِ كثير من ناشئتنا ما الذي دفعناه ثمناً له، من دمائنا الزكية التي أُريقت، ومن نفوسنا البريئة التي أُزهقت، ومن بيوتنا التي كانت جنّات تجري في صحونها المياه نوافير تشرح الصدر دكّوها بالمدافع دكاً فتركوها خراباً.

فيا ليتنا، يا ليت العرب كلهم، يا ليت المسلمين جميعاً

حافظوا على استقلالهم، يا ليتنا لم نصنع (أو لم يصنع بعضنا بأيدينا) ما كان يبتغيه المستعمر منا.

لقد خضضتَ يا سيدي الكوب فصعد ما كان في قرارته من الفكر، لقد ذكّرتني ما كنت ناسياً. إنني عشت بحساب السنين ثمانين، ولكن عمري بحساب ما رأيت من الأحداث الكبار مئتان. رأيت حكم العثمانيين، وعهد الحكومة العربية، وميسلون التي دخل علينا بعدها الفرنسيون، وعهد النضال، ثم الاستقلال، وعهداً لا بارك الله فيه هو عهد الانقلابات، وعهوداً بين ذلك كثيراً... ما كان يومٌ منها إلاّ بكينا فيه منه وبكينا بعده عليه. وما ظلَمَنا اللهُ ولكنْ ظلَمْنا أنفسَنا.

إن الله جعل لكل شيء سبباً، فالفلاّح الذي يقعد عن شقّ الأرض وبذر البذر ثم يقول: "اللهم أنبت لي الزرع" لا يُنبت الله زرعَه. والتلميذ الذي يدع الدرس ويشتغل باللهو واللعب ويقول: "اللهم اكتب لي النجاح في الامتحان" لا يكتب الله له النجاح. والأمّة التي تلعب حين الجدّ ويتربّص بها العدو فلا تُعِدّ القوة للعدوّ وتطلب من الله النصر لا يكتب الله لها النصر.

لأن الله لا يبدّل سننه في كونه وقوانينه في مخلوقاته من أجل فلاّح مهمل ولا تلميذ كسلان ولا شعب غافل. فإذا أردنا معشر المسلمين أن يغيّر الله ما نحن فيه من التفرق والانقسام وتكالُب الخصوم وغلَبة الأعداء فلنغيّر أولاً ما بأنفسنا: ﴿إنّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بِقَومٍ حتّى يُغَيّروا ما بأنفسِهِم﴾؛ هذا هو القانون، فهل غيّرنا ما بأنفسنا؟ أنا أتكلم عن نفسي فأعترف صادقاً أنني ما غيّرت!

❋ ❋ ❋

ذكّرتَني يا سيدي دمشق، فهل لي من عودة إليها؟ وإن عُدت إليها فهل أعرفها؟ لقد تبدّل بعدي كل شيء: المسالك والطرق وحال البلاد ووجوه الناس. وهل بقي فيها أحد من ناسي؟ لقد صرت إذا لقيت هنا رجلاً من دمشق جاء يسلّم عليّ أسأله: مَن أبوك؟ وربما سألته: مَن جدّك؟ لأن الطبقة التي أنا منها لم يكَد يبقى من أفرادها إلاّ قليل.

فإن رأيتني عدت -يا سيدي أبا الخير- ووجدتُ الأماكن التي طرّزتَ مقالتك بأسمائها وعطرتها بأريج العطر من غوطتها وجمال الينابيع من واديها، فهل أجد الرجال الذين تحدّثت عنهم فيها؟ هل أجد الإخوان الذين مرّوا في حياتي مرور النسمة الناعشة في اليوم القائظ، مرور البرق المنير في الليلة الداجية، مرور الحلم الهنيء الذي كان ملء يديّ وعينَيّ وكنت أعيش فيه، فصحوت وما في يدي منه شيء؟

لقد ذهبوا جميعاً فمَن يُعيدهم إليّ؟ مَن يُرجع لي أيام شبابي التي تفضّلتَ فأثرت في نفسي ذكراها؟

لقد جعلتني أبكي مع الصديق الشاعر خير الدين الزركلي الذي قال غداة ميسلون، غداة ضاع الاستقلال وماتت الدولة العربية في الشام وكانت الفجيعة، ورأينا وجه الاستعمار البغيض أول مرة حين رأينا جنود الغزاة الفرنسيين تصكّ بنعالها أرض العرب المسلمين، وما عرفنا من قبلُ مستعمراً أجنبياً، أمّا الذين يسمّون الحكم التركي استعماراً فهؤلاء قوم لا أخلاق لهم ولا يعبأ الله بهم. قال خير الدين رحمه الله:

أبكــي ديــاراً خُلِقَــتْ للجَمالْ أبــهــى مثــالْ
أبكي تــراثَ العــزِّ، والعزُّ غالْ صعبُ المنــالْ
أبكي نفوســاً قعــدَت بالرجالْ عــنِ النضــالْ
أبكي جلالَ المُلكِ كيفَ استحالْ إلــى خيــالْ
مــا لرحابــي وحنــانِ الرحابْ أضحَت يبابْ
مــا لبنيهــا كلُّهــمْ فــي اكتئابْ أسرى عذابْ؟
أينَ أُولــو طِعانِهــا والضِّرابْ؟ أينَ الحِرابْ؟
ما بالُ شِــيبِ عُربِها والشــبابْ غَيرُ غِضــابْ؟

لقد قعدت أبكي تلك الأيام، ويحقّ لفقدها البكاء، وتهون عند ذكرها العبرات وتنفطر أسفاً على ما كان فيها القلوب.

* * *

هؤلاء الذين ذكرتَ يا سيدي أن المجمع الأدبي تألّف منهم، هل علمت أن منهم أربعة كانوا طلاّباً في المدرسة الإعدادية وبدؤوا ينظمون الشعر، فأقام لهم الأستاذ كرد علي رحمة الله عليه حفلة تكريمية في المجمع العلمي في دمشق سنة ١٣٤٤هـ؟ وكلهم من رفاقي في المدرسة، هم أنور العطّار وجميل سلطان وزكي المَحاسني وعبد الكريم الكَرْمي، وأنه دعا إلى هذه الحفلة كبار القوم ووجوه البلد ليسمعوا القصائد التي نَظَمها هؤلاء الشباب.

أُسمِعك -إن أذنتَ- فقرات من قصيدة أنور العطار التي كان عنوانها «الشاعر»، وأنت يا سيدي شاعر تزن الكلام وتنقده،

وتعرف الذهب الخالص من النحاس المطليّ بالذهب وتميز المطبوع من المصنوع، فاستمع هذه المقاطع ثم خبّرني: هل يقول اليوم تلميذٌ مثلَ هذا الشعر؟ هل يقوله طالب في الجامعة؟ كم من الشعراء المعروفين مَن يقدر على مثله؟ لا تعجب يا سيدي واسمع، وهذه فقرات منها:

خلّياهُ يَنُحْ على عَذَباتِـهْ ويَصُغْ مِن دُموعِهِ آياتِهْ
ويرتّـلْ ألحانَـهُ بخشـوعٍ مُستمِداً منَ العُـلا نَغَماتِهْ
قدْ رواها فمُ الزّمان بِشَجْوٍ فحَسِبْنـا بُناتِـهِ من رُواتـه

إلى أن قال:

كتَبَ البؤسُ فوقَ خدَّيهِ سطراً تتراءى الآلامُ في كلماتِهْ
للهوى قلبُهُ وللشجوِ عينا هُ وللعالَمينَ كـلُّ هِبـاتِهْ
شاعرٌ صاغَهُ الإلهُ مِنَ البُؤ سِ وأبدى الأسى على نَظَراتِهْ
وحَباهُ السحْرَ الحلالَ فغنّى شاكراً ربَّـهُ على نَفَحاتِـهْ
وسَرِيُّ النَّظيمِ ما كانَ وحياً فالهوى والشعورُ في طيّاتِهْ
وسَرِيُّ النَّظيمِ ما كانتِ الحكـ ـمةُ فَيّاضةً على جَنَبـاتِـهْ

إلى أن قال:

يَخْلُدُ الشاعرُ الحَزينُ إذا قطّـ ـرَ أنفاسَهُ على صَفَحاتِـهْ
يومُهُ مِثلُ أمسِهِ في شَقاءٍ ولعلَّ الرّجـاءَ طيُّ غَداتِـهْ

كيف رأيت يا سيدي هذا الشعر؟ ألا تعجبون إن علمتم أن قائله تلميذ في المدرسة الإعدادية لم تصل سنّه إلى العشرين؟ فإذا

بكى شاعرُنا الزركليّ رحمه الله ما حلّ بالشام بعد ميسلون وبكينا معه، فدعنا نبكي العربيةَ التي ذلّت وهانت، نبكي الزمانَ الذي كان يقول فيه تلميذ في الإعدادية مثل هذا الشعر.

فهل أجد إن ذهبت إلى الشام هؤلاء الإخوان؟ هل أركب الترام إلى الميدان فأمضي إلى جامع الدقّاق فأستمع خطبة شيخنا الشيخ بهجة البيطار ثم أصلّي وراءه، ثم نمشي معه إلى داره التي نلقى فيها دائماً المائدة منصوبة ونجد فيها مجمع الإخوان، ونخرج منها بفوائد تنفعنا في ديننا ودنيانا؟ وأنّى؟ وقد خُلع خطّ الترام فلم يعُد يمشي، وتوفّى الله الشيخَ بهجة فلم نعُد نراه، وخرج أهله إلى ظاهر الميدان إلى الحي الجديد. وهل أجد أنور العطار، صديقي من سنة ١٩٢٠، رفيقي الذي سار معي أكثر طريق العمر، عمري وعمره؟ ونحن سَنينان مولودان في سنة واحدة، ولكنه تركني ومشى وحده. أستغفر الله، بل دعاه الله كما سيدعوني بعده، ومن دعاه الله أجاب، لا يملك خياراً ولا يستطيع اعتذاراً ولا يجد فراراً.

إنني كلما قرأت هذه الآيات خشع قلبي وارتعدَت فرائصي، ثم أنسى وتشغلني الشواغل التافهة عن رؤية الحقيقة الكبرى. ما نسبة كفّ الإنسان إلى عرض السماوات والأرض؟ ولكن إذا أدنيتَ كفّك من عينك حجب عنك السماوات والأرض؛ كذلك تشغلنا التوافه عن الحقيقة الكبرى.

هذه الآيات: ﴿فلَوْلا إذا بلَغَتِ الحُلْقومَ، وأنتمْ حينئذٍ تَنظُرونَ، ونحنُ أقربُ إليهِ مِنكُم ولكنْ لا تُبصِرونَ﴾. نحفّ

بالمحتضَر، نعانقه، نقبّله، نضمّه إلينا، نتمسّك به لئلاّ يذهب من أيدينا، وننسى مَن هو أقرب إليه منا ومَن يفعل به وبنا ما يريد ما لا ما نريد. ننظر إليه ولا نملك له شيئاً، والروح تخرج ونحن نرى ولا نستطيع عملاً: ﴿فلولا إنْ كُنتُمْ غيرَ مَدِينينَ، تَرْجِعونَها إنْ كُنتُمْ صادقينَ﴾، هل سمعتم يا معشر الملحدين الذين يكفرون بربّ العالَمين ولا يؤمنون بيوم الدين؟ إذا كنتم غير مدينين ترجعونها! هل تستطيعون؟ من يستطيع أن يردّ الروحَ إلى المُحتضَر إذا خرجت منه الروح؟ هل تُرجعها قوة الروس والأمريكان؟ هل أرجعَتها من قبلُ سطوة الفرس والرومان وفرعون وهامان، وكل متكبر يحسب من جهله أنه يشارك الله في ملكه؟ إنه لا يقدر أن يمدّ في عمره هو ولا في عمر من يحب لحظة واحدة من الزمان.



لقد أدرتَ أمامي -يا أخي الأستاذ بلخير- شريطاً مطولاً، فيه نعيم وفيه بؤس وفيه مسرة وفيه كدر، تكرّ مناظره متلاحقة مسرعة حتى لا أستطيع أن أدقّق النظر فيها. إذا تركتَ لي السنوات الخمس الأولى من عمري التي لم أكن أدرك فيها تماماً ما هو حولي بقي ثلاثة أرباع القرن، خمس وسبعون سنة. كم يوماً فيها؟ وكم تقلّبَ عليّ من حالات النفس كل يوم؟ إنه عالَم، عالَم كامل يا سيدي ظننت أنه طُوي إلى الأبد، فإذا مقالتك تمسك بطرفه فتنشره أمامي. لا أحد يستطيع أن يُعيد الماضي حياً كما كان، ولكن أديباً شاعراً كالأستاذ بلخير يستطيع أن يُقيم صورتَه أمام عينيك حتى كأنك تراها رؤية عيان.

ماضٍ لا أحصي ما كان فيه من مسرّات وأحزان، وعلوّ وانخفاض، ونشاط وخمول... إنها حياة طويلة، وكل حياة فيها كل هؤلاء. أدركت عهد العثمانيين والسلطان محمد رشاد، والاتحاديين وجمال باشا، والحرب العامّة الأولى، ولا تزال مشاهد آثارها في دمشق ماثلة أمام عيني، مرّت هذه الأدوار كلها فأعدتَها لي كما يعود شريط السينما حين يكرّ مسرعاً.

كانت لي أسرة هي عالَمي الصغير، فما زالت الأيام تأخذ منها واحداً وتضيف واحداً حتى (اللهم عفوك، ما هي الأيام ولكن أنت الآخذ وأنت المعطي وأنت مالك الملك)، حتى لم يبقَ من أسرتي الأولى إلاّ أنا. ركبتُ القطار من المحطة الأولى، وكلما وقف نزل ناسٌ من الركّاب وصعد ركّاب، حتى لم يبقَ من الذين كانوا معي لمّا ركبت إلاّ أنا. إني لأتخيل أحياناً ماذا تكون حالي لو أن هذا التبدّل وقع في ساعة واحدة أو يوم واحد: أُمسي وأنا بين أبي وأمي وجدي وجدّتي وعمّتي، وأُصبِح وقد ذهب هؤلاء جميعاً وجاءت أسرة من البنات والأحفاد وأولاد البنات والأحفاد، أسرة فيها أكثر من أربعين إنساناً جديداً لا أعرفهم!

لو بِتّ ودمشق كالتي تفضّلتَ فوصفت جانباً منها لمّا زرتَها قبل خمسين سنة، أيام العربات التي تجرّها الخيل المطهّمات، أيام النضال والمظاهرات، أيام المشايخ والعلماء والأدباء... لو بتُّ فيها وأصبحتُ في دمشق التي نراها الآن، أكنتَ تظنني أبقى في عقلي الكامل؟ هل يبقى لي ذهن يعي وقلم يكتب، أم أُحمَل حملاً إلى شهار عند الطائف؟

إن كل هؤلاء الذين أراهم حولي من أهلي ومن ذرّيتي شهدت ميلادهم ورأيت نموهم، وما أحدٌ رأى مولدي. لم يبقَ إلاّ واحد في الشام مدّ الله في عمره هو ابن خالة أمي، ووالدُ صهري زوج بنتي هو الشيخ مراد الطباع، وحماتي (هي السيدة عائشة بنت المحدّث الأكبر شيخ الشام الشيخ بدر الدين الحَسَني) التي كانت عائشة إلى ما قبل قليل ثم استأثر الله بها فتوفّاها عن خمسة وتسعين عاماً.

لم يبقَ أحدٌ ممن عرفني وأنا صغير، مضوا جميعاً وأنا ماضٍ على أثرهم، والذين يكتبون عني يُثنون عليّ والذين يحبّونني ويريدون أن يحسنوا إليّ ما عدت أريد منهم إلاّ دعوة صالحة بأن أبقى ماشياً على رجلَيّ لا أقعد ولا أحتاج إلى أحد، ثم أنال من الله بكرمه ورحمته -لا بعملي- حسنَ الخاتمة، وأن يُحسِن خلافتي في أهلي وذريتي. هذا ما أطلبه لنفسي، أما ما أطلبه للناس فأن يعيدهم الله إلى الإسلام وأن يعيد إليهم عزّ الإسلام. أما أنت يا أيها الأستاذ الكريم يا أبا الخير، فجزاك الله خيراً.



-٢٠٤-

صلاة الجمعة في مسجد بروكسل

الأيام التي قضيتها في كيسن في ألمانيا في المؤتمر السنوي لاتحاد الطلاب المسلمين في أوربا طمأنتني إلى أن الإسلام لا يزال بخير، وأنه إن طغى سيل الفساد والكفر والإلحاد وغطّى أكثرَ البلاد فإن فيها رواسي شامخات لا يصل السيل إلى ضهورها (بالضاد) وذُراها، وأنها إن انطلقت الشياطين: شياطين الجنّ وشياطين الإنس تأتي الناسَ عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن أمامهم ومن خلفهم، تخترع كل يوم جديداً يصرفهم عن الصراط ويبعدهم عن طريق الجنة، فإن في الدنيا ملاجئ آمنات مَن التجأ إليها سلم من الخطر ونجا من المهالك، وأعاذه الله الذي يُستعاذ به من كل شيطان رجيم.

ولكن العجب أن أجد ذلك في تلك البلاد، أن ألقى هذه الواحة الخضراء وسط تلك الصحراء، أن أحسّ البرد والسلام ومن حولي لهب النار! أحلف لكم أني رأيت في هذا المؤتمر شباباً قلت عن مثلهم غير مرة -وأنا صادق- أنهم مثل شباب الصحابة؛ أدبروا عن الدنيا حتى كأنهم لا يعيشون فيها، وأقبلوا على العمل للجنة كأنهم ينظرون إليها، يجمع بينهم السعي إلى رضا الله وتؤلّف بين

قلوبهم المحبةُ في الله، إن تنافس لِداتهم وأترابهم على اللذائذ تنافسوا هم على الطاعات، وإن تزاحموا على الكسب والأخذ كان تزاحمهم على البذل والعطاء. أعترف أني استفدت منهم ورأيت نفسي صغيراً أمامهم، وأكبرهم في سنّ أولادي، ومنهم أوربّيون دخلوا في الإسلام من جديد، ولا عجب، فإنكم تقرؤون في القرآن عن سَحَرة فرعون الذين دخلوا المباراة مع موسى وهمّهم إرضاء فرعون، يقولون: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ فلم تمضِ إلاّ دقائق معدودات حتى آمنوا هذا الإيمان العجيب لمّا رأوا ما بين سحرهم الذي جاؤوا به وبين المعجزة التي أظهرها الله على يد موسى، في دقائق معدودات آمنوا إيماناً أتمنى -ولي عشرون جداً في الإسلام- أن أكون فيه مثلهم: هدّدهم فرعون بكل عظيمة، بأن يقطع أيديهم وأرجلهم وأن يصلبهم في جذوع النخل، فما خافوا ولا جزعوا ورأوا هذه الدنيا بآلامها ولذائذها صغيرة إلى جنب الآخرة بنعيمها الباقي، فقالوا له: افعل ما تشاء، اقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.

* * *

وكان منهم شباب وبنات، ولكن طبيعة الحياة هناك جعلت كل بنت تأتي مع زوجها أو أخيها، فلا تجيء من غير محرم لها. وكان بينهم فتاة ألمانية دخلت في الإسلام حديثاً، طلبوا أن يُسمح لها بالكلام لتخبر عن قصة دخولها في الإسلام، فكانت خلاصة قصتها أنها وحيدة أمها وأنه قد مات أبوها ولم يدع لهما شيئاً، فكانتا تؤجّران غرفة من الدار للطلاب تعيشان من أجرتها، وآخن تكاد تكون بلدة الجامعة التي امتازت من جامعات ألمانيا بالهندسة

وفروعها. وجاءهما طلاب كثير يتداولون هذه الغرفة حتى قدم هذا الشابّ. تقول: كان مَن قبلَه يسهر الليل ثم يجيء متأخراً، وهذا لم يتأخر يوماً عن موعد صلاة العشاء، وكان مَن قبله يعرضون لها بكلمة أو بنظرة أو بمحاولة لمسة أو قبلة فتلقى منهم أذى، وهذا لم يرفع يوماً بصره إليها ولم يمكّنه منها، وكان يكلّمها على أدب واستحياء، ورأت من خلالِه ومزاياه ما دفعها إلى سؤاله عن سرّ اختلافه عن رفاقه، فأجابها بأنه مسلم. وكانت تسأله المرة بعد المرة عن الإسلام فيحدّثها، حتى دخل الإسلام قلبها فأعلنت إسلامها، وتزوّج بها.

وكذلك تكون الدعوة بالأفعال لا بالأقوال، وكذلك انتشر الإسلام قديماً بالقدوة والأسوة الحسنة.

فيا أيها الدعاة إلى الله: ابدؤوا بالشباب، بالشباب بنين وبنات؛ فإن الدعوات كلها، الطيب منها والخبيث، إنما قامت على عواتق الشباب. فإن استطعتم الوصول إلى قلوبهم وجدتموهم أسرع استجابة وأهون انقياداً وأعظم أثراً، لأنهم إن اعتقدوا زعيماً مشوا وراءه، وإن قبلوا مذهباً أخلصوا له. وإنهم يندفعون فلا يقفون حتى يبلغوا من الطريق آخره، لا يقبلون -كما يقال اليوم- بأوساط الحلول، إنهم يَفْدون المبدأ الذي آمنوا به والزعيم الذي اتبعوه بنفوسهم وأرواحهم. ومن أكثر المفكّرين المحدَثين فهماً لطبيعة الشباب أندريه موروا، وله في ذلك مقالات ومحاضرات.

إنكم ترون بين الشباب والشيوخ عند النظرة الأولى تبايناً واختلافاً، ولكن إن أمعنتم النظر وجدتم الغاية واحدة ولكن

اختلفت الطرق. كلاهما يبتغي اللذّة ويهرب من الألم ويريد الربح ويفرّ من الخسارة، إنهم كسيارات انطلقت إلى غاية واحدة، ولكن الشيخ يسوق سيارته حذراً متمهلاً يترفق في السير ويجتنب المزالق، والشابّ ينطلق بها مسرعاً لا يبالي العقبات ولا تخيفه العوائق، لا يحوّل بصرَه عن غايته يقحم الأخطار ليبلغها عاجلاً. ثم إن الشيوخ غالباً وبعض الشباب أحياناً يُدخِل عقله في الحساب، فيوازن بين اللذّات ويقوّم الأرباح، فيحتمل الألم العاجل لبلوغ اللذّة الكبرى والخسارةَ القليلة لنيل الربح الوفير، لذلك يؤثِر آخرته على دنياه.

والإسلام كغيره من الدعوات، كان جلّ الذين استجابوا له وتمسّكوا به وذادوا عنه من الشباب. لا أعني الأحداث فقط، فرُبّ حديث السنّ قد شاخ قبل الأوان ورُبّ شيخ يحمل على عاتقه وقر السنين وله صفات الشباب. هذا أبو بكر يوم قُبض رسول الله عليه الصلاة والسلام كان قد جاز الستين، ولكن كل ما وصفنا به الشباب كان فيه: في صدق محبته للزعيم الذي اتبعه وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وعمق ولائه للمبدأ الذي آمن به وهو الإسلام، وما أورثه ذلك من قوة وجرأة لا نكاد نعرف لها مثيلاً حتى عند عمر القوي. لقد قلتُ في أحاديث مائدة الإفطار في رمضان هذه السنة وكتبت في صدر الطبعة الجديدة لكتابي «أبو بكر الصديق» (الذي مرّ على طبعته الأولى ثلاث وخمسون سنة)، قلت: إني ما وزنت عمر بعظيم من عظماء الأمم إلاّ رجح، لأنها إن كانت العظمة بالمزايا الشخصية أو بالسمات الخلقية أو بالأعمال الجليلة أو بالآثار الباقية لم أجد مثل عمر، ولكن إن جئت أوازنه بأبي بكر رجح أبو بكر، حتى في القوة والجرأة. وشاهدي على

ذلك موقفه يوم قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويوم توجيه جيش أسامة، حيث جزع عمر وثبت أبو بكر، ووثب إليه فأمسك بتلابيبه وقال له: أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام؟ أنا أحلّ لواءً عقده رسول الله ﷺ؟ لقد قوي الإسلام، واللهِ لو انفردَت سالفتي لَما رددتُه ولَما قعدت عن نصرة الإسلام.

فيا أيها الدعاة، لقد ضعتم وضيّعتم معكم الشباب! إن الله سيسألكم عنهم، فبماذا تُجيبون ربّ العالمين إذا قال لكم: لقد أنزلتُ عليكم كتاباً واحداً وشرعت شرعة واحدة وديناً واحداً، ففرقتم دينكم وكنت شيعاً: صوفية وحرباً على الصوفية، ومتمسكين بالمذاهب ومعرضين عنها، ومن أمثال ذلك كثير، وكلٌّ يدعو الشباب إلى مذهبه وطريقته.

لقد علّمَنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن الإسلام بُني على خمس، على خمس قواعد راسيات راسخات، فأقمناه على أعواد لا تحمل البناء، شغلناهم بالفروع عن الأصول، أوجبنا عليهم أشياء لم يوجبها الله وحرّمنا أشياء ما حرّمها الله، تمسّكنا بالفروع حتى جعلناها أصولاً وأهملنا بعض الأصول لنحفظ هذه الفروع، مزجنا كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بكلام ناس ما كانوا معصومين، سخّرنا المنابر التي هي لله وحده لا يجوز أن يُلقى منها إلاّ: قال الله أو قال رسوله، أو شرح ما قال الله وما قال الرسول وما أجمع عليه المسلمون، فجعلنا منها خطباً للسياسة وأهلها وللأهواء وأصحابها.

هذه المنابر لله، ليست لحكومة ولا حزب ولا جماعة

ولا مذهب ولا نِحلة، ولا لجلب نفع للخطيب ولا لدرء مضرّة عنه؛ فردّوها إلى الله يَرُدَّ عليكم عزّتكم ويُعِدْ لكم مجدَكم ويُزِل من بينكم فرقتَكم ويُرجِعْ لكم وَحدتَكم، ويوردكم جميعاً يوم القيامة الحوض على رسول الله إن أخلصتم العمل لدين الله وأطعتم الله وأطعتم الرسول، ولو في معصية جميع عباد الله، ولم تعصوا الله لتطيعوا عباده من أهل الثروة والسطوة والحظوة، وممن يقولون إننا من المسلمين ويتركون شرع الله.

* * *

ولمّا قُضي المؤتمر واستعدّوا للعودة جميعاً (ومعهم أهلي) إلى آخن سألني رئيس اتحاد الطلاب المسلمين أن أذهب مع طائفة من الطلاب إلى جامعة فرانكفورت، فإن فيها شباباً يريدون أن يجتمعوا بي ليسألوني، وفي الذهاب إليهم نفع لهم ورضا لله. فكرهت الذهاب أولاً، ولكنني ذكرت ثواب الله فقلت: نعم. ومشوا كلهم شَمالاً ومشيت مع هؤلاء جنوباً حتى بلغنا الجامعة، وكانت في العطلة الصيفية، فأخذونا إلى مهاجع الطلبة (أي مساكنهم وأماكن نومهم)، فرأيت إلى جوارها مهاجع الطالبات، ما أبصرت بينهم سداً ممدوداً ولا حداً حاجزاً، كأن من شاء منهم أو منهن لقي من أراد لقاءه!

وبعض القوم في أوربا قد حُرموا نخوة الرجل وذوده عن عرضه، حتى إنني قلت كلمة من قديم، من عشرات من السنين، أنه ليس في الفرنسية التي أعرفها ولا في الإنكليزية كما فهمت ممن يعرفها كلمة بمعنى كلمة العِرض عند العربي. وحتى قرأت

في إحدى المجلات خبراً قصصته وحفظته، أن القائمين على المدارس المختلطة والجامعات يعلّمون الطالبات فيما يعلّمونهن كيف يتجنّبن الحبل وكيف يتخلصن منه إن وقع! أي أنهم يُبيحون السِّفاح أو يصنعون شيئاً هو قريب من ذلك، فينزلون بالبشر إلى رتبة البهائم. ثم يأتي منا من يريد أن يسلك ببناتنا هذا المسلك، فيحاربون الحجاب ويرغّبون في التكشّف ويحبّذون الاختلاط، ينفذون فينا أول مادة من قانون إبليس، أي التكشّف والسفور والحسور: ﴿يَنْزِعُ عَنهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْءاتِهما﴾. أليست هذه هي المادة الأولى في قانون إمامهم وقائدهم إلى جهنم إبليس؟

عمّ الاختلاط المدارس كلها حتى الثانوية منها، ومما أحمد الله عليه أنها بقيت في ألمانيا -لمّا كانت حفيدتي تدرس فيها- ثانوية واحدة تقوم عليها مربية قديمة في العمل كبيرة في السنّ، أصرّت على أن تبقى مدرستها للبنات وحدهن، فدرست حفيدتي فيها، حتى إذا ماتت هذه المديرة وتخرجت الحفيدة رجعت هذه المدرسة إلى ما عليه مثيلاتها من الاختلاط بين الشبان والبنات.

وصلنا الجامعةَ فلم نجد فيها إلاّ قليلاً من الطلاب. وكان الموعد في ساعة محدّدة رتّبت أمري على أن أجالسهم فيها ثم أسرع إلى اللحاق بجماعتي، وأنا يؤذيني ويضايقني إخلاف الموعد أو تأخيره، وغضبت لأنهم غيّروا طريقي وقطعوني عن أصحابي ثم لم يُحكِموا أمرهم ولم يضبطوا مواعيدهم. وانتظرت حيناً فجاء الطلاب وامتلأ المكان، وكان مجلساً مبارَكاً مفيداً إن شاء الله، وُجّهت فيه أسئلة وأثيرت فيه مسائل، والفضل في نجاحه لله أولاً ثم للدكتور حبيب زين العابدين ولزوجته المرأة

الصالحة العالِمة الفاضلة التي عملت على إنجاحه.

والعجيب -كما قلت قبل قليل- أني رأيت الاتصال بين الطلبة والطالبات أمراً سهلاً، وأحسب أنه لا يمنعه عندهم قانون ولا يستقبحه عرف، فالقوم في أوربا سابقون في تفكيرهم وفي علومهم المادية وفي مدنيتهم الظاهرة، ولكن إن جاءت الأمور التي يسمّونها «جنسية» هبطوا عن رتبة بني آدم؛ عوراتهم بادية والاختلاط بينهم عامّ، وهذا ما تصنعه البهائم. هل رأيتم أَتاناً (حمارة) تستر عورتها أو تتوارى إذا جاء موسم اجتماعها بقرينها؟ أفتريدون أن يكون قدوتنا الحمير؟!

وعدنا بالسيارة كما جئنا، ومشينا متمهلين فما كان ينتظرنا موعد، وقعدنا في مقهى على نهر الراين أكلنا فيه وشربنا. ولا تسألوني من أين سرت، فلقد كنت حديث العهد بالبلد لا أعرف مسالكها ولا أسماء مدنها ولا قُراها، وإن كانت قرى على المجاز، وإلاّ فهي مدن صغيرة طرقها وبيوتها ومرافقها ونظافتها مثل ما في المدن. وحقّ لنا أن نُعجَب (بضم النون) بذلك، لكن لا نَعجَب (بفتحها) منه ولا نراه شيئاً صعباً ولا متعذراً، فإن عندنا من المال وعند عامّتنا من الإدراك ما نستطيع أن نعمل مثله وخيراً منه على أهون سبيل، إن تعاونت على ذلك البلديات وأرباب المنابر وأصحاب الأقلام والمدرّسون في المدرسة والوُعّاظ في المسجد.

* * *

يكون عند الطفل عشرون لعبة من نفائس اللُّعَب الغوالي، ثم يرى مع ابن الجيران حصاناً من الخشب ما له قيمة ولا فيه فنّ

فيبكي يريد مثله! ذلك لأن الإنسان يزهد فيما يملك ويشتهي ما لا يملك. وأنا لم أجد في تلك الديار من شمالي ألمانيا وبلجيكا وهولندا -على جمالها- شيئاً ليس في بلادي أجملُ منه، بل إن في جبال الشام (ولبنان وفلسطين من الشام) وفي أوديتها وفي عيونها وينابيعها وفي جداولها وأنهارها وفي خضرة شجرها وتنوع ثمرها ما ليس في تلك البلاد، وما هو أجمل منه، ولكن الإنسان مفطور على حبّ الجديد وعلى الرغبة في كشف المجهول، لذلك أسرعت إلى قطع تذكرة لي ولزوجتي في الدرجة الأولى من القطار الذاهب إلى بروكسل.

ولم يسألني أحدٌ عن جواز السفر ولا عن سمة (تأشيرة) الدخول. وكان لي في بروكسل صديق قديم وأخ كريم هو ابن شيخنا الشيخ علي ظبيان وأخو صديقنا الأستاذ تيسير ظبيان، صاحب جريدة «الجزيرة» التي كنا مع إخواننا في المجمع الأدبي لما أنشأناه نكتب فيها، هو الأستاذ نديم ظبيان. وهو أكبر سناً من أخيه تيسير، وتيسير أكبر مني، مدّ الله في عمر الأستاذ نديم ورحم أباه وأخاه.

ركبت القطار مطمئناً معتمداً على الأستاذ نديم، وقد مسّني طائف من الشيطان فنسيت أن أجعل اعتمادي على ربّ نديم لا على نديم. وخبّروني أن القطار يصل بي إلى المحطة الكبرى في بروكسل، وما عليّ إلاّ أن أهتف به (أكلّمه بالهاتف) فيحضر إليّ، وإن لم أجده خرجت من باب المحطة فإذا أنا في وسط البلد، فتتفرّج زوجتي بأسواقها وتتأمل ما يُعرض فيها، فتُسَرّ بذلك مرة وأحرم أنا المسرة مرتين: مرة لأنني لا أحب التجوّل في الأسواق

ولا التأمّل في معروضاتها، ومرة لأن عليّ دفع ثمن ما تشتريه! والمرأة إن دخلت السوق لم تستطع أن تخرج منه من غير أن تشتري شيئاً وإن كانت لا تحتاج إليه.

ومدة السفر بالقطار من آخن في ألمانيا إلى بروكسل ساعة واحدة، مررنا فيها بما لست أُحصي من القرى والضواحي، وجزنا بلييج، المدينة الكبيرة؛ لم تختلف علينا المشاهد، ولكن أحسسنا باختلاف العادات ونظام السير واختلاف اللسان، أحسسنا بأننا انتقلنا من بلد إلى بلد، على حين لا أشعر إذا سافرت من دمشق إلى بغداد أو مصر أو المغرب بأنني فارقت بلدي. على أن في بلجيكا نفسها شعبين ولسانين: لساناً فرنسياً ولساناً آخر فَلمَنْكياً، لعلّه (ولست متحققاً) قريب من الألمانية. ولا تزال المنازعات والمنافسات تقع بين الشعبين وتكتب عنها الصحف، حتى إن أسماء المدن في المحطات وعلى الطرق تُكتب باللسانين (بروكسل وبروسل، وأنفرس وأنتورب).

وحطّ بنا القطار في المحطة الكبرى، وخرجنا من الباب كما قالوا لنا فلم نجد السوق الحافلة بالناس ولا الحركة الدائمة للبائعين والشارين، ولكن رأينا شارعاً كامداً شبه خالٍ فيه بيوت مفتوحة على أبوابها نسوة لا يختلفن عمّن نرى من نساء تلك البلاد، قاعدات متكشفات ساكتات لا ينطقن، ولكن هيأتهن تُريب ونظراتهن تستغرب، وكان عجبهن منا أكثر من عجبنا منهن إذ يرين كهلاً عجوزاً وامرأة كبيرة متحجبة وما في هذا الشارع أثر لحجاب. فمشينا إلى آخره وعدنا فما وجدنا تجارة ظاهرة ولا بضائع معروضة، ما وجدنا إلاّ مناظر قليلة لا يألفها أمثالنا،

فرجعنا إلى المحطة (وهي في أول الشارع) ننوي العودة بالقطار الذي جئنا به إذ لم نجد غايتنا، لا الأستاذ نديم وجدناه ولا السوق الذي حدّثونا عنه ولجناه، وهممت بركوب القطار، وإذا نحن بالأستاذ نديم ظبيان. فقصصنا عليه القصص فضحك، وأفهمنا أن للمحطة بابين: باباً يُفضي إلى السوق وباباً هو باب السوء يُفضي إلى مكان الفحش والبغاء. فاستغفرْنا الله من هذا الخطأ وحمدناه على السلامة.

وكنا في ضحى يوم الجمعة فقال: هلمّ بنا إلى المسجد.

وفي بروكسل مركز إسلامي ومسجد متسع يمتلئ يوم الجمعة بالمصلّين، وجمهرتهم من الأتراك. فجال بنا جولة في الشوارع حتى وصلنا إلى المسجد. ومن عظمة الإسلام أن أخوّة الإيمان تظهر في المسجد ولو اختلفَت الألسُن والألوان وتناءت البلدان، فإذا دخلتَه لم تجد إلاّ إخوة متعارفين يجمع بينهم هذا النداء القدسي: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، وتوحّد بينهم هذه الكعبة التي يتجهون إليها؛ فكل دعوة إلى رابطة غير الإسلام بين المسلمين تُولَد ميتة، فلا الدعوات القومية ولا العنصرية ولا العصبيات الحزبية بالتي تستطيع أن تنقض ما أبرمه الله حين قرّر في كتابه أُخُوّة الإيمان: ﴿إنّمَا المُؤمنونَ إخوةٌ﴾.

سلّموا عليّ (والترجمان بيننا) كأنني أعرفهم ويعرفونني من قديم، تعارفَت القلوب قبل الألسنة. وكلّفوني أن أخطب الجمعة، فخطبت خطبة كانت تُترجَم فقراتها -على عادتهم في تلك البلاد- فأجد أثرها على وجوه القوم لا سيما الإخوة الأتراك، هؤلاء الذين

عملت القوى كلها، قوة السلطان وقوة المال وقوة الإعلام، على صرفهم عن الإسلام منذ ستين سنة، فما استطاعت أن تصنع شيئاً وبقي الإسلام مستقراً في قلوبهم. ولمّا أعاد عدنان مندريس رحمة الله عليه الأذان باللغة العربية وسمعوه تصدح به منارات إسطنبول (إسلام بول، أي مدينة الإسلام كما سمّاها السلطان محمد الفاتح) فركوا آذانهم ولم يصدّقوا ما سمعوا، فلما تيقّنوه فاضت دموعهم فرحاً وانطلقت ألسنتهم لله شكراً ولمن حقّق هذا الحلم ثناء ومدحاً، وكان ذلك اليوم عيداً لا تُمحى ذكراه من نفوسهم.



-٢٠٥-

أيام لا تُنسى في بروكسل

لم ينتهِ الكلام عن بروكسل؛ ختمتُ الحلقة الماضية في المسجد وأبدأ حلقة اليوم من المسجد. ومن المسجد يبدأ كل عمل إسلامي، لأن المسجد عندنا هو المعبد وهو المدرسة وهو الندوة (البرلمان)، ليس المسجد للعبادة فقط، وليست العبادة في المسجد فقط فالأرض كلها للمسلم مسجد، وكل عمل نافع يعمله المؤمن احتساباً عبادة.

ولئن فرّق غيرنا بين الدنيا والآخرة وقسموا الرجال إلى رجال دين ورجال دنيا، فإن كل مسلم رجل دين. إن كانت الدنيا والدين عند غيرنا كطريق الرياض وجدة لمن كان في مكة، أو كطريق الإسكندرية والجزائر لمن كان في تونس، يمشي أحدهما شرقاً والآخر غرباً، فهما عندنا كالطائف والرياض أو الجزائر والرباط، طريق واحد. لكن من الناس من تقعد به همّته عن إكماله فيقف في أول محطة منه، يقنع بها ولا يمتدّ عزمه إلى أبعد منها، وهذا الذي يطلب الدنيا وحدها: ﴿وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِن خَلاق﴾، ومَن يمرّ على هذه ليصل إلى الأخرى، ذلك الذي يجمع الغايتين يقول: ﴿رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً﴾.

وقد أرشدنا الله إلى أن الآخرة هي المُراد وقال للمسلم: ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرةَ﴾، ولكنه عقّب فقال: ﴿ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدّنيا﴾. وما أحسنَ الدينَ والدنيا إذ اجتمعا، وإن كان الدين لا يقابل الدنيا ولكن تقابلها الآخرة، والدين منهج كامل لكليهما يضمن لمن يتبعه السعادةَ فيهما.

هذا هو الإسلام وكذلك يكون إحياؤه، لا كإحياء الغزالي الذي كان حُجّة الإسلام وكان المفكّر الإسلامي الأول، ولكنه لمّا جنح إلى الصوفية وظنّ أنها «المُنقِذ من الضلال» اختلط عليه الأمر فلم يَعُد يتبيّن الطريق، والحمد لله على أن المسلمين ما نهجوا منهجه في «الإحياء». تصوروا ماذا يكون حال المسلمين لو أن كل واحد منهم قلل الطعام حتى ذوى جسمه وأصابه السقام، وترك طلب العلم انتظاراً لعلم يأتي عن طريق الكشف والإلهام، وأوى إلى ركن مُنزَوٍ غارق في الظلام؟ وهذا ما حثّ عليه الغزالي ودعا إليه، الغزالي الصوفي لا الغزالي المفكّر الفقيه الإمام. لو فعلنا هذا (ونحن يومئذ بين أخطر عدوَّين عرفهما تاريخنا القديم: الصليبيين، والمغول والتتار)، ماذا كان يبقى من دولة الإسلام؟

وأنا أحب الغزالي من يوم أهدى إليّ شيخُنا الشيخ عيد السفرجلاني (وأنا تلميذ عنده في المدرسة الابتدائية سنة ١٣٣٨هـ) رسالته «بداية الهداية»، على أنني من حبي للغزالي أحمد الله على أنه ما مات حتى عرف أن المنقذ من الضلال ليس الصوفية، بل المنقذ من الضلال الدليلان الظاهران على جانبَي الطريق والنيّران الهاديان إلى الغاية المقصودة، اللذان لا يضلّ مَن استضاء بضوئهما ومشى على هديهما، وهما: الكتاب والسنّة.

والحمد لله أن الغزالي ما مات -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- إلاّ وصحيح البخاري على صدره.

رحمه الله فلقد كان عظيماً، وكتابه الإحياء عظيم، ولكن فيه أيضاً من أخطاء الصوفية وأخطارها الشيء العظيم.

* * *

لمّا وصلت إلى هذه الجملة وأنا أُعِدّ هذه الحلقة من الذكريات حمل إليّ البريد مجلة المسلمون عدد السادس من ذي القعدة سنة ١٤٠٦، وفيها نبأ عن مؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين في أوربا سنة ١٤٠٦ (١٩٨٦)، وأنا أتكلم هنا عنه في مؤتمر ١٣٩٠ (١٩٧٠). ووجدت في الجريدة أنه سيتمّ في اجتماع هذه السنة وضع أسس العمل الإسلامي.

لا أكتمكم أنني وقفت عند هذه الجملة: وضع أسس العمل الإسلامي؟!

لقد كنت أحسب أن هذه الأسس قد وُضعت يا إخوان من قديم الزمان، وقامت عليها الأركان وشُيّد فوقها وعلا البنيان، فلماذا ندع ذلك كله ونحاول أن نبدأ من جديد؟ أو لعلّ الذي نشر الخبر في الجريدة زاد فيه أو نقص منه أو بدّله تبديلاً حتى جعلنا نفهم منه هذا الذي لا أظن أن اتحاد الطلبة المسلمين يريده أو يقصده.

أنترك مثلاً ما وصلَت إليه الطيارات اليوم وأنها صارت عمارات تطير وأنها تحمل معها مئات من الناس وجبالاً من السلاح والمتاع، نترك هذا كله ونعيد قصة رايت وأخيه لمّا طيّرا

أول مرة تلك اللعبة التي افتُتح بها تاريخ الطيران؟ أندع مئات المجلَّدات التي أُلّفت في النحو ونعود إلى ما قالوا إن أبا الأسود الدؤلي قد وضعه مفتتِحاً به النحو حين قال: إن الكلام اسم وفعل وحرف؟ أو ما زعموا أن علياً ﷺ هو الذي وضعه وقال له: انحُ هذا النحو، فسُمّي «نحواً».

ليس علينا، بل لا حقّ لنا، أن نضع أساس العمل الإسلامي؛ بل أن نجدّد من جوانب البناء ما أبليناه وأن نُصلِح ما أفسدناه ليعود كما كان. فإذا شئتم أن تعرفوا أسس العمل الإسلامي وأن تُقيموها في شباب أوربا فاذكروا أن العربي، بل الأعرابي، كان يَفِد على رسول الله عليه الصلاة والسلام فيبقى عنده يوماً أو بعض يوم، فيتعلم من الإسلام ما تصحّ به عقيدته ويسلم به دينه، ويعود إلى قومه داعياً إليه مبشّراً به معلّماً له.

وإن عند من حولكم من شباب أوربا، إن لم يكن عندهم جميعاً، من صفاء القلب مثل الذي كان عند أولئك الأعراب الوافدين على الرسول عليه الصلاة والسلام، بل إن عندهم فوق ذلك من العلوم الجديدة ما ليس عند أولئك، فأعطوهم الإسلام صافياً خالياً من آراء المتكلمين وخلافات المجتهدين ومن طرق الصوفية ومن بدع المبتدعين، فلعله إذا صادف قلوباً نظيفة فارغة تمكّن منها واستقرّ فيها، ولعلّ من هؤلاء الشباب الذين يُقبِلون اليوم عليكم ويستمعون إليكم مَن سيكون هو المصلح المنشود والقائد المنتظَر وحامل لواء الدعوة إلى الإسلام.

لقد كان ابن باديس يوماً وكان حسن البنا يوماً وكان

المودودي والندوي وأمثالهم، كان كل منهم واحداً من آلاف طلبة العلم لا يدري أحدٌ ما أعدّه الله إليه وما سيكون من الخير على يديه. ولعلّ كلمة أنتم قائلوها في هذا الجمع تنسونها وينساها أكثر السامعين، ولكنها تنزل على قلب واحد منهم منزلَ الغيث على الأرض الغنيّة العطشى فتُنبت النبتَ المرتقَب. إنكم لا تعلمون وأنتم تحاضرون هذه المئات من الشباب في النوادي والآلاف من التلاميذ في المدارس، مَن بينَهم هو الذي كُتب في اللوح المحفوظ أن يكون الرجل المنشود؟ هل تعرفون كم بينهم من بذور العبقرية الكامنة في نفوسهم؟

كم كان مع شوقي من لِدات في المدرسة؟ كان شوقي يومئذ تلميذاً من التلاميذ، نسخة من كتاب مطبوع، ولكن الأيام تمرّ وسنوات المدرسة تنقضي، فإذا هم جميعاً تلاميذ في المدرسة كغيرهم من التلاميذ ورجال في الحياة كغيرهم من الرجال، وإذا شوقي وحده هو شوقي. وكذلك ظهر محمد بن عبد الوهاب، ومن قبله ابن تيميّة والأئمة الكبار، والشعراء والأدباء والعباقرة والنابغون، وكل عظيم كان في صغره كنزاً مطموراً فكشفه الله للناس.

فلعلّ مِن هؤلاء الشباب الصغار الذين يحضرون هذا الاجتماع وأمثاله بنّا آخر أو محمد عبده جديداً أو مثل ابن عبد الوهاب أو أولئك الأئمّة الأعلام.

* * *

قلت لكم إن كل عمل إسلامي يبدأ من المسجد، لكن لا

يبقى فيه. لا يغلق المسلم عليه باب المسجد ويحبس نفسَه فيه إلاّ أياماً معدودة في السنة يَحسن فيها الاعتكاف لمن أراد الاعتكاف، فإذا انقضت حمل روح المسجد ونزل متسلحاً بها إلى معركة الحياة، يعمل في السوق وفي الدائرة وفي المصنع وفي المعركة مع العدوّ لإعلاء كلمة الله، ورُبّ رجل في السوق يبيع ويشتري وقلبُه مع الله وجوارحه مقيَّدة بشرع الله أقربُ إلى الله من قاعد في المسجد وقلبُه معلَّق بالدنيا.

لذلك خرجنا بعد انقضاء الصلاة مع طالبَين من الشام صلّيا معنا ودعوانا إلى دارهما، أنا والأستاذ نديم وأهلي معي، أحدهما ابن الشيخ حسين عزيزيّة الذي كان ممن يلازم الشيخ بدر الدين، والآخر رجل أحسست لمّا رأيته بميل إليه وشعرت بأن له قلباً مؤمناً ونفساً طيبة، هو محمد الجمّال من تلاميذ الشيخ عبد الكريم الرفاعي. وقد خبّرني الدكتور عدنان الهوّاري الذي درس مع أخيه في بلجيكا وأقام فيها سنين طوالاً، ثم رجع فافتتح مَخبراً في مكة وبقي أخوه الأكبر في آخن، خبّرني أنهما لا يزالان باقيَين في بلجيكا، أمّا الأول فقد تَبَلْجَك فاستقرّ فيها وتزوّج منها، وأمّا الثاني فبقي ثابتاً عاملاً مع الدعاة إلى الله في تلك البلاد.

ذهبنا معهما وسُررت بزيارتهما، ووجدناهما يطبخان لأنفسهما، فأكلنا أكلة شامية خالصة في عاصمة بلجيكا وأكل معنا الأستاذ ظبيان. وهو في العادة مثلي لا يأكل عند أحد، ولكن صفاء نفس الشابّين والصلاح الذي كان بادياً على وجهيهما والكرم الصادق الظاهر في دعوتهما حمَلنا على القَبول. وكانت وليمة لا فخمة ولا حافلة بالألوان ولا تُعَدّ من الولائم الفاخرة المترفة،

ولكنها كانت طيبة وكانت لذيذة.

ثم أخذونا يُروننا جانباً من البلد، فبلغنا ساحة فيها جسر من الحديد منصوب يعترض الشارع يوصل بين شارعين جانبيَّين، لا أستطيع تحديد طوله ولكنه يزيد عن مئة متر، فدُهش الأستاذ نديم والشابّان، وقلت: ما أدهشكما وأنتما تقيمان هنا وتمرّان كل يوم من هنا؟ قالا: هل تصدّق أن هذا الجسر لم يكن قبل أيام موجوداً؟ وقالوا -بعدُ- أنه أُقيمَ في ثمان وأربعين ساعة. قلت (كما كان يقول صاحب كليلة ودمنة): وكيف كان ذلك؟ قالوا: إنهم حفروا أساس الدعائم وغطّوها وأعدّوا زُبَر الحديد وأوصالها وما يحتاج إليه الجسر بحيث لم يبقَ إلاّ تركيبه، فلما جاءت العطلة الأسبوعية شرعوا يركّبونه، فاشتغلوا به ليلة الأحد ويومَه وليلة الإثنين حتى كمل، وكان صباحَ يوم الإثنين منصوباً يمرّ عليه الناس والسيارات.



وكان أقرب متنزَّه هو ترفورين، حفظت اسمه لأن عندي صوراً له كنت أودّ نشرها مع هذه الحلقة ونشر غيرها، لولا أنني أمليها بالهاتف إملاء من مكة فيطبعها الأخ طاهر أبو بكر جزاه الله خيراً. وإذا وفّق الله وصدر جزء جديد من الذكريات وضعت هذه الصورة فيه. وترفورين جنّات متصلة لا تعرف أولَها من آخرها: بساط أخضر فوقه سقف أخضر، مكان جميل وماء عذب سلسبيل، وأهم ما فيه بناء كبير جداً كأنه قصر من قصور الملوك الأوّلين فيه متحف يجسّد تاريخ الكونغو لمّا كانت تحكمها

بلجيكا. ويكفي أن تنظروا في الخريطة إلى حجم بلجيكا وحجم الكونغو (التي تبدّل اسمها بعد الاستقلال فرجعت إلى اسمها القديم، زائير) لتعجبوا من شاة تبلع فيلاً! ما مثلها في ذلك إلاّ جارتها هولندا لمّا كانت تحكم أندونيسيا.

في هذا المتحف من نفائس الآثار المنقولة من تلك الديار ما لا تتسع له الروايات والأخبار. ومن أعجب ما فيه رسالة من المهدي (السوداني) إلى ملك بلجيكا يدعوه فيها إلى الإسلام: "أسلم تسلم"، وأعلام وأسلحة قالوا إنهم غنموها من المهدي. وأنا أعلم أن المهدي حارب الإنكليز وحاربوه، ولكن ما علمت (وما أكثر الذي لم أعلمه) أنه حارب ملك البلجيك.

وفي متاحف أوربا وأميركا، لا في هذا المتحف وحده، نفائس لا يبلغ التقدير حقيقة أثمانها، هي لنا، سُرقت منا في ليل غفلتنا وهجوعنا، لا ندري متى يصبح الصباح علينا فننهض من نومنا ونستردّ هذا الذي سرقوه منا؟ بل نستردّ قبل ذلك فلسطين والبلادَ التي عدا عليها اللصوص في ذلك الليل الطويل الذي نام فيه المسلمون؟

ثم أخذونا إلى «الأتوميوم». وهو صورة مجسَّمة لما يُرسَم في كتب التلاميذ عن الذرّة وتحطيمها، باقٍ من أيام معرض بروكسل الكبير الذي أقيمَ قبل سبع وعشرين سنة على أغلب الظن. وما رأى الذرةَ أحدٌ ولا يمكن من صِغَرها أن يراها أحد، وكان علماؤنا الأولون يسمّونها «الجوهر الفرد» أو الجزء الذي لا يتجزأ، أخذوا ذلك عن اليونان، على أن لهذا الكلام تفصيلاً لا

موضع له الآن. وكان من الخرافات التي أخذناها منهم وحسبناها يومئذ -كما حسبوها- من العلم أن في الدنيا أربعة عناصر مُفرَدة (أي ليست مركَّبة) هي الماء والهواء والتراب والنار، وأن البرودة من الماء والحرارة من النار والجفاف من الهواء والرطوبة من الأرض، ثم بنوا على ذلك كلاماً طويلاً عريضاً طبّقوه على ما دُعي بالأخلاط الأربعة في جسم الإنسان، ثم قسّموا الأطعمة والعقاقير إلى حارّ وبارد ورطب ويابس. ومن شاء رأى مثال ما قالوه في كتب الأولين، والغريب أن الإمام ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» شغل نحواً من ربع الكتاب بهذا وأمثاله، الذي صار اليوم أقرب إلى أوهام العوامّ وغرائب الأفهام.

ولست أُفيض في وصف «الأتوميوم»، فإن عندكم في جدة إلى جنب الجامعة مثالاً له: ثماني كرات تفصل بينها أعمدة مجوَّفة. ونسبة هذا المثال من الأصل في بروكسل كنسبة الفيل الذي يوضع في غرفة الاستقبال (ولا يجوز شرعاً وضعه) من الفيل الحقيقي. إن سقف الكرة العليا -كما خبّرني الدكتور عدنان الهواري- يعلو مئة وعشرة أمتار، ولكنه لضخامته لا يبدو عالياً. وقد صعدنا إليه بمصعد كهربائي، ثم انتقلنا على أدراج متحرّكة من كرة إلى أخرى، وفي أكثرها أجهزة علمية وأشياء لم أعُد أذكرها، ولو أنني ذكرتها ووصفتها لما فهمت تفاصيلها ولا فهم القراء عني. وكيف يفهمون وأنا غير فاهم؟ ولِتتصوروا ضخامة هذه الكرات أبيّن لكم أن واحدة منها اتُّخذت مطعماً، دخلنا إليه وأكلنا فيه وعددتُ الموائد (أي طاولات الأكل) فقاربت في العدد الأربعين، أمضينا فيه ساعات كانت فيها متعة الجِدّة، فهي شيء

لم نكن نعرفه، وفيها جَلوة النظر، فهي تطلّ بعلوّها على بسيط من الأرض ينطلق فيه البصر وتأنس النفس. فأكلنا طعاماً لا أقول إنه طيب (فما عندهم طعام طيب) ولكن يدفع الجوع ويغذّي الجسد.

ولمّا جئنا ننزل وجدنا المصيبة في النزول. فقد أعلنوا بالمكبرات أن وقت الزيارة قارب النهاية، ثم أعلنوا أنه انتهى، قالوا ذلك بلسانهم ولا نعرف نحن لسانهم، فلما جئنا ننزل إذا المصاعد والسلالم الكهربائية قد وقفت، وإذا أنا أمام سلّم من الحديد يكاد يكون قائماً فيه مئات من الدرجات، ما عددتها ولكن زاغ بصري لمّا نظرت إلى أسفلها. وخفت أن تزلق عليه رجلي أو أن يزيع منه بصري، وما ثَمّ حواجز (دَرابزين) أمسك بها ولا جدران أستند عليها، فرأيت الموت عياناً لأنني لا أستطيع أن أبقى في مكاني ولا يُسمح لي بالبقاء، والهبوط على هذا السلّم يكاد يكون هلاكاً محقَّقاً! ولولا أن أمسك بي بعض الناس وأعانني الله لَما بلغت الأرض.

وقد وقع لي مثل ذلك مرة في عمّان. وعمّان قائمة على أحد عشر جبلاً، وكنت يومئذ على جبل الحُسين، فأردت النزول ماشياً فسلكت درباً بين العمارات منحدراً، حتى إذا جاوزت ثلث الجبل لم أعُد أجد العمارات وبقي الدرَج وحده وليس على جانبيه شيء أستند إليه، فدارت بي الأرض وأحسست أنني واقع لا محالة، فقعدت على درجة منه أنتظر الفرج، فمرّ بي جماعة من الشبان فرجوتهم أن يمسكوا بيدي وقلت لهم: إنني كنت شاباً مثلكم أنحدر من أعلى جبل قاسيون في خطّ مستقيم أقتحم كل ما

أجد أمامي، يتدحرج الحصى والحجارة تحت قدمَيّ وأنا ماضٍ قُدُماً ويعترضني الصخر فأقفز عليه، ثم انتهيت إلى ما ترون. وأنتم سيأتي عليكم يوم تصيرون فيه مثلي، فأمسكوا بيدي حتى أدعو لكم يومئذ أن يأتي مَن يُمسك بأيديكم. فضحكوا وضحكت وأمسكوني.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكَر -كما يقول الناس- فلقد وجدت مثل هذا الموقف مرات، لا عليّ أن أعرض إليها فإنها ذكريات من الذكريات.

لمّا كنا في العراق ذهبت مع ثلاثة من الطلاب إلى إيوان كسرى في قرية سلمان باك (ومعنى «باك» في الفارسية الطاهر) أي أن مدينة الإيوان نُسي ملكها كسرى أنوشروان ودُعيت باسم سلمان لمّا شرّفه الله بالإسلام. وكان الناس يصعدون إليه على جدار من اللبِن متهدم، يمسكون باللبنة بأيديهم ويصعدون على التي تحتها بأقدامهم، واللبنات متينة مستمسكة فلا يُخشى عليهم أن تفلت واحدة أمسكوا بها. فلما بلغتُ ثلث الجدار صاح بي أحد الطلاب من تحت: التفت يا أستاذ حتى نصوّرك. فلما التفتُّ ورأيتهم على الأرض صغاراً كأنهم النمل وشعرت بنفسي معلَّقاً بين السماء والأرض لم أعُد أدري أين أنا. لقد دار رأسي وزاغ بصري، ولا أعرف إلى هذا الساعة كيف وفّق الله فنزلت.

وقد وقع مثل ذلك للأستاذ السنهوري باشا لمّا كان في العراق، وقد صعد إلى ظهر الإيوان ولكنه لم يعُد يستطيع النزول، واهتمّت به الحكومة لأنه كان ضيفاً عليها، ولم تكن هذه الطائرات

الوثّابة (الهلكوبتر) فجاؤوا بطائرة عادية وكلّموه بمكبر الصوت أن يتمسك بسلّم من الحبال ينزل إليه منها، وصارت الطيارة تمرّ من فوقه متباطئة ما استطاعت ولكنها لا تزال بالنسبة إليه مسرعة، فيمرّ الحبل به حتى يكاد يلامس وجهه ثم لا يستطيع أن يتمسك به، وأعادوا ذلك مرات كثيرات، حتى تمسّك به مرة وشدّد قبضته من شدة الخوف ورفعوا الحبل فنجا. وقد خبّرني هو رحمه الله أنه لم يصدق بالنجاة، ولمّا رأى نفسه على الأرض أحسّ أنه عاد إلى الحياة بعدما مات[١].

* * *

أعود إلى حديثي. لقد انتهت جولاتنا في البلد ومضى هزيع من الليل ولم يبقَ إلاّ أن نجد مكاناً نبيت فيه، والأستاذ نديم حفظه الله مقيم في بروكسل من أكثر من أربعين سنة، فقال لي: هلمّ إلى فندق نظيف رخيص خالٍ مما تكره أعرف صاحبه وأوقن أنه سيعتني بكم. ومضينا معه، حتى إذا وصل إلى المكان لم يرَ فندقاً وإنما رأى عمارة جديدة عالية، فتعجّب وقال: أين ذهب الفندق؟ ومرّ بنا ناس فسألناهم، فكتموا ضحكهم علينا وقالوا بأن هذه العمارة قائمة من خمس سنين. والأستاذ لا يدري بها!

وذهبنا نفتّش عن فندق غيره فما وجدنا غرفة خالية، ولم ندع مكاناً نظنّ أنه يؤوينا إلاّ ذهبنا إليه، قال: هلمّ إلى نُزُل (بانسيون). فطرقنا أبواب عدد منها فلم نلقَ فيها مكاناً، ثم ذهب بنا إلى حيّ

(١) وقد مرّ بنا هذا الخبر والذي قبله في الحلقة ١٠١ من هذه الذكريات (مجاهد).

يبدو أنه من أحياء المترَفين الأغنياء فقرع باباً، فخرجَت لنا عجوز متكبرة شامخة الأنف، فلما أبصرَتني وأبصرت زوجتي بحجابها أنكرتنا ولوَت وجهها عنا وأبت أن تستقبلنا، فهممت بالرجوع، فقال الأستاذ نديم: انتظر. وعاد إليها قال لها: هؤلاء أصدقاء الدكتور الهوّاري.

فرأينا شيئاً أدهشنا؛ تبدّلَت سحنتها وانبسط ما كان منقبضاً من وجهها، فكأننا كنا في يوم من أيام شباط (فبراير) في رعده وبرقه وزمهريره فانجلت السحب وطلعت الشمس وبدا وجه السماء! ورحّبت بنا وأدخلَتنا إلى غرفة عالية واسعة فاخرة الفرش، ولكنها قالت لنا إنها لا تخدم أحداً وإن علينا إذا أردنا شيئاً أن ننزل بأنفسنا إلى المطبخ فنأخذ ما نريد. وأبَت غير ذلك وأبينا عليها ما عرضته علينا. وذهبنا نفتّش عن مكان غيره فلم نجد، فوقف الأستاذ عند كوخ الهاتف في الطريق وأخذ الدليل وجعل يسأل فندقاً بعد فندق فلم يجد فيها كلها مكاناً، وكان مَوْهن من الليل (أي نصف الليل) وكدنا نسقط من التعب، وعرفت عندئذ مبلغ نعمة الله على الإنسان أن يكون له بيت، ينام وهو آمن أن يدخل عليه أحد ينازعه مكانه ويسرق منه نومه ينغّص عليه ليلته.

وهنا عرفت مدى ضلال الذين يقولون للمرأة: اخرجي من بيتك حرام أن تبقي سجينة بين أربعة جدران. ويحكم ما أجهلكم! من الذي ضحك عليكم فقال لكم إن البيت سجن وإن من الظلم للمرأة أن تقعد بين أربعة جدران؟ إن السجين مَن لا يجد في مثل هذه الليلة وقد كدّه التعب وهدّه النعاس أربعةَ جدران ينام بينها ويغلق عليه بابها. نحن السجينان أنا وزوجتي، لأننا نتيه في

الشوارع لا نلقى فراشاً نُلقي بأنفسنا عليه، ونحن في بروكسل التي يراها الناس إحدى المدن الكبار.

إن كل إنسان يحبّ بلده، ولكن البعيد عنه يزداد حبه إياه وشوقه إليه. فواشوقاه إلى دمشق وإلى بيتي فيها! ما لي ولبروكسل وغير بروكسل؟ إن الذي يسافر إلى أوربا من غير حاجة للدراسة في جامعاتها أو التداوي في مستشفياتها أو لمقصد معيّن له فيها إنما يُتعِب نفسه في غير طائل، حتى الدراسة الجامعية فإن عندنا هنا في المملكة وفي البلاد العربية ما يُغني عن طلبها في غيرها، وكذلك المستشفيات ومَن فيها من الأطباء، اللهمّ إلاّ في بعض التخصصات الجامعية النادرة أو الأطباء العالَميين الكبار، وقليل ما هم.

مَن ذهب إليها فليذكر عظمة ماضيه ونموّ حاضره، ولا ينظر إلى ما فيها نظر البدوي الذي يرى الحضَر أول مرة فيدهشه كل ما فيه، بل نظر الغنيّ لمَن هو أغنى منه والعالم لمن هو أعلم. وما زالت الأمم تتفاوت في المزايا تفاوُت الأفراد، ولا يغضّ من قَدْر الإنسان أن يستفيد من مزايا غيره والحكمةُ ضالّة المؤمن. والضالّة مُلكٌ له ندَّتْ عنه وفرّت منه، فهو يلتقطها حيثما وجدها لأنه أحقّ بها فهو صاحبها.

مرّت هذه الخواطر كلها في نفسي، ولكن لم تُرِح جسدي ولم تُغنِ عني ولم توصلني إلى فراش أستطيع أن أُلقِي بجنبي عليه. ولبثنا ننتظر، فانتظروا معي إلى الحلقة الآتية.

* * *

-٢٠٦-

في منطقة الآردن

مضى ثلثا الليل ونحن، أنا وزوجتي والأستاذ ظبيان معنا، هائمون على وجوهنا في شوارع بروكسل، وقد خلت إلاّ من أعقاب السابلة وروّاد الليل، من السكارى العائدين بالخزي من الخمّارات والسرّاق والعشّاق، ومن يتيقظ حين ينام الناس كالبوم والحيّات والعقارب وهوام الأرض.

ولكل امرئ أمانٍ يتمناها، وقد تجمّعت أمنياتنا كلها في غرفة لها باب ووطاء وغطاء ووسادة نسند رؤوسنا إليها، حيث نأمن أن يدخل غريب علينا. وأدركت عظمة حديث رسول الله ﷺ حين قال: «من أمسى آمناً في سِرْبه مُعافىً في بدنه مالكاً قوتَ يومه فقد حِيزَت له الدنيا». وهذا الذي كنا نطلبه في تلك الساعة من الدنيا كلها. لقد عرفت لماذا اعتدّ (أي عدّ) الله من نعمه على قريش أنه أسكنهم بجوار البيت الآمن وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وذكرت (والذكريات يجرّ بعضها بعضاً) لمّا مررنا في طريقنا من عمّان إلى بغداد ورأينا ما صنع الإنكليز في الصحراء

في محطات النفط، حين أقاموا فيها بيوتاً مثل بيوتهم في بلادهم فجاءت تشبهها أو تذكّر بها. لذلك كان من معنى كلمة «هوم» عندهم أنها السكن، وقد أخذوا المعنى من العربية، فليس «السّكَن» الدار وحدها التي يسكن الجسم فيها ويستريح بل ما تسكن النفس إليه وتطمئن به، لذلك جعل الله لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها.

وكنا قد وصلنا إلى آخر البلد (بروكسل) فقلّت العمارات وكثرت الحدائق، فقعدت على كرسي من كراسيها وقلت: أتمدّد فأسترخي فلم يبقَ لي صبر على النوم، وأنا مسافر منذ الصباح، قطعتُ الطريق من ألمانيا إلى بروكسل ثم طفنا شوارع بروكسل كلها. ويبدو أن أصواتنا علت بالحديث ونحن لا نشعر، وكنا أمام دار واطية لاصقة بالأرض لها نافذة مفتوحة من الحرّ، فبرز منها رجل قد أيقظناه من نومه فأقبل يلومنا، والأستاذ يحاول الاعتذار إليه وتهوين الأمر عليه، وإذا به يقول له: مسيو زابيان؟ وإذا هو يعرفه، وإذا هو يفتح لنا بابه ويخبرنا أن عنده غرفة للإجارة يؤجّرها، وأنه الآن وحده والدار خالية إلاّ منه لأن زوجته في سفر.

وكان يظهر عليه أنه كهل طيّب القلب، طلق الوجه حلو اللسان، فدخلنا إلى شبه حديقة تفضي إلى دار صغيرة فتح لنا بابها وأضاءها، فوجدنا غرفة متسعة من البناء القديم عالية السقف، فيها أثاث نظيف ولكنه من الطراز العتيق، ومعها حمّام كبير، وفيها جرس إذا احتجنا إلى شيء قرعناه. فكان ذلك أكثر مما نطلب.

وودّعَنا الأستاذ وذهب، وعاد صاحب الدار إلى غرفته

فوجدنا النوم الذي كنا نفتّش عنه ينتظرنا على هذا السرير القديم جداً العريض جداً. فما رمينا بأجسادنا عليه حتى هبط النوم علينا فلم نصحُ إلا ضحى الغد وقد فاتتنا صلاة الفجر، بعد أن سألنا صاحب الدار عن موعدها وكلّفناه أن يوقظنا إليها. فصلّيناها قضاء، ومَن نام عن صلاته كان كفّارتها الإسراع في قضائها.

وخرجنا إلى الحديقة فإذ هي عرصة مهمَلة فيها أشجار كبار محمَّلة بالثمار، وأكثرها من أشجار التفاح الذي ندعوه في الشام بالشتوي لأنه كبير الحجم جداً بطيء النضج، لا ينضج إلاّ في وسط الخريف، لذلك كنا نأكله في الشتاء. ووجدناه مُلقى على الأرض لا يلتقطه أحد وما على الأرض منه يملأ صناديق، فسألنا صاحب الدار، فخبّرَنا أن نفقات جمعه وحمله ونقله لا يفي بها ثمنه الذي يُباع به، فجرّبنا أن نذوقه فإذا هو حامض لم يبلغ حدّ النضج. وسألناه عن الطعام فقال: اطلبوا ما تشتهون أشترِه لكم أو أطبخه أنا. فطلبنا منه فطوراً فأعدّ لنا الفطور من البيض المقليّ والحليب المغليّ والعسل الشهيّ والخبز الناضج الطريّ، فأكلنا وشربنا الشاي.

وجاءنا الأستاذ نديم وقد استرحنا وشبعنا. وكذلك الدنيا: يوم لك ويوم عليك، ويوم يسرّ ويوم يسوء، وما عاش فيها أحد بالسرور الدائم ولا بالألم المستمرّ. ولقد أحصى الناصر (هل تعرفونه؟ عبد الرحمن الناصر باني «الزهراء»، الذي كان أعظمَ ملوك أوربا في عصره، الذي أنشأ في الأندلس خلافة ثانية مع خلافة بغداد وتَسمّى بأمير المؤمنين، وما ينبغي أن يتسمّى بإمارة المؤمنين إلاّ واحد لأن المسلمين جسد واحد، فهل رأيتم جسداً

له رأسان؟ إن رأيتموه كان من عجائب المخلوقات). الناصر هذا أحصى قبل موته الأيام التي مرّت عليه صفواً بلا عكر فوجدها ستّة عشر يوماً فقط! هذه هي الدنيا:

خُلِقَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُريدُها   صَفْواً مِنَ الأقـذارِ والأكـدارِ

وجاءت زوجتي ترتّب السرير فوجدت سمّاعة تحت الوسادة متّصلة بأسلاك، تتبعناها فإذا هي مربوطة بجهاز تحت السرير ما عرفنا ما هو، فحسبناها آلة تجسُّس علينا! فلما حضر الأستاذ نديم وأطلعناه عليها وسألناه عنها ضحك من جهلنا وقال: إنها تنقل إلينا موسيقى ناعمة لنسمعها فننام عليها.

وقال لنا: إلى أين تحبون أن آخذكم؟ قلت: أنت المقيم في البلد، تعرف متفرَّجاته ومتنزَّهاته ومواطن الجمال فيها وما يستحقّ الزيارة منها، ولكننا قرأنا في التاريخ أن معركة كبيرة بين الألمان والحلفاء كانت في أوائل الحرب الأولى سنة ١٩١٤ في منطقة الآرْدِنْ وتكرّرت سنة ١٩٤٠، وكان مثلها في مكان قريب في حرب السبعين (١٨٧٠)، فأين هذه الآردن وما هو بعدها عنا؟ وهل ينفعنا أو يمتعنا أن نراها؟ قال: هلمّ إليها فإنها قريبة، نركب القطار إلى نامور (وهي إحدى المدن المعروفة في بلجيكا) ثم نركب إلى قرية دينان القريبة من المكان الذي كانت فيه المعركتان. قلت: على اسم الله.

* * *

وكنت أحسب أن الله لم يخلق وادياً أحلى من وادي الرّبوة والشاذِرْوان في الشام، فلما رأيت هذا الوادي الذي يجري فيه نهر

الموز أيقنت أن قدرة الله أكبر من أن تحبس الجمال كله بين جبلَي الربوة. وأنت حين ترى المشهد من مشاهد الطبيعة تظن أنه أجملها وأنه لم يُخلَق مثله، فإن رأيت غيره بدّلت رأيك فيه.

انظر إلى من يسمّونهن ملكات الجمال: يختارون من كل بلدة أجمل مَن يجدون من نسائها. وربما أساؤوا الاختيار، وربما كان في البيوت أجمل منها جمالاً وأشدّ فتنة وأخفّ روحاً وأقرب إلى قلب مَن يراها، ولكنهم جعلوا للجمال مقاييس مادية حسبوا أنها هي ميزانه، وما دروا أن الجمال لا يُوزَن ولا يُقاس إلاّ بمقياس أولي الأذواق من الناس. فإذا اجتمعن لم تعُد تدري مَن هي أجمل منهن.

وليس الجمال للنساء وحدهن؛ فالشيخ المشرق الطلعة النوراني الوجه الأبيض اللحية جميل، والعجوز الطيبة القلب الباسمة الفم الحسنة الخلق جميلة، والرياضي القوي البنية المشدود العضل العريض المنكبين جميل. وكذلك الحال في مشاهد الكون ومجالي الطبيعة، فمنظر تراه تحسّ أنه كالفتاة الحلوة، ومنظر كالشيخ الذي له براءة الطفولة، ومنظر الغانية المتبرّجة التي تستهوي النفوس ولا تروق القلوب. وما ذكرت مسابقات الجمال لنصنع مثلها ولا لنقتدي بها، فنحن لا ننظر إلى امرأة طمثها قبلَنا غيرنا، ولا نجعل النساء سلعة معروضة وعلامة نضعها على علب المتاع لنروّجها في الأسواق، ولكن جمال النساء عندنا لأزواجهن.

رأيت هذا الوادي قد جمع الجمالَ من أطرافه؛ نهر كبير يجري فيه، وصخور مُخْضَرّة تقوم على جانبَيه، وقُرى صغيرة

وأبنية أثرية تعلو بعضَ جباله، ولكن وادينا على ذلك كله أحبّ إليّ، ولو عرضوا عليّ المبادلة لَما بدّلت به. هل تُعطي ابنك لغيرك وتأخذ ابنَ غيرك ولو كان أكمل الشباب وأجملهم؟ لقد خطرَت هذه الحماقة يوماً على أذهان قريش حين عرضوا على أبي طالب أن يُعطيهم محمداً عليه الصلاة والسلام ويدفعوا إليه من شاء من فتيانهم، فضحك منهم وقال لهم: أعطيكم ابني لتقتلوه وآخذ ابنكم لأربيه لكم؟ ولا يزال التاريخ يضحك من هذه الجَهالة إلى الآن.

إن الجمال شيء عجيب، إنه من أسرار خلق الله، إن وجوه الناس تتشابه جميعاً في وضع عيونها وحواجبها وأفواهها وآنافها، وما ثَمّ وجه يطابق تماماً وجهاً آخر. والجمال أمر يُدرَك ولا يُعرَف ويُحَسّ ولكن لا يُقاس.

وكذلك القول في مناظر الطبيعة. كنت بالأمس في ترفورين، وهي منا على مرمى حجر، فرأيت جمال الخضرة والظلّ والبِرَك الصافية والنسيم العليل، فقلت: لقد ضمّ هذا المكان الجمال كله! فلما نزلت هذا الوادي رأيته أجمل. وأنا أُقِرّ مرغَماً (وإن كان هذا الإقرار صعباً على نفسي) أن وادي الربوة (الشاذروان) الذي طالما ملأتُ الأسماعَ وسوّدتُ الصحفَ بوصف جماله لا يكاد يباري وادي الموز هذا ولا يقف أمامه، ولا يواجهه بعينه ولا يستطيع أن ينظر إليه.

* * *

نزلنا من القطار في دينان. وهي في وادٍ يمرّ النهرُ، نهر الموز، فيه ويقوم الجبل على جانبَيه. وما تبلغ أن تُعَدّ قرية؛

إنها مجموعة أبنية ما تصل إلى الثلاثين، لكن فيها كل ما يُحتاج إليه: فندق صغير، ودكاكين فيها كل ما تطلبه من مثلها من طعام وشراب، ومتاع مما لا يُستغنى عنه هناك من المتاع، وفيها من التحف ما له بالبلدة صلة فهي تدلّ عليها وتكون ذكرى لك من زيارتك إياها، وفيها كنيسة فخمة ما دخلتُها ولكن ظاهرها يدلّ على حسن بنائها، تقوم عند أقدام الجبل وتكاد تصل من علوّها إلى صدره. وفوق الجبل بناء ضخم لست أدري ما هو، ركبنا المصعد فصعد بنا إليه فرأينا الوادي كله، أي أننا رأينا بعضاً منه، وهو وادٍ طويل يمتدّ ما امتدّ نهر الموز ويكاد يصل إلى آخر القسم البلجيكي من الآردن.

والآرْدِنْ منطقة واسعة أكثرها مع بلجيكا وأقلها مع فرنسا، لمّا نظرت من أعلى أحسست كأني أنظر إلى وادي الربوة في دمشق من عند قبة السَّيّار فأرى جزع الوادي ومنعطفه. وما كنت أراه وأنا على الأرض محجوباً عني انكشف الآن لي، فكأنه المستقبل الذي لا يصل بصرك إليه ولا يحيط علمك به، تراه من فوق فكأن الماضي والحاضر والمستقبل قد اجتمعت لك، فعلمتُ أن ذلك كله نِسبيّ؛ كمن يأخذ جرائد الأسبوع الماضي ليقرأها دفعة واحدة، فما كان حاضراً لقارئها في يومها صار الآن ماضياً عند من يراها كلها، وما كان من حديث الغد في العدد التالي صار عنده الآن من خبر الحاضر.

هل ترونني تفلسفت وأغربت وجئت بشيء لا يُفهَم، كما يفعل أدعياء الشعر الجديد أو شعر الحداثة، أي شعر الحدَث الذي يستوجب الوضوء إن كان صغيراً والغُسْل إن كان حَدَثاً أكبر!

على أن من شعر الحداثة ما لا تذهب بأوضاره ولا تطهّر صاحبَه منه شلالات نياغارا لو وقف تحتها واغتسل بها.

ودعوني أبالغ في التفلسف فأسأل: ما المستقبل؟ وأين أدركه وأنا إن وصلت إليه صار حاضراً وذهبت أفتّش عن مستقبل جديد أجري وراءه؟ وهذا المعنى يشغل من نفسي مكاناً لذلك ما أفتأ أعود إليه وأتكلم فيه.

* * *

سألت الأستاذ (وقد قلت لكم إنه أكبر مني سناً، وأنا أنسى ما كنت أريد أن أقوله فما بالكم به؟ وأرجو ألاّ تخبروه أني اغتبته، فما أعلنت غيبته ولكن كتبتها في جريدة تصل إلى كل مكان). سألته: هل تعرف دينان؟ قال: كيف لا أعرفها وقد قضيت شهر العسل فيها؟ ولم يقُل إن ذلك كان قبل أن يُقتَل أرشيدوق النمسا فتقوم الحرب العامّة الأولى.

نزلنا من القطار، ولم نقصد شيئاً في دينان مما يقصده السياح ليروه لأن الأستاذ حفظه الله كان قد نسيه، فلم يكن أمامنا إلاّ أن ننتظر عودة القطار. مررنا على الجسر فوق نهر الموز عشرين مرة حتى عجب منا الناس إذ يرون امرأة محجبة، وما عرفوا من قبلُ محجبات إلاّ الراهبات فحسبوها راهبة! والراهبات ربما كُنّ عند بعض الناس غيرَ محبوبات ولكنهن غير مَهينات ولا مزدرَيات، ودينان منعزلة لا يكاد يصل إليها إلاّ قليل من الناس فلا يألف أهلها رؤية الغرباء.

ومن قال لكم إن المرأة المسلمة إن بقيت في أوربا على حجابها سخروا منها أو آذوها فلا تصدّقوه، فما يسخر ثَمّة أحدٌ من أحد. تلك آداب تعلّموها من كتاب الإسلام القرآن ونسي بعضَها بعضُ أهل الإسلام. ولكني أنصح مَن تذهب إلى تلك الديار أن تلبس قريباً مما يلبس النساء هناك حتى لا تنبّههم إليها فتقع الأنظار عليها، بشرط أن لا تكشف إلاّ وجهها ولا تكشف ما أمر الله بستره من جسدها، ولا يكون لباسها ضيقاً يحكي جسدَها ولا رقيقاً يشفّ عنه ولا غريباً يلفت الأنظار. وإن بقيت على عباءتها ولم تفارق زيها في بلدها لم يضرّها ذلك في نفسها بل سبّب الخسارة لها في مالها، لأنهم صاروا يطمعون فينا ويظنّون أن كل قادم من أرض النفط (الخليج) يملك بئر نفط فيزيدون الأسعار علينا. حتى الإنكليز الذين كانت تُضرَب بأخلاقهم الأمثال (حتى ألّف حافظ عفيفي باشا كتابه «الإنكليز في بلادهم») أخذوا هذه الأخلاق وصاروا -كما تسمعون- لا يطمعون إلاّ بالمال، استغلّوا له كل شيء حتى العلم، حتى الطب. فانتبهوا يا أيها الناس.

إقليم الآرْدِن من أجمل الأقاليم، بعضه مع فرنسا وأكثره مع بلجيكا، وهو الباب الذي يدخل الغزاة منه عليهما؛ في حرب السبعين أيام بسمارك ونابليون الثالث، وفي الحرب الأولى سنة ١٩١٤ والثانية سنة ١٩٤٠. أنشأ الفرنسيون خطّ ماجينو الذي قالوا إنه لا يُقتحَم ولا يدخل منه عدو مهما قوي، فكان كقبر جحا في قونية الذي زعموا أنه مؤيَّد بعوارض الحديد وأن عليه من الأقفال ما يزن القناطير فهو لا يُفتح ولا يُكسر، ولكن ليس من حوله جدران فمن شاء الدخول دار فولج المكان. وكذلك فعل الألمان،

دخلوا من الآردن حيث الطريق مفتوح إلى باريس، ولو بقينا في القطار ولم ننزل في دينان لصرنا فيها بعد قليل.

* * *

والكلام عن بروكسل طويل، وهي عاصمة السوق الأوربية المشتركة، أي أنها شبه عاصمة لأوربا المتحدة، لتوسُّط موضعها واتفاقهم على اختيارها. وساحتُها الكبرى من أجمل ما رأيت من مراكز المدن (سانتر)، ومن الساحات هناك ما هو مفروش بالسجّاد، ولكنها ليست سجّاداً من الصوف ولا من الحرير، ولم ينسجها منوال ولا أكفّ النساء ولا الرجال، بل هي بساط من الورد والزهر، ومن حولها الشوارع تطيف بها. وفي طرف الساحة الكبرى ببروكسل بناء عظيم في زاويته منارة مسجد لا تختلف عن أكثر المنارات، ذلك هو بناء البلدية. ومِن خبره الذي حدّثني به ولدي الدكتور عدنان الهوّاري أن المهندس الذي أقامه لحظ بعد تمامه ميلاً في محوره، فاشتدّ ذلك عليه وكبر لديه أن يُنسَب إليه، فصعد إلى أعلاه وألقى بنفسه فمات! وفي الناس عاقل ومجنون، ولله في خلقه شؤون.

وفي الساحة متحف يبيّن تطور بروكسل عبر التاريخ، كالذي يبيّن حال الرياض بين يومها وأمسها والذي يتنقل في البلدان فيلقى الإعجاب في كل مكان. وقد طالما تمنيت واقترحت على أمين العاصمة المقدسة الأستاذ فؤاد، ابن أخي الأستاذ محمد عمر توفيق الوزير الكاتب الأديب، أن يُقيم معرضاً دائماً يمثّل الكعبة والحرم في الجاهلية وفي صدر الإسلام وما زاد فيه الخلفاء على

مدى التاريخ، حتى جاءت الزيادة السعودية ففضلتها كلها وزادت أضعافاً عليها، وآخرها فرش السطح وإعداده للصلاة وإقامة سلّم يصعد هو بالناس بدلاً من أن يصعد الناس عليه. فلو أنهم صنعوا مثل ذلك بمكة المكرمة وجدّة ووضعوه في صورة مجسَّمة ليطّلع عليها مَن لم يعرف كيف كانت هذه البلاد قبل خمسين سنة (كما عرفتها أنا) وكيف صارت الآن.

* * *

وجدت في بروكسل عجباً؛ عادت بي الأيام إلى ما خلّفت ورائي من حياتي فرأيت فيها ما كان في دمشق وفقدناه من أكثر من ربع قرن، رأيت فيها الترام.

والترام قديم في دمشق، جاء به وبالكهرباء أحدُ الولاة المصلحين من ولاة العثمانيين وأظنه ناظم باشا. عمره (أي الترام) من عمري، كان هدفَ كل مظاهرة وطنية، فكان أول ما تقصد إليه عربات الترام تحرقها، لا بغضاً بالحضارة التي تمثّلها ولا لنستبدل بها ركوب الدوابّ وعربات الخيل، بل لأن شركة الكهرباء التي تسيّره بلجيكية. وطالما قاطعناه الأيام والشهور وأعرضنا عنه، رفضاً للاستعمار ولأن بلجيكا التي تملكه هي الأخت الصغرى لفرنسا التي عدَت على بلادنا وحكمتنا بغير إرادة منا وانتدبتنا لتمدّننا، فكان انتدابها قتلاً لرجالنا وتدميراً لمدننا، تدمير المنازل مرتين بالمدافع من القلاع التي نصبوها على جبالنا موجّهة إلينا لا إلى عدوّ بلدنا، وحرقاً للحارات وللأحياء، حتى إن أجمل أحياء دمشق بقيت خرائب أكثر من ربع قرن، ولا يزال اسمها على ألسنة

الناس إلى اليوم، الذي لا يعرفونها بغيره هو «الحريقة».

أقول إن الترام الذي قلعنا خطوطه وأزحنا عرباته وجدته في بروكسل بذاته، فذكّرني الماضي وأعاد لي ما سلف من عمري.

فنحن لهذا لا نحبّ بلجيكا، ولكن الله علّمنا أن لا يمنعنا ذلك من قولة الحقّ فقال لنا: ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على ألاّ تَعْدِلوا، اعدِلوا﴾، ومنَ العدل أن أذكر مزيّة لبلجيكا تُذكر وتُشكر، هي أنها أول دولة غربية اعترفت بالإسلام ديناً. وهي تبعث فتسأل أولياء التلاميذ أول كل سنة مدرسيّة عن الدين الذي يختارونه لأولادهم، فمن كان من أبناء المسلمين جعلت لهم هم اختيار مدرّس يدرّس لهم دينهم، وأعطته الحكومة مرتَّبه وجعلت له كل حقّ هو لسائر المدرّسين، وقد جرى العمل على أن يختار المدرسين المركزُ الإسلامي.

* * *

-٢٠٧-

خواطر في الحياة والموت، في طرق هولندا

كنت قاعداً أجمع ذهني لأكتب هذه الحلقة فوصلَت الجريدة وفيها هذا النعي في إطار ظاهر بخطّ واضح: "إنا لله وإنا إليه راجعون، إن رابطة الأدب الإسلامي لَتنعي (والصواب «تنعى» بفتح العين) إلى أعضائها وإلى محبّي الأدب الإسلامي والكلمة الطيبة الدكتورَ عبد الرحمن رأفت الباشا نائب رئيس الرابطة..."، فسقطَت الجريدة من يدي ولم أستطع أن أُتِمّ قراءة الخبر، وفركت عينَيّ وقلت: لعلّ بصري يكذبني ويُريني ما لا يرى. وعدت فأعدت قراءة الخبر وقلت: لعلّه من تشابه الأسماء، أو لعلها من كاذبات الشائعات. ولكن الذي ينعاه هو الرابطة ورئيسها الأخ الحبيب الداعية الأديب أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي، فهل يمكن أن يخدع عليٌّ علياً وأن يكون الخبر مكذوباً؟

وتصورت الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا وقد امتلأ أديمُه بالحياة وفاضت نفسه بالنشاط، وتخيّلته يوم كان بين تلاميذي وكنت أقول له على مشهد ومسمع من رفاقه: إنك يا عبد الرحمن

أديب وسيكون لك شأن. وقد كان، فكتب وخطب وعلّم، وكان المفتّش العامّ للغة العربية في الشام يوم كان رَصيفه وسَمِيّه الأستاذ عبد الرحمن الباني مفتّش العلوم الدينية، فصنعا (صنع الله لهما) للدين وللعربية ما يبقى في الناس أثره وعند الله ثوابه.

وأنا من يوم بدأت أكتب عن هذه الرحلة لم يفارق ذكر الموت خاطري، ولكني أحاول أن أتناسى وأن أُبعِد قلمي عن مركز الألم؛ كالذي تدخل تحت جلده شظية من الخشب فتتعفن وينتفخ الجلد ويتورم المكان، ولا يشفيه إلاّ أن يضغط بإصبعه على مكانها ليُخرِجها ثم ينظّف الجلد من أثرها، ولكن مسّ الموضع يؤلمه، فيصرف إصبعه عنه ويدور من حوله من حيث يشعر أو لا يشعر. وكذلك كانت حالي، وإن كان جرح قلبي بفقد ابنتي الذي ذكّرني به هذا الخبرُ لا يندمل ولا يبرأ ولا تذهب آلامه.

ولكن ما لي؟ وكيف أتكلم كما يتكلم الجاهلون الذين لا يؤمنون؟ إني لأرجع إلى نفسي فأسألها أقول لها: ويحك، أئن فقدتُ ابنتي فهل فقدت -لا قدّر الله- إيماني؟ ولو كانت البنت في غيبة لزيارة أختها أو عمّتها هل كنت أبكي لبعدها وأجزع من ذكرها؟ فما لي آمن عليها عند أختها وأخشى وهي عند ربها؟

وهل يُفقَد من يموت؟ لقد قلت من قديم مقالة قرأها الناس مني وسمعوها: إن الجنين في بطن أمه لو أمكن أن يسمعك وأن يفهم عنك ويكلمك وسألته: ما الدنيا؟ لقال لك: إن الدنيا هذه الأحشاء التي أعيش فيها وهذه الظلمة التي أتقلب خلالها. فإن قلت له: ها هنا دنيا البيتُ الواحد منها أوسع من دنياك هذه كلها بمئة ألف ضعف، وإن فيها شمساً وقمراً، وإن فيها براً وبحراً،

وشتاءً وصيفاً، هل كان يستطيع أن يفهم عنك أو يتصور ما تقول؟ ولو كانا توأمين في بطن واحد فوُلد أحدهما قبل صاحبه وأمكن أن تسأله عنه، فبماذا يجيب سؤالك؟ ألا يقول لك إنه كان فبان وخلا منه المكان، إنه مات ودُفن تحت في الأعماق؟

فكيف رأى الولادة موتاً، وكيف لا نرى نحن الحقيقة فنعلم أن الموت ولادة جديدة؟

حياة الإنسان، كل إنسان، مراحل أربعة كل واحدة مما قبلها كالتي بعدها بالنسبة إليها، فالموت الذي نفرّ منه ونحاول أن نبتعد عنه ما هو إلاّ نقلة من مرحلة إلى التي بعدها. مرحلة حياتك وأنت جنين في بطن أمك، وحياتك في هذه الدنيا، وحياة البرزخ بينها وبين الآخرة، والحياة الدائمة الباقية وهي حياة الآخرة.

إن الموت في حقيقته ولادة وانتقال إلى مرحلة أرحب وأوسع، وكل ولادة فيها ألم. فلماذا آلم لموت ابنتي ولا أفرح أن قضت شهيداً (ولا تقُل شهيدة) بيد مجرم آثم، وأنها موعودة بما ادّخره الله للشهداء؟ والشهداء إن كانوا عندنا أمواتاً فإنهم عند ربهم أحياء يُرزَقون، أحياء ولكن لا تشعرون بحياتهم. فلماذا أتحاشى ذكرها، وإن ذُكرت فاضت مدامعي وشقّ الحزن قلبي؟ أين إيماني؟ اللهمّ إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهمّ ارحمها وارحم عبد الرحمن الباشا الذي ذكّرني موتُه بها والذي كان يوماً بين تلاميذي، فلعلّ كلمة مما كنت أقول للتلاميذ كانت عاملاً صغيراً، صغيراً جداً، في توجيهه الوجهة التي ارتضاها الله له فيكون لي شيء من ثوابها.

إني من ستين سنة أعلّم وأكتب وأخطب وأحدّث، اللهمّ لا أدّعي أن ذلك كله كان خالصاً لوجهك. وليته كان، ولكني بشر أطلب ما يطلبه البشر من المال الحلال، ويسرّني المديح، وتستهويني متع الدنيا، فهل يضيع لذلك جهدي كله؟ هل أخرج فارغ اليدين لم أنَل شيئاً من الثواب؟ إني لأمتحن نفسي أسائلها كل يوم: هل كانت الدنيا وحدها همّي؟ لو عُرض عليّ أضعاف ما أخذه الآن على مقالاتي وكتبي وأحاديثي على أن أجعلها كتباً ومقالات وأحاديث في الدعوة إلى الكفر، هل كنت أرضى؟ فليست إذن كلها للدنيا، كما أنها ليست مبرَّأة من مطالب الدنيا.

قلت لكم إني أفكّر في الموت وأعرف أني على عتباته. إنه يمكن أن أعيش عشرين سنة أخرى كما عاش بعض مشايخي وكما يعيش اليوم ناس من معارفي، ولكن هل ينجيني ذلك من الموت؟ فما الذي أعددته للقاء ربي؟ اللهمّ إني ما أعددت إلاّ توحيداً خالصاً خالياً من الشرك، وأني ما عبدت غيرك ولا وجّهت شيئاً مما يُعَدّ عبادة إلى سواك، وأنني أرجو مغفرتك وأخشى عواقب ذنبي، فاللهمّ ارحمني واغفر لي.

سيقول قائلون: هذه لم تعُد رحلة فيها خبر ما صنعت وصورة عمّا رأيت وما سمعت، ولكنها شتيت من الأفكار والآراء. والجواب قدّمته في أول حلقة من هذه الذكريات، قلت إني لست كالجندي المسافر في مهمّة عسكرية لا يهتمّ إلاّ بها ولا ينصرف إلاّ إليها، بل كالسائح في الأرض؛ يبصر المشهد فيقف عليه ليراه، ويسمع المحاضرة فيتريّث مكانه ليستكمل سماعها، ويستطيب البلد فيمكث فيه أياماً. فمَن قبلني على هذا من القراء فأهلاً به

وسهلاً، وثقوا أن هذه الاستطرادات ربما كانت أنفع لي ولكم من مجرد سرد الوقائع.

* * *

أعود الآن إلى حديث الرحلة، أعود إلى آخن.

وآخن على حدود دول ثلاث، تنتقل من واحدة إلى أخرى في ربع ساعة فقط تمشيها على رجليك، فإن توجهت تلقاء بلجيكا كانت أول مدينة كبيرة تلقاك هي لييج، وإن أممت هولندا مررت بمدينة أندهوف، ثم ببلدة قد تتساءلون إن سمعتم اسمها: ما الذي نقلها إلى هولندا ونحن نعرفها في نَجْد هنا عندنا؟ وأين هولندا من نجد؟ هي بريدة (Breda)! ثم يتفرع الطريق فرعين، الأيمن إلى أوتراخت ثم أمستردام، والأيسر إلى روتردام، ثم إلى لاهاي التي يدعونها هم دينهاغ (Denhaag).

وقد ذهبنا إلى هولندا مرتين اثنتين، ولا أستطيع أن أقول إنني زرتها ولكن مشيت في طرقها ودخلت مدنها وألقيت نظرة شاملة عليها، فإن تكلمت عنها فإنما أصف ما رأيت، وما رأيت منها إلاّ أقل من القليل. وجدتها كالبندقية (فينيسيا) في إيطاليا التي ما رأيتها، ولكن رأيت بندقية العرب وهي البصرة. وأمستردام مثلهما في كثرة أنهارها أو أقنيتها، فشارع وقناة: إن شئت ركبت السيارة فيه أو الزورق أو السفينة فيها. ورأيت محطتها الفخمة، وكانوا يعتنون بعمارة المحطات أيام عزّ القطارات.

ومحطة الحجاز في دمشق نموذج رائع في حسن العمران

وجمال البنيان، كان يبدأ منها القطار الذي ينتهي في محطة العَنْبرية في المدينة المنورة، وقد أُنشئت على غرارها ولكنها ليست مثلها ولم تبلغ في الجمال مبلغها. هذا الخط الذي كان منقبة للسلطان عبد الحميد رحمه الله، والذي بُني بأموال المسلمين وأريقت في بنائه سَواقٍ من دماء العمال المسلمين، الذين كانوا يعملون في حرّ الصحراء ووهج الشمس على الرمال المتلظية التي يُشوى عليها اللحم. وكان وقفاً إسلامياً، عاش عشر سنين ثم خربته أيدي المسلمين مع أيدي جماعة لورانس، فانطبق علينا ما قال الله عن عدوّنا: ﴿يُخْرِبونَ بُيوتَهم بأيديهِمْ وأيدي المؤمنينَ، فاعتبِروا يا أُولي الأبصارِ﴾. فهل اعتبرنا؟ هل عرفنا بعد كل ما مرّ بنا صديقَنا من عدوّنا؟

وكنت أظن أن أمستردام على البحر، فخبّرونا أنه بعيد عنها وأننا إن أردنا ذهبنا إلى فولندام. فذهبنا إليها ومررنا بمزارع وقُرى يشمّ منها القادم عليها مثل رائحة الإصطبل من كثرة البقر، أعني البقر حقيقة لا البقر على صورة البشر.

وفولندام مدينة صغيرة جميلة، تراها كأنها لوحة يملؤها اللون الأحمر ومن حولها إطار كبير لونه أزرق، الحمرة من سقوف القرميد التي تعلو بيوتَها الصغيرة المبنية على الطراز القديم، والزرقة من البحر المحيط بها. ورأيت فيها النساء بثيابهن الوطنية وهُنّ بالحجاب الكامل، الثوب الطويل الذي يصل إلى وجه القدم والكم الطويل الذي يبلغ الرسغ فلا يَظهر إلاّ الكفان، وعلى الرأس قلنسوة خاصّة لم أرَها في غير تلك البلاد تستر الشعر كله، وفي أرجلهن أحذية من الخشب كأنها القباقيب. ولم نرَ من

المدينة إلاّ جانباً منها، فلو ذهبتُ أصفها لم يكن وصفي لها إلاّ كوصف الليمونة التي اعتصرتها وأخذت ماءها، كالوردة التي جفّت ففقدت حياتها وأضاعت عطرها؛ إن وصفي لا يزيد على وصف يوليوس قيصر لمّا عاد من حروبه في بلاد الغال (فرنسا) فسألوه في مجلس الشيوخ أن يحدّثهم عما كان، فقال لهم: ذهبنا، فحاربنا، فانتصرنا، فرجعنا.

والعرب تقول: البلاغة الإيجاز. ولكن من الإيجاز ما يمسخ المعنى فلا يبقى منه إلاّ كقشرة الليمونة التي فقدت رحيقها والوردة التي أضاعت عطرها، ومن البلاغة ما يسمو إلى أعلى الدرجات ويبلغ حد الإعجاز.

* * *

ورجعنا إلى أمستردام فجُلنا فيها، ومررنا بكثير من المدن لم نقف إلاّ قليلاً عند لاهاي، وكنا قريبين من مسابحها، فما نزلنا من السيارة ولكن رأينا منها بعض ما فيها، والذي رأيناه لا يزيد عمّا كنا نراه في بيروت، بل ربما كان الذي في بيروت أشدّ نكراً. وقالوا لنا إن هاهنا (وأشاروا إلى جزء من السِّيف، أي الشاطئ) مسبحاً للعراة ينزلون فيه كما أنزلَتهم القابلات من بطون أمهاتهم، الرجال والنساء سواء. فما عجبت من ذلك، لأنها لو أُنشئت مسابح للخيل والبغال والحمير لما نزلت إلاّ هكذا. هل رأيتم أتاناً (حمارة) تريد أن تخوض النهر فلبست تُبّاناً (هو المايوه) أو ارتدت ثياباً؟

على أن بعض الثياب أشدّ إغراء من نبذها كلها. ولقد قرأت مرة نكتة في مجلة مصرية عن طالبَين في مدرسة الفنون الجميلة

(التي زعم الراوي أنهم يأتون إليها بإحدى العاهرات فتقف أمام الطلاب بلا ثياب، بأوضاع تذهب منهم بالألباب وتطير من رؤوسهم الصواب، ليصوّروها كما قالوا)، قالت المجلة إن طالباً نبّه رفيقه فقال له: أما ترى جمالها؟ هل أبصرت مثل هذه الفتنة وهذا البهاء؟ فقال له صاحبه: كيف لو أبصرتها بثيابها؟ ذلك أن الثوب الذي يكشف عن بعض المستور يُطلِق خيالك لتتصور ما لم يكشفه، فتراه أجمل بعشر مرات مما هو في الحقيقة والواقع.

ولقد قرأت من قديم كتاباً عن الأزياء والموضات كيف تتبدّل، فتغطي مرة ما كان مكشوفاً وتكشف ما كان مُغطّى. وسرد مؤلّفه ما كان من ذلك في فرنسا في مئة وخمسين سنة، فوصل إلى سرّ المهنة فأذاعه. وإذا خلاصته أن الرجل لا يستطيع أن يستوعب جمال جسد المرأة كله بنظرة واحدة، فهم يكشفون له عن شيء منه ليقع نظره عليه وينصرف انتباهه إليه: عن أعلى الصدر مثلاً، فإذا ألفه وملّ منه زادوا في الكشف فوسّعوا الجيب (والجيب في اللغة فتحة الثوب عند العنق) حتى يصلوا إلى الحد الذي لا يستطيعون تجاوزه، فيجعلوا الموضة الجديدة ستر الصدر وكشف شيء من الساق، ولا يزالون يقصّرون الثوب حتى جعلوه ثوباً صغيراً (ميني جوب) يكشف نصف الفخذين، ثم زادوه قصراً فجعلوه يصل إلى أعلاهما فلا يبقي على الشيء منهما، فكان (الميكروجوب)، فلما أحسّوا من الناس الاكتفاء والشبع بنظر السيقان عادوا إلى الصدر.

وكذلك يلعبون بالنساء، والنساء يرتضين أن يَكُنّ لعبة لهم. ونحن نقلّدهم ونتبعهم فنُضيع في اتباعهم وتقليدهم خلائقنا

وسلائقنا وأموالنا وأعراضنا، ونخالف في ذلك كله شرع ربنا.

ومن عجائب ما وجدناه عندهم أني خرجت إلى الشرفة مرة بالمَنامة (أي البيجامة) فلحق بي حفيداي الصغيران البنت وأخوها يقولان: لا يا جدّو، لا عيب. قلت: وما العيب؟ قالوا: الخروج بالبيجامة. فرجعت لأن على العاقل إذا نزل بلداً أن يعتبر أعرافه ما لم يكن فيها مخالفة لدينه، وعلى المؤمن أن يجبّ الغيبة عن نفسه وألاّ يفتح للناس باب الكلام عنه. وليس هذا هو العجيب، ولكن العجيب أنك إن نزعت المنامة وخرجت بالتّبان (أي المايوه) لم يكن عيباً، مع أن التبان لا يستر إلا السَّوأة الكبرى، وهو من صغره كبعض سراويلات النساء التي يوضع الواحد منها في علبة كبريت.

فالعورة إذن هي المَنامة (البيجامة) لا ما فيها!

* * *

وكنا نجول في هولندا في الطرق الدولية (الأوتوبان أو الأوتوروت أو الأوتستراد) وبنتي رحمها الله تمسك بالخريطة وهي في صدر السيارة، وأنا إلى جنب أخينا الشابّ الذي يسوقها لنا، ترشدني إلى المسلك فأنبّهه إليه، وأنظر في إشارات المرور، وهي كثيرة على الطريق، ولست أعرض لها بالوصف فقد صار عندنا بحمد الله مثلها تماماً في شوارع المملكة التي تصل بين المدن، بين جدة ومكة وبين مكة والمدينة، لا يختلف ما عندنا عما رأيناه عندهم. وهذه الطرق من اختراع هتلر أو قوم هتلر أيام الحرب الثانية، تطيف بالمدن ولا تدخلها، فتسهّل السفر وتختصر الزمان.

ولقد غفلَت مرة عن إشارة إلى طريق فرعي علينا أن نسلكه فاضطُررنا أن نمشي بعده سبعين كيلاً (أي كيلومتراً) لندرك فتحة أخرى. وللطريق ثلاثة مسارب أو أربعة أحياناً، كما هي الحال عندنا في المملكة، فمن كان مبطئاً مشى في أيمنها ومن كان مسرعاً مشي في أيسرها، وقد وقع لنا مرة أن الشاب الذي يسوق سيارتنا أضاع الطريق فوقف ليسأل -على زعمه- أحد السوّاقين الذين يمرّون به، فأقام علينا القيامة وجاءتنا سيارات الشرطة مسرعة، وأخذوه يبدؤون التحقيق معه لأنه بوقوفه قطع السير وأخلّ به، وكاد يسبّب للسالكين المهالك.

وهولندا مشهورة بالبقر السمين وبنوع من الورد، الزنبق (تيولب) اختُصّت به، وبطواحين الهواء. أمّا البقر فقد رأيناه كثيراً، ومن لم يرَه في هولندا استطاع أن يراه هنا لأن وزارة الزراعة استقدمت هذا النوع من البقر الهولندي فوضعته تحت أيدي الفلاحين، فأحسنوا رعايته والعناية به. ولا تعجبوا فإن المملكة التي هي صحراء غير ذات زرع صارت تكتفي من القمح بما تُنبته أرضها، بل تصدّره إلى غيرها، وآخر ما تتحدث به الصحف والإذاعات إهداؤها هذا المقدار العظيم منه إلى أختها مصر. والبلاد التي كانت تصدّر القمح إلى روما وغيرها مما هو أدنى أو أبعد منها جاء عليها زمان صارت تستورده، ذلك لمّا هبّت عليها هذه الرياح العاتية المهلكة المدمّرة، رياح الشيوعية، وإن غيّرَت زيّها وبدّلَت ثوبها واسمها فتَسمّت بالاشتراكية.

وأمّا الورد فقد جئنا هولندا في غير موعده فلم نرَه، وأما طواحين الهواء التي كانت شعار هولندا فقد قلّت جداً ولم يعُد

يُحتاج إليها بعد أن جاءت المحرّكات الكهربائية.

* * *

قلت لكم إننا بقينا في فولندام أكثر النهار، فرأيت أن من كان فيها يعيش في الدنيا وهو ليس فيها، يجد كل ما يحتاج إليه ولكن لا يجد ما هو أكثر منه ولا يصل إليه؛ حاجات مضمونة، ومناظر جميلة، ومساحة محدودة، ومشاهد معدودة، فهي تصلح لمن شاء العزلة الهادئة.

ورأيت مكاناً في ألمانيا أعجب منها هو مونْشَاوْ، وهي في شقّ من الأرض لا يبلغ أن يُعَدّ وادياً، فالوادي قطعة من الأرض بين جبلين مرتفعين، وهذه حفرة بين أرضين لا يرى منها السائر على الطريق شيئاً ولا يشعر بها، ولكن الذين يقيمون فيها لو سكنوا إليها واكتفوا بما فيها لم يشعروا بالطريق ولا بمن يمرّ فيه. ولا أستطيع أن أصف مونشاو وصفاً ناطقاً يُغني عن رؤيتها لأني ما رأيت منها إلاّ ساحتها، وفيها سوق صغيرة تبيع تحفاً فيها ذكريات للمكان. فيا ليت هذه الأسواق تكثر عندنا في كل بلد يقصده السياح. ورأيت ازدحاماً وسحناً مختلفات وسمعت ألسنة متعددات، ذلك أنها من مقاصد السياح، وعلى جانبَي الساحة أرض مثل الدرَج بعضها أعلى من بعض، ترى البيوت فيها كأنها عمارة واحدة من عشرات الطبقات.

ورأينا في مدينة نسيت اسمها بَحرةً[١] يسكن أهلها في رأس

---

(١) البحرة مجموعة مساكن، ولعلّ المكان الذي بين جدة ومكة من هذا القبيل.

جبل عال لا يكاد يُوصَل إليه، فقلت: سبحان مَن حبّب أوطان الرجال إليهم! فلولا هذا الحبّ ما ارتضى قوم أن يسكنوا في رأس الجبل، وقوم أن يسكنوا في شقّ من الأرض، وقوم يقيمون في بيوت سقوفها وجدرانها من الثلج في ألاسكا، وقوم في الصحراء الكبرى يقيمون في خيام يسيل فيها شعاع الشمس ناراً وتحتهم رمال محرقة... وكلهم راضٍ بوطنه محبّ له، إن غاب عنه لم يُرضِه إلاّ أن يعود إليه.



-٢٠٨-

طريق الحج

تلقّيت أربع رسائل تعليقاً على الحلقة الأخيرة من هذه الذكريات: ثلاث منها تأتي في صلب الموضوع ورابعة على الهامش، أو هي على حرف من الهامش، لا صلة لها بالذكريات ولكن في الجواب عليها نفعاً للقراء. جاءت من فاضل ينمّ أسلوبه الصحيح على فضله، يقول إنه مدرس مدمن للمطالعة مديم للقراءة، وطالما مرّ به وصف بعض الأطعمة أو العقاقير بأنه بارد يابس أو حارّ رطب، فلا يفهم معناها ولا يعرف موردها ومأتاها، قرأها كثيراً في كتب ابن القيّم وغيره وسمعها من أيام قريبة من الشيخ الشعراوي في حديثه اليومي، فلما رآني ذكرتها في الحلقة الماضية ظنّ أن عندي ما يبحث عنه فكتب يسألني.

والثلاث التي هي من صميم الذكريات تسأل عن الخط الحديدي الحجازي الذي أشرت إليه: ما خبره وكيف انقطع، وماذا أعرف عنه، وكيف كان الناس يحجّون قبله؟

وأنا أجيب على السؤال الثاني بما أعرفه مشاهدة وعياناً أو مشافهة وسماعاً. أما السؤال الأول فليس موضوعه من شأني

ولا هو مما اشتغلت به من أصناف المعارف والعلوم، فلا أدّعي القدرة على الجواب الكافي. ولكني أمضيت حياتي كلها في المطالعة؛ هي متعتي وتسليتي وهي شغلي أيام فراغي وعطلتي، من صغري إلى اليوم، وكنت لا أنسى شيئاً قرأته، ولا أزال ولله وحده الحمد أذكر إلى الآن أكثر ما أقرأ، فمما علق بذهني مما قرأت قديماً ما يصلح جواباً على هذا السؤال.

ذلك أن علماءنا، حتى علماء الشريعة المتوسعين في المعارف كابن القيم، أخذوا نظرية عن اليونان اقتنعوا بصحتها وأفاضوا في شرحها، وهي أن في الوجود أشياء بسيطة وأشياء مركَّبة. وكلمة «بسيطة» في أصل اللغة معناها المبسوطة، أي الواسعة، ومن هنا سُمّيت كتب كثيرة باسم «البسيط» أو «المبسوط»، ولكنني أستعملها الآن بالمعنى الشائع عند الناس. وهذه الأشياء البسيطة، أي المؤلَّفة من عنصر واحد، هي عندهم الماء والهواء والتراب والنار. وأن الحرارة تأتي من النار، والبرودة من التراب، والرطوبة من الماء، واليبوسة أو الجفاف من الهواء. وأن في البدن أربعة عناصر (أو «أخلاط» كما كانوا يسمّونها) تقابلها، هي الدم والمرّة السوداء والبلغم والمرّة الصفراء. والغذاء (ومثله الدواء) يغلب على كل نوع منه واحدٌ من هذه العناصر أو اثنان، وكمالُ الصحّة في أن تتوازن الأخلاط الأربعة في الجسم وأن يأتي الغذاء موافقاً لها، لذلك تجدهم يقولون عن الشيء إنه حار رطب، أو بارد يابس.

فلما كانت النهضة في أوربا واتسعت دائرة المعارف وتمحّص كثير من الحقائق وتقدّم علم التشريح وعلم الكيمياء تبيّن

أن هذا الذي كانوا يقولونه غير صحيح، وأن التراب والماء مركَّب من عناصر كثيرة وليس عنصراً واحداً. والعجيب أن من الفلاسفة المتقدمين من الإغريق (أي من اليونان) من لامس الحقيقة التي عُرفت بعد عصر النهضة والتي نعرفها نحن الآن، وهي أن المادة ليست متصلة الأجزاء بل هي مؤلَّفة من جُسيمات صغيرة جداً هي الأتوم (أي الذرّة)، قال بذلك ديمقريطس، وقد راجعت الآن ترجمته فوجدت أنه مات نحو سنة ٣٧٠ قبل ميلاد المسيح، وقد سبقه إلى ذلك أستاذه ليوسيبوس.

والفكر البشري يتقدم دائماً لا يرجع إلى الوراء أبداً، ولكن قد يُصاب بنكسات تتعثر فيها خطاه ويتأخر فيها سيره؛ من ذلك أن أرسطو (الذي مات سنة ٢٢٢ قبل ميلاد المسيح) ردّ نظرية الذرة وأعاد نظرية العناصر الأربعة، وبقي القول قوله حتى ظهر بيكون (وينطقها الفرنسيون باكون) في القرن السادس عشر، فنقض ما ذهب إليه أرسطو وأحيا نظرية الذرة. فأرسطو الذي يلقبه الناس بالمعلم الأول ولا يعدلون عن قوله كان له في هذا وغيره كثير من الأخطاء.

* * *

أعتذر إليكم وأرجو عفوكم عني لأني خرجت عن موضوعي، وأعود إليه الآن فأجيب على السؤال الثاني.

إن الذي يريد السفر اليوم من مكة المكرمة إلى دمشق يركب سيارته من باب داره هنا فلا ينزل منها إن شاء الله إلاّ على باب منزله أو فندقه في دمشق، طريق مزفَّت (ولا تقُل مسفلَت) بعضه

لا يقلّ في سعته وحسنه وترتيبه والصُّوى (أي الإشارات) فيه وتعدُّد المسارب في جانبه، لا يقلّ في ذلك كله عن أرقى الطرق الدولية في أرقى دول أوربا الغربية، وإن كان يضيق بعد المدينة المنورة، ويستمرّ معبَّداً مزفَّتاً حتى يبلغ دمشق.

هذا الطريق بين مكة المكرَّمة ودمشق الذي تمشي فيه السيارات مستريحة كان لي شرف المشاركة في كشفه، يوم لم يكن طريق ولا أثارة من طريق وكانت الأرض كلها بيداء خالية كما برأها بارئها، وكانت سياراتنا أولَ السيارات التي وطئَت بدواليبها ثَراها، وكان ذلك سنة ١٣٥٣هـ. وقد مرّ بكم الخبر مفصَّلاً في هذه الذكريات، وعلمتم مما مرّ بكم أن هذه المسافة التي يقطعها الراكب اليوم قاعداً في السيارة الفخمة على المقعد المريح ومن حوله الهواء المكيف، أمضينا نحن في قطعها ثمانية وخمسين يوماً ما كنا فيها مستريحين، بل قاسينا من المشقّات والأهوال ما لا يصمد له إلاّ صناديد الرجال.

كان ركب الحُجّاج الشاميّين قبل هذا الطريق يقطع هذه المسافة في أكثر من أربعين يوماً، في بادية مقفرة تتلظّى شمسها ويلتهب في الصيف حصاها وتتسعّر رمالها، ولا يأمن المسافر فيها على نفسه ولا على ماله لأنها عادت إلى مثل عهد الجاهلية الأولى، لا حكومةَ تجمعها وتُخضِعها ولا قوة تمنع الظلم والعدوان فيها. وكان في كل منطقة شيخ عشيرة يتسلط عليها، إن لم يسترضِه الحُجّاج بالمال أو يغلبوه بالقتال آذاهم أو نهبهم أو قطع الطريق عليهم أو قتلهم، أقول هذا لتعرفوا قيمة ما أنتم فيه من نعمة الأمان، ولتسألوا الله الرحمة لمن جعله سبيلاً لتوحيد البلاد وأمنها.

لذلك كانوا يبعثون مع أمير الحُجّاج ما كان يُدعى «الصُّرّة»، وهي مبلغ كبير من المال يوزّعه على من يمرّ عليه موكب الحج من الأعراب، وما كان يسلم دائماً منهم، ويبعثون مع الصرة بطائفة من الجند وعدد من المدافع. وكانوا يُقيمون بِرَكاً للماء عندها قلاع ثابتة على الطريق، رأيت في رحلتي الأولى بعضها ووصفتها وقرأتموها، وكانت تحمي كلَّ واحدة منها أسرةٌ من أسر حيّ الميدان بالشام معروفة ببأسها مشهورة بأمانتها وإخلاصها، ولو رجعتم إلى ما نشرتُ من قبل في هذه الذكريات لوجدتم تفصيل هذا الإجمال[1].

فكانت رحلة الحج تمتد أكثر من ثلاثة أشهر محفوفة بالأخطار، كلها متاعب ومصائب، فكأنها البحر الذي وصفوه قديماً بأن الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود.

تلك الرحلة التي كانت تمتد ثلاثة أشهر يستطيع الحاجّ اليوم أن يؤدّيها (أي أن يؤدّي حجه) في أربعة أيام: يخرج من دمشق بالطيّارة من بعد صلاة العشاء ليلة العيد فيصل جدة بعد ساعتين، ويكون مُحرماً فيمضي رأساً إلى عرفات فيقف فيها ولو دقائق، فيكون قد أدّى الفرض والواجب، ثم يتوجه منها إلى مزدلفة فيقف فيها دقائق بعد نصف الليل، ثم يخرج منها فيصلّي صلاة الصبح في الحرم مع الجماعة، ويطوف طواف الإفاضة ويسعى بعده، ثم يحلق أو يقصّر، فيتحلل ولا يبقى عليه من أعمال الحجّ إلاّ رمي

(١) أخبار الرحلة ممتدة من الحلقة السبعين إلى الحلقة الثانية والثمانين، وهي في الجزء الثالث (مجاهد).

الجمرات والمبيت في مِنى. أما مِنى فيستطيع أن يخرج بسيارته إليها أول أيام التشريق قبل المغرب، فيبقى فيها راكباً في السيارة أو قاعداً على الأرض أو على صخرة في الجبل، أو حيث شاء من مِنى إلى أن يمضي أكثر الليل، فيرجع إلى مكة فيبيت إن أراد فيها. ثم يصنع مثل ذلك الليلة المقبلة، فإذا كان اليوم الثالث من أيام العيد خرج بعد العصر إلى مِنى فرمى الجمرات كلها معاً، يرمي جمرة العقبة وينويها عن اليوم الأول، ثم يعود إلى الصغرى فالوسطى فالعقبة فيرميها عن اليوم الثاني، وكذلك يصنع عن اليوم الثالث والرابع.

هذا هو الحج. ولكن لكل عمل في الدنيا درجات كدرجات التلاميذ في الامتحان: راسب ومقبول وجيد وأجود منه وممتاز؛ فمن صنع الذي ذكرتُ هنا صحّ حجّه لكنه كان كالطالب الذي ينجح في الامتحان بدرجة مقبول، لم يرسب ولكن لم ينَل الدرجات العُلى. ومن وقف في عرفات من الظهر إلى ما بعد غروب الشمس، ثم مضى إلى مزدلفة فبقي فيها إلى ما بعد صلاة الفجر، ثم مشى فرمى جمرة العقبة، وحلق ونحر إن كان عليه نحر، ثم قصد الحرم فطاف وسعى، فهذا كالذي نجح بدرجة جيد.

ومن ذهب في اليوم الثامن إلى منى فصلّى فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر من يوم الوقفة، ثم مضى إلى عرفة فصلّى مع الجماعة وسمع الخطبة ثم وقف إلى ما بعد غروب الشمس يدعو الله متوجهاً إليه مخلصاً له، ثم مضى إلى مزدلفة فصلّى فيها المغرب والعشاء جمعاً وأكل ونام (لا كما يقول بعض الوعاظ من أن قيام تلك الليلة والصلاة فيها أفضل، لأن الرسول عليه الصلاة

والسلام -وهو إمام المتقين وأعبد العابدين- نام، ومن زعم أنه يعلم طريقاً أرضى لله مما شرع رسول الله ﷺ، وما صنع هو الأسوة والقدوة، فليعلم أنه على خطر عظيم) هذا نال درجة جيد جداً.

ومن قرأ حجّة الرسول عليه الصلاة والسلام التي ما حجّ غيرها (وصِفَتُها في كتب الحديث، وقد أفردها محدّث الشام الشيخ ناصر الدين الألباني في كتاب مطبوع) ففهمها وصنع كل ما صنع رسول الله ﷺ مقتدياً به متبعاً له، فهذا نال درجة ممتاز.

* * *

كان ركب الحج الشامي أشبهَ بجيش، إذا مشى سدّ عرض الفلاة وإن نزل قامت لنزوله مدينة، فكان كما قال ابن هانئ: «إذا حلَّ في أرضٍ بناها مدائنا». وابن هانئ شاعر بليغ كانوا يسمّونه «متنبي المغرب»، ولكنه زائغ العقيدة فاسد الدين. وقصيدته هذه العينية من روائع الشعر الوصفي، ومثلها، بل أبلغ منها أسلوباً وأعلى في البلاغة طبقة، قصيدة بشار التي يقول فيها:

فراحوا: فريقٌ في الإسارِ ومثلُهُ قتيلٌ ومِثْلٌ لاذَ بالبحرِ هاربُهْ

ولمّا كنا ندرس الأدب الفرنسي وجدت في مسرحية «السيد» (Le Cid) لكبير الأدباء الفرنسيين في عصره كورناي، بيتاً يكاد يكون ترجمة حرفية لمعاني بيت بشار. والثالثة ميمية المتنبي في وصف الجيش التي يقول فيها:

خَميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ
وفي أُذُنِ الجَوْزاءِ منهُ زَمازِمُ

تَجمّـعَ فيـهِ كلُّ لِسـنٍ وأمّـةٍ
فما يُفهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التّراجمُ

وميزته أنه حقّ، وأن جيش سيف الدولة وإن كانت جمهرته من العرب فإن فيه كثيراً من غيرهم يتكلمون بألسنهم (اللسان بمعنى العضو جمعه ألسنة، واللسان بمعنى اللغة جمعه ألسن).

أما مواكب الحجّ قديماً فإن أحسن مَن وصفها عبد القادر الأنصاري الجزيري في كتابه «دُرَر الفوائد المنظمة» الذي طبعه محب الدين الخطيب في «السلفية» بطلب من الشيخ محمد نصيف رحم الله الاثنين، وهو الذي وقع على نسخته واشترك في تصحيحها صديقنا الأستاذ محمد سعيد العامودي، فاقرؤوا هذا الوصف في الصفحة ٩٥ منه. ومن هذا الكتاب عرفت أن «المَحْمِل» كان موجوداً في مطلع القرن الثامن الهجري، أي من ستمئة سنة، ولم أجد إلى الآن نصاً أعرف منه منشأ هذه البدعة ومتى وكيف كانت وما سببها، والذين يقولون إن أصله هودج شجرة الدرّ لا يأتون على قولهم بدليل، فمن كان عنده علم من ذلك فليُعلِمني.

والمحمل شبه هرم كانوا يغطّونه بالديباج الأخضر، أي المخمل منقوشاً عليه آيات من القرآن، ويعظمونه ولا يذكرونه مرة إلاّ قالوا «المحمل الشريف»، وكان لوداعه في دمشق وفي القاهرة مشهد عظيم، وكان بعض العامّة من الجَهَلة يتبرّكون بالجمل الذي يحمله ويُلبِسونه عادة مثل الثوب من الجلود ومن القماش الملوَّن. ولقد شهدت آخر موكب حُجّاج خرج من دمشق مع المحمل وأنا

صغير جداً، وقد نسيت هل كان ذلك خلال الحرب الأولى أو كان قبلها، فأنا أكتب هذه الذكريات كلها من ذهني ما عندي شيء مكتوب أرجع إليه وأعتمد عليه.

وكان مشهد خروج المحمل أعظمَ المشاهد في دمشق، يليه مشهد «السّلامْلك» يوم العيد إذ يخرج الموكب من قصر المشير، أي «المشيرية» التي صارت من بعدُ دارَ المندوب السامي الفرنسي، ثم هُدمت وأُقيم مكانها القصر العدلي الذي يجمع اليوم المحاكم كلها وفيه وزارة العدل.

وكانا محملين لا محملاً واحداً، المحمل الشامي والمحمل المصري. فإذا وصل المحمل الشامي إلى مزيريب (وهي أدنى قرى حوران) توجّه منها إلى عمّان. وأنا أعرف عمان قبل ثلاث وخمسين سنة، لمّا مررنا بها وهي قرية صغيرة أكثر سكانها من الشركس وأقلهم من الشاميين، ولم يكن أُقيمَ إلاّ بيوتٌ معدودة على جبل عمّان.

ثم يتوجهون منها إلى معان، ويأتي المصريون بقافلة مثلها أو أعظم منها من طريق العقبة، فيلتقي المحملان غالباً في معان، ثم يمشيان معاً إلى تبوك فإلى المدائن، مدائن صالح قرب العُلا، فالمدينة المنورة فمكة المكرمة.

والمحمل الشامي محفوظ في متحف دمشق اليوم ليراه من لم يكن قد عرفه. وآخر ما عُرف من خبر المحمل واقعة مشهورة يعرفها الكهول والكبار من رجال المملكة، واقعة لولا شجاعة الملك عبد العزيز التي جاوزت الأمثال المضروبة للشجاعة

ولولا حكمته التي منحه الله منها ما لم يمنح مثله إلاّ القليل، لولا ذلك لكانت فتنة لا يدري إلاّ الله عواقبها، ومن شاء معرفة خبرها وجده في كتاب «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» للأستاذ الشاعر وكيل وزارة الخارجية السعودية سابقاً خير الدين الزركلي[١]. وكان ذلك آخر العهد بالمحمل المصري، والمحمل الشامي كذلك وقف قريباً من ذلك الوقت.

كان يخرج الموكب من دمشق في أوائل شعبان، فيه مَن يمشي على رجليه ومن يركب الدوابّ ومن يسافر على الإبل، وكان للرّحال[٢] على الإبل أنواع تتفاوت مراتبها وأجورها، يركب على البعير اثنان متقابلان من الجانبين، وللنساء هودج هو أشبه بغرفة صغيرة جداً من العيدان تُسدَل الستائر على جوانبها فلا يبين للرجال مَن فيها. وكان «العكّامة» (وفيهم الجمّالون والحمّالون وطوائف من العمال) يسبقون الركب فينصبون الخيام ويُعِدّون الطعام، فإذا وصل الحاجّ وهو تعبان استراح وأكل وصلّى ونام.

وكان يجري كل عام للمحمل ومن معه من الحجّاج في القاهرة وفي دمشق وداع حافل، فكان الموكب في الشام يمتد من قصر الحكومة إلى جنوبي البلد حتى يخرجوا منها، وتجتمع هذه الجموع كلها قرب مسجد العسّالي، وهو قريب من قرية «القَدَم»

---

(١) مرّ خبر هذه الحادثة في آخر الحلقة الثمانين (في الجزء الثالث) من هذه الذكريات (مجاهد).

(٢) الرحال جمع رَحْل، وهو للإبل كالسرج للفرس، ومنه اشتُقّت كلمة رَحَل وارتحل والرحلة.

التي يزعم أهلنا في الشام أن الرسول ﷺ زارها وأن آثار أقدامه لا تزال ظاهرة على صخرة فيها، وذلك كله كذب.

كان الذي يرى هذه الجموعَ يظنّ أنه لم يبقَ من أهل دمشق أحدٌ في بيته! ثم تُتلى آيات وتُلقى قصائد، ويكون الوداع يتصدره الوالي وهو الرئيس المدني، والمشير وهو الرئيس العسكري قائد الجيش وأمير الحج. ثم يبدأ الركب المسير وتلوّح الأيدي بالمناديل، ويكون الدعاء والتهليل والبكاء والعويل، حتى يغيب آخر الركب في طريق الكِسْوة على الجبل الجنوبي من دمشق[1].

* * *

---

(١) في الطبعات السابقة من «الذكريات» صفحتان بعد هذه الصفحة حذفتُهما في هذه الطبعة، لأن ما فيهما مكرَّر قد سبق بنصّه في الحلقة الخامسة والسبعين، ولا بد أن إعادة نشره هنا كان سهواً لم ينتبه إليه الشيخ ولم يلاحظه الناشر. ومثله نحو صفحتين في الحلقة الآتية حذفتُهما أيضاً، وسأشير إلى موضعهما (مجاهد).

-٢٠٩-

الخط الحديدي الحجازي

إن قصة الخط الحديدي الحجازي مأساة دونها المآسي الأدبية.

تصوّروا زوجين كل أمانيهما ولد يسعى بين أيديهما، يملأ الدار -كما يُقال- فرحةً عليهما يصل ما قد يتباعد من قلبيهما، فتأخّر وصول الولد، فراجعا كل طبيب وسألا كل دجّال، وجرّبا كل دواء في الصيدلية وكل عشب عند العطّار وكل ما يصفه الصديق والقريب والجار، حتى إذا تحقّق الحلم ووُلد الولد، بعدما ذاقا المرّ وكاد يفرغ منهما الصبر، وكبر الولد وبلغ معهما السعي، وحسبا أن قد تمّت به الفرحة، مات! ما مات على فراشه ولكنه قُتل، وما قتله عدوّ غادر ولا عتيّ فاجر، ولكن خدَعهما شيطانٌ ماكر اسمه لورنس وأسكرهما بمادّة مسمومة سُمّها لا ينفع معه ترياق، يُقال له «القومية» (أعني المخالِفة منها للإسلام).

امتدّ انتظاره دهراً والحمل به عمراً، حملَته أمه ثماني سنين، من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩٠٨، وعاش بعدما وُلد عشر سنين من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨، ثم أصابته علّة مزمنة، فلا هو حيّ فيُرجى ولا ميت فيُنسى.

الخط ممدود ولكن لا يمشي عليه قطار، والمحطات قائمة ولكن لا يقف عليها مسافر. كانت فيها مواقف الوداع والاستقبال تشهد الآلام والآمال، وكان فيها الناس من كل بلد وكل شعب، فأصبحت لا غادٍ عليها ولا رائحٌ منها، ولا مودّع أسيان ولا مستقبل فرحان.

وإذا بكى الشعراءُ الأطلالَ وقالوا فيها الأشعار لأنها هي ذاتها بقايا قصيدة محَتها الأيام، كل جدار من بناء فيها وكل حجر في هذا الجدار كلمات باقيات من تلك القصائد التي جعلها القِدَم والحرمان قصائدَ عبقريات، يذكر الناس بموتها الحياة التي كانت فيها فتفيض لمشهدها مدامعُ شاهديها... وإذا كانت بقايا ديار الحبيب الذي راح تُثير كل هذه المشاعر، فأولى بذلك هذه المحطات القائمات وحدها في البراري، محطات الخط الحجازي التي كانت تعجّ بالناس، فما بقي فيها ولا حولها أحد. أفلم يمرّ أحدٌ من الشعراء بهذه المحطات الواقفات منفردات، كالثاكلات على أجداث من مات؟ ألم يُثِر منظرُها في أنفسهم عاطفة ألم يحرّك منها المشاعر؟ ألم تنطلق بوصفها ألسنتهم وأقلامهم؟

كلّ محطة خالية خاوية من محطّات خط الحجاز قصيدةٌ من الجدران والأركان، لا تحتاج إلاّ إلى مَن يترجم عنها بالألفاظ والأوزان. فغطّوا أقلامكم بدموعها واجعلوه مِداد ما تكتبون، فإن كل لَبِنة في كل محطة تبكي، وكل نافذة مخلَّعة المصاريع وكل باب غدا وما عليه باب!

قلت لكم في الحلقة الماضية إن هذا الخط وقف إسلامي.

والأوقاف الخيريّة من أشرف معالم الحضارة الإسلامية: مالٌ مرصود لأعمال الخير، منفعته لكل واحد ولا يملكه أحد، القيّم عليه يجب أن يحفظه، ويجوز أن ينميه أو يزيد فيه ولكن يحرم عليه أن ينقص منه أو أن يفرّط به. وقف أجدادُنا الأموالَ الجِسام على كل عمل من أعمال الخير: على المساجد وعلى المدارس وعلى المشافي، وعلى أمور قد لا تخطر لأمثالنا على بال. هل سمعتم في الشام وقفاً للقطط الضالّة يُطعِمها ويسقيها؟ وللكلاب الشاردة المريضة يداويها ويؤويها؟ يُسمّي العامّة الأول «مدرسة القطاط» وهي في القيمرية الذي كان حيّ التجار في دمشق، والثاني في حيّ العمارة ويسمّونه اسماً غريباً هو «محكمة الكلاب».

وقد روى ابن بطوطة في رحلته أنه رأى خادماً صغيرة (وكلمة خادم تطلق على الذكر والأنثى) وهي تبكي، فسألها فقالت: أرسلتني سيدتي أشتري لها عسلاً فوقع الإناء فانكسر. قال: فجعلت أواسيها وأعطيها ما أقدر عليه لتشتري غيره، فمرّ بنا رجل عرف الخبر فقال لها: اجمعي أجزاءه وخذيه إلى ناظر الوقف يُعطِك ثمنه. ذلك أن أحد المحسنين وقف مبلغاً كبيراً من المال لمثل هذه الحال[١].

* * *

وأرجو أن يسامحني القراء لأنني خرجت عن خط هذه

(١) ما يلي هذه الفقرةَ مكرّرٌ بنصه وقد سبق نشره في الحلقة الخامسة والسبعين، وهو تتمة ما حذفته من آخر الحلقة الماضية، وقد حذفته من هنا أيضاً (مجاهد).

الذكريات وسردت تاريخاً ممتلئاً بالأرقام، ذلك لأن هذا التاريخ يجهله أكثر من يقرأ الجريدة ومن الواجب أن يعرفوه. أما ما كان بعد سنة ١٩٥٤ فتسألون عنه الأخ محمد عمر توفيق، الذي كان وزير المواصلات وكان قُطب رَحى المفاوضات، هو العارف بما انتهى أمره إليه.

أما نحن الأدباء فلا نملك إلا ألسنتنا وأقلامنا. ورُبّ لسان أو قلم جلب نفعاً لأمة من الأمم أو سبّب لها الضرر. فما لأدبائنا لا تجري أقلامهم ولا تنطلق ألسنتهم بالكلام على هذا الخط: بوصف مأساته، بالدعوة إلى مداواته إن وثقنا من استمرار حياته أو رثائه إن تحقّقنا من مماته؟ هل كان الذين قبلنا من أدبائنا أقدر على القول منا أم كانوا أكثر اهتماماً بشؤون أمتنا؟ هذا ابن أَيْبك الصفدي (الذي توفّي سنة ٧٦٤هـ) يصف في كتابه «حقيقة المجاز إلى الحجاز» الطريق الذي مشى فيه ركب الحُجّاج من قبّة يَلْبُغا في ظاهر دمشق.

ومسجده معروف فيها، في ساحتها الكبرى التي تقوم في وسطها «المرجة». ولمّا كنت تلميذاً في الابتدائية في أواخر أيام الحرب الأولى كان نصف المسجد الشمالي (وفيه المنارة العالية) قد جُعل مدرسة كنا نتعلم فيها، وتُرك نصفه الآخر مسجداً. وكان يفصل بين النصفين حاجز من الخشب يمرّ من فوق البِركة الكبرى، فكان التلاميذ الصغار ينظرون من شقوقه لمن يتوضأ من البركة، وربما نظروا لمن يُسيء الأدب من الناس فيبول حولها أو يستنجي فيكشف عن العورة (التي حرّم الله كشفها) في بيت الله!

وكان الصفدي كلما نزل منزلاً من منازل الحُجّاج قال فيه شعراً هو في الغالب من الكلام المنظوم، فممّا قاله عن قبة يلبغا:

جئنــا لقبّــةِ يَلْبُغــا   والسيلُ فيها قد طغا
وكأنــهُ مِــنْ دمعِنا   صبَّ الميــاهَ وفرّغا

ثم مشى من حيث يمشي القطار الآن فجاء «الكِسْوة»، وكان قدومه عليها في الشتاء، وهي على هضبة عالية يشتدّ فيها البرد، فقال فيها:

قاسيتُ في الكسوةِ بَرداً لهُ   على توالي ضَعفِنا قسوَه
فقلتُ هذا عجبٌ كيفَ لا   يذهبُ شرُّ البردِ بالكِسوه؟

ثم جاء «الصَّنَمَيْن»، وهي من أدنى قرى حوران وأقربها إلى الشام، فقال فيها:

يا بئسَ يوم مــرَّ بالصّنمينِ لي   جُرِّعــتُ فيــهِ مَــرارةَ الآلامِ
لو كانَ في الصّنمينِ خيرٌ يُرتجَى   مــا كانَ يُلعَن عابــدُ الأصنامِ

وقد نُقل مرة أستاذنا وصديقنا حسني كنعان رحمه الله إلى هذه القرية معلّماً فيها، فكتب عنها مقالات كثيرة وسمّاها «مدينة الأصنام الثلاثة»، يعني بالثالث نفسه! وله فيها حوادث طريفة جداً ليس هذا موضع ذكرها.

ثم رحل الصفدي مع الركب إلى بُصرى وقال فيها شعراً. وكانت بصرى على عهد الرومان مدينة كبيرة، وفيها مسرح روماني مدرَّج لا نظير له فيما بقي من مسارح الرومان، له درَج كامل ومعه

بناء كبير بقي سالماً على مر الزمان. ولبُصرى أخبار امتلأت بها كتب السيرة والتاريخ، قدمها رسول الله ﷺ المرة الأولى مع عمه ولقي فيها بَحيرا الراهب، ويقولون إنه عرف أنه النبي المنتظَر، مع أنه ﷺ هبط عليه الوحي في حراء وقال له «اقرأ» ولم يعرف تماماً أنه النبي المنتظَر.

وما زعموا أن بَحيرا قد عرفه وأن جده عرفه وأن أمه لمّا حملت به قد عرفته، وما جاء في «المولد» (الذي كان يقرؤه بعضُ مشايخنا) من أن الوحوش تباشرت بمولده وعرفَته... كل ذلك لم يثبت ولم يقُم عليه دليل، بل إنه ﷺ لمّا جاءه جبريل ذهب مضطرباً إلى خديجة حتى أخذته إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل. فإذا كان هو نفسه لم يعرف فكيف عرف هؤلاء كلهم؟ والله تعالى يقول له: ﴿ما كُنْتَ تدري ما الكِتابُ ولا الإيمانُ﴾.

وعلى المسلم أن يحب الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من حبه لأهله وولده ونفسه التي بين جنبيه، ولكنْ حبَّ الطاعة والامتثال لا حبَّ الغزَل والهيام. وله مما أكرمه الله به من المزايا التي لم يُؤتِ أحداً من بني آدم مثلَها ما يُغنيه عن أن نمدحه بافتراء الأخبار المكذوبة عليه.

* * *

وقيل في بُصرى شعر كثير تجدون عند ياقوت مثالاً عليه، كقول الصِّمة القُشَيري وهو شاعر رقيق مطبوع من شعراء العاطفة في الحجاز، وهو صاحب الأبيات الشهيرة:

قِفا ودّعا نجداً ومَن حلَّ بالحِمى
وقَلَّ لِنَجْدٍ عندَنا أنْ تُوَدَّعا

بنفسيَ تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبا
وما أحسنَ المُصطافَ والمُترَبَّعا

وأذكُرُ أيامَ الحِمى ثمَّ أنْثَني
على كَبِدي مِن خَشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

ومما قاله في بُصرى:

نظرتُ بطَرْفِ العينِ متّبعَ الهوى
لشرقيِّ بُصرى نَظرةَ المُتطاوِلِ

لأُبْصِرَ ناراً أُوقِدَت بعدَ هَجْعَةٍ
لِرَيّا بِذاتِ الرَّمْثِ مِن بطنِ حائلِ

ومن أجمل ما قيل في بصرى قول أعرابي ضنوا عليه بذكر اسمه وله هذا الشعر، ودوّنوا سخافات الصفدي التي رويتُ بعضَها. على أنها خير -على كل حال- مما يُنشَر من الشعر الحديث! قال الأعرابي[١]:

أيا رِفْقَةً مِن أهلِ بُصرى تَحمّلوا
رسالتَنا لُقِّيتِ مِن رِفْقَةٍ رُشدا

---

(١) وجدت البيتين الأوّلين (باختلاف يسير) في ديوان يَزيد بن الطَّثَريّة، وهو شاعر أموي توفي سنة ١٢٦، أما البيت الأخير فقد رُوي في كتب الأدب (كالأغاني وسواه) بصورتين متقاربتين منسوباً للمرقّش الأكبر مرّة ولعبد الله بن العَجْلان النّهدي أخرى (مجاهد).

إذا ما وصلتمْ سالمينَ فبلّغوا

تحيتَنا مَن ظنّ ألاّ يرى نَجدا

وقولوا لهُمْ ليسَ الضّلالُ أجازَنا

ولكنّنا جُزْنا لنَلْقاكُمُ عَمْدا

ومن أراد أن يقرأ أمثال هذا الشعر الذي يحنّ قائلوه إلى نجد رآه في رسالة لي صغيرة طُبعت في الرياض عنوانها «حلم في نجد»[1].

كانت بُصرى قصبة حوران، فلما مرّ الخط الحديدي بدَرْعا أُقيمت المحطة فيها بعيداً عن البلد، فجعلت المحطة تكبر والبلدة يقف نموها فتصغر، حتى صارت المحطة هي المدينة ورجعت المدينةُ الأصلية قريةً تابعة لها.

وكذلك الدنيا أقدار وقِسَم قسمها بارئها، فصغير يكبر وكبير يصغر قدره، ونازل يعلو وعالٍ يهبط إلى الحضيض. مرّ الخط قريباً من درعا ولم يدخل إليها فدخلَت البلد كلها في المحطة، وشُيّدت من حولها العمارات وفُتحت الحوانيت. ولو بقي الخط يسير ولم تمتدّ إليه إصبع شياطين الإنس يُغرون أهلَه بقتله لنشأت خلال هذه السنين التي قاربت الآن السبعين مدنٌ كبار في معان والمدوَّرة والعُلا، ومدن صغار في كل قرية يمرّ بها القطار، ولكان هو الطريق المسلوك، لأن السيارات مهما كثرت لا تستطيع أن تسدّ مسد القطار، ولكان الحُجّاج السوريون والأردنيون وحجاج لبنان والعراق وحجاج الترك والعجم الذين يؤثرون أن يمرّوا بدمشق، لكان سفرهم كلهم في هذا القطار، ولكان شريانَ حياة يحمل دمَ

---

(١) وهي في كتاب «صور وخواطر» (مجاهد).

الصحّة لكل مكان يمر به يأتيه بالخير والمال.

ودرعا معروفة من القديم ولكن باسم «أذْرِعات»، ولها في التاريخ ذكر وقيل فيها كثير من الشعر، منه قول امرئ القيس الذي لا أحب أن أروي منه إلاّ بيتاً واحداً هو:

تَنَوَّرْتُها مِن أذْرِعاتٍ وأهلُها   بِيثربَ، أدنى دارَها نظرٌ عالِ

وامرؤ القيس قمة القمم في الشعر العربي، ما قيّض الله له إلى الآن من يدرس شعره كما ينبغي أن يُدرَس. لا لأنه أول من بكى واستبكى ووقف واستوقف، بل لأنه وضع الأساس لكل فنّ من فنون الشعر؛ فالغزَل مثلاً منه ما هو عاطفي نظيف كشعر قيس وقيس الآخر وجميل وكُثيّر ونصيب وشعراء الغزل بالمدينة، ومنه ما هو قصصي يحكي وقائع المحبين وأخبار الهجر واللقاء كشعر عمر بن أبن ربيعة وتلميذه العرجي، ومنه ما هو شعر فاحش (كالأفلام التي قالوا إنها تكشف أدقّ ما يستره الأزواج في مخدع الزوجية) كبعض شعر بشار وبعض شعراء اليتيمة، يتيمة الدهر للثعالبي، وبعض ما قال (وليته ما قال) أحد شعراء هذا العصر! وكل ذلك في معلقة امرئ القيس.

والمقاييس تختلف، فامرؤ القيس بالمقياس الأدبي كبير الشعراء وأستاذهم، ثم إنه رحّالة زار الشام وبلغ القسطنطينية وتنقّل في أرجاء جزيرة العرب، ولكن النقاد لم يوفوه حقه، وقد ذكروه أخيراً فجعلوا من سيرته مسلسلة عرضوها في الرائي في رمضان، فأساءت للتاريخ وللأدب وللفنّ.

* * *

وإذا تتبّعنا الطريق الذي سلكه الصفدي في حِجّته وجدناه يمشي مع سكة الحديد، يبتعد عنها حيناً ثم يعود إليها. فقد مشى بعد بصرى إلى «الزرقاء» وقال فيها شعراً. والزرقاء مدينة كبيرة وقد اتصلَت الآن بعَمّان أو كادت، وقد زرتها مرّات لا أحصيها وألقيت فيها محاضرات، في مساجدها ونواديها وفي النادي العسكري الكبير فيها. ثم إلى زيزاء وقال فيها شعراً (وتجدون هذه الأشعار كلها في كتاب «درر الفوائد المنظمة» ص ٤٥٣ وما بعدها)، وزيزاء معروفة بهذا الاسم إلى اليوم ويحرّفه بعض الناس فيقولون «الجيزة». ثم يمضي إلى الكَرَك، والكرك تقوم اليوم على هضبة وإلى جنبها شبه بلدة جديدة، وقد ذهبت إليها مرات وألقيت فيها محاضرات، وللكرك في تاريخ الحروب الصليبية أخبار طوال. ويمضي الصفدي في طريقه يسمّي منازله ويقول فيها هذا الشعر الذي عرفتم نماذج منه، حتى يبلغ معان.

ومعان بفتح الميم، وبعض المحدّثين يضمّها. وفيها تجمّع جيش الروم الذي نازله المسلمون في مؤتة، وكان جيشاً ضخماً يقول المُقِلّون إن فيه مئة وخمسين ألفاً والمكثرون إنه يزيد على مئتَي ألف، وقفَت أمامه فرقةُ استطلاع إسلامية صغيرة مؤلَّفة من ثلاثة آلاف، استُشهد قُوّادها الثلاثة الذين سمّاهم رسول الله عليه الصلاة والسلام بالقيادة. ثم تسلّمها القائد العبقري، أعظم قُوّاد التاريخ العسكري القديم، خالد بن الوليد، فانسحب انسحاباً كان أعظم من النصر، لأنه أنقذ ثلاثة آلاف من بين مئة وخمسين ألفاً أطبقوا عليهم وأحاطوا بهم. وإذا كان الحلفاء يفتخرون بالانسحاب من دَنْكِرك أيام الحرب الثانية فإن انسحاب خالد أعظم بكثير.

ولعبد الله بن رواحة أحد القواد الشهداء مقطوعة قالها في مؤتة، ومؤتة معروفة الآن وهي إلى جنوبي الكرك، وإلى جنبها مدافن الشهداء في مكان اسمه اليوم «المَزار».

ولقد سِرتُ إلى جنب الخط الحجازي كله من المدينة المنورة إلى دمشق، ومررت بمحطاته المهدَّمة، ورأيت ما انتهى إليه حاله. وكان في أوله في دمشق معمل كبير أُنشئ مع إنشاء الخط قالوا إنه يستطيع أن يصنع قاطرة كاملة، وكان في المدينة المنورة محطة كبيرة، وفي تبوك في وسط الطريق تماماً بين دمشق والمدينة محطة مثلها.

وقد كان من أواخر مَن ركب القطار وفدٌ من كبار علماء دمشق بعثَت بهم الحكومة إلى المدينة المنورة، وكان فيهم أبي رحمه الله ورحمهم. وقد أخذوهم كرّة أخرى إلى إسطنبول ليُروهم «جناق قلعة» وتحصيناتها، وكان خطيب الوفد الشيخ أسعد الشقيري، وهو فلسطيني، وهو والد الأستاذ أحمد الشقيري صاحب الخطب المأثورة. وكان الأستاذ أحمد كأبيه خطيباً طلق اللسان صاحب فصاحة وبيان، ولكن الأساليب تتبدّل بتبدّل الزمان، والمبالغات التي كانت تُعجِب يوماً السامعين وتُطلِق ألسنتهم بالهتاف وأكفَّهم بالتصفيق لم تعُد تصلح لهذه الأيام، وهي من باب قول الرافعي رحمه الله عن الطليان في قصيدته المشهورة:

تاللهِ لو انّهمْ جِنٌّـن جماجِمُهمْ
ذُرى الجبالِ يغطّي هامَها الشجرُ
ومِن رقابهِمُ فــي الجوِّ أعمدةٌ
وفوقَ كلِّ عَمودٍ في السَّمَا قَمَرُ

وكانَ فيزوفُ فــوقَ الماءِ بارِجةً
وخَلْفَــهُ كانَ بــركانٌ فينفَجِــرُ
وأقبلــوا ولَهُمْ هذي القلوبُ لَما
صدّوا عدوّاً ولا فازوا ولا انتصروا

شعر حماسيّ قوي، ولكن الحرب باللسان لا تُغني عن السنان وعن المدافع والطيران، وإلاّ انطبقَ علينا نحن ما قاله حافظ إبراهيم عن الطليان في تلك الحرب:

قدْ ملأنا البرَّ من أشلائِهِمْ فدَعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

لقد صرنا نحن الذين يملؤون الدنيا كلاماً ويحاربون بالخطب والمقالات والمؤتمرات والتصريحات! ويقول حافظ إبراهيم في هذه القصيدة:

بــاركَ المُطرانُ في أعمــالِـهِمْ فسَلُوهُ: باركَ القومَ عَلاما؟
أبــهـذا جــاءَهــمْ إنجيــلُهمْ آمراً يُلقي على الأرضِ السّلاما؟

وأقول بالمناسبة إن لديّ أكثرَ القصائد التي قيلت في هجوم الطليان الغادر على طرابلس الغرب، أي ليبيا (التي كان العرب يسمّونها قبل الحرب الأولى «لوبيا»)، وتصلح هذه المجموعة لتكون موضوع رسالة للماجستير، ولكنها في مكتبتي في الشام.

* * *

-٢١٠-

في صحبة الحيوان

دخلنا في ألمانيا حديقة حيوانات ليست كما عرفنا من الحدائق، لا تُحبَس فيها الأسود والسباع في الأقفاص بل تمشي حرّة طليقة، ونبقى نحن محبوسين في الأقفاص تمشي بنا أقفاصنا بين الأسود. وما الأقفاص إلاّ سيارات كبيرة لها عوارض من الحديد تجعل منظرها كالقفص. أو ندخل بسياراتنا مغلَقة نوافذُها مُرخى زجاجها.

وكنا قد ذهبنا في سيارة صغيرة قديمة أدركت عهد ما بين الحربين، فهي عجوز أكل عليها الدهر حتى شبع وشرب بعد الأكل الشاي! وإذا كانت العجوز وكان الشيخ يمشي على ثلاث (لأن العصا للشيخ رجل ثالثة) مشت هي على أربع. وكان سائقها شاباً طيّباً من أبنائنا الطلاب، يبدو أنه لم يكن يُحسِن القيادة، وكنا نمشي في طرق الحديقة، وهي متروكة كما خلقها الله لتأنس فيها الحيوانات وتعيش كما تريد، فاعترضَنا جدول صغير فما طاب للسيارة الوقوف إلاّ وسط الجدول، ويظهر أنها كانت مصابة بالرثيّة (أي الروماتيزم) فحرّك الماء البارد آلامها، فلم تعُد تستطيع المسير ولا تجد قوة على الصعود من عمق الجدول إلى ظهر الطريق.

وجعلت حيوانات الحديقة تمرّ بنا، فمنها ما يُلقي نظرة علينا ثم يمضي غيرَ حافل بنا، ومنها ما يقف علينا قليلاً كأنه يَعجب منا أو يرى فينا مخلوقاً غريباً. وجاء أسد فدنا منا حتى لامس برأسه زجاجَ سيارتنا، واستطعت -من قربه- أن أعدّ شعرات شاربَيه وأتأمل وجهه وعينيه الصغيرتين، فوجدت فيهما رقّة لا أجدها في بعض بني آدم! ووجدته كالقط الكبير. ونحن نحبّ القطط ونألفها، وعندنا قطط فارسية جميلة نُعنى بها ونضعها في أحضاننا، ولكننا لا نحبّ الكلاب والذين يربّونها ويعانقونها ويتركونها تلحس وجوههم وأبدانهم بألسنتها وينامون إلى جنبها ويأكلون معها! والإسلام يكره ذلك إلاّ لمقصد مشروع، كحراسة الحقل وحماية القطيع وتتبُّع اللصوص والمجرمين. أمّا نجاسة الكلب ففيها خلاف، فهو عند الشافعي نجس كله شعره وريقه، وعند مالك طاهر كله شعره وريقه، وعند أبي حنيفة ريقه نجس وشعره طاهر، وقد رجّح ابن تيمية ما ذهب إليه أبو حنيفة.

عفواً، لقد غلبَت عليّ صنعتي في أيامي الأخيرة وهي الفتوى.

ووقف الأسد ملياً، فلما رآنا لا نستحقّ الاهتمام لوى وجهه وانصرف عنا غير مودّع لنا ولا آسف كما يظهر على فراقنا. وأحسبه كان يظننا من أقربائه وأنسبائه: أسوداً نحمي غابَنا ونردّ عنه الواغل علينا، فلذلك أقبل علينا، فلمّا علم (وما أدري كيف علم) أننا قد أذهبنا ريحنَا وأضعنا عزّتنا بانقسامنا وانحرافنا عن طريق أسلافنا، زهد فينا وأعرض عنا. وكيف يحسبنا أسوداً وقد غلبتنا على أرضنا في فلسطين الكلابُ؟!

ورأينا الغزلان تمرّ من حولنا تنظر بعيونها إلينا، تلك العيون التي فتنت شعراء العرب حتى شبّهوا بأصحابها الغيد الحسان. وما زال العرب يتتبّعون ما أودع الله من الخصائص والمزايا في غرائز الحيوان فيضربون بها الأمثال: بوفاء الكلب، وصبر الحمار، وإقدام الأسد، واحتمال الجمل، وجمال الغزال، ومكر الثعلب.

ولمّا جاء عليُّ بن الجهم بغداد قادماً من بيدائه باقياً على جفائه، مدح الخليفة فجمع فيه من هذه الصفات التي كان يراها مزايا، حتى لم يكَد يدع حيواناً إلاّ شبهه به (كما زعم الرواة)، فأنكر عليه أهل المجلس، ولكن الخليفة رأى فيه جوهراً غالياً ينقصه الصقل، فأمر بإسكانه في أجمل أحياء بغداد يوم كانت بغداد أجمل وأجلّ بلاد الدنيا. فما مضت أشهر حتى غدا عليه بقصيدته المشهورة:

عيونُ المَها بينَ الرُّصافةِ والجسرِ
جلَبنَ الهَوى مِن حيثُ أدري ولا أدري

أعَدْنَ ليَ الشّوقَ القديمَ ولم أكنْ
سَلَوْتُ ولكنْ زِدنَ جَمراً على جَمري

ولمّا كنت أدرّس الأدب العربي في بغداد سنة ١٩٣٦ سألني طالب عن معنى هذا البيت، لأن الرصافة (وهي الجانب الشرقي من بغداد) متصلة بالجسر، فأين يكون مجال الغيد الحسان بينهما؟ فتردّدت وكدت أقول لا أدري، ثم فُتح عليّ فعرفت المراد، وهو أنها تُرى بينهما، فهي تارة في الرصافة وتارة على الجسر، كما

تقول عن الرجل الصالح المعتزل الدنيا: هو بين بيته ومسجده.

ومن طريف الذكريات أني كنت أدرّس مرة في ثانوية البنات في دمشق (ولم أكن مصيباً في قبول التدريس فيها، وأستغفر الله الآن من دخولي إليها، لأنه لا يجوز في شرع الله ولا في طبع عباده من العرب أن يتولى رجل تدريس البنات البالغات، وأكثرهن سافرات كاشفات، فكيف بأن تدرّس بنتٌ فتياناً؟) وكنت أشرح قصيدة الحُطيئة، فمرّ ذكر «بَغيض» فسخرَت طالبة من اسمه واستقبحته. فسألتها: ما اسمك؟ قالت: مها. قلت: أفلا أنكرتِ اسمك والمهاة هي البقرة؟

فوضعَت رأسها بين كفّيها وانكبّت على المقعد تبكي، وأطالت البكاء. قلت: ما الذي يُبكيك؟ قالت: أبكي لأنك قلت إني بقرة. قلت: إنها البقرة الوحشية، ثم إن أهلك -وهم أعرف بك وأحنى عليك- هم الذين سمّوك بهذا الاسم. فازدادت بكاء، قلت: لك أن تبكي ما شئتِ ولكن لا تُخرجي صوتاً يعطّل علينا درسنا.

على أن المها ليس البقر بل هو نوع من الظّباء. فانظروا إلى المعنى الواحد كيف يرفعه أو يخفضه التعبير عنه، كالقائد الذي زعموا أنه رأى رؤيا فدعا بمن يعبرها له، فقال له: ستموت أسرتك كلها. فشتمه وأمر به فأُخرج من مجلسه، ودعا بآخر فقال له: أنت أطول عمراً من أسرتك كلها. فهشّ له وأكرمه.

والمعنى واحد ولكن اختلف التعبير. وصحّت كلمة الجاحظ حين قال: «إن المعاني ملقاة على قوارع الطرق، وإنما يتميز الناس

بالألفاظ». ولعلّه يقصد أن المشاعر الإنسانية متشابهة، فما يموت لأحد حبيبٌ إلاّ حزن ولا تأتيه بشارة أو عطيّة إلاّ فرح، ولكن تتفاوت أقدار الناس في التعبير عن هذا الحزن وهذا الفرح.

* * *

وصُحبتي الحيوانات قديمة، إذ كان من أوائل ما وقعَت عليه يدي في مكتبة أبي كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدَّميري. وهو كتاب عجيب؛ فيه فقه، بل إنه يُعَدّ أقرب مرجع في معرفة ما يؤكَل وما لا يؤكل من الحيوان، وكتاب لغة، فهو يضبط الأسماء، وكتاب أدب، فهو يسرد الأخبار، وكتاب طبيعة، فهو يشير إلى بعض خصائص الحيوانات، وكتاب تاريخ، فهو يلخّص فيه مراحل طويلة من تاريخنا، وهو على ذلك كله مملوء بالخرافات والأوهام والأباطيل وما يدخل العقل وما لا يدخله وما يُفسِده ويعطّله. ثم لمّا كبرت قرأت كتاب «الحيوان» للجاحظ فوجدت فيه تلك الألوان كلها، ولكن الذي فيه أعلى وأغلى، وحسبك أنه من تصنيف الجاحظ.

وكان من أوجع ذكريات الصغر أننا كنا نشتري، أو يشتري أهلنا، كبش العيد، فيبقى عندنا حيناً نُطعِمه نحن الصغار ونُعنى به حتى يألفنا ونألفه، نغسله وننظفه ونمرّ بأكفّنا على صوفه، أو نعانقه أو نكلّمه، نهمس في أذنَيه بما لا يدركه ولا يفهمه من مناغاة الأحبّة ومناجاة أهل الغرام. فإذا جاء يوم العيد وأخذوه لِما اشتروه له، وهو الذبح، أحسسنا ونحن صغار بما يحسّ بمثله من يُقتل حبيبه أمام عينيه فلا يملك له نصراً. وكنا نتصور صوته وهو

يثغو يقول: باغ، ويمدّها، نتصوره نداء مستغيث يستجير بنا، ينادينا، فنشعر بقلوبنا تتمزق حسرة وتفيض من عيوننا الدموع أنْ لا نجد ما نردّ به عن عنقه سكين الجزار!

* * *

أمضينا في هذه الحديقة مع الحيوانات الطليقة ساعات طوالاً، وكنت أراها أول مرة، ما عرفت من قبل إلاّ أسوداً محبوسة في الأقفاص أو محسورة وسط الأسوار، فقلت: أجعل حديثي في هذه الحلقة عن الحيوانات أصحبها فيها، ولعلّ صحبتها أسلم من صحبة كثير من الناس، فهي لا تكذب ولا تغتاب ولا تنمّ، ولا تخون أوطانها ولا تجحد أديانها، ولا تبخس إخوتها مزاياها ولا تدّعي لنفسها من المزايا ما ليس لها.

وإذا عض الذئب أو لدغ الثعبان أو افترس الأسد فإنما يفعل ذلك دفاعاً عن نفسه وحفاظاً على حياته، ثم إنه لا يقتل إلاّ فرداً واحداً ولا يستعمل إلاّ نابه وظفره أو قطرة من السم أعدّها الله سلاحاً له، وبعض بني الإنسان يتخذ أنياباً من الحديد والفولاذ ومخالب من البارود والنار، وألواناً وأشكالاً من السموم، ويأتي عدوّه من الأرض ومن السماء ومن جوف البحر ومن فوق السحاب، ويُبيد بضربة واحدة آلافاً وعشرات الآلاف من إخوانه وأخواته، لا يحارب إلاّ قليلاً دفاعاً عن النفس وحفاظاً على الحياة، بل يحارب غالباً لأنه لا يستطيع إلاّ أن يحارب. وأغرب من ذلك أنه جعل القتل بالجملة فناً من الفنون وعلماً من العلوم ووضع له القواعد وفتح له المدارس. فأيهما -سألتكم

بالله- أوحش: وحوش الغاب أم بعض بني الإنسان الذين يدّعون أنهم من المتمدنين؟ وأيهما أسلم عاقبة وأقلّ خطراً: صحبة البشر أم صحبة البقر والجمال والحمير والبغال؟

فدعوني أَجُبْ اليوم معكم في عالَم الوحوش والبهائم وفاء لبعضها ببعض ما قدّمَت إلينا؛ هذا الجمل لولاه ما استطاع العرب العيش في هذه الصحراء: فعليه ركوبهم، ومن شعره ووبره خيامهم، ومن لحمه ولبنه غذاؤهم، ومنه ومما يتصل به جاءت في العربية ألفاظ كثيرة اغتنى بها لسانهم، ولو أحصُيت هذه الألفاظ وشُرحت لجاءت منها رسالة جامعية ينال بها مؤلّفها أعلى الشهادات.

ولمّا ذهبت إلى كراتشي في مطلع رحلتي إلى المشرق التي سُقت لكم فيما مضى طرفاً منها رأيت سيد حيواناتها الجمل، لا الجمل الذي تعرفونه بل الجمل العظيم الذي هو أضخم من جمالنا جثة وأطول عنقاً وأعلى سناماً، والعرب كانوا يعرفونه ويسمّونه «السّنْديّ» ومنه ومن الجمل العربي يولد نوع من الجمال يُسمّى البُخْتِيّ» (وجمعه البُخْت، وفي الحديث: كأسنمة البُخت). والعجيب أنهم لا يضعون أحمالهم عليه بل يتخذونه للجرّ، يُعِدّون العربة التي تعدل في ضخامتها سيارة الشحن ويملؤونها ويربطون بها جملاً واحداً، فيجرّها من غير انزعاج.

وهو على ضخامته أسرع من جمالنا، وهم يتخذون له في ركبتيه جلاجل وأجراساً صغاراً، كلما خطا رنّت فاستطاب صوتَها. والجمل كما تعلمون (أو لا تعلمون، فلست أدري) حيوان موسيقي، لذلك يتخذون له مغنّياً خاصاً يصحب القوافل

يغنّي له الأغنية المحبَّبة إليه، وذلك هو «الحُداء»، وللشعراء شعر كثير يذكرون فيه الحادي.

ورأيت في كراتشي حميراً صغاراً جداً، وهي قوية وسريعة، لا يجاوز حجمُ الواحد منها حجمَ الخروف الكبير ولكنه يجرّ عربة ويطير بها. ولقد قرأت وأنا صغير كتاباً مترجَماً عنوانه «خواطر حمار»، تَبيّن منه أن للحمار خواطر وأفكاراً. وقد ترجم بشار من قبل عن عواطف الحمار ووصف غرامه بأتان (أي حمارة): روى محمد بن الحجاج قال: جاءنا بشار يوماً، فقلنا: ما لك مغتمّاً؟ قال: مات حماري فرأيته في النوم فقلت له: لم تركتَني؟ ألم أُحسِن إليك؟ فقال لي:

سيّدي خُذ بي أتاناً ... عند باب الأصفهاني

تيّمَتنـــي يــومَ رُحنا ... بثنايـاهــا الحِســانِ

وبغُنْــجٍ ودَلالٍ ... سلَّ جسمي وبَراني

ولهـــا خَـــدٌّ أسـيلٌ ... مثلُ خدّ الشَّيْفراني

فلذا مِتُّ ولو عِشـــ ... ـتُ إذن طالَ هواني[1]

قال: فسألناه: ما هو الشَّيْفراني؟ فقال: هذا من لغة الحمير، فإذا لقيتموهم فاسألوهم[2].

---

(١) خذ بي أتاناً: أي اطلب ثأري عند هذه الأتان. وثناياها: أي أسنانها. سلّ جسمي: أي أدخله بمرض السل.

(٢) في «الأغاني» أن بشّاراً كان يحشو شعره إذا أعوزَته القافية بالأشياء التي لا حقيقة لها؛ فمن ذلك أنه أنشد يوماً: «غنّني للغَريضِ يا ابنَ قَنانِ»، فقيل له: مَن ابن قنان هذا؟ لسنا نعرفه من مغنّي البصرة. =

وكان عندنا جمعية أعضاؤها من كرام الناس وكبار الأدباء اسمها «جمعية الحمير»، ألّفوها للتسلية وللمزاح، كتبتُ عنها مقالة في الرسالة في أواخر الأربعينيات من هذا القرن الميلادي، وهي في كتابي «مقالات في كلمات»[1].

ومما يعجب له السائح في كراتشي وفي غيرها كثرة الغربان، فهي لا تزال تحوم حول البيوت وتنعب وتخطف ما تصل إليه من الطعام، وهي آلاف مؤلَّفة لا يُدرِكها العدّ، ولم أرَ بلداً أكثر غرباناً من كراتشي إلاّ كلكتا في الهند.

ولست أدري لماذا كان العرب يتشاءمون بصوت الغراب ويرونه دليل الفراق، ويزعمون أنهم يفهمون معنى هذه الأصوات ويسمّونه غراب البين، مع أن الحقّ في قول من قال:

ما فرّقَ الآلافَ بعدَ اللهِ إلاّ الإبِلُ
وما إذا صاحَ غرابٌ في الديارِ احتملوا
وما غرابُ البَينِ إلا ناقةٌ أو جَملُ

وعلى ذكر كَلكُتّا فإني لم أجد مدينة أشدّ كآبة منها. وهي قديمة كبيرة، كان فيها لمّا زرتها من إحدى وثلاثين سنة

= قال: وما عليكم منه؟ ألكم قِبَله دَين فتطالبوه به أو ثأر تريدون أن تدركوه؟ أو كفَلتُ لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره؟ قالوا: وكان كثيراً ما يحشو شعره بمثل هذا، ومنه «الشّيفراني» الذي رواه على لسان الحمير. انظر الأغاني ١٥٧/٣ (مجاهد).

(١) مقالة «يؤمنون بالحمار» (مجاهد).

(سنة ١٩٥٤) خمسة ملايين ونصف المليون من الناس، أي بمقدار ما كان يسكن يومئذ سوريا ولبنان والأردن معاً. ومن عجائبها أن الناس فيها يجرّون العربات الصغيرة (الركشات) بدل الحمير والبقر، والبقر تمشي في الطريق تختال عجباً لأنها مقدَّسة معبودة! وليس أمر بقرة أو اثنتين أو عشر أو عشرين، بل إنك تلقى كل خمسين متراً بقرة، تمشي كما تريد، تأكل فاكهة البياعين وزهور الحدائق فلا يطردونها بل يتبرّكون بها، وتقطع الشارع الهائل الذي تمرّ فيه كل دقيقة عشر سيارات فتقف السيارات كلها وتنقطع الحركة حتى تجوز البقرة، كأنها حمارة أبي سَيّارة عند العرب قديماً أيام الحج حين كانوا يقولون:

خلّوا الطريقَ لأبي سيّاره   حتّى يُجيزَ آمناً حِمارَهْ

وربما خطر للبقرة أن تُطيل الوقوف في وسط الشارع، فتميل السيارات عن المكان الذي وقفت فيه وتذهب من طريق آخر! ولقد مررتُ مرة بالسينما الفخمة التي أقامتها في كلكتا شركة مترو الأمريكية، وهي تُزري من فخامتها بالقصور، فرأيت بقرة قد قعدت على الرخام الذي يلمع كالمرايا تحت شبّاك التذاكر، ثم تبرّزَت ونامت، فتركوا الشبّاك وفتحوا شبّاكاً آخر احتياطياً ولم يُزعِجها أحد!

ولقد دعتني محطة دهلي العظيمة لأذيع منها أحاديث عن مشاهداتي في الهند، كان منها حديث عن بقرة مشيت قريباً منها لأرى ما تصنع، وسجّلتُ حركاتها وسكناتها ولخّصت فلسفتها في الحياة. أتعجبون أن يكون للبقر فلسفة؟ إن كثيراً من الفلاسفة

الكبار كانوا بقراً. سَجّلوا الحديث ودفعوا لي أعلى قدر من المكافآت التي تُعطى لمحدّث وودّعوني وشيّعوني إلى الباب، ثم لم يُذَع هذا الحديث!

وهم لا يحرّمون ذبح البقرة وحدها بل يحرّمون قتل كل ذي حياة، حتى لقد حدّثوني أن الإنكليز رأوا في الحرب العامّة الماضية كثرة الفئران وفتكها بمخازن القمح، فجعلوا لكل من يقتل فأراً ويأتي بذنَبه خمس آنّات (والآنّة كالهللة (أو الهلالة) هنا والفلس في العراق والملّيم في مصر). فهاجت العامّة وضجّت الصحف وكانت المظاهرات، حتى استجابت الحكومة وأبطلت القرار، وتركت الفئران تأكل من القمح ما تشاء.

ولمّا وصلتُ إلى «لَكْنَوْ»، ولوصولي إليها قصة لم أكتبها ولم أحدّث بها، تلك أننا أنا والشيخ أمجد الزهاوي رحمه الله كلما جئنا بلداً وجدنا من يستقبلنا ممن يهتمّ بالقضية التي رحلنا من أجلها وللتعريف بها، وهي قضية فلسطين. فلما نزلنا من الطيّارة في لكنَوْ لم نجد في استقبالنا أحداً[1]. ولكنو كانت محطّ رجائنا وموضع ثقتنا لأنها بلد أخينا وحبيبنا الأستاذ أبي الحسن النّدْوي، فما عرفنا أين نذهب، فسألت عن الأوتيل (وكلمة «أوتيل» تُفهَم في كل مكان) فعرفنا أن الشركة، شركة الطيران التي حملتنا

---

(١) سيأتي هذا الخبر بتفصيل أكبر في الحلقة الثانية من «الندوي ومذكراته»، وهي الحلقة ٢٢١، وفيها: "لمّا وصلنا لم نجد في استقبالنا أحداً، لأنهم ترقبوا وصولنا بالقطار وانتظرونا في المحطة، لم يقدّروا أن نأتي بالطيارة" (مجاهد).

من دهلي إلى لكنو، تنزل في فندق كبير في القسم الجديد من المدينة، وهو «حضرت كنج».

ولكنو ثلاثة أقسام: قسم قديم مسوَّر مُغلَق من كل جهة ما فيه إلاّ بابان متقابلان يصل بينهما شارع واحد، وقسم كبير فيه جلّ المدينة، والقسم الجديد الذي فيه الفندق. وكان يوماً مطيراً تهطل أمطاره كأفواه القِرَب، فأخذنا غرفتين في الفندق، وكان أكبر فنادق البلد، وحاولنا أن نهتف بالأستاذ الندوي فلم نجد إليه طريقاً. والشيخ أمجد رحمه الله يضيق صدره ولكن ينطلق لسانه، فلا يسكت عن النقد وعن الإلحاح عليّ بأن أُخرِجه من هذه الورطة، فأخذت سيارة تحت المطر وجعلت أجول في الطرق لا أعرف أين أتجه، وكلما التفت إليّ السائق يسألني أشرت إليه بأن يمضي. والعداد، عدّاد التاكسي، يسجّل علينا، حتى مررت برجل تفرّست فيه فوقع في ظني أنه من جماعة أبي الحسن، فأخذنا إليه.

أعود إلى ما بدأت به في الكلام عن الحيوانات، وهو الموضوع الذي عقدت هذه الحلقة عليه. لمّا وصلنا إلى لكنو مدينة أبي الحسن قبل أن نلقاه قعدت في شرفة فندق كارلتون العظيم وطلبت شاي العصر، وهو عند الإنكليز من الفرائض، فسمعت جاري الإنكليزي يصيح، فنظرت فإذا القرد قد تغفّله وخطف قطعة الفَرَانيّ (الكاتو)! وإذا السطح كله قِرَدة تثب وتدخل البيوت وتخطف الطعام، وهي مثل القطط في بلادنا، والشجر المحيط بالفندق مملوء بالقردة تتسلّق أغصانَه وتقفز من غصن إلى آخر. ومنظرها من أمتع المناظر، منها الكبير ومنها الوسط، ومنها

ما لا يزيد حجمه مهما بلغ من العمر عن حجم القطة الصغيرة. ولقد أردت أن أشتري واحداً منها فإذا هو غالي الثمن، وإذا الطيارة لا تُركِبه معي إلاّ بصعوبة بالغة وبعد فحوص طبية لا أقدر عليها لنفسي!

وابن القرد يتعلق ببطن أمه متمسكاً بخاصرتيها وهي تثب به الوثبة بعرض ستة أمتار أو سبعة، وهو يقلّد الناس تقليداً يُضحِك الأم الثكلى (كما كانوا يقولون). ولقد رأيت من قبل في حدائق الحيوان في مصر وغيرها من القردة، ولكن القرد المطلَق يفعل ما لا يفعله المحبوس في القفص.

ودخلت غرفتي في الفندق، وهو عادة ساكن هادئ من أجمل ما نزلنا فيه من الفنادق، فسمعت صوت رجل عجوز يتكلم الإنكليزية فيجيب طفل صغير ألثغ ينطق السين ثاء، ثم تعقّب عليهما فتاة بصوت فضّي له رنين، وتكون سكتة ثم يرجع صوت العجوز والطفل والفتاة بالكلام نفسه، وتَكرّر ذلك عشرين مرة، فعجبتُ وخرجت فلم أرَ أحداً، فعُدت إلى غرفتي فسمعت الأصوات ذاتها، فجعلت أفتّش فإذا الصوت من طائر أسود في قفص يشبه الشحرور تماماً، وإذا هو أفصح من الببغاء وأغلى منها ثمناً يقلّد الأصوات كلها، يسمّونه «اليمامة». ومن المصادفات التي قد لا يصدّق بعض القراء أنها وقعت أنه كان معي في تلك الساعة كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، وهو من الكتب التي أُولِعتُ بها من صغري وأعَدت قراءته أكثر من عشرين مرة، فوجدت فيه خبراً عن مثل هذا الطائر أُهديَ إلى الخليفة يقلّد الأصوات، وأطبقتُ الكتاب وخرجت من الغرفة وإذا بي أجده!

والببغاوات في لكنو وفي أمثالها من مدن الهند الداخلية تطير حرّة كالعصافير، وأجمل منها الطواويس تختال في الشوارع الكبرى والحدائق العامّة مثلما تختال البقر (ولا مشابَهة!) ولا يعرض لها أحد.

ومن أخبار الحيوانات التي رأيتها أن الجواميس في الهند الجنوبية والملايا (ماليزيا) وأندونيسيا هي التي تجرّ مراكب الحمل، وهم يَخرمون آنافها ويضعون لها الأرْسان.

ورأيت في لكنو حيوانين لم يكونا يومئذ في حديقة القاهرة هما «البَبْر»، أي الأسد الهندي، وهو كما قالوا أخطر من الأسد الإفريقي. ورأيت الكَرْكَدَّن، أي وحيد القرن، وهو بحجم الجاموس العظيم ولكن رأسه أكبر من رأس الفيل على ذمّة ابن بطوطة، وله قرن واحد يبلغ طوله كما رأينا نحواً من نصف ذراع. وكان نائماً فطلبنا من خادم الحديقة أن يوقظه لنراه، فجعل يطعنه برمح له سنان حاد فلا يتحرّك، فخفنا أن يجرحه، فأفهمَنا الترجمان أن جلده لا تؤثّر فيه الأسنّة. والغريب أنه يعيش على أكل الحشيش، فلما قطع له الخادم أوراقاً من الشجرة وألقاها قريباً من أنفه وشمّ رائحتها قام متثاقلاً فأكلها، ثم ألقى نظرة علينا من طرف عيونه الصغار جداً، فظهر لنا أننا لم نُعجِبه ولم يرَ فينا ما يستحقّ النظر، فقلب شفته احتقاراً وحرّك قرنه (أو هذا ما خُيّل إلينا) ورجع فنام.

وأخبث حيوان رأيته هو أني نزلت في دهلي في نُزُل كبير للحكومة يشبه الفندق فيه نحو ستمئة غرفة اسمه «كونْستِتْيوشِنْ هاوْس». وكنت قد فصّلت في كلكتا قميصاً جديداً ألبسه بدل

الرداء (الجاكيت) لأن الحرّ لا يدعك تُطيق الجاكيت، فعلّقته على كرسي، ورجعت بعد أن غبت ساعتين عن الغرفة فإذا هو مثقَّب ثقوباً منتظمة كالدوائر. ولم أدرِ ما الذي فعل به ذلك حتى دلّوني على حشرة أصغر من الذبابة تقرض الثياب فتُفسِدها، فضاع مني القميص، ولكني جئت أنشر هجاءها الآن على طريقة من قال: «أوسعته شتماً وأودى بالإبل». وقال هذا أحد الحمقى، ولكنه ينطبق مع الأسف علينا أو على أكثرنا -معشرَ العرب أو المسلمين- في هذه الأيام.

ومن أعجب مشاهد الحيوان التي شهدتُها أن حاوياً (أي مربّي الحيّات) دخل علينا فندق «سي فيس هوتيل» (أي فندق جبهة البحر) في بومباي وعرض علينا بعشرين روبية مشهد معركة بين الكوبرا (وهي أخطر أنواع الحيّات بالدنيا، ليست بالطويلة ولكن رأسها بعرض الكف) وبين حيوان نسيت اسمه الآن[1]. نفخ في نايه، حتى إذا استغرق في أنغامه أخرج الحيّة من كيسها فانتصبت قائمة تدور حوله مع النغم، وأخرج حيواناً صغيراً جميلاً جداً ليس له ظفر ولا ناب وهو يشبه السنجاب، فلما رأته ورآها هجمت عليه وهجم عليها، ومات الاثنان في لحظة واحدة. فسألت: ما الحكاية؟ قال: إنهما عدوّان، يلتقط رأسها بفمه الكبير ويطبق عليها فتختنق، وتلدغه قبل أن تختنق فيموت الاثنان معاً. وقالوا إنه لولا هذا الحيوان لفتكت الكوبرا بأهل الهند.

---

(١) هو النِّمْس، والنُّموس من اللّواحِم الصغيرة. قال صاحب القاموس: "النّمس (بالكسر) دُوَيبَّة بمصر تقتل الثعبان" (مجاهد).

وقد أودع الله في كل حيوان قوة يدافع بها عن نفسه، من مخلب أو ناب، أو قرن ينطح كقرن الثور، أو خرطوم يرفع ويخبط كخرطوم الفيل، أو سم كسم الحية، أو شوك كشوك القنفذ، أو درع كدرع السلحفاة، أو مكر كمكر الثعلب، أو سرعة كسرعة الغزال... ومن أعجب أسلحة الحيوان أن الحُبارى تقاتل بزَرْقها، فإذا رأت حيواناً زَرَقت عليه (أي بالت عليه) فيخرج زَرْقُها حامياً منتناً منطلقاً كالرصاصة فيقتل، ولذلك قالت العرب: «سِلاحها سُلاحها». أما هذا الحيوان الوديع الأليف البديع الظريف فسلاحه شجاعته، فهو يلتقم فمَ الحية فيقتلها، ولكن هذه الشجاعة تقتله.

الحديث عن الحيوان طويل، فأكتفي منه بهذا الذي قيل.



-٢١١-

كتاب جديد
أثار في نفسي ذكريات قديمة

كنت أسكن في دمشق بحيّ المهاجرين، وهو قائم على جبل قاسيون شوارعُه تعترض الجبلَ صاعدةً فيه، والبيوتُ مصفوفة فيها صفَّ الكراسي في مُدرَّج المسرح. وكانت لدارنا حديقة واسعة تلعب فيها الصغيرات من بناتي، فإذا كان الليل وأظلم الكون خافت إحداهنّ من الخروج إليها. فأخذتها مرة وأخذت معي كشّافاً كهربائياً صغيراً، واخترقت بها حُجُبَ الظلام وهي متهيّبة خائفة تتمسّك بي، حتى إذا توسطتُ الحديقة أضأت الكشّاف وقلت لها: انظري، ما الذي تخشينه؟ هذه هي الشجرة التي كنتِ ترينها في النهار وتلعبين من حولها، وهذه هي البِركة الصغيرة، وهذا حوض الورد، ما تبدّل في الحديقة شيء.

فلما رأت كل ما فيها على حاله لم تعُد تخشاها أو تجزع من الخروج إليها.

وكثيرٌ مما نخافه في هذه الحياة وكثير من الموضوعات التي تتحاماها الأقلام وتبتعد عنها الصحف مثلُ هذه الحديقة،

لا تحتاج إلاّ إلى عود كبريت أو إلى مصباح كشّاف يُظهِرها لأعيننا فنرى أنه ليس فيها ما نخشاه، ولكن الظلام الذي كان يلفّها وخيالَنا الذي كان ينطلق وسط هذا الظلام هو الذي يملأ نفوسنا بالمخاوف والأوهام.

ومن ذلك كتاب صدر في الشام في هذه الأيام يعرض لواحد من هذه الموضوعات، لرجل كان من رجال القضاء، انقطع إلى النيابة العامة فبلغ أعلى مرتبة فيها، فكان يوماً النائبَ العامّ لدى محكمة النقض ثم لدى المحكمة الدستورية العليا، ثم صار الأمين العامّ لمجلس الوزراء ثم لديوان رياسة الجمهورية. وما عرفناه من قبلُ من أهل التصنيف والتأليف ولا من أرباب الأقلام وأصحاب البيان، ولا أعرف عنه أنه من العلماء أو من أرباب الفكر، كما أنه لم تُعرف عنه نقيصة ظاهرة ولا عيب معروف، ولا ساءت قالةُ الناس في خُلقه ولا في أمانته. فهو -كما يقول الفقهاء- رجل مستور، أي أنه كالنسخة الجيدة من الكتاب المطبوع، ما فيها عيب يُعاب، ولا تنفرد بمزيّة عن أمثالها كما تنفرد النسخة المخطوطة النادرة التي يُغليها فَقد أمثالها أو قلّتها، لذلك تُشترى بالثمن الغالي ولو كان فيها خرم أو فيها نقص أو أصاب جوانبَ صفحاتها الماءُ.

فكيف إذن بلغ هذا المنصب العالي وهو موظف عادي كسائر الموظفين؟ وكيف تبوّأ سامي المراتب وعالي الدرجات؟ ذلك لأنه جاء في عهد الانتداب أيام الفرنسيين، وهو نصراني، والفرنسيون لا يُعطون مسلماً شيئاً إن وجدوا مَن يصلح له ممن هو على دينهم وملّتهم. ثم إذا همسنا بشكوى أو نطقنا بها قالوا: إنكم تفرّقون بين أبناء الوطن الواحد وتبعثونها عصبية دينية!

وجاء مؤلف هذا الكتاب يردّد النغمة المملولة ويعيد هذه الحُجّة الواهية، مع أن كتابه كله دعاية للنصرانية وأهلها، فلا يبصر في تاريخنا غيرهم. ومن نظر في عناوين كتابه رأى صدق هذا الذي قلت، فهذا فصل عن العرب النصارى في الدول العربية، وفصل فيه عهد عمر إلى بطريرك القدس، هذا العهد الذي نقضوه وخالفوه وطالبوا بما لهم فيه ونسوا ما عليهم. وكل عهد في الدنيا فيه واجبات وفيه حقوق، فهم يهملون الواجب عليهم في العهود كلها ويطالبون بأكثر من الحقّ الذي هو لهم فيها! وفصل عنوانه «مواقف مشرّفة» ذكر فيه منقبة صغيرة لقائد عربي قال إنه من النصارى، وأهمل مئات المناقب الكبار لقادة المسلمين. وتكلم في فصول أخرى عن رجال ما فيهم أحد من غير النصارى، كالبطريرك غريغوريوس حداد وإلياس الرابع وأمثالهما، وأهمل ذكر غيرهم ممن كانوا أجلّ منهم قدراً وأبقى ذكراً من رجال المسلمين. وتكلّم في فصول أخرى عن يوسف الحكيم وسليم جنبرت وحدهما لأنهما نصرانيان.

أفليست هذه هي الفرقة التي يقول إنه ينكرها ويأباها ويعلم أن الحقّ في سواها؟ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وذكر معهما جُول جمّال، هذا الذي سُخّرت وسائل الإعلام كلها في مصر والشام لتعظيم ما عمل وصبّ الثناء على رأسه على هذا العمل، ولم يدّخروا في تعظيمه صورة ولا إليه طريقاً إلاّ أثبتوا الصورة وكبّروها وعبّدوا الطريق وسلكوها، فسُمّيت باسمه المدارس وأُدخلت قصته في مناهج الدراسة قبل أن يتحقق أحد منها أو يتثبّت من صحّتها.

وأرادت الدولة على عهد الرئيس شكري بك أن تُقيم له حفلة تأبين رسمية، فاختاروا أكبر رؤساء الدين عند النصارى ليتكلم فيه باسم النصارى واختاروني أنا لأتكلم عن المسلمين. فأبَيتُ، وبعث إليّ الرئيس بأخينا الدكتور سعيد فتّاح الإمام، وهو رجل معروف، يبلغني الأمر، فلم أستجِب. فهتف بي الرئيس (أي كلّمني بالهاتف) فقلت له: يا سيدي، أنت اليوم رئيسنا في الحكم وكنتَ من قبل زعيمنا في النضال، نأتمر بأمرك ونمشي أنا وطلاّب البلد الذين كنت أقودهم وراءك، لا نعصي لك أمراً، ولكني أستعفيك اليوم من هذا المقام. قال: وما السبب؟ قلت: يا سيدي، أنت شاركت في الثورة السورية الكبرى بنفسك ومالك، ورأيت ما صنعنا من البطولات، وعرفت كم بذلنا من الشهداء وكم أرقنا من الدماء، فلماذا نسيتموهم جميعاً وأفردتم هذا الشابّ بهذا التكريم؟ ألأنه نصراني وهم مسلمون؟

ولم أذهب، وذهب صديقنا رحمه الله الأستاذ محمد المبارك فتكلّم في الحفلة بما فتح الله به عليه.

* * *

الكتاب اسمه «الدولة والقومية العربية والدين والوحدة». وليس هذا اسماً مألوفاً لكتاب، ولكنه قائمةٌ تُعدّد موضوعات الكتاب! والغريب أنه لا يقصد بالدين دينه هو وهو نصراني ولكن ديننا نحن المسلمين، وهو يتكلم في الصفحة ١٢٤ تحت عنوان: «الزاوية الإسلامية» في العقيدة فيفسّر آيات من القرآن، مثاله فيها مثال مسلم كتب في عقيدة البوذيّين مثلاً وذهب يشرح كتابهم

الذي يقدّسونه، وما أنزله الذي أنزل القرآن، ويأتي بشيء لا يعرفه أحبارهم ولا رهبانهم، ولو سمعوا به لأنكروه وردّوه على قائله، بل لأدّبوه، لأنه يدخل فيما ليس من شأنه ويتكلم بما لم يُحِط به علمه ولم يبلغه فهمه.

وللطب حُماته والذائدون عنه، فإن انتحل صفةَ الطبيب مَن ليس من أهله ففتح عيادة أو كتب وصفة لاحقوه قضائياً فعاقبوه، وكذلك من ادّعى أنه مهندس وما هو بمهندس فرسم خريطة حاكموه وجازوه. فما لنا نرى بابين مفتوحَين لا حارس عليهما ولا بوّاب، يدخلهما مَن شاء، وهما أخطر من الطبّ ومن الهندسة، هما الدين والسياسة؟ فمن أراد تكلم في الدين ولو خالف الأئمّة من الأولين والآخرين، أو أفتى ولو جاء بما لم يقُل به أحد من المفتين، حتى وصل الأمر إلى الخواجة حنّا مالك مؤلف هذا الكتاب، فصار يفسّر القرآن الذي لا يؤمن هو بأنه من عند الله، وليس عنده من العلم بالعربية وعلومها ولا من معرفة دقائقها وأسلوب أهلها ما يجعله أهلاً للتصدّي لتفسير القرآن، وهو لا يُقيم لسانه ببيت شعر ينقله في هذا الكتاب ولا يتنبّه إلى خلل فيه حين أبدل كلمة بكلمة فاختلّ الوزن وضاع المعنى، بل هو يروي نشيداً كان مشهوراً على أيامنا يهتف به الطلاّب في مدارسهم، فيأتي به على غير وجهه.

فما للدين لا يجد من يحميه؟ لقد كانوا يقولون قديماً:

لقدْ هزَلَتْ حتّى بدا من هُزالِها سَلاها وحتّى سامَها كلُّ مُفلِسِ

فماذا نقول وقد زاد بها الهُزال حتى لم يبقَ منها إلاّ العظام،

وحتى أقدمَت عليها السباع والضباع والهوام؟!

إن المؤلّف يسرد ترجمة لنفسه في أول كتابه كتبها بقلمه، فلم يجد من مؤهّلاته العلمية إلاّ أنه نال إجازة (أي ليسانس) الحقوق من كلية دمشق سنة ١٩٢٤، قبلي أنا بتسع سنين، وأنه احتلّ مناصب عدّدها ونال أوسمة سردها، وكل ذلك لا ثقل له في ميزان العلم. فإذا سرد مؤلَّفاته لم يذكر إلاّ هذا الكتاب الذي هو لمامة من المراجع القريبة والمجلات الدورية، اعتمد فيه على غير المسلمين أو على مسلمين كانوا أجهل بالإسلام وشراً عليه ممن يقول إنه من غير المسلمين. ومذكرات قال إنها جاهزة للطبع، أي أنها لا تزال في بطن أمها لا يدري أحد متى يكون مولدها وهل تكون ذكراً أم أنثى سوية أو مشوَّهة؟ وإن كنا لا نرجو لها إلاّ التمام والكمال. ومما أثبت فيه أدبه وعلمه أن له سبع مقالات، سبعاً فقط خلال ثلاثين سنة من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٤.

* * *

وأنا من يوم أدركت ما حولي أرى النصارى في بلدي يعيشون كما يعيش المسلمون، لهم من الثمرات والخيرات مثل ما لنا، بل ليس لنا في الحقيقة مثل الذي لهم منها! ما ظلمنا يوماً واحداً منهم، وإن ذكرنا النابغين منا ذكرنا نابغيهم، وإن كانت مناصب أحللناهم في أرفعها وأعلاها، حتى إن مدير مدرستنا الابتدائية التي كنت أدرُس فيها في أوائل العشرينيات (لا العشرينات) من هذا القرن في حيّ المهاجرين، وهو حيّ إسلامي وبابُ المدرسة يقابل بابَ المسجد وتطل مئذنته عليها ويُسمَع أذانه فيها، كان

مديرها نصرانياً وكان له زملاء من النصارى وكنا نبرّهم ونقسط إليهم. بل إن أستاذنا فارس الخوري ولّيناه رياسة مجلسنا النيابي ورياسة حكومتنا، ولم نأبَ ذلك عليه لأنه لم يكن على ديننا. ولا أقول إن ذلك جائز أو مشروع ولا أفتي بمثله ولكن أقرّر ما كان، وإن كان الأستاذ فارس الخوري قد مات -كما شهد من كان يصحبه وكما دلّت عليه القرائن كلها- مات مسلماً.

وجدت في هذا الكتاب سؤالاً لو ألقيناه نحن المسلمين لقاموا علينا وقالوا إننا نفرّق الجميع ونصدّع بناء الأمة الواحدة، ولكن قائله نصراني وذنب النصارى مغفور! كنا إذا تكلمنا في موضوع المسلمين والنصارى ولو في دفع تهمة عنا أو ردّ بهتان علينا أو شكوى من ظلم نالنا قالوا لنا: إنكم تفرّقون الجمع وتمزّقون وحدة الأمة وتُعطون المستعمر سلاحاً يحاربنا به. مع أننا عشنا نحن المسلمين مع النصارى واليهود قروناً طِوالاً ما شكوا يوماً من ظلم وقع عليهم منا أو حقّ لهم سُلب منهم بأيدينا أو بسببنا، بل إننا كنا نخالف في بعض العهود ديننا فنحكّمهم في رقاب المسلمين ونجعل لهم سبيلاً عليهم، وذلك محرَّم في ديننا.

حتى دخلَت أصابع الطامعين فينا الذين كنا نسمّيهم المستعمرين، وما هم إلاّ المخرّبين أو المستخربين (كما نسمّي المكفّرين بالمبشرين!) فصدّعَت هذه الأصابع وحدتنا. وجاء -من بعد- مَن يوقد نار الفتنة وهي مُطفأة ويوقظها وهي نائمة كمؤلّف هذا الكتاب (وأنا أعرفه حقّ المعرفة، وكان يوماً من الرؤساء في القضاء) فكتب كتابه هذا الذي حاول أن يجعل فيه النصارى أمة قائمة برأسها منبتّة عنا مباينة لنا، حتى إنه عقد فصلاً عنوانه «الملّة الأرثوذكسية».

وإذا كانت مهنة الإنسان يَظهر أثرُها فيما يقول وفيما يكتب، وكان الأستاذ حنا مالك مؤلّف هذا الكتاب عاش حياته كلها في النيابة العامة حتى بلغ أعلى درجاتها، فإن كتابه مرافعة طويلة ولكن في قضية باطلة! والكتاب ينفع من يقرؤه من النصارى، وإذا كان يدعو ظاهراً إلى نبذ الفرقة فهو يعمل على تثبيتها، وهو يذكّرنا بأن النصراني -وإن عاش حياته كلها مع المسلمين، يخالطهم ويداخلهم ويجد المودّة والعطف والإكرام منهم، حتى يغرّهم منه لطفه ولينه فيخلطوه بأنفسهم ويعطوه من المناصب والمراتب والمزايا ما لا يعطونه لإخوتهم وأبنائهم- فإن ذلك كله لا يجعله (كما يبدو من كتابته لا مما أدّعيه أنا عليه) لا يجعله واحداً منا.

نحن قد نُبدي التعصّب ولكنا متسامحون، وغيرنا ممن يعيش بيننا يُظهِر التسامح وهو متعصب. ونحن في العادة نهرب من إثارة هذه الموضوعات، نُغمِض أعيَنَنا عنها وهي عن أيماننا وعن شمائلنا وهي ماثلة بين أيدينا، فهل نصير كالنعامة التي كذبوا عليها فزعموا أنها تدفن رأسها في الرمل، تظنّ أنها إن لم ترَ عدوّها فإنه لا يراها؟ وهي لا تفعل ذلك ولكنها فرية افتروها عليها، وهي لا تملك لساناً تردّ به عن نفسها، أما أنا فإني أملك بحمد الله لساني وقلمي.

لقد جاء في هذا الكتاب سؤال وضعه عنواناً كبيراً لفصل طويل هو: «هل النصارى كفار؟». إنه عنوان يُخيف كل راغب في وحدة الصفّ محبّ لدوام الألفة خائف من التصدّع والانقسام، لذلك نبتعد عنه. ولقد أُلقيَ عليّ هذا السؤال من قبلُ في مجلس كان فيه جمع كبير من قضاة الشرع والمشايخ ومن كبار رجال

الدين من النصارى، وكان يحضره وزراء، وكان الداعي إليه والمشرف عليه رئيس الجمهورية. ألقي عليّ وأجبت عنه.

ذلك أنه كان من عادة رؤساء الجمهورية في دمشق أنهم يَدْعون القضاة والعلماء ومَن يسمّونهم برجال الدين إلى مائدة الإفطار في رمضان. وقد ذهبتُ مرتين فقط إلى دعوتين من الرئيسين هاشم بك الأتاسي وشكري بك القوّتلي رحمة الله عليهما، فجمع أحدُهما بيننا نحن قضاة الشرع والمشايخ ورجال الدين من النصارى، وكانت أحاديث مما يُتحدّث به في أمثال تلك المجالس، أحاديث تمسّ المشكلات ولا تخترقها وتَطيف بها ولا تداخلها، ففاجأَنا مرة واحدٌ من كبارهم يعتب علينا أننا ندعوهم كفاراً.

فجزع الحاضرون ووجموا وعرَت المجلسَ سكتةٌ مفاجئة، فقلت للرئيس: تسمح أن أتولى أنا الجواب؟ وسألته: هل أنت مؤمن بدينك؟ قال: نعم. قلت: ومَن هم الذين تدعوهم مؤمنين به؟ أليسوا هم الذين يعتقدون بما تعتقد؟ قال: بلى. قلت: وماذا تسمّي من لا يعتقد بذلك؟ ألا تدعوه كافراً؟ فسكت. قلت: إن الكافر عندك هو الذي يرفض أن يأخذ بما تراه أنت من أُسُس الدين وأصول العقائد، وكذلك نحن، فالناس عندنا بين مسلم يؤمن بما نؤمن به من رسالة محمد وأن القرآن أنزله الله عليه وآخر لا يؤمن بذلك فنسمّيه كافراً، فهل أنت مسلم؟ فضحك وقال: لا طبعاً. قلت: وهل أنا في نظرك وبمقاييس دينك مؤمن بما لدى النصارى أو كافر به؟ فسكت وسكتوا. قلت: أنا أسألك، فإن لم تُجِب أجبتُ عنك. أنا عندك كافر لأني لا أعتقد بأن المسيح ابن

الله ولا بأنهم ثلاثة الأب والابن والروح القدس والثلاثة واحد ولا بمسألة الفداء، ولا بأمثال ذلك مما هو من أصول عقائد النصارى. وأنت عندي كافر لأنك تقول بها، فلماذا تُنكِر عليّ ما تراه حقاً لك؟ إن ديننا ظاهر مُعلَن ليس فيه خبايا ولا خفايا ولا أسرار، والقرآن يُتلى في كل إذاعة في الدنيا (حتى إنني سمعته مرة من إذاعة إسرائيل) والقرآن يقول: ﴿لقَدْ كفَرَ الذينَ قالوا إنّ اللهَ هُوَ المَسيحُ﴾ ويقول في الآية الثانية: ﴿لقَدْ كفَرَ الذينَ قالُوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾؛ فالكفر والإيمان إذن مسألة نسبية، ما تسمّيه أنت كفراً أسمّيه أنا إيماناً، وما أسمّيه أنا كفراً تسمّيه أنت إيماناً، واللهُ هو الذي يفصل بيننا يوم القيامة. فسكتوا.

* * *

تقولون: لماذا أتكلم أنا عن هذا الكتاب في هذه الذكريات؟ والجواب: لأن هذا الكتاب ردّني إلى ما كنت قطعته من ذكرياتي في القضاء وجعلني أعود إليها ابتداءً من الحلقة الآتية إن شاء الله، والثاني أن لكل متّهَم أن يدافع عن نفسه، وأنا لم يتهمني وكيل النيابة الذي هو أصغر أعضائها بل اتهمني أكبر رئيس فيها، ولم تُعلَن التهمة بين جدران المحكمة الأربعة بل أُعلنت في هذا الكتاب، فقد قال (وأنا أنقل نصّ ما قاله عني لأدافع عن نفسي، ولاحظوا أنني أنقل كلامه بألفاظه وحروفه).

قال: صرح مرة شخص سوري مسلم كان يحتلّ مركزاً رفيعاً بقوله إنه كمسلم يفضّل أحقر شخصية إسلامية باكستانية أو أندونيسية على أعلم وأرفع رجل عربي غير مسلم كرجل الدولة

العلاّمة فارس بك الخوري، وكان رحمه الله وقتئذ رئيساً لمجلس النواب السوري.

ملاحظة : أنا لم أقُل هذا الكلام كما رواه، ولكن قلت إن آخر مسلم في الهند أو الباكستان أقرب إليّ من فارس الخوري[1]. ولم أقُل «أحقر شخصية إسلامية» فلا تجتمع الحقارة والإسلام في نفس واحدة لأن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولمّا نُشر هذا الكلام لقيت الأستاذ فارس بك نفسَه، فظننته غضبان وحاولت أن أكلمه، فقال لي بالحرف الواحد: ولماذا أغضب وقد جعلتَني أقرب النصارى إليكم؟

أعود إلى كلام الأستاذ حنا[2] مالك، يقول: فهل مثل هذا الاعتقاد يتفق وفكرة المساواة بين المواطنين في الوطن الواحد وفي ظل دستور واحد؟ بل هل يتفق مع جوهر الدين وفلسفته ومع مفهوم القومية العربية؟ ثم قال: تصريح آخر للمواطن السوري المنعوت عنه أعلاه (يقصدني أنا): وبعد مضي ثلاثين سنة ونيف على تصريح هذا المواطن العربي الكريم يعود وينشر في صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر في ٢٨/١٢/٨٢ مقالاً طويلاً بعنوان «أحد عباقرة العرب في هذا العصر» ويقصد به دولة المرحوم فارس بك الخوري، ويعدّد الكثير الكثير من صفاته المتميزة وشخصيته المثالية وعلمه الواسع الجامع وعقله الكبير

(١) انظر أول الحلقة التي كتبها عن فارس الخوري، وهي الحلقة الرابعة والخمسون في الجزء الثاني (مجاهد).

(١) حنا ويوحنا وجان ويوهان وجوهان كلها بمعنى يحيى.

الراجح، ومع هذه العبقرية الفذّة والصفات المتميزة المتوفرة في شخص المرحوم دولة فارس بك الخوري فإن صاحب المقال يستهلّه بالقول: ولكن آخر مسلم في آخر الأرض أقرب إليّ منه! ويقول لمن لامه لقسوته فيما مضى: يريدون أن نجعل الكافرين كالمسلمين وأن ندعو بدعوة الجاهلين وندع كلام ربّ العالمين «إنما المؤمنون إخوة»، فننكر أخوّة الإيمان ونتمسك برابطة اللسان، فيكون أبو لهب وأبو جهل أقرب إلينا من بلال وسلمان؟ كلاّ ولا غرابة، قلتها في أول حياتي وأقولها الآن.

انتهى ما نقلته من كلامه. وأنا لم أقل «ولا غرابة» بل قلت «ولا كرامة»، ولكن الأستاذ حنا مالك لا يستطيع أن يميز بين اللفظين!

* * *

إنني أقول الآن وأنا في الثمانين من عمري ما قلته ونشرته في مطلع شبابي: إن آخر مسلم في الدنيا أقربُ إليّ من فارس الخوري ومن غير فارس الخوري. ومَن لا يقول هذا القول لا يكون مسلماً لأن رابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ومن رابطة اللسان، والله يقول لنوح عن ولده لمّا وعده الله بأن ينجّي أهله، فقال: ربِّ إن ابني من أهلي، فصحّح له ربّ العالَمين مقاييس القرابة وبيّن له أن رابطة الإيمان أقوى من رابطة الأبوة فقال: ﴿إنّهُ ليسَ مِنْ أهلِكَ، إنّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالحٍ﴾.

فأنا إذن لا أهاجم أحداً ولكن أدافع عن نفسي، فإذا كنتم لا تريدون ما يدعو إلى التفرقة بين أبناء هذا الشعب وتخشون ما يصدّع وحدة الأمة التي تزعمونها فامنعوا أمثال هذا الكتاب، بل

قفوا[1] الحرب في لبنان بين أهل النصرانية وأهل الإسلام، وكفّوا أيدي المنصّرين الذين يتسمّون بالمبشّرين، ثم لا تسوّونا بهم، فنحن المسلمين نؤمن برسالة موسى وعيسى ومحمد، ولكن عليكم بمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

ثم إن علينا أن نَقِي ديننا من أن يخوض فيه الجاهلون وأن يتكلم فيه مَن ليس من أهله، وأن يأتي الخواجة حنا مالك فيفسّر لنا قرآننا ويعلّمنا ما لم يعلمه علماؤنا وأئمتنا ويأتينا بشيء يخالف ديننا، ويتهمنا بأننا المفرّقون، وهو وأمثاله الذين يفرّقون هذه الأمة ويجعلونها شيعاً وأحزاباً ويدعون إلى عصبية دينية. أما نحن فقد أثبتت تجارِب أربعة عشر قرناً أننا عشنا مع النصارى، بل لقد عشنا مع اليهود، وأعطيناهم أكثر مما هو لهم، ولم نظلم أحداً منهم ولم نعاون عدواً عليهم، وإن كان منهم من أعان علينا كلَّ عدوّ دخل بلادنا.



هذا والموضوع -كما قلتُ- خطير يتحاشاه الناس ويبتعدون عن الكلام فيه، مع أن خوفنا منه كخوف بنتي الصغيرة من ظلام الحديقة في الليل، يُزيله أن تُوقِد عودَ كبريت أو تُشعِل شمعة أو تضيء كشّافاً منوِّراً فترى، وأن الخوف من هذا الموضوع وَهْم في وهم، والله تعالى قد أدّبنا فبيّن لنا أن لا نُوادَّ من حادّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءنا أو أبناءنا أو إخوتنا أو عشيرتنا، وسمح لنا بأن نعاشر بالحسنى من لم يعادِنا في ديننا ولم يُخرِجنا من ديارنا:

---

(١) وقف تتعدّى بنفسها فلا يُقال: أوقف.

﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عنِ الذينَ لَمْ يُقاتِلوكُم في الدّينِ ولم يُخرِجوكم مِن دِيارِكُم أنْ تَبَرّوهُم وتُقسِطوا إليهِمْ﴾.

والذي أرجوه ألاّ يفسِّر أحدٌ كلامي على غير وجهه، وألاّ يقوّلني شيئاً لم أَقُله، وأن يعلم أنني لستُ من دعاة التفرقة ولا الخلاف بل من دُعاة المودّة والائتلاف، ولكن في حدود عقيدتي وإسلامي.



-٢١٢-

إلى الأستاذ أحمد أبو الفتح

كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح في «الشرق الأوسط» يوم السبت ١٩٨٦/٩/٦ مقالة قيمة كعادته جاء فيها قوله: لقد كتبت في جريدة «الوفد» في مصر عدة مقالات أطالب فيها العلماء أن يعلنوا آراءهم فيما ارتكبه عبد الناصر ضدّ الإخوان المسلمين وغيرهم، ممن تمّ شنقهم أو تعذيبهم دون أيّ مبرّر إلاّ شعوره بأنهم لا يرضون على سياسته، وأحياناً تحت تأثير تقارير كاذبة لفّقها علماء لا ضمير أو دين يردعهم، ومع ذلك لم أجد أيّ استجابة. انتهى كلامه.

وأحسب أن الأستاذ الكريم قد ظلم العلماء، فأنا واحد من صغار طلبة العلم، لو جُمع ما كتبته في هذا الموضوع لجاء منه كتاب كامل. لذلك استأذن القراء أن أنقل لهم هنا واحدة من هذه المقالات كانت قد طُبعت في رسالة صغيرة سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٤) لمّا ذهبَت القافلة الأولى من الإخوان المسلمين إلى الجنة إن شاء الله عن طريق مشانق عبد الناصر، وقد طُبع منها أكثر من نصف مليون نسخة ووُزّعت في الأقطار العربية وتُرجمت إلى اللغة الأردية، وخبّروني أن خلاصتها قد تُرجمت إلى الإنكليزية ونُشرت في جرائد باكستان.

ولكنها مع ذلك لم تُنشَر في مجلة ولا في جريدة، وقد قلّت نسخها بين أيدي الناس، بل إنها فُقدت، حتى إنني فتّشت عن هذه النسخة أياماً طوالاً حتى وصلت إليها بعد أن مضى على طبعها ثلث قرن كامل. وها هي أنقلها إليكم بحروفها من غير أن أبدّل فيها أو أغيّر، وأرجو أن لا تتحرّج الجريدة من نشرها لأنها قد صارت تاريخاً. وما ظنّك بمقالة طُبع منها أكثر من نصف مليون ومرّ على طبعها أكثر من ثلاثين سنة، ولم يقرأها مع ذلك -فيما أظن- واحد في المئة من قراء «الشرق الأوسط»؟ وها هي ذي، وعنوانها «هذا يوم الحِدَاد العامّ»، وقد كُتب على الغلاف «بقلم الأستاذ علي» وأولها:

لو كان الأمر إليّ لَما جعلته يوم حداد بل يوم بِشر وابتهاج، ولَما صيّرته مأتماً بل عرساً، عرس الشهداء الأبرار على الحور العين، ولَما قعدت مع «الإخوان» (وإن لم أتشرف بالانتظام في سلكهم) أتقبل التعزيات بل التهنئات.

وهل يرجو المسلم شيئاً أكبر من أن يموت شهيداً؟ وهل يسأل الله خيراً من حسن الخاتمة؟ إني لأتمنّى (والله شاهد على ما أقول) أن يجعل منيّتي على يد فاجر ظالم، فأمضي شهيداً إلى الجنة ويمضي قاتلاً إلى النار، فتكون مكافأتي سعادتي به ويكون عقابه شقاؤه بي.

هذا هو العقاب لا عقابك يا جمال، عقاب الله «الناصر» لأوليائه القاهر فوق أعدائه، الذي ستقف أمامه وحدك ليس معك جيشك ولا دبّاباتك ولا سلاحك ولا عَتادك، تُساق إليه وحيداً

فريداً، لا تستطيع إنكلترا أن تجيء معك ولا أميركا، فيسألك عن هذه الدماء الزكية: فيمَ أرقتها؟ وعن هذه الأرواح الطاهرة: فيمَ أزهقتها؟ وعن هاتيك النساء القانتات الصابرات: فيم رمّلتهن؟ وعن أولئك الأطفال البُرَءاء: فيمَ يتّمتهم؟ وعن هذه الجماعة الداعية إلى الله المجاهدة في سبيله: فيمَ شمّت بها أعداء الله ورسولِه؟

فإن كان عندك دفاع فأعدّه من الآن لتُدلي به أمام محكمة الجبّار، التي لا تحكم بالموت شنقاً بل بالحياة الدائمة التي يصغر الشنق ألف مرة عن عذاب لحظة واحدة منها، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا حزب ولا أعوان، ولا سيف ولا مدفع؛ يوم تتبدّل الموازين وتتغيّر المقاييس، ويكون الفضل للفاضل والصدر للصالح، فيذلّ أعزّة ويعزّ أذلاء، وينزل عالون وتعلو سوقة، يوم ينادي المنادي: لمن المُلك اليوم؟ للطغاة؟ للقادة؟ «للبكباشية»[1]؟ لسادة بيكنغهام والبيت الأبيض؟ كلاّ لا جرم؛ بل لله الواحد القهار.

فعِش مهما عشت وسُد مهما سُدت، فهل تقدر أن تجد لك طريقاً لا يمرّ بك على المحشر ولا يقف بك موقف الحساب؟ هل تعرف لك مُلكاً غير مُلك الله تفرّ إليه كما يفرّ المجرم السياسي من دولة أساء إلى حاكمها إلى دولة أخرى تحميه منها؟ وهل تظنها تدوم لك يا جمال عبد الناصر؟ لو دامت لغيرك ما وصلت إليك.

---

(١) بالتركية معناها ألف، والكاف تُلفظ نوناً فتُلفظ «بينْباشي»، ومعناها الحرفي «مُقدَّم الألف» (ويوزباشي مقدَّم المئة)، وأظنها تقابل رتبة الرائد الآن.

ولقد حكم مصرَ من قبلك فاروق ومن قبله المماليك، ومن قبلهما فرعون وهامان، فأين اليوم فرعون والمماليك وفاروق؟ أين مَن بنى وشيّد؟ أين من طغى وبغى وقال أنا ربكم الأعلى؟ لقد ساروا جميعا في ركاب ملَك الموت ترافقهم دعوات المظلومين حتى وردوا على من لا يضيع عنده مثقال ذرّة في السماوات والأرض. فاتّقِ يا أيها الرجل دعوات المظلومين في الأسحار فإنها السهام التي لا تُخطئ، واعتبر بمن مضى قبل أن تصير أنت عِبرة لمن يأتي، وابكِ على نفسك قبل أن لا تجد من يبكي عليك.

أما أنتم يا أيها الشهداء فهنيئاً لكم، طبتم فادخلوها خالدين؛ فلقد فزتم بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. لقد شيّعَتكم في كل بلد من بلدان هذه الأرض المسلمة الملايينُ ممن لم يكن يعرفكم وتعرفونه، ولكن الله ملأ قلوبهم جميعاً حباً بكم وألسنتَهم هتافاً بأسمائكم، بوادر في الدنيا مما أعدّ الله لكم من التكرمة في الآخرة.

إن النساء في الخدور والأطفال في المدارس والتجار في الأسواق، الذين فاروا من أجلكم وثاروا، فترك الطالب درسه والتاجر كسبه، وخرجوا جميعاً إلى الشوارع والأسواق غضباً لكم وحزناً عليكم، فإن ضنّ عليكم الظالمون بالماء غسلوكم هم بالدموع الجواري، وإن بخلوا عليكم بالقبور دفنوكم في الأفئدة البواكي، ثم مشوا بكم في مواكب النور التي لا تفتأ تتسلسل وتتعاقب سائرة في الزمان، من لدن حمزة وجعفر وشهداء الفتح في بدر والقادسية واليرموك، ومَن قتل الطغاةُ الظالمون من مثل الحَجّاج وهولاكو وتيمور، إلى شهداء النضال من أجل الاستقلال

في الجزائر وليبيا والغوطة في الشام والرّميثة في العراق والقناة في مصر، لقد سلككم الله في هذه المواكب التي بدأت يوم بدأت في الأرض دعوات الخير والإيمان على لسان نوح وهود وموسى وعيسى ومحمد صلّى الله عليهم جميعاً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فهل في التكريم أبلغ من هذا يا نساء الشهداء ويا أولادهم؟ ويا من فجعهم هذا الظالم بالزوج وبالأب وبالأخ وبالولد؟

الموت حتم ما من الموت بدّ، وكل حيّ إلى ممات، فهل يستطيع صديق أو قريب إذا دهم الموتُ دارَ صديقه أو قريبه إلاّ أن يواسيه ويسلّيه ويبكي معه؟ ألا يهوّن الفجيعةَ على صاحبها أن يجد من يشاركه فيها؟ فلِمَ لا تهوّن فاجعتكم عليكم يا أهل الشهداء أن دنيا الإسلام كلها غرقت بالدمع بكاء معكم وعجّت بالدعاء على الظالمين غضباً لكم؟ لقد شاركتكم البكاءَ عيونٌ لم تكتحل قطّ برؤية شهدائنا وشهدائكم. أقسم بالله العظيم إن ابنتي الصغيرة بكت حتى احمرّت البارحة مقلتاها من البكاء.

فيا إخواني ويا أخواتي ويا بناتي ويا أبنائي، إن فقدتم الوالد والأخ فإن كل مسلم على وجه الأرض أخ لكم اليوم، هو معكم والله معهم ومعكم والله خير من الجميع.

لقد أحال بيتي مأتماً الليلة البارحة صورةٌ مقطوعة من مجلة، صورة العالِم الجليل عبد القادر عودة رحمة لله على روحه يوم خرج من السجن وابنُه يقدّم إليه حلوى شراها له من «خَرجيّته» (أي من مصروفه اليومي) فتلَت عليّ الصورةُ قصةً مكتوبة على

صفحات القلب بمداد العيون. قصة هذا الولد الذي كان يسأل أمه: أين بابا؟ فلا تستطيع أن تقول له إن بابا سجين، وتداري دمعها وتغالب بكاءها، تقول: إنه مسافر. فيقول: متى يعود بابا يا ماما؟ فتقول: يعود قريباً يا حبيبي. فيرقب عودته، إن رأى طعاماً طيّباً قال: سأحفظه لبابا، وإن ألبسوه جديداً أبى وقال: ألبسه يوم يعود بابا، وإن بكت أخته الصغرى أسكتها وقال: اسكتي غداً يأتي بابا. وطالت الأيام وهو يوفّر الملاليم التي يأخذها ليشتري بها الحلاوة لبابا، فجاء بابا، وكانت الفرحة الكبرى، وقدّم إليه الحلوى وقعد هو على ركبة بابا وأخته على الركبة الأخرى، يقبّل هذا خداً وتقبّل تلك خداً ويقولان: لماذا أطلت الغيبة يا بابا؟ لا تسافر مرة ثانية يا بابا.

فماذا يقولان الآن وقد سافر مرة ثانية ولكن إلى حيث لا يعود المسافرون؟ وبماذا تُجيب الأم إن سألاها: أين بابا ومتى يعود بابا؟ وإلى متى ينتظران يوفّران له الملاليم ويُعِدّان له الحلاوة؟ وإلى متى يحتمل قلب الأم لذع النار وهما يسألان كل لحظة: أين بابا؟ هل تقول لهما: إن أباكما العالِم الجليل، المجاهد المناضل، قد شنقه عبد الناصر؟ فما ذنب هؤلاء يا عبد الناصر؟ ما ذنب هذه الأم؟ بل ما ذنب الرجل الذي قتلته وفَجعتَ به هذه الأسرة وحطّمت به هذه القلوب؟ أكل ذلك لأنهم قالوا لمعاهدتك هذه إنها عمل غير صالح؟ أتحسب أنك تهنأ بمجلسك وحولَك زوجُك وأولادك، وخيار المؤمنين تركتَ زوجاتهم أرامل وأولادَهم أيتاماً وبيوتَهم في وحشة المقابر؟

يا عبد الناصر، جزاك الله بما تستحق.

أَوَتعرف -لك الويل- بمن ضحّيت؟ ضحّيت بمن كان أعلم المسلمين بالشرع[1] الجنائي في الإسلام، ومن سنحتاج إليه غداً فلا نجده ولا نجد مثله، فنبكي عليه حزناً وأسفاً ويضحك عدوّنا شماتة وسروراً. بمن ألّف الكتاب الجليل «التشريع الجنائي في الإسلام» الذي تُرجم إلى كثير من لغات الناس وتقرّر تدريسه في الجامعات، وتزاحم الجميع على تكريم مؤلّفه وبعثوا يطلبونه، فقيل لهم: إنه لا يستطيع أن يحضر حفلات التكريم لأن عبد الناصر كرّم علمه وفضله بحبل المشنقة!

يا عبد الناصر، جزاك الله بما تستحقّ.

بسيد المجاهدين الفرغلي، بالشيخ الذي أفزع بريطانيا حتى جعل راديو فايد[2] ينادي كل يوم ثلاث مرات بأن من جاء برأسه فله خمسة آلاف جنيه[3] فجاءهم برأسه عبد الناصر.

فيا عبد الناصر، جزاك الله بما تستحقّ.

بالذي لاحت عمامته مرة للإنكليز فغلبَت هذه العمامةُ مدافعَ الإنكليز، وكان ذلك في آب (أغسطس) سنة ١٩٥٣، أي في السنة الماضية، يوم اختفى الطيار البريطاني فأنذروا حكومة مصر بالويل والثبور إن لم يَعُد وأمهلوها للتاسعة من صبيحة الغد، وانطلق صلاح سالم يتكلّم في الإذاعة كلام المُستطار اللُّبّ يُبدئ ويُعيد ولا يعرف أحدٌ ما الذي كان يريد، إلى قريب الفجر.

---

(١) ولم يرد في لغة العرب لفظ «التشريع».

(٢) فايد بلدة صغيرة في منطقة القناة.

(٣) لا تنسوا أن هذا الكلام قيل قبل ثلث قرن، يوم كان الجنيه جنيهاً.

وكان الغد، وحبست مصر كلها أنفاسها ترقب ما يكون بعد انقضاء الإمهال الإنكليزي. وبلغت الساعة التاسعة، وهي ساعة الهول، فوقفَت أمام دار محافظة القناة سيارتان: سيارة تحمل موفد الإنكليز بالتهديد والوعيد، وسيارة تحمل الفرغلي ومعه نفر من الإخوان، جاء يعلن نصرته للحكومة رغم ما كان بين الحكومة وبين الإخوان في تلك الأيام. فلما رأى الإنكليزي الشيخ انطفأت الجمرة وسكت الغضب وذهب الوعيد، وأعلنوا أنهم وجدوا الطيار المفقود! وهذه واقعة يعرفها الناس جميعاً ما جئت بها من بنات الخيال. لقد كان الشيخ الفرغلي أعدى أعداء الإنكليز فكافأه عبد الناصر على ذلك بحبل المشنقة.

فيا عبد الناصر، جزاك الله بما تستحقّ.

لقد كانوا جميعاً من أئمة التقى ومصابيح الهدى، من الذين يقومون الليل يقطعونه تسبيحاً وقرآناً ويجاهدون في النهار يملؤونه جهاداً وإحساناً. والله يأمر بتكريم الصالحين، والعقل يقضي بإجلال العلماء، والمصلحة توجب تشجيع العالِمين، والإنكليز يريدون غير ذلك كله، فترك عبد الناصر ما يأمره به الله ويقضي به العقل وتوجبه المصلحة لِما يريده الإنكليز.

وأشهد لقد قرأتُ أخبار المشركين وتعذيبهم لمن آمن من قريش وما فعل أعداء الإسلام بالمسلمين من الطغاة الجبارين، كهولاكو وجنكيز، وما صنعت محاكم التفتيش في الأندلس، وما تصنع إسرائيل في فلسطين في دير ياسين وقبية ونحّالين[١]،

---

(١) ولم تكن يومئذ مشكلة صبرا وشاتيلا ولا كانت جريمة شنق سيد قطب.

فلا والله ما آلمني شيء كما آلمني ما صنع عبد الناصر وأعوانه بهذه النخبة الصالحة من المسلمين. لأن تلك أخبار نسمع بها فربما هوّنها علينا بُعدُ العهد وأنها ربما كانت فيها مبالغة راوٍ أو غلوّ ناقل، وهذه رأيناها رأي العين. ولأن أولئك كفرة فجرة وهؤلاء يزعمون أنهم مؤمنون، ولأن أولئك فعلوها كسباً لدنيا يريدونها وهؤلاء فعلوها ليكسب الإنكليز الدنيا بها، فلزمهم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أَخْسَرُ الناسِ مَن باعَ دينَه بدنيا غيره».

ولو كان في هؤلاء الشهداء قاتل أو مجرم وحاكموه محاكمة ثم عاقبوه قصاصاً لَما اعترضهم أحد، أما أن يكونوا من خيار المؤمنين، وأن يكون ذنبهم أنهم أعدّوا السلاح للعدوّ بعلم رجال الحكومة، وأنهم دُرّبوا على القتال والتدريب بعلم رجال الحكومة، وأنهم أعلنوا رأيهم في المعاهدة وحقّ الرأي واحد من حقوق الإنسان، وأن تحاكمهم هذه المحكمة وليست محكمة فيها قضاة، وأن تكون المحاكمة بهذا الأسلوب وما هو بأسلوب المحاكمات، وأن يكون الحكم على هذه الصورة وما على مثلها تصدر الأحكام، فهذه قصة فظيعة، فظيعة، فظيعة. بلغ من فظاعتها أنْ أجمع الناس على اختلاف البلدان والألسن والألوان والمذاهب والأديان على استنكارها.

ولست أدري بأيّ لسان يتكلم هؤلاء بعد اليوم عن فاروق وعهد فاروق، والذي فعله فاروق من المعاصي يُعَدّ بجنب ما عملوه هم طاعة، ونجس فاروق بالنسبة إليهم طهارة، ونار فاروق جنّة عبد الناصر! وما أمدح فاروقاً ولكن العَوَر يُمدَح إن ذُكر العمى.

ولست أدري كيف يلبس هؤلاء الجند ويحملون شارة العسكرية، وما سلكوا سبيل البطولة ولا استنّوا بسَنَن الفروسية عند الفرسان. الفارس مَن يبارز خصمه في الميدان وينازله مسلَّحاً، أما الذي يُبدي البطولة والخصمُ أعزل مقيَّد، وحوله الرهط من الأنصار وخصمه مفرد، فهذا ليس من الفروسية في شيء.

إن هؤلاء الإخوان قد مضوا شهداء أبراراً ونالوا مجد الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فارتقبوا أنتم ماذا تنالون في دنياكم وأخراكم؟ (أعود فأذكّر أن هذا الكلام نشر سنة ١٩٥٤).

وبعد، فهذا هو العالَم الإسلامي كله يلبس اليوم ثياب الحداد ويجلس للعزاء، ما خرج على هذا الإجماع إلاّ النفر الذين غضب الله عليهم من أعوان الظالم، ومن مشايخ السوء في مصر الذين أصدروا ذلك البيان المحشوّ كذباً وافتراء ونفاقاً وتحريفاً للآيات عن مواضعها.

لقد سمعنا من قديم أن الثورة كالقطة تأكل أبنائها، وهذي ثورة فرنسا شاهد على ما أقول وهذه أحداثها تنطق بها كتب التاريخ، وما وقع فيها سيقع في أمثالها: الذي جاء بالمقصلة قُطع رأسه بها، والذي نصب المشانق عُلّق عليها، والذي أوقد النار كان لها حطباً، ولَنار الآخرة أشد نكالاً وأبقى. والثورة الفرنسية لم تقتل متعمّدة أفذاذ العلماء ولم تعرض لدعاة الخير، وكانت ثورة أمة على عصابة آثمة، لم تكن ثورة عصابة آثمة على أمّة كاملة فُجعت بحريتها وكرامة أبنائها.

أما أنتم يا أيها الإخوان المسلمون (وأذكر أني لم أتشرف

يوماً بالانتساب إلى الإخوان ولا إلى غيرهم) فاعلموا أن المحن تدريب وتمرين، وكلما تقدّم الجندي خطوة صَعُب التدريب عليه وقسا، فإذا وصل إلى أقساه فقد بلغ آية القوة وصار جندياً كاملاً. وأنتم بلغتم الغاية اليوم حين امتُحنتم الامتحان الأكبر، امتحان الدم، ونجحتم. نجحتم والله ولم تزعزع المشانقُ إيمانَ هؤلاء الإخوان ولا هزّت أعصابهم، ولقد قابلوا الموت مقابلة انحنت إكباراً لبطولتها وعظمتها هاماتُ الرجال في كل مكان.

واذكروا أن الشيخ الإمام حسن البنا رحمه الله كان قد أنذركم أنها لا تزال أمامكم مصائب شداد واختبارات صعاب، وقد أقدمتم عليها وأنتم عارفون بها. والعاقبة لكم، إنها واللهِ لكم لأنكم تمشون على هدي الإسلام، المستقبل لكم فلا تزعزعكم الأحداث ولا تفتنكم عن إيمانكم، على أن تبقوا صفاً واحدا لا تُفرّق بينكم الدنيا ولا يقسمكم النزاع على الزعامات، وأن تجعلوا إمامكم دائماً كتابَ ربكم.

وبعد، فيا أهل الشهداء الصبرَ الصبرَ. إن دموع العالَم الإسلامي كله قد مازجت دموعكم، وقلوبَهم جميعاً قد قاسمت الأسى قلوبَكم، وكلهم أخ لكم وصديق، ومأتمكم صار مأتم دنيا الإسلام كلها، والله معكم والله خير من الجميع. وهنيئاً لمصر، فقد كان للشام جمال دَعَوه -حقاً أو باطلاً- بالسفّاح، فصار لكم جمال هو «السفّاح» حقاً.

* * *

-٢١٣-

عودة إلى ذكريات القضاء

أكتب هذه الحلقة في اليوم الأول من المحرم (سنة ١٤٠٧هـ)، اليوم الذي يخرج فيه الناس كلهم من بيوتهم، ينثرون أزرار الورد وأوراد الياسمين ويرشّون ماء زمزم على رأس القادم الجديد، وأنظارهم منصبّة كلها على يديه يحاولون أن يروا أو أن يشمّوا الهدايا التي يأملون أن يحملها إليهم. قد أنساهم استقبالُ الرفيق الذي قدم رفيقَهم القديم الذي سافر، فالاستقبال أمل ورجاء والوداع نبل ووفاء، وما أكثر الآملين وأقلّ الأوفياء.

التلميذ الذي أهمل الدراسة حتى رسب نسب رسوبه إلى الحظّ وإلى الزمان السيّئ، فهو يرجو النجاحَ ويرقب الحظّ في الزمان الحسن، أي في العام الجديد. والتاجر الذي زهد في العمل ومال إلى الكسل يطلب الربح من غير عمل من العام الجديد، وكل واحد له أمل يريد أن يتحقّق له في العام الجديد. فما الذي أطلبه أنا وما هي آمالي؟

الشابّ الواقف في أول الطريق يراه واضحاً ويرى غايته دانية، أما أنا فإني أستقبل العام وأنا في المحطة الأخيرة، لم تبقَ

أمامي غاية أعمل على بلوغها. الشاب حياته أمامه وأنا أيامي قد خلّفتها ورائي، أياماً طويلة رأيت فيها ضياء النهار يعقبه ظلام الليل، ورأيت ظلام الليل يأتي بعده ضياء النهار، شهدت هذا المشهد أكثر من عشرة آلاف مرّة فاستوى عندي الضياء والظلام.

سررت وتكدّرت، فإذا السرور الآن وإذا الكدر ذكرى في النفس لا شيء منه في اليد، لا الفرح دام ولا الآلام. شبّهت يوماً لذّات الدنيا بالسراب، وهأنذا أعود إلى هذا التشبيه؛ أعود إليه وأنا أعلم أن أثقل الكلام الحديث المُعاد، ولكني لا أجد تشبيهاً أدق منه ولا أصدق ولا أقرب إلى الواقع.

كنت في المدرسة أرمي إلى هدف ظاهر هو أن أرتقي من صفّ إلى صفّ، فارتقيت حتى طويت مراحل المدرسة ومن بعدها الجامعة ونلت شهادتها، فلم يبقَ لي في المدرسة ولا في الجامعة هدف أرمي إليه. ودخلت الوظيفة فكان أملي أن أعلو فيها درجة درجة، أعدّ الأيام لأصل إلى العلاوة أو إلى الترقية، فبلغت أعلى درجاتها، صعدت حتى صرت في رأس السلّم، فلم يبقَ إلاّ أن أقف (ولا يقف أحدٌ عمرَه على السلّم) أو أن أصعد، وما تحت رجلي درجة أصعد عليها، فاضطُررت إلى أن أعود فأهبط من حيث صعدت. وكذلك الدنيا:

ما طارَ طيرٌ وارتفعْ إلاّ كما طــارَ وقَعْ

وإذا أنا في هذا كله:

أكلتُ حَلاوةً وشرِبتُ ماءً كأني ما أَكَلتُ ولا شرِبتُ

وتمنيت أن أكون كاتباً تملأ مقالاته الصحف، ومؤلّفاً تتصدر مصنفاته المكتبات، وخطيباً ترتجّ من تحته المنابر ويملأ حديثه المجالس، فبلغتُ ذلك أو بعضَ ذلك (أو توهّمت أني بلغته) فإذا هو أيضاً سراب. تبصر السراب حينما تكون بعيداً عنه تحسبه ماء، فإذا جئته لم تجده شيئاً ووجدت الله عنده.

فهل وعظَتني الأيام حتى صرت أذكر الله الباقي ولقاءه المحتوم عند رؤية السراب الخدّاع؟ لقد استقبلت وودّعت من الأعوام ثمانين معدودة عدّاً، فهل أودّع هذا العام الذي أستقبله اليوم أم هو استقبال بلا وداع؟ لقد فقدت أبي وأنا في مطلع الشباب واضطُررت إلى أن أكتسب قبل سنّ الاكتساب، وتعلّمت ودرست على ضيق الحال وقلّة الأسباب، وأكرمني الله فعلّمني وكفاني فما أحوجني أن أمدّ يدي يوماً إلى أحد ممن خلق الله. ودخلت سوق الأدب قبل أن تزدحم بالقُصّاد فكنت فيها من الرُّوّاد، وسار اسمي في الناس وأنا لم أخلع بعد رداء الشباب، وأغدق الله نِعَمه عليّ بلا حساب، فيا ربّ لك الحمد.

وكنت أرجو (كما يرجو كل شابّ) أن أتزوج، ولكن ليس في يدي ما أتزوج به من المال، فحملني الله إلى بغداد حيث جمعت منها ما قدرت به على الزواج. ورزقني النسل، ولكنه صنّفني في الصنف الأول: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً ويَهَبُ لمَنْ يَشاءُ الذّكورَ، أو يُزَوّجُهمْ ذُكراناً وإناثاً ويجعَلُ مَن يَشاءُ عَقيماً﴾، فسُررتُ بالبنات ورأيتهن من أجمل الهبات، وما أعدِل -صدّقوني- بواحدة منهن اثنين من الذكور لو رزقني الله ذكوراً. ولقد استأثر الله بإحداهن فأكرمها بالشهادة فصبرتُ ورضيت، وأرجو أن يرزقني الله ثواب

الصبر وأن يديمه عليّ، وجعلهن جميعاً وله الحمد صالحات متعلّمات داعيات إلى ما يُرضي الله.

وتزوّجن ورُزقن بنين وبنات صالحين وصالحات، وتزوّج أبناؤهن وبناتهن ورُزقن ذرية أفضل الله علينا فجعلها صالحة؛ فصارت بناتي جدات، وصرن يَقُلن لحماتي (التي توفّاها الله من شهرين اثنين، المرأة الصالحة بنت من كان يُدعى في الشام «المحدّث الأكبر» وكان كبير العلماء، الشيخ بدر الدين) صارت حفيدتي تقول لها (كما جاء في المَثَل): «يا سِتّي كلّمي سِتّك» (أي: يا جَدّتي اذهبي إلى جَدّتك).

* * *

وضاق بنا بلدنا، البلد الذي أحببته حباً قلّ أن يحبّ مثلَه أحدٌ بلدَه، وكتبت عنه ما لم يكتب مثلَه ابنُ بلد عن بلده، ثم قضى الله أن أُحرَم منه وأن أُبعد عنه، فنزلت بلداً أشرف منه شرفاً وأعلى عند الله مقاماً، نزلت أحبّ بلاد الله إلى الله: مكة أم القرى، مشرق النور ومنبع الإسلام. ووجدت فيها من ملوكها وأمرائها ومن شعبها، وجدت شيئاً أكون ألأمَ الناس لو أهملت ذكره ونسيت شكره. وعرفت خمسة من الملوك، رحم الله من مضى ووفّق من بقي، بعضهم من قرب وبعضهم من بُعد، ولكنني أحببتهم جميعاً لأنهم صنعوا لهذا البلد أكثر مما صنع ملوك بني أمية وملوك بني العباس ومَن جاء بعدهم من الملوك جميعاً.

صنعوا له العجائب؛ نقلوه من صحراء تموج فيها قبائل متخاصمة متحاربة ما عندها إلاّ حكومات هزيلة ضئيلة، فجعلوها

كلها حكومة واحدة قوية عظيمة، ومشوا فيها في طريق التطوّر والرقيّ شوطاً ما مشت مثله حكومة في الدنيا، لا أستثني، لأن الذي قطعَته المملكة في هذا الأمد القصير لا تقطع مثلَه الأممُ في الزمان الطويل. وإنهم ليستحقّون مني أضعاف هذا الثناء، ولكن مشكلتي أنني من يوم نشأت كان يحكم بلدنا مَن ليس منا ولا طريقه من طريقنا، أي الاتحاديون خلال الحرب الأولى (ولم أقُل الترك، فالترك مسلمون خدموا الإسلام وأقاموا له دولة كانت ثالثة الدولتين الكُبريَين: دولة الأمويين ودولة العباسيين، وإن كانت براعتها وعبقريتها في الحرب والقتال أكثر من براعتها في الفكر والعلم. ولكن أعني الاتحاديين، أعني أنور وجمالاً وطلعت وجاويد وتلك الزمرة التي جاء أكثرها من الدونمة، وهم من نسل اليهود الذين أُخرِجوا من الأندلس. واليهودي هو اليهودي ولو بدّل ثيابه وملامح وجهه واستعمل أعقد وأصعب طرق التنكّر، أي الماكياج). ثم جاء الفرنسيون، وهم غرباء عنا لا دينهم من ديننا ولا لسانهم من لساننا ولا عاداتهم من عاداتنا. ثم دالت دول وتبدّلت وجوه وقلّ فيها من يمثّل الشعب الشامي في تمسّكه بإسلامه وبالصالح من عاداته؛ لذلك كنا نهرب من الثناء عليهم. واستمرّ ذلك حتى استقرّ في عقلي الباطن، على أن الحقّ أن الحكام هنا ليسوا كأكثر مَن عرفنا من حكامنا، فهم منا أنسابهم معروفة لنا وأبوابهم مفتَّحة أمامنا، وهم يحرصون ما استطاعوا على إسداء الخير لنا، فإذا منعني ما ذكرت من إعلان الثناء عليهم فإن كل عمل عملوه وكل طريق مهّدوه وكل معهد فتحوه إنما هو قصائد باقية في مدحهم.

ولقد وفّقهم الله الآن إلى مداواة مرض أعيا نُطُس[1] الأطباء، مشكلة أعجزَت كبار المفكّرين هي مشكلة الذبائح في الحجّ؛ فما زلنا نسمع الشكوى منها من أكثر من أربعين سنة من كل حاجّ يعود بعد أن رأى في مِنى آثارها من إضاعة المال وإفساد الهواء، ولم يبقَ أحدٌ إلاّ فكر في حلّ لها، فجاؤوا بحلول منها ما هو مستحيل ومنها لا تُحتمَل نفقاته ومنها ما هو أقرب إلى المشروعات الخيالية. لم يبقَ أحد لم يفكّر في حلّ لها، وكنت واحداً ممن قدّم حلاً فقهياً مؤقّتاً، فرأينا هذه السنة عياناً ما هو أعظم من ذلك كله: حقيقة شاهدناها سبقت جميع خيالاتنا، ما تخيّل أحدٌ أن من الممكن أن تُجمَع هذه الذبائح وأن تُسلَخ وتُنظَّف ثم تحملها الطيارات إلى المحتاجين من المسلمين في مشرق الأرض ومغربها، فتصل صالحة غضّة نظيفة شهية. فللّه الحمد أولاً، ثم أصدق التهنئة لهم على هذا الذي وُفّقوا إليه، وأسأل الله أن يجعله في صحف حسناتهم فلقد كان والله شيئاً عظيماً.

وما عُدت بعد اليوم أيأس من حلّ المشكلات الباقية كلها على ما نرى من تعذُّر أو تعسُّر حلّها: مشكلة الطواف ومشكلة الرمي... إنهم سيحلّونها بإذن الله كما حلّوا مشكلة الذبائح ومشكلة الازدحام في الطرق، وأسأل الله لهم التوفيق.

* * *

وأنا أقول هذا كما قرأته في الصحف وكما سمعته من الناس، لأني معتزل وليس عندي من تفاصيله شيء، فكأنني

---

(١) نُطُس جمع نطاسيّ، وهو الطبيب الحاذق.

سجين وإن لم يُحكَم عليه بالسجن، لا أكاد ألقى أحداً لِما ركّب الله في فطرتي التي لا أملك تغييرها ولا تبديلها من حبّ العزلة والابتعاد عن مجامع الناس، وإن دنوتُ منهم ولقيتهم فإنما ألقاهم وبيني وبينهم صحيفة الجريدة أو لاقط الإذاعة! ولطالما خطبت الخطب ترجّ البلد وتكون حديث الناس ويكون لها أكبر الأثر، ثم أذهب إلى بيتي فأغلق عليّ بابي وأنفرد بنفسي.

وأنا هنا من نحو ربع قرن، ما رأيت والله من أحد ما يسوء، ما لمست إلاّ محبّة صادقة ووداً خالصاً، ولكن على البعد؛ فأنا لا ألقى أحداً، لا أزور ولا أكاد أُزار، أَلِفتُ الوحدة حتى لم أعُد أطيق الفرار منها وضقت بها حتى لم أعُد أطيقها، فأنا (ولا مؤاخذة على هذا المثال فإنما أتكلّم عن نفسي) أنا كحمار السانية[1] التي يسمّونها في مصر «الساقية»، يدور فيها مغمض العينين، فإذا أُطلِق منها وفُكّ سراحه بقي يدور كما تعوّد الدوران. ولطالما لمست هذا الحبّ الخالص: أشاعوا من بضع سنين (كما أشاعوا السنة الماضية) أنني متّ، فلمست من الناس حزناً عليّ لا أستحقّه، جاءني مندوبون من الصحف وسط الليل يسألون عني وكتب كاتبون فضلاء يرثونني، وهذا من كرم هذا الشعب الذي لا يزال على الفطرة النقية، وأنا أسأل الله أن يسجّل في صحيفتي ما دعا لي به الآلاف المؤلَّفة من الناس حين سمعوا الخبر فقالوا: رحمه الله.

فما الذي أريده الآن إلاّ رحمة الله؟ ما عُدت أريد من الدنيا

---

(١) ولذلك جاء في المثل: «سير السّواني سفر لا ينقطع».

إلاّ أن يُبقي الله علي صحّتي وأن يُديم ستره عليّ، وأن يختم لي بالحسنى، وأن يُصلِح لي أهلي وأن يحفظهم بعد موتي. هذا الذي بقي لي من الآمال في الدنيا.

* * *

أعود الآن بعد هذه المقدّمة الطويلة التي قد يُنكِر عليّ بعض القراء شيئاً مما قلت فيها، أعود إلى الكلام عن أيامي في محكمة دمشق التي قطعتُها في الحلقة ١٢٥ لأصِل ما قطعت. فهل تدرون ما وجدت؟ لا تحسبوا أني أسوق صورة أدبية أو آتي بخيال شاعر، لا، ولكن أقول الحقّ: وجدت أنني أكتب عن شخص آخر ليس أنا. إني أشعر أن بين جوانحي الآن اثنين، واحداً يتذكّر وآخر هو موضع الذكرى!

لا تقولوا إني أتفلسف، فأنا أسأل: هل الذي كان قاضياً ممتازاً في محكمة دمشق سنة ١٩٥١ هو أنا؟ أسألكم ما معنى «أنا»؟ ماذا تقصد حين تقول «أنا»؟ جسدك؟ إنه لم يبقَ في جسدي خلية واحدة مما كان فيه تلك السنة إلاّ خلايا المخّ التي زعموا أني أتذكّر بها وأفكّر بها، وما هي للفكر إلاّ كالأشرطة والمصباح للكهرباء، لا بدّ منها ولكنها ليست هي الكهرباء. فما الكهرباء؟ لا يدري أحد. كشف نيوتن قانون الجاذبية وجاء آينشتاين وعدّل فيه، وما وضع نيوتن ولا عدل آينشتاين القانون بل كشفاه، والقانون وضعه ربّهما وربّ العالمين. ولكن هل عرفا أو عرف أحد ما هي الجاذبية؟ لماذا ينقطع النور إن انقطع السلك أو احترق المصباح (اللمبة)؟ هل لأن السلك والمصباح هو الكهرباء؟

إن كان معنى «أنا» جسدي فقد ذهب وجاء غيره، وإن كان عواطفي وآرائي فقد تبدّل كثير منها، لذلك أتحدّث عن أيامي في المحكمة كما أتكلم عن حلم رأيته في منام ثم استيقظت فامّحَت الأحلام. وما الحياة إلاّ منام، وفي الأثر: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

عجب قوم لماذا دُعيتُ أنا (كما قلت في الحلقة الماضية) للكلام في حفلة جول جمّال باسم المسلمين على حين يتكلم البطريرك باسم النصارى. إنه عندهم الرئيس الروحي، فهل كنت كذلك؟ نعم، هذا الذي كان. وليس في الإسلام أكلروس ولا رؤساء روحيون، ولكن الفرنسيين -إمعاناً في التفرقة وليجعلوا المسلمين كأنهم طائفة من الطوائف- أقاموا للمسلمين رئيساً كما للنصارى رئيس، وجعلوه قاضي دمشق الممتاز ونائبه، أو الرئيس الثاني بعده، هو مفتي الجمهورية.

وكان القاضي الممتاز الشيخ عزيز الخاني رحمه الله قائماً بهذا المنصب أحسن القيام وكان أهلاً له كل الأهلية، فهو في جمال طلعته وكمال خلقته وشدة هيبته وقدرته على مخالطة الكبار والصغار في تواضع لا يمسّه كِبر وعزّة لا يلامسها صَغار كان في هذا مفرَداً في بابه، كان ليّناً ولكن لينه لا يمنعه إن اقتضت الحال أن يكون أثبت في الحقّ من الجبال، فجاء من بعده أخونا وزميلنا الأستاذ الشيخ صبحي الصباغ ثم جئت أنا، وما له ولا لي مثل تلك الهيئة ولا تلك الهيبة ولا البسطة في الجسم، فعجزت وعجز عن القيام ببعض ما كان يقوم به الشيخ عزيز رحمه الله، فكتبت كتاباً رسمياً حلّ بعده المفتي محلّ القاضي، وهذا نص الكتاب أثبته هنا للتاريخ:

إلى رياسة مجلس القضاء الأعلى. لمّا كان القاضي الممتاز لا يخرج عن كونه قاضياً من قضاة الدولة وكان وصف الممتاز إنما يُنال بالقِدَم، وهو درجة من درجات العمل وليس وظيفة مستقلّة، وكان اعتباره ممّن يُسمَّون بالرؤساء الروحيين ووضعه معهم في برامج الاحتفالات ومواقف التشريفات إنما نشأ من عوامل شخصية، فأرجو التكرم بمخابرة الأمانة العامة لرياسة الجمهورية لتعديل البرامج المقبلة، وأن يكون تشرف القاضي الممتاز بالدخول على فخامة الرئيس مع إخوانه القضاة لا مع الرؤساء الروحيين، وأن تكون الرياسة الدينية للمسلمين (وإن كانت لا وجود لها في الحقيقة عندنا) لسماحة المفتي العام لا للقاضي الممتاز. وتفضّلوا بقبول احترامي الفائق. الإمضاء: علي الطنطاوي قاضي دمشق الممتاز. التاريخ ١٦/٤/١٩٥١.

وكان منصب القاضي الممتاز يعدل في تسلسُل القضاة منصب المستشار في محكمة التمييز (محكمة النقض)، فجاءني هذا الكتاب أثبته بنصّه للتاريخ أيضاً:

الجمهورية السورية، من رئاسة مجلس القضاء الأعلى إلى حضرة قاضي الشرع السيد علي الطنطاوي. إن في محكمة التمييز شواغر لوظائف مستشارين ينبغي إملاؤها، فإن كنتم ترغبون في الانتقال إليها بمرتَّبكم وراتبكم الحاليَّين تفضلوا بتسطير موافقتكم في أدناه. التاريخ ٢٠ شباط ١٩٥١، الرقم ٧٣ واردة، الإمضاء: رئيس مجلس القضاء الأعلى وجيه الأسطواني.

* * *

وقد نسيت أن أقول لمن لم يعرف حال القضاء في سوريا أنه مستقلّ لا دخل للحكومة فيه ولا يملك وزير العدل تعيين قاضٍ ولا نقله ولا عزله، وأن الأمر كله إلى مجلس القضاء الأعلى وهو مؤلَّف من كبار القضاة.

لمّا جاءني هذا الكتاب تردّدت كثيراً وأرِقتُ ليالي أفكّر وأوازن، ففي كل من العملين مزايا دنيوية ونفع للمسلمين أرجو عليه المثوبة الأخروية، فالقاضي الممتاز كالضابط الذي يقود الجند في المعركة، يأمر وينهى يعيش وسط المعمعة، يحسّ حلاوة النصر ومرارة الهزيمة، يحفّ به أتباعه يسألونه ويستأمرونه ويرجعون إليه، يعيش حياة كلها حركة ونشاط لا مجال فيها لكسل ولا ملل. والمستشار كالضابط الركن، يغلق عليه بابه مع ضباط الأركان، يرسمون الخطط ويُعِدّون للمعركة ويوجّهونها ولكن من بعيد، لا يدخل عليهم أحد ولا يراجعهم أحد، بل لا يكاد يحسّ بوجودهم. وللقاضي الممتاز مجال لسماع شكاوى الناس وإصلاح ما يمكن من الفساد، وله رياسة كثير من المجالس كمجلس الأوقاف، ثم إنه ينال علاوات فوق مرتَّبه، والمستشار يجد وقتاً يستريح فيه ويتفرّغ لأمور أخرى، فهو يكتب ويؤلّف ويبتعد عن مشكلات الناس.

ميزان كلما رجحت فيه كفّة طاشت الأخرى، ثم عادت هذه فرجحت وطاشت الأولى. وليس أصعبَ على الإنسان من التردّد؛ إني أشعر في مثل هذه الحال أن الأفكار تضطرب في رأسي حتى إنها تضرب جوانبه، فأحسّ الصداع في صدغي. فاتّبعت سنّة الإسلام، ففكّرت وأطلت التفكير ثم كنت أستشير، ثم رأيت أنه

لا الفكر ولا المشورة توصل دائماً إلى الصواب لأن المستقبل بيد الله، لذلك شُرِعت الاستخارة، فاستخرت الله الاستخارة الشرعية، فصلّيت ركعتين ودعوت بدعاء الاستخارة، لم أنتظر أن أرى في المنام ما يصرفني إلى إحدى الوجهتين ولا عملت عمل العامّة فذهبت إلى شيخ فقلت له: بيّتْ لي استخارة، ثم سألته في الصباح ماذا رأى، فإن رأى مناماً يسرّ كان الأمر خيراً وإن رأى ما يسوء كان شراً!

هذه استخارة عامّية لا الشرع يقول بها ولا العقل يُقِرّها، وإذا كان هذا الذي وكّلته بأن يستخير لي قد أصابه عُسر في الهضم أو جاءته الحُمّى فرأى في منامه أضغاث أحلام، فما علاقتي أنا بها؟! استخرت الله الاستخارة الشرعية فرجح لديّ أن أوافق على الانتقال، ولكن ما مرّ على ذلك يومان حتى ندمت وكتبت أسترجع موافقتي، فجاءتني الموافقة على بقائي في مكاني.

بقيت في المحكمة الشرعية في دمشق وتركت الأمر لله، وللحديث بقايا ستأتي إن شاء الله في الحلقات المقبلات.

* * *

-٢١٤-

في محكمة النقض في دمشق

قلت لكم إن رئيس مجلس القضاء الأعلى خيّرني بين أن أبقي قاضياً ممتازاً في محكمة دمشق أو أن أنتقل مستشاراً في محكمة النقض، وعرفتم أني تردّدت وتحيّرت ثم عزمت على البقاء. وبعد أن وافقت على النقل سحبت موافقتي فجاءني هذا الكتاب برقم ٢٩ وتاريخ ١٩٥١/٢/٢٧ وإمضاء رئيس مجلس القضاء الأعلى وجيه الأسطواني، يقول فيه: بناء على عدولكم عن هذه الموافقة فإني أعيدها إليكم ودمتم.

ولي عن محكمة النقض (التي كانت تُسمّى محكمة التمييز) ذكريات جمّة من قبل أن أكون فيها، ذلك أن أبي كان رئيس ديوانها سنة ١٩١٨ ، ولي هذا المنصب بعد أن ترك (ولست أدري كيف ترك) المديرية العامة بمدرسة الاتحاد والترقّي التي كانت أرقى ثانوية في دمشق على عهدها وكان الناس يدعونها المدرسة التجارية.

ولم يكن أبي معدوداً رسمياً في قضاة المحكمة، بل كان في رأس سلّم المساعدين القضائيين ودون مرتبة المستشارين،

ولكنهم كانوا يدعونه إلى كل جلسة تُدرس فيها دعوى مدنية لها صلة بالفقه. ولا تنقطع صلة الدعاوى المدنية (الحقوقية) أبداً بالفقه، فكان يشارك في المناقشات ويؤخذ رأيه في الآراء، وكان الحكم يصدر حيث يكون رأيه، سمعت ذلك من كثير من أعضاء المحكمة فيما بعد، كما سمعته من رئيسها يومئذ وأنا صغير ولكني واعٍ مدرك، وكنت تلميذاً في آخر المرحلة الابتدائية.

وكان الرئيس هو الأستاذ مصباح محرّم، وهو قاضٍ كبير نسيه الناس كما نسوا من أمثاله الكثير، لأن مكانهم في أذهانهم امتلأ بأسماء المغنّين والممثّلين ولاعبي الكرة في الملعب واللاعبين بمصالح الأمم من السياسيين في المجالس والأحزاب.

وكنت أذهب من المدرسة أحياناً إلى المحكمة لأرى أبي فأعود معه إلى الدار، فكان الرئيس يستدعيني إلى مكتبه ويسألني ويحاول أن يحدّثني، فكنت أتهيّبه أولاً فلا أتكلم، ثم لمّا طال العهد وتوالت الدعوات انطلق لساني، ويظهر (والله أعلم) أني كنت على شيء من الذكاء وسرعة البديهة، وكنت قد قرأت (ولعلّكم تعجبون إذ تسمعون أني قرأت في تلك السنّ) كتباً كثيرة منها «حياة الحيوان» للدميري، وقد سبق ذكره، وكتباً أدبية من كتب ما يدعونه عهد الانحطاط كـ«الكَشْكول» و«المِخْلاة» و«المستطرف»، ولم أفهمه كله ولكني كنت أحفظ كل ما أقرأ، أقول هذا وقد قلته من قبلُ تحدُّثاً بنعمة الله عليّ، فكان في ذهني طائفة صالحة من الأخبار والأشعار.

فكان الرئيس يُسَرّ بي ويستنطقني، وكان يدعو أحياناً بعض

أعضاء المحكمة (الذين يُسمَّون اليوم بالمستشارين) ليستمعوا مني، منهم العالِم الأديب النبيل الشيخ مسعود الكواكبي الحلبي، الذي أحفظ له في نفسي أوفى حظ من الحب المقرون بالاحترام، ثم صار يزورنا في الدار حيث يجتمع فيها ناس من جلّة علماء البلد يومئذ هم أصحاب أبي وأصدقاؤه، لا يكادون يفترقون، وأنا أدخل عليهم بالشاي والفاكهة والطعام ثم أقعد في طرف المجلس حيث لا يتنبّه إليّ أحد، ولكني كنت كالمسجّلة التي تُثبِت على شريطها كلَّ صوت يخرج من حولها. وإذا مدّ الله في العمر وصبّ القوة في الذاكرة واستمررتُ في نشر هذه الذكريات ولم يملّ منها القراء فسأكتب ما بقي في ذهني منها، وإن لم يبقَ إلاّ القليل.

كانت هذه المجموعة تخرج إلى بعض المتنزَّهات، فتقضي اليوم كله في مذاكرات ومناظرات وسرد نوادر ورواية نكات وطعام وشراب. ولم يكن الناس يجاوزون في الوادي الهامَةَ والجُدَيْدة وبَسّيمة وعين الفيجة، وبين أبعدها وبين دمشق عشرون كيلاً، مع أن بين دارَي بنتين لي اليوم في جدة أربعة وعشرين. ما كان الناس يقصدون الزّبَداني ومَضايا وبلودان، بل يكتفون من الوادي بما دون الفيجة.

وربما ناموا في تلك القرى، فكان الفلاحون من أصحاب الدور التي يستأجرونها يفرشون لنا الحشايا والفرش على الأرض، وننام عليها كما ينام أكثر أهل دمشق، فإذا أصبح الصباح طووها ونضّدوها ووضعوها في فجوة تكون في الجدار في كل بيت من بيوت الشام تشبه الخزانة ولكن ما لها رفوف ولا أبواب تُدعى «اليوك» (وما عرفت ولا حاولت يوماً أن أعرف من أين جاء هذا

الاسم) ثم يُسدِلون عليها ستاراً يكون غالباً مزوَّقاً مطرَّزاً. وكان نساء دمشق فوق أعمالهن الكثيرة التي تقوم بها اليوم الآلاتُ الكهربائية، كُنّ فوق ذلك يطرّزن ويَخِطن ويُبدِعن في التطريز والخياطة، ولا تزال زوجتي تصنع ذلك إلى الآن، وعندها قطع كبيرة من القماش قد طرّزتها بيدها فيها صور وفيها أوراد وأزهار تصلح الواحدة منها لتكون لوحة فنية.

* * *

وكان يُعجّبني (بتشديد الجيم) من الشيخ مسعود أنه كان ينام بجبّته لا يخلعها وعمامته على رأسه لا يضعها، ثم يصبح وما فسدت العمامة ولا تأثر الثوب، لأنه كان يضطجع على جنبه الأيمن فلا يتحرك شعرة واحدة حتى يصبح! رأيت ذلك منه مرات لا أُحصيها.

والشيخ مسعود مهذّب اللفظ رفيع الخلق، علمت من بعدُ أنه أديب، وأنه من أوائل الذين انتُخبوا أعضاء في المجمع العلمي العربي (الذي يسمّونه الآن مجمع اللغة العربية)، وأنه يُحسِن التركية والفرنسية، وقد تعلمها على كبر.

كان أولَ من جاء يعزّينا يوم مات أبي، وأذكر أنه سألني عن قريب لنا فقلت إنه شقيق أبي من الرضاعة، فقال لي مبتسماً: لا يُقال شقيقه من الرضاعة ولكن يُقال أخوه. وكانت نصيحة لطيفة أُلقيَت بلهجة ناعمة، ولكنها حزّت في نفسي لأنني كنت -في تلك السنّ- أرى مثل هذه الغلطة تقع مني شيئاً كبيراً.

كان الشيخ مسعود أحدَ الذين جدّدوا في خطب الجمعة. وقد كانت تُلقى من دواوين مطبوعة بعبارات مسجوعة بلهجة منغَّمة تكاد تكون مملّة منوّمة، فكان الشيخ مسعود من أوائل من خطب بالأسلوب الذي نسمعه اليوم. كان سنة ١٣٢٦هـ (قبل مولدي بسنة) نقيب الأشراف في حلب، ونقابة الأشراف في الأصل منصب من مناصب الدولة، وعمل القائم عليه أن يُحصي أبناء علي بن أبي طالب وأن يوزّع أوقافَهم الكثيرة التي وقفها الناس عليهم، فصار على عهد العثمانيين منصب تشريف ليس معه عمل.

انتُخب عضواً في المجمع العلمي سنة ١٣٤٢، وهو أخو الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد»، الذي تَجدّد ذكره وعظم أمره أيام الوحدة مع مصر لأنهم عدّوه من روّاد القومية العربية، على حين أن الذي دعا إليه هو والسيد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وأمثالهم هو يقظة العرب، وجمع شتاتهم وتوحيد صفوفهم، وعودتهم إلى مكانهم الذي كان لهم، ودفع أذى الاتحاديين والملحدين من الترك عنهم، ما دعوا إلى قومية ساطع الحصري وقسطنطين زريق وسامي شوكت.

وكان الشيخ مسعود أحدَ الرجال الذي تركوا في نفسي أثراً عميقاً (ولست بقادر على إحصائهم)، ولم يكن من المشايخ المعتزلين الذين يعيشون وراء حدود المجتمع، يكتفون باختيار كتاب بعد كتاب يُقرئونه تلاميذَهم، يشرحون عبارته ويكشفون غوامضه لا يكادون يزيدون عليه، يهتمّون بالكتب أكثر من

اهتمامهم بالعلم، يحسبون أن هذا غاية المطلوب منهم في خدمة الإسلام، لا يعرفون من أخبار الدنيا وأوضاع الناس شيئاً. بل كان ممن له مع التضلّع في الفقه وعلوم الدين قدم في الأدب راسخة وقلم في الكتابة بليغ، لا الكتابة الأدبية الخالصة بل الكتابة العلمية، ومَن كانت عنده مجموعة مجلة المجمع العلمي العربي في أجزائها الأولى أو رجع إليها في المكتبات العامة رأى له مقالات كثيرة في نقد الكتب التي كانت تُنشر على أيامه وفي تصحيحها.

ولمّا ظهرت حقيقة أعضاء حزب الاتحاد والترقّي في محاربة العربية توصُّلاً إلى محاربة الإسلام وفي كيدهم له في الخفاء، واستمرارهم على ذلك حتى ظهر مصطفى كمال فألقى القناع الأبيض المزوَّر فظهر من ورائه الوجه الأسود القبيح، لمّا بدأت تظهر نوايا الاتحاديين أُلِّفت أحزاب وتجمّعت جماعات لمقاومة دعوتهم إلى تتريك العناصر العثمانية، فكان منها «الجمعية المحمدية» ومنها «حزب الحرّية والائتلاف» الذي كان الشيخ مسعود من أكبر العاملين له والساعين لإنشائه.

تَنبّه العرب لمكايد الاتحاديين، ولكنهم على عادتهم يخالفون دائماً أمر ربهم فيعمدون إلى التفرّق والانفراد بدل التجمّع والاتحاد، فيعمل كلٌّ وحده وفق اجتهاده ولا يعملون معاً، لذلك لم تفلح واحدة من هذه الجماعات وهذه الأحزاب وبقي حزب الاتحاد والترقّي هو الحاكم، حتى أدخلَنا بسوء رأيه وفساد طويّته في الحرب العالمية الأولى، وجعلنا في الجانب الخاسر، فكان السبب في انهيار هذا الصرح العظيم الذي ظلّ

يقارع الأحداث ويثبت على الزلازل والهزّات خمسة قرون: صرح الدولة العثمانية، على ما كان منها.

* * *

لبثتُ أزور المحكمة بعد موت أبي بطلب من الرئيس مصباح بك رحمه الله، يحدّد لي الوقت الذي لا تكون فيه جلسات مذاكرة بين الأعضاء، فإذا جئت وجدت عنده الشيخ مسعوداً وبعض أعضاء المحكمة، فأسمع من الأحاديث وأتلقّى من النصائح، وأعرف من الرجال ما يكون لي كنزاً آخذ منه فلا يفنى.

وممن عرفته في تلك الأيام من أعضاء المحكمة (أي من مستشاريها) الشيخ علي عيّاد، وهو عالِم مغربي، وكنا نسمّي «مغربياً» كلَّ من جاءنا من شمالي القارة الإفريقية مما يجاوز مصر، فالطرابلسي (أي الليبي) مغربي والتونسي مغربي والجزائري والمراكشي كلهم كانوا عندنا مغاربة، لا يكاد معظمنا يفرق بينهم، بل لم يكن في ذهني -على ما درسته من الجغرافية- تصوّر واضح لمواقع هذه الأقطار! والشيخ علي هو والد الدكتور كامل عيّاد.

ومنهم يوسف بك الحكيم، وكان كما أذكر الرئيس الثاني لمحكمة التمييز، أي محكمة النقض. وقد عاش عمراً طويلاً، وكنت أزوره في داره في ساحة النجمة في دمشق، وكان يذكر أبي ويثني عليه، وقد ولي وزارة العدل.

ومنهم الأستاذ الشيخ سليمان الجوخدار، وقد سبق لي عنه في هذه الذكريات كلام طويل، وقد ولي الوزارة أيضاً وكان من أقوى الوزراء.

ومنهم رجل نسيت اسمه كبير السنّ، أذكر هيئته كأني أراه الآن أمامي لا أعرف ما دينه، ولكنه لم يكن مسلماً. رسخ في ذاكرتي قوله الذي لم يكن يفتأ يقوله لأبي، وهو أن الشكّ يكاد يقتله وأنه يريد أن يعتقد عقيدة يطمئنّ إليها، حقاً كانت أم كانت باطلاً، ليخلص بها من هذا الشك الذي يمزقه ويكاد يسحقه، فمَن استطاع أن يوصله إليها أعطاه نصف مرتّبه طول حياته! فكان الأستاذ الكواكبي وأبي وغيرهما يكلمانه ويطيلان الكلام فلا يصنعون معه شيئاً، لأن ما استقرّ في نفسه من الشُّبَه يدفعه لأن ينقض هذه الأدلّة العقلية التي يأتونه بها بشبهات جدَلية، فكان ذلك مما جعلني (وأنا الصغير) أحمد الله على أن لي عقيدة أعتقدها أسكن إليها وأطمئن بها، فما في الدنيا أقتل للعقل وأذهب للسعادة من أمثال هذه الشكوك.

وكان في ديوان المحكمة الذي كان أبي رئيسَه جماعة من المساعدين (أي من الكُتّاب)، صاروا كلهم فيما بعد من أكابر القضاة ثم مضوا كلهم حيث يمضي كل حي. منهم الأستاذ محمد علي الطيبي، وكان مساعد أبي وقد ولي رياسة الديوان بعده، ثم صار الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في دمشق، وهي مرتبة قضائية عالية. وكان هادئ الطبع ساكن الجوارح، ما رأيته يوماً يغضب ولا يسخط، وله فضل عليّ لست أدري أذَكرتُه في حلقة ماضية أم لم أذكره، فأنا أكتب الحلقة ولا أعرف ما الذي قبلها ويختلط عليّ ما هو مستقرّ في ذاكرتي بما هو مُودَع في مقالاتي.

ذلك أنه كان السبب في ردّي إلى الدراسة بعد أن تركتها وحاولت ما لم أُخلَق له من الاشتغال بالتجارة، فرجعت إلى

شعبة الأدب في الصفّ العاشر من مكتب عنبر وأكملت مسيرتي في طريق الدراسة، والفضل لله أولاً وأخيراً ثم لهذا الأستاذ رحمه الله[1].

وأسرة الطيّبي في دمشق كأسرة الكواكبي في حلب، من الأسر العلمية. وكان أبوه عالِماً عُرف بأنه مرجع في الفرائض والمواريث. ومن عجائب أمر الأب أنه تزوج بعدما جاوز الثمانين من عمره ووُلد له ولد كان بينه وبين أخيه الأستاذ محمد علي أكثر من ثمانين سنة! وممن أعرفه تزوّج على كبر وأنجب الشيخ علي ظبيان، وهو والد الأستاذ نديم الذي ذكرته عند الحديث عن بروكسل والأستاذ الصحافي الأديب تيسير رحمه الله الذي تكلمت عنه من قبل.

وممن كان كاتباً في الديوان الأستاذ عارف الحمزاوي الذي صار الأمين العامّ لوزارة العدل، أي وكيل الوزارة. وأسرة الحمزاوي (أو آل حمزة) من أقدم الأسر الشامية، ومنهم المفتي الشيخ محمود حمزة أو الحمزاوي، أشهر المفتين في الشام في القرن الماضي.

---

(١) مرّ خبر هذه الواقعة في الحلقة الثالثة والعشرين، في أواخرها، وفيها: "فرأيت الأستاذ محمد علي الطيبي، فرحّب بي وساءلني، فلما عرف أني تركت المدرسة عجب وقال: ومن الذي أشار عليك بهذا؟ قلت: عمّي الشيخ عبد الوهاب. فقال: الله يفرّج عنا وعنه! لقد نبّهَتني هذه الكلمة كما يتنبّه المنحرف عن الطريق إذا سمع من يسأله عن مسيره وعلمت أني غلطت، فهل يمكن أن أصلح الغلط؟" إلى آخر القصة (مجاهد).

ومـمن كان كاتباً في الديوان الأستاذ صبحي القوّتلي الذي صار الرئيس الأول لمحكمة النقض، محكمة التمييز، ولست أؤكّد ذلك وأشكّ: هل كان مع أبي في ديوان المحكمة على عهد الدولة العربية في أعقاب الحرب الأولى أم كان تلميذه في المدرسة التجارية؟ وهو من أنزه القضاة الذين عرفتهم، وله قلم بليغ وله اطّلاع واسع، وكان يُكثِر قراءة القرآن وتدبّره من غير رجوع إلى كتب التفسير، فيصل بذهنه إلى أشياء منها ما هو جديد مقبول ومنها ما هو مردود. ومثله في ذلك أستاذنا في مكتب عنبر الأستاذ حسن يحيى الصبان.

فمما كان يقوله الأستاذ القوتلي أن حديث «لا يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله» مخالف للقرآن لأن الله يقول: ﴿ادخُلُوا الجنّةَ بِما كُنتمْ تعمَلُون﴾، وفي القرآن آيات كثيرة في هذا المعنى. ويقول إن صحيح البخاري فيه أصحّ الأحاديث رواية ولكن الناس بالغوا في تقديره حتى وصلوا إلى تقديسه، مع أن المحدّثين يقرّرون أن الحديث -مهما كانت درجته ومهما كانت منزلة راويه- إذا خالف القرآن ولم يمكن التوفيق بينه وبين الآية نحكم بأن الرسول لم يقُله، لأن الرسول ﷺ لا يقول ما يخالف القرآن مخالفة تامّة. (أقول: وهذه القاعدة مدوَّنة في كتب المصطلح، تجدونها في أصغر كتاب في هذا العلم لأكبر عالِم فيه، هو «شرح نخبة الفِكَر» لابن حجر). وكنا إذا قلنا له إن الباء في الآية بمعنى غير الباء في الحديث أجاب بأن ذلك أيضاً أثر من آثار تقديس صحيح البخاري، فالنحويون اخترعوا هذه الفروق للباء ليثبتوا أنه ليس بين الحديث والآية اختلاف!

ومن كان في الديوان الأستاذ إبراهيم السيوفي، وكان في تلك الأيام أصغر مَن فيه ولكنه أثقلهم حملاً وأكثرهم شغلاً، وقد صار من بعدُ قاضياً. ومنهم الأستاذ نصوح الكيلاني، وكان فوق عمله في المحكمة معدوداً من كبار رجال الفنّ ومن أهل الموسيقى ومن أحسن العازفين على القيثارة (الكمان)!

* * *

أرجع إلى رئيس المحكمة الأستاذ مصباح محرَّم. وأنا لا أزال أذكر لحيته البيضاء وشاربَيه الكبيرَين، وما تفيض هيئته ولهجته وسعة علمه وصدق مقالته من فرض الاحترام على جليسه، فقد كان عالِماً في الحقوق وكان مدرّساً في كلّيتها (وكنا نسمّيها معهد الحقوق) يدرّس مادة «الصكوك القضائية»، وله فيها كتاب وصل إلى أيدينا وقد دخلنا الكلية سنة وفاته (١٣٥٠هجرية) وصل إلينا كتابه ممن كان قبلنا من الطلاب وكنا نراجع فيه.

وكان الأستاذ مصباح محرم متمكناً من العربية صحيح العبارة بعيداً عن اللحن وعن الضعف، وكان له شِعر يرتفع عن نَظْم النظّامين وينزل عن شعر الشعراء المطبوعين، وهو على كل حال مبرّأ من هذا الذي يُنشَر الآن على أنه شعر وما هو بشعر! وعندي لوحة فيها جملة «بسم الله الرحمن الرحيم» كان أهداها إلى أبي مصوَّرة عن قطعة كتبها السلطان محمود بخطّ الثلُث، بلغ فيها الغاية في جمال الخطّ وحسن الترتيب.

وكان مصباح بك متديناً يراقب الله ويمشي على شرعه. وولده أستاذنا الدكتور محمد محرم كان رئيس قسم الأمراض الجلدية في

كلية الطب بدمشق، وكان أول من أخصى[1] (أي تخصّص) في الأمراض الجلدية في الشام، وكان أديباً وعالِماً بالعربية، جاءنا مدرّساً في مكتب عنبر سنة ١٣٤٥هـ، ومنه سمعت أول مرة كلمة «حَنْجَرة» بفتح الحاء، وكان أساتذتنا يضمّونها.

وقد قرأت من نحو شهرين في هذه الجريدة واحدة من مقالات متسلسلة عن القناة الهضمية لطبيب اسمه الدكتور شماعة (أو شيء يشبه هذا الاسم) فيها أن الحَنجرة أول أعضاء الجهاز الهضمي وأن الطعام يمرّ منها، وضحكت وأنا أقرؤها حتى دخلَت ذرة من الطعام في حنجرتي بدلاً من أن تدخل في البلعوم فكدت أختنق! فكيف يدخل الطعام إليها ويمرّ منها؟ هل هذا جهل في الطب أم باللغة؟ وكلاهما قبيح من طبيب.

وعرَتني مرة حكّة قوية تأتي مفاجأة في موقع يجب ستره فكنت أُضطرّ أن أقف إلى جانب الطريق لأحكّ الموضع، فذهبت إليه (أي الدكتور محمد محرم) وأنا خائف من هذا الذي عراني لا أدري ما هو، ففحصني وطمأنني وقال لي: إنك لا تحتاج إلاّ لبعض المهدّئات الخفيفة وليس بك شيء. وكتب لي اسم الدواء. ولقيته بعد ذلك بمدّة فسألني فخبّرته أن ما أشكو منه قد زال، ثم ضحكت وقلت: يا سيدي، إنني لم أشترِ الدواء ولم أستعمله،

---

(١) ومنها قولهم الدكتور فلان الإخْصائي (بكسر الهمزة وتسكين الخاء).
ويقول أخي ورفيق عمري سعيد الأفغاني إنها «أخَصَّ» لا أخصى والذي نقوله تحريف.

ولكن ما قلتَه لي كان سبباً كافياً لأن يشفيني الله[1].

ولا يُنكِر أحدٌ أثرَ الإيحاء النفسي في بعض الأمراض، لا سيما الجلدية منها. وقد قدّمت القول بأن الثآليل (ونسمّيها في الشام «التواليل»، وهي التي تظهر في الجلد فلا تؤلم ولا تنزف ولكنها تشوّهه) يحتالون عليها بحيل نفسية فيشفي الله منها. من ذلك أنهم يضعون حبّة عدس أو شعير فوقها ويقرؤون شيئاً ويُلقون هذه الحبة في بئر ويُفهِمون المريض أنها إذا تحلّلت وفنيت في الماء برئ مما يقاسيه، وأشياء من هذا القبيل لا أثر لها في الحقيقة في المرض ولكنها فيما يبدو نوع من الإيحاء.

* * *

كان الأستاذ مصباح بك رحمه الله أيام العثمانيين مفتّشاً على القضاة، فأخبرني حَمي (على وزن أبي، أي والد زوجتي) الأستاذ صلاح الدين الخطيب رحمه الله ورحم كل من ذكرت، الذي كان يومئذ عضواً (أي مستشاراً) في محكمة النقض، خبّرني أن مصباح بك جاء يافا مرة يفتّش محكمتها وكان قاضيها الشيخ أبو النصر الخطيب (وهو عم مصباح وعم أمي)، فلما انتهى من تفتيش المحكمة أخذه القاضي معه إلى الدار، فرآهما رجل من أهل البلد فمشى معهما، والقاضي يظن أنه صديق المفتّش لذلك لم يسأله، والمفتش يحسب أنه صاحب القاضي لذلك لم يكلمه. حتى إذا وصلوا الدار ودخلوها وهمّوا بالقعود إلى مائدة الطعام

---

(١) انظر الحلقة ١١٩ من هذه الذكريات (دفاع عن الأطباء)، وفيها هذه القصة وتعليقات عليها وعلى أمثال لها (مجاهد).

تبيّن أن لهذا الرجل قضية، أي دعوى في المحكمة. عند ذلك استأذن القاضي أن يفارق الدار لضرورة عاجلة لا بد منها، وخرج والمفتّش والرجل يتعجبان، وغاب ساعة حتى جاء برجل آخر وقال للأول: هذا خصمك، فما عندك من أقوال فقله أمامه ليردّه عليك.

وكان الشيخ أبو النصر معروفاً بالنزاهة في القضاء، وكانت له نوادر كثيرة ربما تكلمت عنها إن وفّق الله في يوم من الأيام.



المحتويات

من آثار المؤلف

١ - أبو بكر الصديق	١٩٣٥
٢ - قصص من التاريخ	١٩٥٧
٣ - رجال من التاريخ	١٩٥٨
٤ - صور وخواطر	١٩٥٨
٥ - قصص من الحياة	١٩٥٩
٦ - في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
٧ - دمشق	١٩٥٩
٨ - أخبار عمر	١٩٥٩
٩ - مقالات في كلمات	١٩٥٩
١٠- من نفحات الحرم	١٩٦٠
١١- سلسلة حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
١٢- هتاف المجد	١٩٦٠
١٣- من حديث النفس	١٩٦٠
١٤- الجامع الأموي	١٩٦٠
١٥- في أندونيسيا	١٩٦٠
١٦- فصول إسلامية	١٩٦٠
١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠
١٨- فِكَر ومباحث	١٩٦٠

١٩- مع الناس	١٩٦٠
٢٠- بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
٢١- سلسلة أعلام التاريخ (١- ٥)	١٩٦٠
٢٢- تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
٢٣- فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
٢٤- ذكريات علي الطنطاوي (١- ٨)	١٩٨٥- ١٩٨٩
٢٥- مقالات في كلمات (الجزء الثاني)	٢٠٠٠
٢٦- فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
٢٧- فصول اجتماعية	٢٠٠٢
٢٨- سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢
٢٩- نور وهداية	٢٠٠٦

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com